المآسي التاريخية الكبرى

تأليف

حسن الشريف

الكتاب: المآسي التاريخية الكبرى

الكاتب: حسن الشريف

الطبعة: ٢٠٢٠

صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٣٦

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

APA

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

الشريف ، حسن

المآسي التاريخية الكبرى / حسن الشريف

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٤٤٨ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٩ – ٦ – ٤٦ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٦٨٨٥ / ٢٠١٩

المآسي التاريخية الكبرى



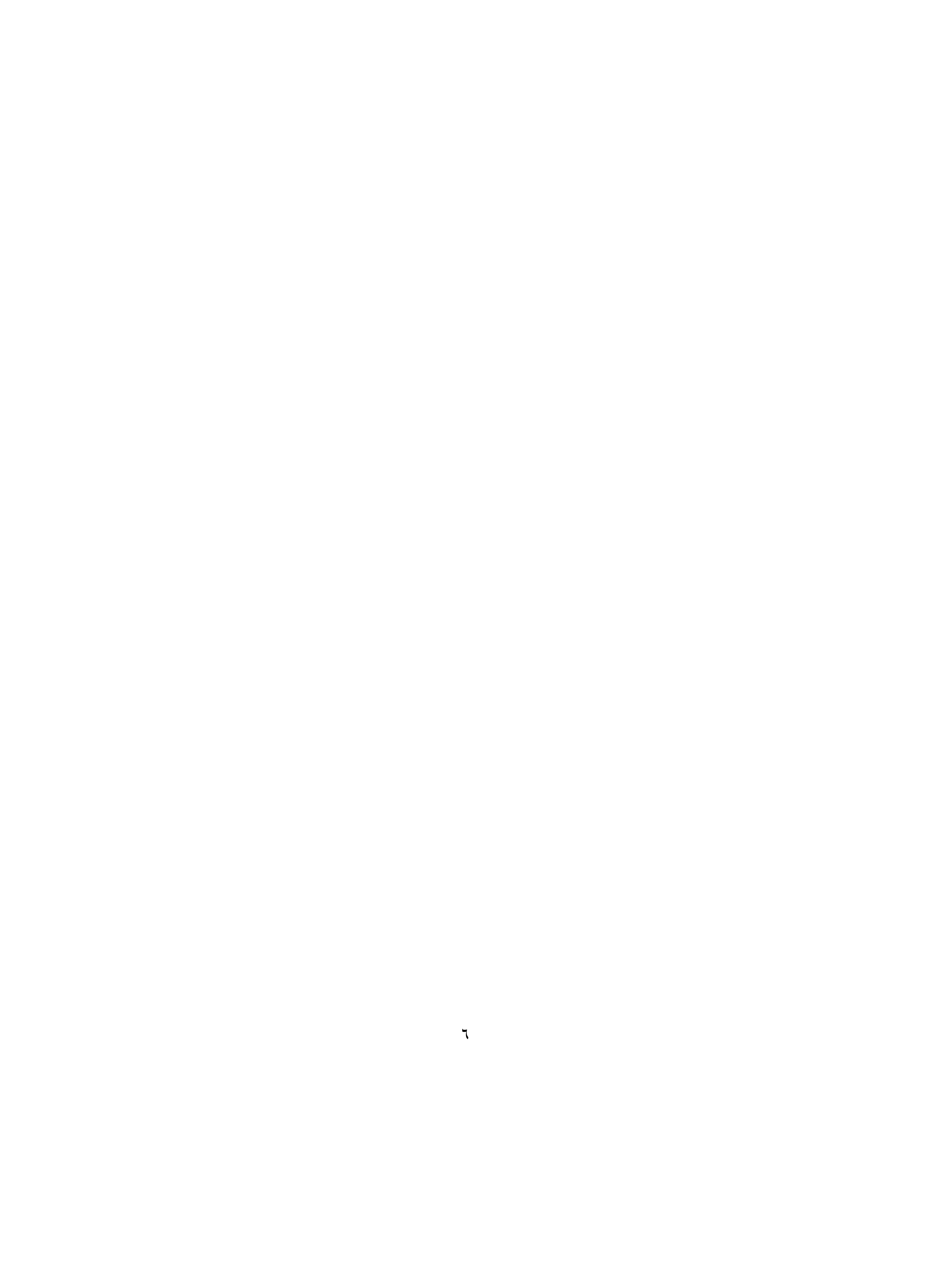


بيان

هذه مذكرات في بعض الأحداث التاريخية الكبرى التي عني ثقات المؤرخين بتدوينها في مطولات ضخمة لا يتيسر لكل قارئ أن يقتنيها أو يتوفر على مطالعتها أو يوفق بين الروايات المتضاربة فيها، قد استخلصتها من تلك المطولات وكتبتها متفرقة غير مرتبطة، فلم أتوخ في انتقاء موضوعاتها عصرًا معينًا ولا مكانًا واحدًا، وراعيت في كتابتها نوعًا من التلخيص لا يخل بصدق الرواية وارتباط الوقائع ولا يفوت على القارئ شيئًا من جوهر الموضوع .

ولقد رأى بعض الذين أعهد فيهم صحة الحكم وحسن التقدير أن هذه المذكرات، رغم إيجازها وتفرق موضوعاتها، تصلح لأن تجمع في كتاب فجمعتها. وهأنذا أقدم إلى القراء هذا الكتاب راجيًا أن يجدوا فيه تسلية مفيدة تغني بعضهم عن قراءة مطولات لا تفيد غير المتخصصين والراغبين في التبحر والاستقصاء، وتغني الآخرين عن التلهي بمطالعة الروايات الخيالية أو المصنفات التي يسميها أصحابها قصصًا تاريخية، وهي ليست من التاريخ في شيء.

ح.أ.



صراع بين شعب وملكه

لم تبتل أمة بصراع طويل متواصل عنيف بين ملكها ونوابها كذلك الصراع الذي ابتلت به الأمة الإنجليزية طوال حكم الملك شارل الأول، فمذ اقتعد هذا الملك العرش دبت النفرة بينه وبين نواب شعبه واستحكم الخلاف بين العرش والبرلمان، فبدأت مظاهر الضغط والإعنات تتجلى من ناحية، ومظاهر المقاومة والتحدي من الناحية الأخرى. حتى عم الخطب واستفحل الأمر، فذهب البرلمان يستعدي الأمة على ملكه، وذهب الملك يستعدي حلفاءه وجيرانه على أمته، حتى نصبت الحرب الأهلية في البلاد وكتب الله النصر للشعب فدفع الملك رأيه ثمنًا لما أثمت يداه

ورث شارل الاستبداد وحب الحكم المطلق عن أبيه جيمس الأول، فكان لا يرى في ممثلي الأمة إلا ثرثارين متفيهقين ليس من شأنهم إلا تعطيل الاعمال وخلق العوائق والصعوبات. ولقد اتسعت مسافة الخلاف بينه وبينهم إثر مطالبته إياهم بالموافقة على اعتمادات مالية كان يريدها فلما رفضوا الموافقة عليها قابل هذا الرفض بحل مجلس العموم

بيد أن المجلس الذي انتخب بعده لم يكن ألين عريكة ولا أطوع خلقًا، فسار سيرة سلفه واصطدم هو الآخر برغبات العرش، فقصد إليه الملك الشاب ذات يوم وألقى على النواب خطابًا بين لهم فيه ما يفهمه من معنى سلطة الأمة وحقوق البرلمان فقال: "ولقد أساتم فهم مهمتكم حين

حاولتم أن تمنحوا أنفسكم حقوقًا ليست لكم ولا يعقل أن تنالوها يومًا من الأيام. إن مجلسكم هذا إشعاع من النور الذي أنا مبعثه، وسلطتكم تلك استمداد من السلطة التي أنا مصدرها، فمن التجني محاولة تأليب الفرع على الأصل أو التفريق بين الشئ وظله، ولقد سلكتم معي منذ البداية مسلكًا لا يرضاه ملك يستمد سلطانه من الله لا منكم، فجئت أنذركم بالحسنى قبل أن آخذكم بالعنف، ولأقول لكم إن هذا البرلمان والبرلمانات التي قد تعقبه هي من صنع يدي، ففي يدي بقاؤها وفي يدي حلها وهي تعيش أو تزول وفقًا لما يبدو لي من نتائج عملها"

وحل شارل البرلمان مرة ثانية، ولما لم يعجبه المجلس الذي أسفرت عنه الانتخابات الجديدة حله هو الآخر وزج بعض زعمائه في السجون ونكل بالبعض الآخر شر تنكيل، وظل يحكم البلاد حكمًا استبداديًا طوال إحدى عشرة سنة، أطلق لنفسه خلالها العنان وأرهق الشعب بالضرائب والقوانين القاسية، وأنشب يد وزرائه وعماله في خزائن الأغنياء وجيوب الناس تستخرج ما فيها لتسد مطالب الملك وتكفل نفقات العرش، وسن من التشريع ما يبيح مصادرة الأملاك واعتقال الأفراد بغير حساب. ورفع سيف الإرهاب فوق الرءوس ومد الطغيان إلى كل مكان، فانتشرت الفوضى في دوائر الحكم وذهبت الطمأنينة من النفوس ودرست معالم الحرية وغاض معين الأمن واستهدف الشعب لشتى صنوف الاستبداد

ثم نشبت الحرب بين أسكتلاندة وشارل الأول إذ حاول أن يتدخل في شؤونها الدينية، ويبسط عليها نفوذ الكنيسة الرومانية، فانهزمت

جيوشه بعد أن فرغت خزائنه من المال ونفدت وسائله في فرض الضرائب المرهقة واغتصاب الأموال والأملاك من الأفراد. وأشار عليه وزيره آخر الأمر أن يدعو البرلمان الى الانعقاد ليلقي عليه تبعة فرض الضرائب المبتغاة بالطرق المشروعة، ولكن المجلس الجديد ما كاد ينعقد حتى أثار البحث في تحديد سلطة العرش ووجوب إحاطة البرلمان بالضمانات التي تكفل هيمنته على الشؤون العامة، فاستشاط الملك غيظًا وأصدر الأمر بحله فحل البرلمان للمرة الرابعة

وفي أوائل نوفمبر من سنة ١٦٤٠ اشتدت بشارل الأول الضائقة المالية، وأحاطت به الكوارث السياسية، وناء كاهله تحت العبء الذي كان يحمله، فدعا البرلمان لخامس مرة إلى الانعقاد لعل في دعوته ما يخفف من سخط الأمة عليه، ونزل لممثلي الأمة عن بعض حقوقه ووافق على إلغاء القوانين المرهقة والأنظمة الاستثنائية وإطلاق سراح الزعماء المسجونين وعزل الوزراء المبغوضين، ووقع بيده أمر محاكمة الوزير سترافورد الذي كان الشعب يعتبره مصدر ويلاته ومصائبه، ثم صدق على الحكم بإعدامه، وهكذا هدأت الحال بعض الهدوء واستبشر الناس بعهد جديد قوامه الحرية في حدود النظام ولبث الحال على هذا المنوال حتى كان عام ١٦٤٢

ففي تلك السنة عاودت شارل الأول شهوة الاستبداد فأخذ يخلف وعوده، ويحنث بعهوده، ويقيم العراقيل في طريق برلمانه، حتى اضطر هذا البرلمان إلى توجيه تقرير إليه يؤاخذه فيه على سقطاته ويذكره بمواثيقه ويطلب منه أن يلتزم الحدود التي رسمها لنفسه منذ عامين

ورأى الملك في هذا التقرير إهانة لشخصه وعدوانًا على سلطانه وخروجًا من مجلس العموم على الآداب الواجبة نحو العرش والتاج، فأراد أن يؤدب هذا المجلس تأديبًا عمليًا وأن يلقي عليه درسًا ينفعه في الحال والاستقبال، فاستصحب شرذمة من أعضاء مجلس اللوردة وفرقة من الحرس، واقتحم قاعة اجتماع مجلس العموم وأمر رجاله بالقبض على خمسة من زعماء المعارضة عينهم بأسمائهم. ولكن النواب الخمسة كانوا على علم بما بيته الملك لهم فلم يحضروا تلك الجلسة، وغادر شارل قاعة المجلس يحمل خيبته على كتفه ويحمل فوقها وزر تلك المظاهرة التي أثارت غضب الشعب عليه

علمت الأمة ما يدبره الملك لممثليها وهالها أن تصبح حرية النواب وحياتهم خاضعة شهوات العرش ونزوات الجالس عليه، فقابلت مظاهرة الملك بهياج شديد اضطرب له حبل الأمن واختل النظام، فسارت الجماهير طيلة اليوم في مواكب زاخرة تهتف باسم النواب الخمسة وبحياة البرلمان، واحتلت الجموع المسلحة الطرقات العامة وقد حملت في قبعاتها شريطًا ملونًا جعلوه شعارًا لأنصار مجلس العموم، وتحركت تلك المجاميع البشرية المروعة نحو القصر تهتف بسقوط الاستبداد وتعلن أن الكلمة للأمة التي هي مصدر السلطات

وإذا كان شارل الأول قد أمعن في سياسة العسف والتنكيل ونصب نفسه ملكًا يحكم بأمره لا معقب عليه، فقد كان على قصر من النظر وسوء في التدبير جعلاه ينسى أن الاستبداد لا ينهض إلا على القوة

وأن لا قوة له يتقي بها غضب الشعب إذا هاج، لذلك لم يكد يسمع الزئير يتصاعد إليه من كل صوب حتى أدرك أن لا جيش عنده يحميه، ففر من القصر تحت جنح الظلام قاصدًا إلى بلدة يورك حيث أحاط نفسه برهط من أنصاره سماهم "فرسان الملك" وجعلهم على رأس جيش من الخدم وغلمان القصور وتوابع الأشراف والنبلاء وسيرهم لقتال الفرق المتطوعة والجيش النظامي المؤيد للبرلمان

نشبت الحرب الأهلية واستمرت سجالا طوال سبع سنوات نبتت خلالها في بعض الأذهان فكرة الجمهورية والحكم الجمهوري، تولى قيادة الثورة الزعيم الهائل أوليفر كرومويل، فأباد جيوش الملك في سلسلة معارك متتابعة حتى اضطره إلى الارتماء في أحضان أسكتلاندة عدوة الأمس، ففاوضها على شروط تظاهرت بقبولها ثم ما لبثت أن خانته بل باعته إلى مندوبي البرلمان الإنجليزي الذين ذهبوا ليتسلموه منها وعادوا به أسيرًا إلى عاصمة ملكه

وإلى هنا لم يكن الشعب الإنجليزي يريد الشر بملكه أو يفكر في الاقتصاص منه على ما أسلف من الجرائم، وانما كانت قصوى أمانيه أن يتفق العرش والبرلمان اتفاقًا عادلا صريحًا يحدد سلطة كل جهة من الجهتين ويكفل أن لا يقع النواع بينهما في المستقبل لأي سبب من الأسباب. ولو أن الملك شارل الأول كان رجلا موفقًا أو بعيد النظر لاستفاد من حسن استعداد شعبه نحوه في ذلك الوقت ولبنى حكمه على قواعد ترضي الأمة وتهدئ من ثورتها عليه. ولو كان مجرد سياسي ذكي يفهم خفايا المواقف

ويدرك حقائق الأحوال لاستغل حالة التذمر التي خلقتها في لندن تلك الغطرسة التي تبدت في سلوك البرلمانيين المنتصرين، وذلك الطغيان الذي تجلى في أخلاق العسكريين الظافرين، وتلك المطامع المستترة التي بدأت تطل برأسها من ثنايا أحاديث كرومويل وتصرفاته، ولاستخدم تلك الحالة ليعود إلى عرشه محترم الجناب موفور الكرامة، أو لتدارك على الأقل الشر قبل أن يستعصي على العلاج. ولكنه كان رجلا ضيق الفكر محدود أفق النظر، شديد الاعتزاز بنفسه كثير الاغترار بقدرته، ساذجًا صديقًا إلى أقصى حدود السذاجة والتصديق. فما أن شرع البرلمان يفاوضه في شروط عودته إلى العرش حتى استأنف المماطلة والمطاولة والروغان والتسويف، فكان يمني أمته بمختلف الأماني ويعد البرلمان شتى الوعود ويقرب إليه بعض الزعماء ويغريهم بالمناصب والألقاب ويكتب في الوقت نفسه إلى الملكة زوجته: "إني وعدت كلا من أولئك الحمقى بنيشان يزين صدره ولو عقلوا لأدركوا أني أعد لكل منهم حبلا من المسد لشنقه"

وفي تلك الأثناء كان شأن كرومويل يعظم وخطره يستفحل فيستغل العواصف الدينية ويعمد إلى الكلمات المعسولة لينمي في أذهان الناس فكرة الحكم الجمهوري، ولينتزع من رءوسهم وقلوبهم تلك البقية الباقية من احترام الملكية وتقديسها، ففي صباح ذات يوم تداولت أيدي الجنود والجماهير نشرات مجهولة المصدر تحض على استئصال شأفة الملوكية وتبين مزايا الحكم الجمهوري وما تستتبعه من عدالة ومساواة ويسر ورخاء. وكان كرومويل هو كاتب تلك المنشورات وناشرها برغم محاولته التبرؤ منها،

وتظاهره بالنقمة عليها، وقد أراد أن يعجم عود الرأي العام ويسبر مبلغ استعداده لتقبل المبادئ الجديدة وإقباله عليها

ولقد هال الملك أمر تلك النشرات فطار لبه وطاش صوابه وبدلا من أن يغادر مقدره بقصر هامبتون كورت ويعود إلى عاصمته باذلا أي ثمن ليقضي على المؤامرة في مهدها، فر من هذا القصر ناجيًا بشخصه، وأغلب الظن أن كرومويل نفسه هو الذي سهل له طريق الفرار حتى يبتعد عن العاصمة وضواحيها في الوقت الذي ازداد فيه تذمر الشعب من عسف رجال العسكرية ورجال الدين حتى صارت الجماهير تنادي بعودة الملك مؤثرة سياسيته الطائشة على ذلك العسف البغيض

واجتمع حول الملك بضع مئات من النبلاء واللوردة والفرسان ونصحوا له أن يسير في مقدمتهم الى لندن ليتبوأ عرشه منتفعًا من الظروف القائمة التي قد لا تتهيأ مرة أخرى، ولكن تردد الملك وسوء تقديره للموقف وقصوره عن تصيد الفرصة وهي سانحة، كل ذلك جعله يعرض عن نصائح أصحابه ويفرض عليهم أن يصحبوه إلى جزيرة وايت ظانا أن ابتعاده عن العاصمة قد يقيه الأخطار. ولكن الشعب حسب أن الملك إنما يفر ليدبر حربًا أهلية جديدة، فثارت ثائرته واستعرت نيران غضبه، فما وصل الملك إلى جزيرة وايت حتى ألقى نفسه سجينًا في قبضة حاكمها، وبذلك ضاعت عليه آخر فرصة للخلاص.

بيد أن البرلمان كان قد آنس من كرومويل أنه يعمل باسم المصلحة العامة لحسابه الخاص ويريد أن يزيح الملك من طريقه ليقتعد عرشه، فأوفد مجلس العموم إلى الملك وفدًا من أعضائه يقترحون عليه صلحًا مؤداه أن يعاونه الجيش البرلماني في العودة إلى العرش مقابل أن يعترف بحق البرلمان بحق الهيمنة على شؤون الجيش والأسطول وفرض الضرائب وحرية التدين. والحق أن البرلمان كان معتدلا جد الاعتدال في مطالبه، ولكن شارل المنحوس الطالع لم يشأ أن يقبل هذا الاقتراح قبولا صريحًا فأخذ يعد ويسوف، لا مؤملا في شئ ولا معتمدًا على أحد، بل منتظرًا أن يأتيه الغوث من السماء أو مداعبًا أملا كاذبًا كان يصور له أن الأيرلنديين سيهبون لإنقاذه أو أن ملك فرنسا لويس الثالث عشر سيسير الجيوش لنصرته

وبينما كانت المفاوضات دائرة وقد وعد الملك بقبول بعض المطالب وبالنظر في البعض الآخر، استوقف حراس الأمن رسولا من شارل إلى زوجته ووجدوا في حشو سرجه كتابًا بخطه يقول فيه: "لا يزعجك يا صديقتي أن تريني أسلم في كثير الأشياء وأبذل كثيرًا من الوعود، فاني من الآن أعتبر ذلك التسليم باطلا وهذه الوعود عبثًا لا يترتب عليه شيء، ولكني أحاول أن أنقذ الموقف باستغلال غفلة أولئك الحمقى الذين لا يدركون أن الملك فوق كل قيد فلا يرتبط بوعد ولا ميثاق"

وسيق الرسول إلى البرلمان وتلى الكتاب على الأعضاء فكان له أسوأ الوقع على النفوس إذ قضي على بقية من حسن الظن كانت لدى

بعضهم، كما قضي على أمل في إمكان حل أزمة العرش حلا شريفًا يكفل مصلحة الملك ومصلحة البلاد

ولقد توالت النذر على الملك تنذره بأن الجيش سيقبض عليه ليسجنه، ولكنه لم يشأ أن يصدق وبقي في طمأنينته الحمقاء يمني نفسه بالأوهام الباطلة ويعللها بالآمال الكاذبة إلى أن صحا ذات يوم من نومه على قرع بالباب فقال: "من القارع؟" فأجابته أصوات من الردهة: "نحن ضباط من الجيش نريد أن نكلم الملك"، وما أن أمر بفتح الباب حتى اقتحمه بضعة ضباط لم يؤدوا له التحية بل أمروا كبيرهم الكولونيل كوبت قائلا: "البس ثيابك واتبعنا فنحن مكلفون باقتيادك"

– مكلفون من قبل من؟

– من قبل الجيش

– وإلى أين تقتادونني؟

– إلى قصر هيرست

– وهل يسمح لي أن أستصحب بعض الخدم ؟

– أقل عدد ممكن

وركب الملك مركبه وأحاط به الضباط ممتطين جيادهم تتقدمهم كوكبة من الخيالة وتتبعهم كوكبة مثلها وساروا حتى بلغوا قصر هيرست وهو قلعة كئيبة البناء قائمة على صخرة ناتئة في البحر سوداء جرداء تغم الناظرين

ولبث الملك في سجنه ينتظر أن تتم آية الله فيه بالموت أو بالنجاة، أما كورمويل فأخذ من ناحيته يدبر الخلاص النهائي من الملك والملوكية، وعمد إلى الوسائل الكبرى لبلوغ مأربه حتى أنه لم يتورع عن الإقدام على الحادثة المشهورة في التاريخ باسم "حادثة التطهير"، ذلك أن كرومويل سار في أصبوحة اليوم التالي على رأي فرقة من مشأة الجيش حاصر بها قصر مجلس العموم واستولى على منافذه، ووقف إلى جانبه لورد جراي ليقدم إليه كل واحد من النواب باسمه. فكان كرومويل كلما سمع اسم واحد من المشكوك فيهم أو من المعروفين بولائهم للملك أو بتشيعهم للملكية أمر بالقبض عليه حتى لم يبق من أعضاء المجلس غير ستين عضوًا. وانعقد المجلس بهذا العدد واستصدر الزعيم منه قرارًا بمحاكمة الملك أمام البرلمان بتهمة الخيانة العظمى للوطن، ثم انصرف مغترًا بهذا النصر، وقصد إلى قصر وايت هول مقر الملك الرسمي واتخذه مقامًا له ومنه أصدر الأمر إلى فرقة من الجيش بأن تستحضر الملك من قلعة هيرست ليعتقل بقصر وندسور ريثما يقدم للمحاكمة

بيد أن مجلس اللوردات أبى أن يشاطر مجلس العموم رأيه ورفض الاشتراك في محاكمة الملك معلنًا أن لا برلمان بلا ملك وأن مركز الملك أسمى من أن توجه إليه تهمة الخيانة وأن ذات الملك مصونة لا تمس، فعاد كرومويل إلى مجلس العموم واستصدر منه قرارًا آخر بأن يستغني عن اشتراك اللوردات وبأن ينعقد مجلس العموم بهيئة محكمة عليا لمحاسبة شارل الأول عن جرائمه ضد الوطن، وآنس كرومويل من بعض النواب ترددًا مبعثه الخوف من أن يثور الشعب على فكرة محاكمة ملكه، فأخذ يهدئ

روعهم ويزيل مخاوفهم ثم ارتقى المنبر وصاح: "لا تخشوا من الشعب شيئًا فلن يأتي أحد بحركة ولن ينبس فم بكلمة وسنقطع عنق الملك والتاج فوق رأسه والناس سكوت"

وبينما كانت السحب تتكاثف وتنذر بقرب العاصفة كان شارل الأول ما يزال مسترسلا في تفاؤله وطمأنينته ينتظر الغوث يهبط عليه من حيث لا يحتسب، حتى لقد كان يفضي إلى صديقه لورد هربرت فيقول: "من هنا إلى ستة أشهر يكون الأمن قد عم إنجلترا وشمل أنحاءها. على أنه إذا لم تجر الأمور في المجرى الذي أتوقعه لها فستصلني من أيرلندة وفرنسا معونة أسترد بها حقوقي وأضع حدًا للفوضى الناشبة في المملكة، هذا ولا تزال في يدي ثلاث ورقات ألعب بها وأقلها حظًا تكفيني لأكسب الدور "

وأصبحت لندن ذات يوم والمنادون يملأون الجو بأصواتهم العالية معلنين هذا المنشور: "بناء على ما قرره مجلس العموم من تأليف هيئة من أعضائه بصفة محكمة عليا تتولى التحقيق في قضية شارل ستوارت ملك إنجلترا والحكم فيها، نأمر نحن أعضاء الهيئة المذكورة بأن تلك المحكمة بقصر وستمنستر يوم الأربعاء القادم الموافق للعاشر من شهر يناير عند الساعة الواحدة بعد الظهر، ونأمر المنادين الرسميين بإعلان ذلك طبقًا للتقاليد المألوفة في مثل هذه الأحوال"

وفي العاشر من شهر يناير سنة ١٦٤٨ عقدت المحكمة أولى جلساتها وانتخبت النائب برادشو رئيسًا لها ووقف كرومويل خطيبًا فقال: "لو أن

واحدًا من الناس فكر قبل اليوم في محاكمة الملك أو في إمكان الاقتصاص منه لاعتبرته خائنًا أكبر خائن، لذلك أعتقد – وقد اجتمعنا لمحاكمة شارل ستوارت – أننا مسيرون بمشيئة أعظم من مشيئتنا هي التي تدفعنا إلى تخليص بلادنا من عبث الطغاة والمستبدين. وما دامت المشيئة الربانية وطبيعة الأشياء أبتا ألا تلقيا على كواهلنا هذا العبء القاسي فلم يبق إلا أن نسأل الله أن يسدد خطانا ويهدي تفكيرنا ويمدنا بروح من عنده ترشدنا إلى العدل والصواب"

وأمر الرئيس ففتحت الأبواب وتدفقت الجماهير إلى القاعة حتى امتلأت المقاعد والمقاصير ولم يبق مكان لواقف، ونهض كاتب السر فقرأ نص القرار الصادر بتأليف هيئة المحكمة وثبتا يتضمن أسماء الأعضاء، ثم أمر الرئيس بإحضار الملك المتهم، وسرى في كثير من الأعضاء شعور برهبة الموقف وخاف كرومويل أن تخون الشجاعة بعضهم فصاح: "أيها الزملاء، هذا الملك قادم فاتفقوا الآن على ما تجيبونه به اذا هو سألكم عن الصفة التي تخولكم حق محاكمته. إننا محكمة عليا تستمد كيانها من مجلس العموم الذي يمثل الشعب الإنجليزي بأسره، فالشعب هو الذي يحاكم الملك وهذا هو الجواب الذي يجب أن تجمعوا عليه"

ودخل الملك في محفته بين صفين من الجنود يحيط به اثنان وثلاثون ضابطًا، وكانوا قد أعدوا له كرسيًا من المخمل الأحمر وضعوه أمام منصة الرئيس فتقدم نحوه بخطوات وئيدة وألقى على أعضاء المحكمة نظرة طويلة قاسية وأجال طرفه بين الجماهير برهة وجلس في عظمة ووقار مبقيًا قبعته

فوق رأسه إمعانًا في احتقار الهيئة التي جاءت به. وهنا مال كرومويل على جاره وهمس في أذنه: "عما قريب يتدحرج هذا الرأس من مكانه بالقبعة التي عليه"

قال الرئيس: "يا شارل ستوارت ملك إنجلترا، إن مجلس العموم والشعب الإنجليزي من ورائه يدركان مدى الآلام والمصائب التي نزلت بهذه الأمة وكنت أنت مصدرها والباعث عليها، ولذا فقد قررا أن يحاكماك على ما اجترمته في حقهما من الآثام وألفا هذه المحكمة العليا لذلك الغرض. وستسمع الآن التهم الموجهة إليك "وأشار الرئيس إلى المدعي فنهض ليتلو ورقة الاتهام ولكنه لم يكد يبدأ التلاوة حتى وكزه الملك في ظهره بطرف عصاه وصاح: "اسكت" فالتفت المدعي العام إلى الوراء مبهوتًا من هذه المفاجأة فسقطت العصا من يد الملك ولما لم يبادر أحد إلى مناولته إياها انحنى وتناولها بيده

وطفق المدعي يتلو قرار الاتهام حتى ختمه مطالبًا بمعاقبة الملك على جريمة الخيانة العظمى والاستبداد وسفك الدماء، وكان الملك خلال القراءة يبتسم من وقت لآخر ويهز رأسه استغرابًا واستخفافًا، فلما وصل المدعي إلى كلمات الخيانة العظمى وسفك الدماء ضحك ضحكة ساخرة وصاح: "أهذا كل ما عندك؟"

قال الرئيس: "قد سمعت يا سيدي ورقة اتهامك وتريد المحكمة أن تسمع رأيك فيها" فأجاب الملك بدون أن يكلف نفسه مشقة الوقوف:

"أريد بداءة ذي بدء أن أعرف بأي سلطة جئتم بي إلى هنا. لقد كنت منذ أيام في جزيرة وايت أفاوض مندوبي البرلمان في تسوية تضع حدًا لجميع أنواع الخلاف الناشب بين العرش وممثلي البلاد وإذا بقوة مسلحة تأخذني قسرًا وتجئ بي إلى هنا لغرض لا أعرفه. إنني لا أعترف للقوة بأي سلطة شرعية وإلا لوجب أن أعترف بسلطة اللصوص وقطاع الطريق فهم أيضًا يحكمون وينفذون متى ما قصرت عنهم سيطرة القانون، فقولوا لي قبل كل شئ ما اسم السلطة الشرعية التي جمعتكم في هذا المكان ولكم بعد ذلك أن أجيبكم إلى ما تشاءون"

الرئيس: "لو أنك استمعت إلى المنادين وهم يتلون المنشور عند قدومك لعلمت أي السلطات الشرعية تحاكمك اليوم، وما دمت تأبى إلا أن تعرفها مني فاعلم أننا نحاكمك باسم الأمة الإنجليزية التي كنت ملكها"

الملك: "بل التي لا أزال ملكها الذي لا يعترف لكم بالصفة التي تودعون"

الرئيس: "إذا لم تعترف للمحكمة بصفتها القانونية فهي ستحكم عليك ولو لم تسمع أقوالك"

الملك: "يهمني أن تعلموا أن الملك في إنجلترا لا يرتقي العرش بالانتخاب، وإنما يرتقيه من طريق الوراثة فلا سلطة لأحد ولا لهيئة عليه. على أنكم إذا زعمتم أنكم البرلمان فلست أرى بينكم أحدًا من مجلس اللوردات حتى تصح فيكم صفة البرلمان. وبعد فلا بد من ملك حتى يكون

هناك برلمان صحيح فكيف يتفق ذلك وأنتم توقفون هذا الملك متهمًا أمام برلمانه؟"

الرئيس: "يا سيدي إن المحكمة تنتظر منك إجابة معقولة ودفاعًا حكيمًا، فإذا كانت صفتنا لا تقنعك ولا ترضيك فهي تقنعنا وترضينا إذ نحن موقنون أنها قائمة على إرادة الله وإرادة الشعب"

الملك: "هذا دفع أقدمه ولا يكفي رأيكم للفصل فيه إذ لا يعقل أن تكونوا لي قضاء وخصومًا"

الرئيس: "لقد سمعت المحكمة أقوالك وستتداول في أمرك وتصدر حكمًا (ثم التفت إلى الحراس وقال): "خذوا المتهم إلى سجنه وقد تأجلت المحكمة إلى يوم الاثنين"

وعادت المحكمة إلى الانعقاد في اليوم المحدد وبدلا من أن يفتتح الرئيس الجلسة بالعبارة التقليدية "الله يحفظ الملك" قال "الله يحفظ إنجلترا"، وأراد شارل أن يستأنف الكلام في صفة المحكمة فقاطعه برادشو محتدًا وصاح: "لسنا هنا لنجيب على أسئلتك فخير لك أن تدافع عن نفسك وأن تقول لنا أمجرم أنت أم برئ"

الملك: "إنكم لم تسمعوا أدلتي على عدم توافر الصفة التي تخولكم حق محاكمتي"

الرئيس: "لا أسمح لك بالطعن في صفة المحكمة"

الملك: "وأي نوع من أنواع العدالة هذا الذي لا يريد أن يسمع أدلة متهم؟"

الرئيس: "هذا كثير. أكرر لك أننا هنا نمثل الشعب.. أيها الحراس خذوا المتهم"

وأحاط الجند بالملك ليقتادوه فأهاب الجماهير صائحًا: "أذكر أيها الشعب أنهم يحكمون على الملك قبل أن يسمعوا دفاعه فأي عدالة يدعيها بعد اليوم أولئك الناس؟"

فصاحت الجماهير متأثرة: "الله يحفظ الملك"

وعقدت المحكمة جلستها الثالثة يوم السبت ٢٧ يناير ودخل الملك بين هتافات مختلفة بعضها ينادي: "الله يحفظ الملك"، والبعض الآخر ينادي: "نريد العدل والقصاص"، ووجه الملك الكلام إلى الرئيس فقال: "أريد أن أقول كلمة أرجو أن لا يكون بعدها سبيل إلى المشادة بيننا"

الرئيس: "ستتكلم عندما يحين دورك للكلام"

الملك: "إن ما سأقوله يتعلق بالحكم الذي ستصدره المحكمة"

الرئيس: "ستسمع المحكمة كلامك قبل الحكم عليك فاسكت الآن"

ثم خاطب الرئيس الأعضاء قائلا: "أيها السادة. تبينتم أن المتهم الماثل أمامكم قد جئ به ليجيب عن تهمة الخيانة العظمى وجرائم أخرى خطيرة معزوة إليه ارتكابها ضد الأمة الإنجليزية"، وهنا ارتفع صوت سيدة من إحدى الشرفات صائحًا: "إنكم لا تمثلون نصف الأمة الإنجليزية، وما أوليفر كرومويل غير دجال كاذب" فحدث هرج ومرج وتمكن الحراس بعد جهد عنيف من إعادة النظام وأشار الملك بيده إيذانا بأنه سيتكلم وقال: "أريد قبل أن تستأنف المحكمة أعمالها أن أتقدم باقتراح يتعلق بأمن المملكة وسلامتها أكثر مما يتعلق بمصلحتي الشخصية"

وتشاور الأعضاء مليًا وظنوا أول وهلة أن الملك يفكر في النزول عن العرش لابنه الأكبر ورأوا في ذلك خلاصًا من الموقف الرهيب الذي هم فيه، ولكن كرومويل كان هناك متنبهًا لكل شئ فلا تفوته فائتة، وكان يريد هدم الملكية بأسرها فكيف يرضى بهذا الحل الذي يفوت عليه قصده من إقامة الجمهورية؟ لذلك ما كاد يسمع كلمات الملك حتى هرول الى الرئيس برادشو وأسر في أذنه كلمات قام الرئيس على أثرها وقال: "أرجح أن الملك يعمد إلى هذه المحاولة ليخلص من المحاكمة أمام هيئتكم الموقرة فأرجو أن لا تنخدعوا بأقواله وأن لا تجيبوا رجاءه"

وأوعز قائد الحرس إلى رجاله فأشعلوا غلايينهم وصاروا ينفخون الدخان في وجه الملك وهو يدير وجهه من ناحية الى أخرى متململا، وأخذت الملك عزة الملك فانتصب واقفًا وأشار بعصاه إلى رئيس المحكمة وصاح: "أريد أن تسمعوني" وتذكر النواب أن هذا الذي يهيب بهم أن

يسمعوه إنما هو الملك الشرعي للبلاد فطأطأ بعضهم الرءوس رهبة وأخذوا يتشاورون في الأمر. ووقف أحدهم وهو الكولونيل داوس وقال: "أيها الإخوان هل تسمح لنا ضمائرنا أن نفضي على هذا الرجل قبل أن نستمع إليه" فجرى كروموبل إلى ناحيته وقال له ولمن حوله: "حذار أن تضيع نفسك يا كولونيل وتضيع هؤلاء الناس معك. أتظن أنك كنت تقول ما تقول لو أنك مالك صوابك؟" فجابهه داوس محتدًا: "لا أستطيع الصمت في مثل هذا الموقف"، ثم وجه الخطاب إلى الرئيس قائلا: "يا سيدي الرئيس. إن ضميري لم يرتح بعد إلى الحكم على المتهم قبل سماع دافعه فأرجو من هيئة المحكمة أن تنسحب للمداولة"

الرئيس: "ما دام أحد الأعضاء يطلب ذلك فإني أرفع الجلسة"

واخليت المحكمة للمداولة تاركة الملك بين أيدي الحراس، وبينما الأعضاء في طريقهم إلى القاعة المجاورة تناول كروموبل ذراع الكونويل داوس وهزه هزًا عنيفًا وانتهزه قائلا: "ها أنت يا كولونيل تعطل أعمالنا لمثل الصغائر التافهة التي تعمر رأسك وتريد أن تشغل بها بال الناس. ولكن يجب أن تعلم أنك إذ تعطف على هذا الملك إنما تعطف على رجل هو أقسى الناس قلبًا وأخبثهم طبعًا وإنك سوف تحمل هذا الوزر أمام الشعب والبرلمان بعد أن نفرغ من محاكمة ذلك المجرم"

بمثل هذا التهديد وذلك الإرهاب كان كروموبل يسير المحاكمة ويؤثر في نفوس القضاة، فلا عجب إذا عادت المحكمة إلى الانعقاد بعد نصف

ساعة، وأعلن الرئيس قرارها برفض سماع كلام الملك، ولقد أطرق شارل مليًا عند سماع هذا القرار المدهش ثم رفع رأسه وقال: "مادامت عدالتكم تجري على هذا النحو فليس لدي ما أقوله سوى أن أطلب تسجيل ذلك في مضبطة المحكمة"

ووقف الرئيس برادشو للنطق بالحكم وظل الملك جالسًا وقبعته على رأسه يستمع إلى الحيثيات الطويلة المملة التي انتهت إلى القرار الآتي نصه:

"لهذه الأسباب تقرر المحكمة أن الملك شارل ستوارت قد خادع البرلمان وخدعه إذ أقسم، وهو ينتوي الحنث بقسمه، أن لا يحكم البلاد إلا وفقًا لقوانين الدولة

"وأنه تحقيقًا لسياسيته السرية التي لا تتفق ومصلحة الأمة قد استعدى الجيوش الأجنبية على جيش بلاده وأشعل في أرض الوطن نار الحرب الأهلية

"وأنه جرى على سياسة توطيد سلطة البابوية الرومانية في المملكة الإنجليزية متحديًا ديانة الأمة البروتستانتية والكنيسة المقدسة الإنجليكية

"وأنه اشترك بماله ونفوذه في تدبير قتل البروتستانتيين في أيرلندة وفي إراقة الدماء التي أريقت في إنجلترا منذ سنين بسبب الحروب الأهلية التي أثارها

"وبما أن المحكمة ترى أن الأدلة كلها قد توافرت لإثبات خيانته لوطنه وعدائه لشعبه واستبداده بأمته، فقد حكمت بإعدام شارل ستوارت وبفصل رأسه عن جسده علنًا"

ثم وقف كاتب سر المحكمة وقال: "إن هذا الحكم قد صدر بإجماع الأصوات فهل من يقرر غير ذلك؟" فوقف الأعضاء جميعًا موافقين

وأشار الملك بيده إلى الرئيس وقال:

– أريد أن أتكلم

– لقد صدر الحكم فليس لك أن تقول شيئًا

– ألم تعدني بالاستماع إلى أقوالي قبل الحكم؟

– أرجو ألا تلح فقد قضي الأمر

– هذا عدوان من المحكمة على أبسط قوانين العدل. واذا لم تسمعوني فسأسمع الأمة صوتي"

والتفت الى ناحية الجمهور وصاح: "أيها الشعب.."، ولكن صوته ضاع بين الضوضاء وصياح الرئيس: "أيها الحراس خذوا المتهم الى السجن" ولقد أحاطوا به واقتادوه بعنف بينما كان بعض النظارة يبكون إشفاقًا ورحمة، والبعض الآخر يقفون مشدوهين من هول المنظر، وتقدم أحد

الحراس حتى اقترب من الملك وبصق في وجهه فمسح الملك وجهه وهو يتمتم قائلا: "يال الله!" وإذ هم شارل بركوب محفته رفع حمالوها قبعاتهم احترامًا فانهال عليهم قائد الحرس ضربًا وهو يقول: "أتحيون المجرم عدو الوطن؟" وكانت الأصوات تتصاعد من جانبي الطريق هاتفة: "الله يحفظ الملك" فيحاول الجنود تغطية هذا الهتاف فيهتفون بتحريض من ضباطهم: "إلى الإعدام.. إلى الإعدام" واستأنفت المحكمة انعقادها بعد خروج الملك وأصدرت القرار الآتي إلى رجال الضبط القضائي: "بما أن شارل ستوارت ملك إنجلترا قد ثبتت عليه تهمة خيانة الوطن وجرائم أخرى وقد حكم عليه بالإعدام وأصبح هذا الحكم واجب التنفيذ، وبما أنكم أنتم المكلفون بتنفيذه فقد استقر رأينا على أن تتولوا إعدام المتهم السالف الذكر علنًا أمام سراي وايت هول غدًا الموافق لليوم الثلاثين من شهر يناير بين الساعة العاشرة صباحًا والساعة الخامسة بعد الظهر. ونأمر كل الضباط والجنود والسلطات والأهالي أن يعاونوكم في التفيذ إذا اقتضت الحال تلك المعاونة"

ثم آن الوقت ليذيل أعضاء المحكمة الحكم بامضاءاتهم فكانوا يهربون ويروغون حتى لقد أجهد الرئيس وكروมويل نفسيهما أيما إجهاد ليجمعا العدد القانوني من تلك الإمضاءات، وكان كرومويل شديد الاغتباط بادي السرور للنتيجة التي وصل إليها، ولكنه كان مهتاج النفس غيظًا من بعض النواب الذين خافوا عاقبة توقيع الحكم فوقعوا مترددين حائرين، حتى أنه بعد أن وقع باسمه غمس القلم في المحبرة ولوث به وجه نائب متردد كان واقفًا بجانبه.. وأعيد الملك إلى قصر وندسور يرافقه الأسقف جكسون وإذ وصل إلى غرفة نومه لقي بها حارسين يدخنان،

فأمرهما بالانصراف فسخرا منه قائلين أنهما لن يفارقاه حتى يريا رأسه يهوي من فوق كتفيه، وبعد أن صدر الحكم وأيقن شارل الأول من نهايته، سكنت ثورته وهدأت نفسه واستكان لقضاء الله وأخذ يتهيأ لاستقبال الهول الأكبر، وبدا عليه نوع من سمو النفس لم يعرفه فيه ذووه من قبل. وكان يعتذر عن مقابلة المقربين إليه ويقول: "إن الوقت الباقي لي في الدنيا لا يتسع للأحاديث فليتركه لي أصدقائي حتى أستعد للموت" وإذ رأى الأسقف جكسن يبكي ربت على كتفه برفق وقال: "ليس الوقت وقت بكاء يا أبتاه فلنفكر فيما نحن فيه وتعال هيئني للمثول أمام الله فإني أريد أن أقضي هذه اللحظات هادئًا قويًا فكن بجانبي وشجعني إلى النهاية. أما أعدائي فلست أشرفهم بالحقد عليهم وليسامحهم الله إذا شاء أما أنا فقد سامحتهم"

وخلع خاتمًا من الزمرد كان في إصبعه وأمر أحد خلصائه أن يذهب به إلى امرأة تدعى مسز ويلر وهي غسالة القصر فلما تسلمته أخرجت من مخبأ في بيتها صندوقًا صغيرًا مختومًا بثلاثة أختام وأعطته للرسول. وفتحه الملك فإذا فيه عدة نياشين من الذهب المرصع بالجواهر الثمينة وقال: "هذه كل الثروة التي أستطيع أن أخلفها الآن لأولادي"

وقبيل العصر طلب أن يرى أولاده فجئ إليه بابنته الأميرة إليزابيث وعمرها اثنتا عشر وبابنه دوق جلوستر الذي لم يكن قد بلغ الثامنة بعد. وكانت الطفلة تبكي وأخوها ينظر إليها وإلى أبيه ويبكي لبكائها. وقبلهما الملك وأجلسهما على ركبتيه ووزع عليهما جواهره وقال:

"كنت أحب أن يكون أخواكما جيمس وشارل معكما الآن، على أني أوصيكم أن تتحابوا جميعًا وأن تصفحوا عن أعدائكم على شرط أن لا تثقوا بهم ولا تركنوا إليهم "ثم التفت إلى ابنته وقال: "أكدي لأمك أني أحببتها الحب كله وأني أحبها الآن أكثر من ذي قبل"، وحول نظره إلى ناحية ابنه وقال: "إنهم يا ولدي المحبوب سيقطعون رأس أبيك ولعلهم يفكرون في أن يجعلوك ملكًا تخلفني بعد أن يتخلصوا من أخويك شارل وجيمس. ولكن إياك أن تقبل فإنهم لن يرحموك ولن يبقوا عليك" فأجاب الطفل والدمع يبس الكلام في فمه: "لن أقبل يا أبتاه ولو قطعوني إربًا" فعانقه أبوه عناقًا طويلا وباركه وبارك طفلته إليزابيث وقال للأسقف: "أبعدهما يا سيدي وأسأل الله أن يجعلهما في رعايته عسى أن يكونا أسعد حظًا مني.. الوداع يا ولدي العزيزين".. وأدار شارل وجهه حتى لا يراهما ينصرفان وأسند جبينه الملتهب إلى زجاج النافذة وأرسل الدموع تنهمر من عينيه، ولم تطاوعه نفسه فهرول وراء ولديه وأدركهما لدى الباب وضمهما إلى صدره وعانقهما مرة أخرى ثم انتزع نفسه من أحضانهما وأسرع إلى غرفته وجثا يصلي صلاة حارة طويلة

وفي الأمسية علم الملك أن الغد تحدد موعدًا لإعدامه فلم تبد على محياه أمارات الفزع بل ظل مالكًا عواطفه وأعصابه، هادئ النفس رابط الجنان، وأمضى السهرة في الحديث مع الأسقف وفي الصلاة. ثم استغرق في النوم إلى الساعة الرابعة من الصباح واستيقظ نشطًا وأيقظ أمينه هيربرت ليعاونه على ارتداء ملابسه، وكان هيربرت مضطربًا مشتت الذهن محزون الفؤاد فلم يوفق التصفيف شعر الملك كما يريد فالتفت إليه

وقال: "أرجو أن تعني برأي فهو لن يظل في موضعه طويلا وأريد أن تجعلني اليوم أنيقًا كما لو شابًا يزف إلى عروسه. اجعل عليَّ ثلاثة أقمصة فوق بعضها فالبرد شديد في هذا الفصل وأخشى أن تنتابني فشعريرة فيظن الناس أنها رعشة الخوف من الموت"

وحوالي الساعة السابعة من الصباح أقبل الأسقف جكسن فعانقه الملك وسأله أن يقرأ عليه ما تيسر من الإنجيل ثم شرع يوزع بعض الهدايا والتذكارات على خدامه وأمنائه ورجال حاشيته، فلما كانت الساعة العاشرة سمع دقات على الباب فأمر بفتحه ودخل الكولونيل هيكر قائد الحرس وقال: "أرجو يا مولاي أن تتأهب للذهاب إلى وايتهول ولا يزال أمام جلالتك ساعة من الزمان تستريح فيها"

وتناول الملك قلنسوة من حرير أسود وسلمها للأسقف وطلب منه أن يحفظها معه حتى يعطيه إياها ليلبسها فوق النطع ولبث يوصي وصاياه الأخيرة ويسر إلى بعض المحيطين به أقوالا لم يتبينها سواهم، ثم جعل يروح ويجيء في الحجرة إلى أن انقضت الساعة ودق الكولونيل هيكر الباب فجثا الأسقف وجثا خلفه الحاضرون فناولهم الملك يده فلثموها ثم أنهضهم من جثوهم وعانقهم واتجه نحو الباب وقال لقائد الحرس: "هيا يا سيدي فإني أتبعك"، وسار الملك يتقدم الجميع بين صفين من الجنود وحملة المزاريق والبلط وإلى يمينه الأسقف جكسن وإلى يساره القائد هيكر، وكانت الطبول تدق دقًا عاليًا متواصلا لتغطي الهتاف المتصاعد من الطرقات ونوافذ البيوت. واقترب منه أحد كبار الضباط وقال له متشفيًا:

"إن الموت الذي تسير إليه لهو جزاؤك العادل لقتلك أباك بالاتفاق مع دوق بوكنجهام" فالتفت إليه الملك وابتسم ابتسامة حزينة وقال: "والله يا صاحبي لو أن هذا الذي تزعمه هو كل ذنوبي لما احتجت أن أسال الله الغفران"

وبلغ الموكب قصر وايتهول وصعد الملك السلم في رزانة ووقار واجتاز الردهة الطويلة وذهب إلى غرفة نومه واختلى فيها بالأسقف جكسن. وكانوا قد جهزوا له طعامًا فلم يرد أن يمد اليه يده ولكن القس قال له ناصحًا: "كل شيئًا يا مولاي فقد يؤثر الجوع عليك فتأتي بحركة يفسرها الناس بأنها علامة ضعف وخور" فتناول الملك قطعة من الخبز وشرب معها كأسًا من النبيذ ثم جثا يصلي صلاة لم يخرجه منها إلا صوت الكولونيل هيكر وهو يقول: "هلم يا مولاي" فنهض متثاقلا وقال: "هيا بنا"

وكانوا قد فتحوا في حائط إحدى الغرف المطلة على الميدان فتحة كأنها باب ونصبوا النطع بمحاذاتها وعلى مستواها بحيث ينفذ المرء منها فيستوي عليه مباشرة. أما النطع فكان منصة عالية غطيت أرضها بالمخمل الأسود ونصبت الحواجز في جوانبها ووضع في وسطها وضم يجثو المحطوم عليه أمامه ويضع عنقه عليه، وقد بسطوا فوقه بلطة هائلة غطوها بحرير أسود رقيق ووقف حولها رجلان ملثمان، واقتحم الملك شارل الفتحة ونفذ منها الى النطع ووقف برهة يجيل الطرف يمنة ويسرة، كأنه يبحث عن جمهور النظارة ليخطبه ولكن الساحة كانت ملأى بالجنود، والطبول تدق

دقًا عاليًا لا سبيل لصوت آخر إلى أن يرتفع بجانبه. فالتفت الملك ألى الأسقف جكسن والضابط المكلف بالأشراف على التنفيذ وقال: "إن ذوات الملوك يجب أن تبقى مصونة لا تمس فإذا اجترأ على قدسها شخص أو هيئة كان ذلك نذير كوراث سوف تحيق بالشعب الذي يرضى أو يسكت على ذلك الاجتراء. وما كان لي وأنا ملك تسلمت تاجي من يد القدرة الإلهية أن أبذل الأمانة التي وضعها الله في عنقي لأفراد أو لهيئات تدعي التكلم باسم الشعب"، وهنا مس الجلاد البلطة بيده فانتهزه الملك صائحًا: "دع هذه فإن تحريكها يؤذيني" وتناول القلنسوة السوداء من يد الأسقف وجعلها فوق رأسه بعد أن جمع شعره المرسل على كتفه وأدخله تحتها وقال: "إني أمثل أمام الله بضمير مرتاح وسيرة لا غبار عليها"، فأجابه الأسقف: "إن هي يا مولاي إلا خطوة واحدة تخطوها فتنتقل من عالم المتاعب والشقاء إلى دار الخلد والنعيم؛ فتشجع وتغلب على أهوال هذه الخطوة فإن بعدها الراحة الحقة والكرامة الدائمة" فهز شارل رأسه وقال: "نعم إني أخلع عن رأسي تاجًا شائكًا هو تاج الملك لألبس تاجًا خيرًا منه وهو تاج الاستشهاد، وليذكر الملوك أن أخًا لهم قد هلك لأنه أراد أن يستمسك بحقوق الملك"

خلع عباءته ومعطفه وسلمهما إلى الأسقف وقال وهو يحدق إلى عينيه: "تذكر" وهي كلمة لا يدري أحد حتى اليوم ماذا أراد بها، ثم التفت إلى الجلاد وقال له: "عندما أجثو أمام هذا الوضم سأصلي صلاة قصيرة ثم أمد ذراعيّ إلى الأمام فإذا مددتها فاضرب وإياك أن تضرب قبل ذلك". ووقف هنيهة يجيل النظر فيما حوله ثم جثا ووضع عنقه على الوضم،

وعندئذ مد الجلاد يده وتناول البلطة ومد يده الأخرى ليزيح شعر الملك عن قفاه فصاح: "انتظر الإشارة يا هذا" فتراجع الجلاد وقال: "سأنتظر يا مولاي ما شئت أن أنتظر"، وبعد برهة مد الملك ذراعيه إلى الأمام، فرفع الجلاد البلطة وأدارها في الهواء ثلاثًا ثم أهوى بها ففصل الرأس عن الجسد. وتقدم مساعد الجلاد وتناول الرأس يقطر دمًا وصاح: "هذا رأس ملك خان وطنه" ووضعت الجثة في نعش أبقوه معروضًا أمام الجماهير ستة أيام، ثم دفنوه في مقابر قصر وندسور وقد نقشوا على أحد جوانبه: "الملك شارل، سنة ١٦٤٨"

المركيزة ده برانفيلييه

أكبر مجرمة في التاريخ

في اليوم الثلاثين من شهر يوليو سنة ١٦٧٢ توفي الشفاليه ده سانت كرواه بمنزله بباريس، وقال الناس في تعليل موته الفجائي أن القناع الواقي سقط عن وجهه وهو يشتغل بمعمله الكيميائي فتطايرت بعض السموم الى أنفه وفمه فمات، ولم ير أحد في هذه الميتة أي غرابة لأن الرجل كان معروفًا باشتغاله "بالكيمياء" أي بعلم تحويل المعادن المبتذلة إلى معادن كريمة من ذهب وفضة وهو العلم الذي كان لا يزال شائعًا في تلك الأزمان

وإذا كان نبأ موت الشفالييه الكيميائي لم يحرك في قلب أحد من عارفيه أي عاطفة من عواطف الحزن والأسى، فقد كان له على المركيزة ده برانفيلييه وقع أطار لبها وكاد يذهب بصوابها. ولا يتوهمن أحد أن المركيزة الجميلة قد جزعت لأنها فوجئت بفقد صديق قديم أو عاشق محبوب، فلقد كان لها قلب لا يجزع لمثل تلك الصغائر، وانما جزعت لأن الموت باغت صاحبها أسرع مما كانت تتوقع، ولأنها لم تكن قد استطاعت بعد أن تستخلص صندوقًا صغيرًا كان وجوده بين يديه سر عذابها ومبعث قلقها منذ سنوات، وسبب هلعها واضطرابها منذ علمت نبأ الوفاة، لذلك لم يكد هذا النبأ يبلغ أذنيها حتى انتفضت وقال: "والصندوق؟"

ليت شعري ما الذي كان يحويه ذلك الصندوق الذي أثار اهتمام المركيزة إلى هذا الحد؟.. أهي رسائل غرام تخشى من وراء ظهورها افتضاح علاقتها القديمة بالشفالييه؟ لا! فإن هذه العلاقة التي يرجع تاريخها إلى أبعد من عشر سنوات كانت أشهر من أن تفضحها رسائل ومكاتبات، إذ لم تكن سرًا مكتومًا عن الزوج أو غير الزوج، ولأن المركيزة وزوجها لم يقصرا في الإعلان عنها بكل وسائل الإعلان.

إذن ما الذي كان يحويه الصندوق؟ هذا هو السر الرهيب الذي لا يعلمه غير شخص واحد اسمه "بريانكور" كان فيما مضى مربيًا لأولاد المركيزة ثم تطورت علاقتها به حتى انتظم سلك عشاقها الكثيرين، وأصبح موضع ثقتها ومستودع أسرارها والأمين الذي تركن إليه إذا ألمت بها الملمات، لذلك بادرت فأرسلت إليه كتابًا تتوسل فيه أن يسرع إليها أو يطير إذا وجد إلى الطيران سبيلا، ليفكرا معًا في طريقة يستخلصان بها الصندوق أو يستلبانه من بيت الشفالييه

ولكن الفقيد كان مغرقًا في الديون، فما اتصل نبأ وفاته بدائنيه حتى هرعوا إلى السلطة المختصة التي استجابت سؤلهم ووضعت الأختام على خزائن الرجل ومنافذ بيته ريثما تأتي السلطات الأخرى فتحصر التركة حفظًا لحقوق الدائنين. وهكذا اضطرت المركيزة أن تصبر ثمانية أيام طوال أمضتها وهي تسائل القدر ما الذي ستطلع عليه به شمس الغد القريب

وفي الثامن من شهر أغسطس جاء المسيو بيكار مندوب السلطة يصحبه ضابط من ضباط الأمن ومسجلان من مسجلي العقود ووكيل يمثل أرملة المتوفي ووكلاء يمثلون مصالح الدائنين، وفض الأختام عن الخزائن والأبواب، وعلى مرأى من هؤلاء جميعًا أجريت عملية حصر التركة كما تجري عادة في مثل تلك الأحوال. وظل الزائرون ينتقلون من حجرة إلى حجرة ويدونون في ثبت كل ما يجدونه حتى وصلوا إلى غرفة المعمل الكيميائي. وهناك ألفوا إلى جانب الأنابيب والآنية والأنابيق، ورقة كبيرة لفت لفًا أسطوانيًا داخل غلاف وقد كتب عليها الشفالييه بخطه كلمة: "اعترافاتي"

تناول المسيو بيكار الورقة واستشار الحاضرين في أمرها فأجمعوا على وجوب إحراقها احترامًا لسر الموتى، وألقو بها إلى النار فالتهمتها ولم يقرأها أحد. ولو أن المركيزة دي برانفيلييه كانت هناك وقتئذ وشاهدت اعترافات عاشقها تتلوى في اللهب لسرى عنها ولتنفست الصعداء، بل لاطمأنت إلى أن دليلا مهمًا من أدلة إجرامها قد تحول إلى رماد ودخان، ولكن إذا كان هذا الدليل المهم قد تبدد فقد بقيت أدلة أخرى لا تقل عنه أهمية وهذه الأدلة لا تزال كامنة داخل الصندوق

أما الصندوق فكان صغير الحجم أحمر اللون مستطيل الشكل يحمل مفتاحه معلقًا إلى جانبه في خيط. ولما فتحه المسيو بيكار ألفى فيه زجاجات صغيرة تحتوي على سوائل مختلفة الألوان، ووجد إلى جانب هذه الزجاجات رسائل بخط المركيزة إلى المتوفى، وصكين تعترف في أحدهما بأنها

استدانت منه خمسة وعشرين ألف ليرة وفي الثاني ثلاثين ألفا، وصكًا ثالثًا موضوعه عشرة آلاف ليرة استدانتها المركيزة وزوجها من شخص اسمه بينوتييه بوساطة سانت كرواه. هذا وقد شبكت بتلك الصكوك ورقة صغيرة كتب عليها الشفالييه بخطه: أنه يتوسل إلى من يضع يده على هذا الصندوق ألا يحاول تعرف ما فيه وأن يسلمه الى المركيزة ده برانفيلييه لأن كل ما فيه لا يهم أحد سواها

ظل المسيو بيكار يقلب الصندوق في يديه ويقرأ الورقة الصغيرة ثم يعيد قراءتها ويقلب الزجاجات واحدة بعد أخرى. وكأنما أوحي اليه أسلوب الورقة أن في الأمر سرًا، فختم الصندوق وعهد به إلى ضابط الأمن ليحفظه حتى تتبين حقيقة ما تحتويه الزجاجات من السوائل المختلفة الألوان

علمت المركيزة بما كان، فاعترتها قشعريرة الخوف ورعدة الفزع، ولكنها تمالكت نفسها واستجمعت شجاعتها وذهب إلى ضابط الأمن في ساعة متأخرة من السهرة، وقالت له في كثير من التعالي وعدم الاكتراث: أنها عجبت إذ سمعت أن المسيو بيكار قد حمل معه صندوقًا خلفه المرحوم سانت كروواه وأوصى به لها، ورجت منه أن يحترم وصية الميت وأن يسلمها الصندوق. فلما أبى الضابط إجابتها الى ما تريد، جعلت تعالج نزاهته بشتى الوسائل فعرضت عليه رشوة خمسين ألف ليرة وليلة في سريرها يحظى فيها بجمالها. ولكن الرجل لم يزد حيال هذا الإغراء إلا تأبيًا، ونصح لها آخر الأمر أن تذهب إلى المسيو بيكار لأنه صاحب الرأي الأعلى في الموضوع

وقصدت المركيزة قبيل منتصف الليل إلى بيت مندوب السلطة طالبة أن تتحدث إليه، ولكنه أرجأ إجابة طلبها إلى اليوم التالي. وفي صبيحة ذلك اليوم التالي استقبل المسيو بيكار من "بريانكور" والمحامي "ديلامار" مندوبين من قبل المركيزة لإقناعه بوجوب تسليم الصندوق إليها تنفيذًا لوصية الموصي. وكأن هذين المسعيين أثارا في نفس الرجل شيئًا من الشبهات فأصر على الاحتفاظ بالصندوق حتى يتبين المحققون ما فيه

وأدركت المركيزة أن لا أمل في ثني المسيو بيكار عما اعتزم، وأيقنت أن لا خلاص لها إلا بالفرار، فأخذت تتأهب للرحيل في سرعة طائشة لفتت اليها الأنظار وأحاطتها بالريب والشكوك، فلقد كانت في عجلتها واضطرابها تقذف بأمتعتها إلى الشارع من نوافذ البيت وتحزم ثيابها وتكدسها في الحقائب والعيب بغير نظام وكيفما اتفق. ومنذ وافت الساعة العاشرة من المساء حتى كانت في طريقها إلى لوندرة هاربة من وجه العدالة وطائلة القانون

مضى شهر أو بعض الشهر على هذه الحوادث ثم تسلم النائب العام الصندوق الأحمر وعهد بزجاجات السوائل إلى الخبراء ففحصوها وقرروا أنها تحتوي على سموم. وجربوا هذه السموم في حيوانات وطيور فكانت لا تلبث بعد استقرارها في معدتها دقائق حتى تموت. ولكن الأمر الذي أثار عجب الخبراء ودهشة الأطباء أنهم كانوا إذا سقوا طيرًا أو حيوانًا كمية من هذا السم وشرحوا جثته بعد موته، لا يجدون أي أثر من آثار السم ولا أيه علامة من علامات التسمم، حتى أنهم لما رفعوا تقريرهم إلى

النائب العام، ذكروا أن من المحال أن يهتدي الباحثون إلى سر تركيب هذا السم العجيب، وأن هذا التركيب يتحدى كل تحليل وكل بحث وكل خبرة علمية لأنهم إذا استعانوا على فحصه بالماء طفا إلى سطحه، وإذا استعانوا بالنار تحول إلى مادة حلوة غير ذات خطر، وإذا سقوا يه حيوانًا اختفى في الأمعاء والدم حتى لا يظهر منه أثر

وذاعت قصة الصندوق الأحمر وملأت الأسماع، حتى لم يكن للباريسيين حديث إلا حكاية السم الذي وجد في صندوق سانت كرواه. وعاد الناس بالذاكرة إلى الميتات العجيبة التي ماتها بعض أشخاص خلال السنوات الأخيرة ولم تعلم أسبابها. وانطلقت الألسنة تردد أسماء سانت كرواه والمركيزة ده برانفيلييه وبريانكور كأنهم أبطال مأساة واحدة أو شركاء في سلسلة من الجرائم المروعة. وفكر النائب العام في إلقاء القبض على المركيزة وشريكها، ولكن حيثيتها الاجتماعية من ناحية، وعدم تقدم أحد بالشكوى من ناحية أخرى، جعلاه يتردد في ذلك أو يرجئه حتى يستجمع من الأدلة – اذا كان ثمة أدلة – ما يسمح له برفع الدعوى على أساس صحيح

* * *

المركيزة ده برانفيلييه سليلة بيت من البيوت العريقة في الحسب، ماتت أمها عقب مولدها وحالت مشاغل أبيها دون أن يعتني بتربيتها، فشبت كما شاءت نزعاتها الفاسدة أن تشب، وكانت طفولتها تكذيبًا

عمليًا صارخًا لدعوى الفيلسوف روسو أن الإنسان يولد خيرًا بفطرته، وأن الوسط الاجتماعي يفسده، فلقد عرفت وهي طفلة لم تتجاوز السابعة من سنيها، ما لا تعرفه النساء إلا بعد الزواج، وذكرت في اعترافاتها أن أولى علاقاتها الجنسية كانت مع أخويها، وهكذا ظلت تنتهي من مغامرة لتبتدئ مغامرة حتى بلغت العشرين، فوقع المركيز ده برانفيلييه في شرك جمالها أو في شرك مالها رغم ما يعرفه ويعرفه سائر الناس من ماضيها المنكر وحاضرها الأثيم

وكأنما تم بين الزوجين التراضي على أن يغض كل منهما الطرف عن سلوك الآخر، وعلى أن لا يتدخل في شؤون حياته الخاصة لا بالتصريح ولا بالتلميح، فذهب المركيز يمرح في حياة اللهو والترف، وجعلت المركيزة تنتقل من عاشق يوم إلى رفيق ليلة، وتحيا تحت ستار التسامح الزوجي المتبادل حياة الفحش والتبذل، حتى وقعت على الفالييه سانت كرواه فألفت فيه الشاب القادر على إشباع مطالب الروح والجسد، وولعت به وهام بها حتى ضج الوسط الباريسي من فضائحها، فرفع أبوها الأمر إلى الملك لويس الرابع عشر واستصدر منه أمرًا بالقبض على الشفالييه وسجنه في الباستيل

وبعد شهرين خرج سانت كرواه من السجن متعطشًا إلى غرامه، وسرعان ما وصل الذي كان قد انقطع، وعاد العاشقان سيرتهما الأولى يتحديان الحياء البشري ويهزآن بكل ما تواضع الناس على أنه فضيلة أو شرف أو عفاف، ولكن والد المركيزة وهو رجل له من المكانة الاجتماعية

وشرف النفس ما لا يجعله يرضى أن تحيا ابنته بين سمعه وبصره هذه الحياة الدنسة، كان يتهدد العاشق المحبوب بسجن جديد أو بما هو شر من السجن، لذلك فكرت المركيزة في التخلص من أبيها ليخلو لها وجه حبيبها، ووافقها الحبيب على ما رأت ليخلو له وجه التركة الواسعة التي سيخلفها ذلك الوالد الثقيل. وتشاورا في الأمر فلم يريا خيرًا من السم وسيلة. وهداها الشفالييه – وهو الكيميائي الذي حذق فن تأليف السموم – إلى التركيب الذي وجد في الزجاجات الصغيرة والذي حار في وصفه الأطباء والخبيرون، وعلمها طريقة استخدامه وسبل الوقاية من شره وأخطاره وما زال بها حتى حذقت الفن وبدت أستاذة فيه

بيد أن المركيزة، التي لم تكن بعد قد اطمأنت إلى مفعول ذلك السم ولا إلى نتائجه، أشفقت على أبيها أن يكون موضوع تجربة قد تخطئ، وأبت أن تتخذ من الحيوان المسكين والطير البرئ وسائل للاختبار، لأنه لا بد أن يكون ثمة فرق بين تأثير السموم في جسم الطير وجسم الإنسان، لذلك تطوعت ممرضة في بعض المستشفيات، وهناك كانت تحنو على المرضى وتعطف على آلامهم وتسهر الليل إلى جانبهم وتواسيهم بحلو الكلام، ثم تسقيهم السم في أقداح الدواء. وهكذا استطاعت المركيزة النبيلة أن تتعلم في أولئك التعساء حساب كميات السم وما يجب أن يتخلل تعاطيها من الفترات. ولما وثقت من أن تركيب صديقها سانت كرواه لا يخطئ ولا يرحم، غادرت مهنة التمريض ولحقت بأبيها في مدينة كومبيان فألفته مريضًا يستشفى وألفت الفرصة سانحة، فصارت تقضي الليالي بجانب سريره وتعالجه وتسقيه بيدها الدواء داعية له – والدموع

تخنقها – بعاجل الإبلال وسريع الشفاء. وأمضت إلى جانبه وهي تمرضه – كما اعترفت أمام القضاء فيما بعد – ثمانية وعشرين يومًا تجرعه كل يوم جرعة من السم البطئ

وقضى الأب نحبه وحامت حول موته شبهات واستدعى الأطباء لتشريح الجثة ولكنهم قرروا أن الموت طبيعي لا أثر للإجرام فيه، وهكذا تخلص الحبيبان من الرقيب الغني، وآل إلى المركيزة نصيب من تركة أبيها ورتعت مع عاشقها في بحبوحة من الحرية والهناء ناسيين أن الله يمهل ولا يهمل وأنه شديد الانتقام

وكان للمركيزة شقيقان، أحدهما مستشار في القضاء والثاني نائب عام، وقد ورثا عن أبيهما القصر الذي يعيشان فيه كما ورثا الجزء الأكبر من تركته، فكانت المركيزة قد أعملت في نصيبها من الثروة يد الإسراف حتى باتت من الإفلاس أدنى من قابي القوس، وكان لا بد لها من مورد جديد ترضي به نهم صاحبها، فرأت أنها أولى بمال أبيها من أخويها وأن هذا المال لا ينتقل اليها إلا بموتهما فعقدت النية على قتلهما

واستقر رأي الصاحبين على أن يجعلا خدمة الأخوين رجلا اسمه لاشوسيه كانا يثقان به وقد اشترياه بالمال وأغرياه بأطيب الوعود، وعهدا إليه مهمة تسميم المستشار والنائب العام

انتقل الخادم "لاشوسيه" إلى قصر الشقيقين وصار يتفانى في خدمتهما حتى حاز رضاءهما ثم بدأ يدس لهما السم في المأكل والمشرب

على مرات متقطعة متقاربة، وأخذت صحة الأخوين تعتل وبنيتهما تنهك حتى مات الأكبر في شهر يونيو سنة ١٦٧٠ وظل الأصغر يقاوم السم بمتانة تركيب بنيته والخادم لاشوسيه يضاعف له الكمية المقررة كل يوم ويكتب إلى المركيزة : "إن هذا الحيوان متعلق بالحياة كأنه لا يريد أن يموت" واخيرًا تلاشت في الشاب قوة المقاومة ولحق بأخيه. وقد أبى أو أبت سخرية الأقدار إلا أن يوصي بجزء من ماله لهذا الخادم الأمين جزاء ولائه وأمانته!.

ولكن ربك بالمرصاد! ففي انتظار أن تجري عدالة الإنسان في مجراها أخذت عدالة الله تعمل للاقتصاص من المجرمين المتحابين، فان الخادم لاشوسيه جعل يتجر بسرهما ويفاجئهما كل يوم بطلب مبلغ كبير من المال مهددًا بإبلاغ الأمر إلى القضاء، وزادات مطامعه فتطلع إلى جمال المركيزة وأبى إلا أن يكون له حظ ونصيب من هذا الجمال. وكأنما ملّ الشفالييه سانت مرواه تلك العشرة الطويلة والعيشة المتشابهة فولى وجهه شطر مال عشيقته حتى أودى به أو كاد. وبدأت المركيزة تشعر ببوادر الفاقة والأملاق والخطر الذي يتهدد حياتها من ناحية الرجلين، فثقلت عليها وطأة العيش وباتت حياتها عذابًا أليمًا وجحيمًا لا يطاق

ونفذ المال ولم تنفد مطامع الشفالييه فاستكتبها صكين بخمسة وخمسين ألف ليرة، وهما الصكين اللذان وجدهما مندوب السلطة في صندوق السموم، وكانت المركيزة تعلم أن شريكها محتفظ بتلك الصكوك داخل الصندوق، فألحت عليه وألحفت ليسلمها إياه، ثم هددته بالقتل أو

بالانتحار، ولكن ذهب كل هذا العناء هباء، وأبى الشفاليبه إلا أن يحتفظ بصندوقه المترع بالأسرار

ولقد شرعت المركيزة يومًا في تسميم صاحبها فوضعت له من سمومه في الطعام، ولكن صاحبها – وهو كيميائي ماهر – كان يعرف نياتها فيأخذ حذره منها بتناول أنواع شتى من الترياق

فلما يئست من قتله شرعت توهمه أنها أزمعت الانتحار فتناولت أمامه كمية من السم بادرت بعد تناولها إلى استيعاب كميات وافرة من اللبن لوقف مفعول السائل القاتل. وهكذا قضي على هذين الرفيقين اللذين تربط كلا منهما بالآخر رغم أنفه رابطة الجريمة، أن يعيشا عيشة الخوف والحذر وأن يقيما في هذا الجحيم الذي كانت تخفيه عن أعين الناس مظاهر الحب والترف

وكأن المركيزة اطمأنت إلى أن يد العدالة أقصر من أن تمتد إليها، فجعلت تباهي بجرائمها وتبوح بسرها لمن تثق بهم من المقربين إليها، حتى أنها قالت يومًا لخادمتها وهي تشير إلى صندوق السموم: "إن في هذا الصندوق ما يمكنني من الانتقام من كل أعدائي.. آه لو كنت تعلمين كم في هذا الصندوق من تركات!..؟" ولقد ظلت صورة هذا الصندوق عالقة بذاكرة الخادمة حتى وقفت لتؤدي شهادتها أمام القضاء فذكرته معبرة عنه بأنه "صندوق التركات". كذلك أفضت المركيزة بسرها إلى مربي أولادها بريانكور ووقفته على جرائمها الماضية وعلى مشروعاتها المهيأة وأعلمته أنها

تدبر تسميم أختها وزوجة أخيها، فذعر الرجل أيما ذعر وبادر فحذر المرأتين من شر ما تدبره لهما صديقته الفاجرة

ولقد حقدت المركيزة على بريانكور لأنه حال دون إشباع شهوة الإجرام في نفسها فآلت لتنتقمن منه. وآنس الرجل منها هذه النية فكان يحصن معدته وأمعاءه بأنواع شتى من الترياق، ويحمل خنجرًا لا يفارقه. واستطاع بفضل هذه الاحتياطات أن ينجو من السم مرتين ومن القتل بالسكين مرة ثالثة. وأخيرًا تراءى له أن خير ما يفعل أن يرحل فرحل إلى مدينة بعيدة لا تبلغه فيها سموم المركيزة ولا خناجرها

وللقارئ أن يتساءل: ماذا كان من أمر الزوج، أي المركيز ده برانفيليه في هذا البيت العجيب؟ والحقيقة أن الرجل كان يعيش في بيته غير آمن على نفسه، واثقًا أن سيصيبه يومًا من زوجته ما أصاب غيره، فكان يداريها ويحتاط لسلامته منها ولا يهمه إلا أن تنصرف عن التفكير فيه إلى سواه. وكان إذا جلس الى الطعام تجرع بضع جرعات من الترياق وأوقف خادمه الخاص وراءه يقدم له الألوان والماء، ولا يسمح لخادم غيره أن يتولى هذا العمل. ويظهر أن هذه الاحتياطات لم تكن من قبيل فرط الحرص ولا بالحذر المبالغ فيه، لأن المركيزة حاولت مرارًا أن تتخلص منه هو الآخر حتى يخلو لها الجو فتتزوج بالشفالييه سانت كرواه. ولكن الشفالييه، لحسن حظ المركيز، كان غير راغب في هذا الزواج ولذلك رأيناه يحرص على حياة الزوج ويمده بالمحضرات الكيميائية التي تقيه شر سموم زوجته ويبادر إلى تحذيره منها كلما رآها مقدمة على قتله

واستمرت هذه الحياة الغريبة سنوات ولا شك أنها كانت تمتد إلى أكثر من ذلك لولا أن يئست المركيزة من الشفاليبه سانت كرواه فعمدت إلى تسميمه بطريقة ناجحة لم يعرف كيف ينجو منها، فمات وظهر صندوق السموم، فأرسل ظهوره على حقيقة المأساة شعاعًا من النور استطاعت العدالة أن تسير على هداه حتى اكتشفت الحقيقة فتبدت لها بأكملها هائلة مروعة

* * *

تركنا المركيزة في طريقها إلى لوندرة هاربة من وجه العدالة وطائلة القانون وقلنا أن النائب العام كان يستجمع الأدلة التي تبرر القبض على المركيزة وشركائها وتكفل الحكم عليهم أجمعين. والآن نقول أن المصادفة قد أتاحت تلك الأدلة من حيث لا يحتسب

ذلك أن الخادم لاشوسيه الذي كان قد اختفى في يوم من الأيام وامحت آثاره، ظهر وتقدم فجأة يطالب الحكومة بملغ من المال يزعم أنه كان قد تركه وديعة عند سيده سانت كرواه. وانتهز النائب العام الفرصة – وكان يجهل كل شئ من الدور الذي لعبه الخادم فيما سردناه من الحوادث – وسأله عرضًا عما يعرفه عن صندوق السموم، فظن لاشوسيه أن السر انكشف وأن شركاءه اعترفوا بما فعلوا، فحملق في وجه المحقق وتمتم بكلمات ثم نظر خلفه وأطلق ساقيه للريح. ولبث المحقق مذهولا من هذا الفرار الغريب ثم رأى أن لا بد من أن يكون في الأمر سر فأمر

بالقبض على الخادم. وظلت الشرطة تبحث عنه أيامًا حتى وجدته مختبئًا بإحدى الحجرات السفلية في بيت مهجور

وفي الوقت نفسه كانت زوجة أخي المركيزة قد رفعت شكواها إلى القضاء تتهمها فيها بتسميم أخيها وبالشروع في تسميمها، واستشهدت ببريانكور الذي ما عتم حتى بات في قبضة المحققين، وهكذا انفتح باب المحاكمة على مصراعيه

أما الخادم لاشوسيه فقد أنكر وأصر على نفي كل ما نسب إليه وتحمل في صبر وثبات كل أنواع التعذيب التي استعملت لحمله على الإقرار، ولكن أدلة الاتهام تكاثرت من كل صوب حتى اقتنعت بها المحكمة فأصدرت حكمها عليه بالإعدام وهو يصيح: "أنا بريئ. أنا بريئ" بيد أنه لما ألقى نفسه أمام الموت وأيقن أن الإنكار لا يجدي ولا يفيد طلب أن يرجأ التنفيذ حتى يعترف بكل ما يعلم. وهناك أمام القضاء أقر بكل ما اقترفت يداه وقدم الأدلة القاطعة على إجرام المركيزة ده برانفيلييه

وقبضت السلطات على المركيزة في بلجيكا لأنها كانت قد غادرت إنجلترا تضليلا لمن يبحثون عنها، وجيئ بها في حراسة رهط من الجند وضباط الأمن مدججين بالسلاح. ولم يكن مسيرها من لياج إلى باريس أمرًا ميسورًا. فلقد حاولت أن ترشو حراسها ليمكنوها من الفرار فلم تفلح. ثم حاولت أن تنتحر بأن كسرت قدحًا من الزجاج كانت تشرب فيه وأرادت أن تبتلع شظاياه. وأخيرًا قدمت إلى المحاكمة واستغرقت قضيتها اثنتين

وعشرين جلسة أدهشت خلالها القضاة بثباتها وإصرارها على الإنكار في أنفة وترفع وكبرياء. ولكن ماذا ينفع الإنكار والأدلة القاطعة تنصب عليها من كل ناحية وتضيق عليها الخناق؟ لقد وقف بريانكور ثلاث عشرة ساعة يقص على القضاة سيرة المركيزة ومغامراتها ويفضي اليهم بكل ما يعلمه من أمرها وهي تنهال عليه سبًا وشتمًا وتقول: "كيف ترضى المحكمة أن تستمع إلى هذا الخادم الحقير السكير الذي طردته من خدمتي فجاء اليوم يريد أن يروي غليله من دمي؟"

وبعد أن قص بريانكور كيف سممت المركيزة أباها وأخويها وكيف حاولت أن تسمم أختها وزوجة أخيها وكيف قضت على الشفالييه سانت كرواه، روى لهم واقعة تتعلق بشخصه فقال: "كنت مربيًا لأولاد المركيزة وأسكن الدور العلوي من بيتها. وقد أخبرتني ذات ليلة أنها اشترت سريرًا جديدًا ذات أستار جميلة، وقال إنها تتمنى لو أكون أول من يبيت معها فيه. ودعتني لأوافيها في غرفة نومها على شرط ألا يكون ذلك قبل منتصف الليل، بيد أن علمي بالأخطار التي تهددني من هذه المرأة جعلني أترك حجرتي قبل الموعد لأراقب ما يجري في البيت. ووقفت أنظر إلى غرفتها من إحدى النوافذ المقابلة لها فألفيت المركيزة تسرح خادميها وتشرع في خلع ثيابها. ولشد ما كانت دهشتي لما رأيت الستر الذي يستر المدفأة قد انزاح وخرج من ورائه الشفالييه سانت كرواه يحمل في يده خنجرًا وقد غير بالأصباغ معالم وجهه، وارتدى ثيابًا تشبه ثياب أوباش المدينة. وظل الاثنان يتحادثان برهة ويتهامسان أخرى، ثم عاد الشفالييه إلى مخبئه وفتحت المركيزة باب غرفتها ونادتني لأهبط إليها. دخلت الغرفة

وأوصدت المركيزة بابها وتظاهرت بأنها تريد أن تستلقي على السرير، ثم لحظت اضطرابي فسألتني عما بي، وعندئذ ابتعدت عن السرير وتناولت من حزامي خنجرًا وهجمت على المدفأة وأنا أقول: "ما أقساك أيتها المرأة! ماذا جنيت عليك حتى تريدي قتلي؟" وعندئذ خرج الشفالييه سانت كرواه من وراء الستر، ولما أبصر الخنجر في يدي فتح الباب وولى الأدبار. والتفت إلى المركيزة فوجدتها تبكي وتنتحب وتقول أنها لا تستطيع الحياة بعد هذه الخيانة. وعمدت إلى المنضدة وتناولت من فوقها زجاجة من زجاجات السم وأرادت أن تبتلع ما فيها فحلت بينها وبين ما تريد"

وكانت لتلك الشهادة الطويلة أثر بالغ في تكوين رأي القضاة حتى أن الدفاع الحار الذي دافع به عنها محاميها لم يفلح في التخفيف من وقعها. وصدر حكم المحكمة بإدانتها بقتل أبيها وأخويها والشفالييه سانت كرواه وكثير من المرضى بالمستشفيات، وبأنها شرعت في قتل أختها وزوجة أخيها وبريانكور، وقضى الحكم بأن تكفر عن ذنوبها التكفير الواجب أمام كنيسة "نوتردام" وذلك بأن يسار بها في عربة مكشوفة إلى ميدان الكنيسة حافية القدمين عارية الرأس محلوقة الشعر مربوطة بحبل يصل عنقها بقدميها حاملة مشعلا مضيئًا. ثم تجثو على ركبتيها وتعترف أمام الناس بما اقترفته من آثام، وإلا فتكره على الاعتراف بشتى وسائل التعذيب التي ينص عليها القانون ثم يقطع رأسها بحد السيف ويحرق جسدها وتذري بقاياه في الهواء

أنصتت المركيزة إلى الحكم وهو يتلى عليها، وطلبت أن تعاد عليها تلاوة مرة أخرى، ثم أعلنت أن لا حاجة إلى تعذيبها لأنها ستعترف بكل

شيء. ونهضت واقفة وأفضت إلى المحكمة بكل جرائمها وقررت أن لا شريك لها غير لاشوسيه وسانت كرواه. وأن السم الذي كانت تستخدمه خليط من ماء النار والزرنيخ وسائل تستخرجه من نوع معين من الضفادع

ولكن المحكمة حيال بشاعة تلك الجرائم وعددها لم تشأ أن ترحمها من التعذيب، وقالت في تبرير ذلك: إن التعذيب قد يكرهها على الإفشاء بأسماء أخرى غير أسماء الذين ذكرتهم من شركائها وأعوانها في الإجرام

وفي أصيل يوم من أيام شهر يوليو عام ١٦٧٦ حملت المركيزة ده برانفيلييه فوق مركبة المجرمين إلى ساحة كنيسة نوتردام تحمل في إحدى يديها مشعلا مضيئًا، وفي الأخرى صليبًا، وقد اصطفت الجماهير على جانبي الطريق وامتلأت نوافذ البيوت المجاورة وشرفاتها بجموع النظارة والمتفرجين. ونزلت المركيزة من العربة مكبلة اليدين والقدمين ومغلولة العنق، وصعدت فوق النطع وجثت على ركبتيها وقبلت الصليب وأهوى الجلاد بسيفه فأزهق روحًا تستحق أن يفرد لها باب خاص في تاريخ الإجرام

الملك لويس الثالث عشر

ومصرع الوزير كونشيني

لما اغتيل هنري الرابع ملك فرنسا سنة ١٦١٠ كان ابنه وولي عهده لويس الثالث ما زال قاصرًا، فتولت أمه الملكة ماري ده مديسيس أمور الدولة بصفتها وصية على العرش

وماري ده مديسيس أميرة إيطالية كان لزواجها بالملك هنري الرابع قصة لا بأس من إيرادها لغرابتها ولما تصوره لنا من أخلاق ذلك العصر

فلقد كان أبوها فرنسوا ده مديسيس أميرًا على توسكانيا، وكان موفور الثروة يدير إلى جانب شؤون الدولة شؤونًا مالية أخرى من أنواع مختلفة تدر عليه أرباحًا طائلة. وكان ملوك فرنسا في اضطرابهم المالي الدائم يلجأون إليه ليقرضهم ما يكونون في حاجة إليه من المال، فلما اعتلى هنري الرابع العرش بعد شارل التاسع، كانت ديون التاج قد بلغت رقمًا مبهظًا يتعذر وفاؤه. وبدلا من أن يعمل الملك الجديد على استهلاكها بوفاء البعض منها، عمد إلى الاستزادة من الاستدانة حتى اضطر أمير توسكانيا إلى توقيع الحجز على بعض ممتلكاته ومنها قصر إيف وجزيرة بوميج تجاه مدينة مرسيليا

وتلك لعمري حالة شاذة غريبة لا نعرف لها مثيلا في التاريخ، وإلا فما هذا الأمير الذي يحكم إمارة واسعة ولا يتورع في الوقت نفسه عن أن يدير مصرفًا ماليًا ومصنعًا للأسلحة ومتجرًا للمواد الغذائية، ثم لا يرى حرجًا في أن يكون مرابيًا يقرض المال بالربا الفاحش، ولا في أن يعامل ملك فرنسا كما يعامل أي "زبون" عادي عجز عن وفاء دينه أو تأخر في الوفاء. ثم ما هذا الملك الآخر الذي يرتضي هذه المعاملة المزرية ويصبر على نهم دائنه عند اشتراط الأرباح، وعلى عنفه عند التحصيل، غير محتج في الأولى ولا غاضب في الثانية، حتى أعوزه المال بعد ذلك التجأ اليه المرة بعد المرة في غير ما عزة ولا إباء؟!

ولقد تحرجت الحال بعد سنوات إذ تضخم الدين وتعسر الوفاء واستمرت الحاجة إلى الاستدانة، فطفق الملك هنري يتوسل إلى إنقاذ خزانته وخزانة دولته من الخراب حتى وجد الوسيلة في شخص الأميرة ماري ابنة الدائن الثقيل، فخطبها لنفسه زوجة على أن يكون ما لأبيها من الديون جزءًا من المهر الذي يزودها به عند الزفاف

ولقد رحب صاحب الجلالة المرابي بهذه الخطبة، وطربت لها كبرياؤه وبات يعلل النفس بأن يرى ابنته تجلس على أفخم عروش أوربا في ذلك الزمان، ولكن الحظ لم يسعده بأن يشهد تحقيق هذا الحلم اللذيذ إذ اختطفه الموت قبل أن تزف ابنته إلى الزوج العظيم

ولقد أمضت الملكة ماري ده مديسيس السنوات العشر التي انقضت بين زفافها ومصرع زوجها في عيشة هادئة لم يعكر صفوها إلا عواصف كانت تثور من وقت لآخر كلما افتضحت علاقة من علاقات الملك بإحدى معشوقاته العديدات، أما شؤون الدولة وسياسة الملك والتدخل في الأمور فكانت أبعد الأشياء عن أن تشغل بالها أو تحرك فيها أي اهتمام

لذلك كانت دهشة الوزراء ورجال البلاط شديدة عندما رأوا هذه المرأة الهادئة المستكينة – وقد أصبحت وصية على العرش – تتكشف عن ملكة جبارة طماعة متحكمة صلبة الرأي مزهوة بنفسها وبعرشها، ذات أغراض هائلة تتوسل اليها بالدسائس الغامضة والوسائل الملتوية. وكأنها ملت حياة الخمول والانزواء طوال عشر سنوات فانطلقت دفعة واحدة تعوض نفسها عما فاتها وتثبت وجودها وأهليتها للعظائم. فتبدت حاكمة مستبدة لا تعرف لوزير رأيًا ولا لهيئة سلطة ولا تشعر أن حكمها عارية لا تطول إلا ريثما بلغ ابنها الرشد، وهو بالغه بعد سبع سنين

فاذا ما بلغ هذا الابن السادسة عشرة ظلت تتجاهل وجوده وتعامله معاملة الأطفال فتقسو عليه وتنبذه وتقصيه عن مجلسها وتنكر أمام الملأ مواهبه وذكاءه، وتقرر في شئ من الأسف المتكلف أنه غبي وساذج لا رأي له ولا إرادة ولا خلق، وأنه غير أهل للحكم وغير كفء لحمل المسئوليات

ولعلها كانت ترمي بذلك إلى أحد غرضين: إما أن تستبقي العرش لنفسها بإقصاء صاحبه عنه ما استطاعت هذا الإقصاء، وإما أن تنتقل وراثة التاج إلى ابنها الأصغر جاستون الذي كانت تحبه أو تأنس في ضعفه أمامها واستسلامه لها ما يحقق طعمها في ولاية الأمر

وكان الوزير ريشيلو يعرف فيها هذا الميل فيعمل من ناحيته على ترويج مزاعمها ويردد أمام الناس: "إن جلالة الملكة قد فعلت كل ما في وسعها لتدرب ابنها على أعمال الدولة ولكن طبيعته تنفر من المسئوليات" ثم يوعز إلى زملائه الوزراء فيؤكدون هم الآخرون في هجة الصادق الواثق "إن عقلية الشاب لويس الثالث عشر وبنيته لا تشجعان على الثقة بأصالة رأيه في الأمور وصحة حكمه على الأشياء"

على أنه مهما يكن من سر الهدف الذي كانت الملكة ماري تصوب إليه سياستها، فإن نوع التربية الذي تعهدت به ابنها سوء المعاملة الذي أفرطت في توجيهه إليه لم يكن له من أثر أقل من أن يجعل الطفل يشب جافي القلب مغلق النفس كتومًا كثير الحذر قليل الكلام يبطن غير ما يظهر ويعمل جهد الإمكان على أن يخفي أفكاره وميوله وهواجسه عن أمه وأصدقائه وجميع المحيطين به

ولفرط ما أهملت الملكة ولدها وتباعدت عنه ، وأخفيت حقيقة طبيعته عنها حتى لم تعد ترى فيه إلا غلامًا منعمًا لعوبًا، لا تشغل عقله فكرة ولا يعمر قلبه غرض، وقد امحت فيه الإرادة والأريحية والعاطفة فبات

لا يخشى منه شر ولا يتوقع خير ولا يحسب له حساب. وهكذا كبر الطفل ذا شخصية مزدوجة لعل فحصها أدخل في اختصاص علماء النفس منه في اختصاص المؤرخين، فلقد كان مظهره في الحياة مؤيدًا لرأي أمه مشجعًا للوزراء ورجال البلاط على تصديقها عندما تزعم أنه لا يحس في نفسه استعدادًا للحكم، وأنها تستبقي مقاليد الأمر في يدها نزولا على إرادته وتحقيقًا لرغبته. أما حقيقته فكانت تخالف هذا المظهر مخالفة تثير الدهشة والعجب، حتى لتجعله لغزًا عسير الحل على من يتصدون لتحليل الطبائع البشرية ولتفسير المتناقضات الغامضة في النفس الواحدة

وكانت الملكة – إذا سمحت له بحضور جلسة مجلس الوزراء – تأمره أن لايشترك في مناقشة، وأن لا يبدي رأيًا أو اعتراضًا أو استفهامًا، فكان يجلس صامتًا يسلي نفسه بالتفرس في نقوش سقف الغرفة وجدرانها أو بالعبث بثنايا ثوبه، أو برسم وجوه على الورق. ولكن بينما يظن الوزراء أنه في شغل عنهم وعما يقولون كان ذهن الشاب منصرفًا بكليته إلى موضوع النقاش لا تفوته منه صغيرة ولا كبيرة، حتى إذا انتهت الجلسة تأوه من أعماق صدره ثم انصرف وهو يجري أو يقفز كما ينصرف الأطفال عند انتهاء الدرس

وكان إذا خلا بأمه يفاجئها بأسئلة تنم على اطلاعه على أدق شئون الدولة، أو يبدي ملاحظات وجيهة على تصرف هذا الوزير أو ذاك، فتنبهت الملكة ولا تلبث أن تقطب جبينها وتصرفه بعنف قائلة: "اذهب

وابحث عن لعبة تلهو بها ودع عنك هذه الأشياء، فيخرج الشاب كسير القلب جريح الكرامة ويبحث فعلا عن لعبة يلهو بها بقية النهار

وكانت ماري دة مديسيس قد استوزرت أفاقًا من بني وطنها اسمه كونشيني – وقد اتخذ لنفسه لقب "الماريشال دانكر" – يقول بعض المؤرخين الثقات أنه كان خليلها وعشيقها، وينفي البعض الآخر هذا القول، ولكل فريق أدلة لا يتسع المقام لنقدها وتقديرها

ولقد استغل هذا الوزير حب الملكة له أو ثقتها به فسخر لمصالحه الشخصية كل قوى الدولة ومواردها حتى كون لنفسه ثروة ضخمة، ثم استولى على عقل الملكة أو سحرها حتى باتت أداة طيعة في يده، ونسيت كبرياءها واعتزازها نفسها فنزلت لهذا الحبيب الطامع عن سلطتها ونفوذها، ومكنت له في المملكة وأنشبت فيها إرادته فاستأثر بالنفوذ والجاه بعد أن أقصى الوزراء الرشيدين عن الحكم وأجلس على مقاعده بعض صنائعه ممن لم يكن لهم هم غير إرضائه واستباق رغباته، وأخذ يصوب الضربات العنيفة إلى كل من يخشى منه شرًا أو منافسة أو نقدًا، ويغدق النعم على كل من يتقرب إليه بالزلفى أو يملق شهواته وكبرياءه أو يخدم دسائسه وأغراضه

وصار كونشيني يمشي في الأرض مختالا فخورًا فإذا خرج من دراه إلى قصر الملكة سار في معيته مائتا سيد من النبلاء حاشية وحراسًا، وإذا صحا من نومه ألفى كل تلك الحاشية الكبيرة تتبارى في تزيينه وإلباسه ثيابه

وتقديم طعام الإفطار إليه. ثم ذهب به الفجر والعتو إلى أن صار يحتقر الملك فإذا صادفه في القصر تغافل عنه أو تعمد أن لا يلتفت إليه، وإذا ذكر اسمه أمام رجال البلاط أفاض عليه نعوت البلاهة والغفلة والطفولة. وأمعن في الاستهتار وعدم المبالاة حتى صار يقف أمام الملك وقبعته فوق رأسه وحتى صار رجاله لا يبالون هم الآخرون بمظاهر الاحترام الواجبة لجلالته فإذا أقبل عليهم لم يأبهوا له وواصلوا ضوضاءهم ومزاحهم.

واستمر كونشيني المرعى وتغلب طبعه الخبيث على كل اعتبار فاستطاب أن يظهر في مظهر الوصي الحقيقي على العرض فكان يقصي عن الملك كل من يعهد فيه الإخلاص له أو الاستعداد لنصحة النصيحة الصالحة أو لتوجيه أفكاره التوجيه الرشيد، وكان يعلم أن الخطر كل الخطر إنما هو في أن يدع أحدًا يلفت نظر الشاب إلى حقوقه الضائعة وإلى مركزه المزري في نظر الشعب والحكومة والبلاط، أو يطلعه على شأن من شئون الدولة أو يقفه على تصرفات الملكة التي أصبحت ألعوبة في قبضة وزيرها المهم الشره، فكان يحيط الملك بالجواسيس ويبث حوله العيون يوافونه بما حل ودق من حركاته وأقواله وأسرار رجال حاشيته الصغيرة وأعمالهم. وزين له هوى الظهور أن يبدو في نظر الناس حاميًا للملك مشرفًا على شؤونه الخاصة يبيح لنفسه التدخل بين الملكة وابنها بشكل تنفر منه كبرياء الشاب وتثور له عواطفه، فكان إذا غضبت ماري دي مديسيس على لويس يتدخل في الأمر ليستعكفها عليه. وإذا طلب الشاب نقودًا وضنت بها عليه أمه عرض الوزير أن يقدم النقود من ماله الخاص. ثم طاح به مرح الغرور حتى خص نفسه بحق منح المرتبات وإجراء المعاشات والإنعام

بالألقاب، وترقى من ذلك إلى الاحتياط بالطوارئ والمفاجآت فكان يغترف من خزانة الدولة ما يبني به القلاع والحصون في ممتلكاته الواسعة وفي المدن الخاضعة لنفوذه ويحشد الجنود للدفاع عن نفسه ضد من يخشى شرهم من سادات الأقاليم

وقصارى القول أن كونشيني نجح في إعدام إرادة الملكة ومحو نخوتها وفي القضاء على سلطانها بعد القضاء على قوة المقاومة فيها. وإنه لعجيب أن نرى هذه المرأة التي افتتحت عهدها في الحكم قوية الشكيمة شديدة المراس، وتلين وتنثني حتى ينكسر عودها في يد صاحبها المغامر فتمحى شخصيتها بجانب شخصيته. ولكن لم العجب وهي امرأة كغيرها من النساء شديدة عند الاندفاع ضعيفة في المثابرة؟

وهكذا بلغ الملك السادسة عشرة من عمره وهو في قصره وبلاطه كما لو كان في سجن بين مراقبيه وسجانيه فلا حرية ولا جاه ولا نفوذ ولا سلطان

ولقد كان الشاب ينظر إلى تلك الأحوال فتذوب نفسه حسرة على ملكه المغصوب ويحس أن نياط قلبه تتقطع أسى على مقامه الضائع وحقه المنكور ولكنه كان يكتم آلامه في صدره ويتحاشى أن يبوح بها لأمه حتى لا يثير غضبها عليه

وكانت له بطانة وحاشية ولكن لم يكن أحد منهم ليجرؤ — خوفًا من انتقام الملكة ووزيرها العاتي — أن ينبهه إلى حقوقه وواجباته ولا أن

يرشده الى وسائل العمل لاسترداد نفوذه المسلوب. وكان يؤثر أن يظهر في مظهر الطفل اللاعب العابث على أن يكون الملك المهمل المحتقر، فيغالب عواطفه ويكظم غيظه ويقمع ثورة نفسه وينصرف إلى اللهو واللعب، حتى اذا خلا بالثلاثة أو الأربعة أصدقاء الأوفياء المخلصين الذين يثق بهم ويركن إليهم فاض قلبه على لسانه وأفضى إليهم بما يساوره من القلق على عرشه ومصالح شعبه، وبوجوب وضع حد لتلك الحال التي طال عليها الأمد. وعندئذ كان الطفل الساذج الأبله اللعوب يتجلى أمام هؤلاء الأصدقاء على حقيقته فإذا هو الشاب الرزين الحكيم البعيد النظر الذي يلم بحقائق الأشياء ويقدر الرجال والأعمال قدرها الحق ويزن الأشياء بميزان العقل ويرتب عليها نتائجها الصحيحة بحكمة الشيوخ والمدربين والرجال المحنكين

بيد أن عتو الوزير كونشيني كان قد تجاوز كل الحدود وتخطى سائر الاعتبارات، حتى صار من العسير على الملك الشاب أن يضبط نفسه ويكتم عواطفه، فبدأت الثورة المتأججة في فؤاده تتجلى شيئًا فشيئًا في أقواله وتصريحاته، وأخذ الحقد الذي يضمره للوزير الأكبر يتبدى في نظراته إليه وفي تعقيبه على تصرفاته

وطبيعي أن تحدث شدة الضغط انفجارًا، فلقد اشتد ضغط كونشيني على الملك حتى مل الملك التحفظ والتكتم والاحتياط فصارت تصريحاته تتجاوز دائرة أخصائه الضيقة إلى دائرة أوسع وسط الحاشية

والبلاط، وأصبح يؤكد أنه لن يطيق تلك الحال وأنه اعتزم تحطيم قيوده واستخلاص حريته وإنقاذ عرشه من اليد الأثيمة القابضة عليه

وشعرت أوساط القصر بهذا التحول في طبيعة الملك فانقسم رجال البلاط إلى فريقين: فريق لا يثق بنجاح الملك ولا يعول عليه، وهؤلاء ظلوا على التظاهر بالإخلاص لكونشيني اتقاء لغضبه أو استدرارًا لنعمته، وفريق من ذوي النفوس الأبية عز عليهم أن تتدهور كرامة عرش ملوكهم حتى ليكاد أفاق مغامر أن يعتليه، وهؤلاء انضموا إلى الملك يلهبون في نفسه تلك الشعلة الكريمة ويضعون سيوفهم في خدمته معرضين أرواحهم لنقمة الدخيل الجبار

ولكن إذا كان الملك قد عز عليه أن يرى أكثر القوم ينأون عنه بجانبهم ليؤيدوا الوزير القوي فهو لم يكن مخدوعًا في قوة الأقلية التي انحازت إلى شخصه، بل كان يعلم حق العلم أن ليس بينهم رجل واحد يمكن أن يقاس بكونشيني ولا أن يضارعه في وسائله، لذلك لم ير من الحكمة أن يصارح عدوه بالخصومة ولا أن يشهر عليه حربًا لا تتكافأ فيها القوى والمعدات، فآثر أن يرجئ الأمور إلى أوقاتها حتى تتحسن الظروف وتتهيأ الفرصة وتتوافر لديه وسائل النجاح. وفي انتظار الفرصة واكتمال الوسائل استمر الشاب في الظهور بمظهر الطفل المتلاهي بالصغائر المنصرف بكليته إلى الألعاب

والحق أنه لغريب أن يستطيع شاب في السادسة عشرة من عمره أن يملك نفسه ويضغط عواطفه ويحزم أمره إلى ذلك الحد المدهش بدون أن تبدو منه بادرة تفضحه أو تنم على نياته الخفية أو تنبه غريمه إلى وجوب الحذر منه، ولكن كم في الشباب من أسرار!

ويقضي الملك خمسة أشهر أخرى وهو يلهو ويعبث نفسه للبرنامج اليومي الذي قررته له أمه من غير أن يشكو أو يتذمر: يصحو من نومه وهو يعلم أن يومه الجديد سيمضي في نفس ما مضى فيه أمس وما قبل الأمس، أي في تناول الطعام والتريض في حديقة القصر وحضور الصلاة والذهاب لزيارة الملكة ثم في بعض الألعاب أو في الصيد والقنص

ويمعن في حسن السبك ليحول عنه الأنظار والمراقبة، فيعمد إلى ألاعيب صبيانية مضحكة تجعل كونشيني وأعوانه يوقنون أن هذا الغلام لن يصلح لشئ وأنه سيعيش طفلا ويموت طفلا لا تعمر رأسه فكرة جدية ولا يهتم عقله بمشروع ذي بال، فكان يجئ بمدافع من صفيح يربط فيها كلابًا صغيرة يسوقها في مماشي الحديقة، أو يأتي بصبية يلبسهم أزياء مسرحية غريبة ويرقصهم على نغمات الكمان بينما هو يقرع طبلا صغيرًا يفسد بدويه تلك النغمات. ثم لا يقف عند تلك المهازل بل يمضي ساعات طويلة من النهار إلى جانب طهاة القصر يحاول أن يطبخ معهم بعض الأطعمة أو إلى جانب البنائين الذين يرممون ركنًا متهدمًا من سور القصر فيساعد بعضهم في عمله ويناول البعض الآخر المواد والأدوات

وتعاود الملك تلك الذكريات عندما يكبر فيذكرها ضاحكًا ويقول لأصحابه: "لا.. لم أكن الطفل الذي توهموه، ولكن ظروفي كانت تقضي أن أظهر في مظهر الطفل. أما نيتي فكانت مبيتة وخطتي مرسومة. ولم تكن لدي وسيلة أخدمها بها سوى إحكام أمري وكتمان سري وصرف الأنظار عني. وأظنني نجحت فيما أردت خير نجاح"

ولعمري إن التفاوت في النسبة بين سن الملك وخطر المشروع الذي كان يختمر في رأسه، ودقة الوسائل التي توسل بها إلى تنفيذه، لتحدثنا وهي صادقة بأن الشيوخ إنما يتجنون على الشباب عندما ينكرون عليهم النضج المبكر وحزم الرأي وقوة المثابرة وحسن سياسة الأمور مع الاتزان وضبط النفس. وإلا فكيف وفق الملك الشاب إلى اتقان دور الطفل كل ذلك الإتقان وكيف استعان على قضاء حاجته بالكتمان الشديد، وكيف عالج مشروعه بحسن السياسة مع الصبر والمثابرة وكبح العواطف الجامحة وكبت الاندفاع المعروفة في الشباب؟

وفي تلك الأثناء كان المارشال الوزير سادرًا في غلوائه، سابلا ثوب خيلائه، ظانًا أن الأمر قد استتب له، وأن الزمان سيظل مواتية، فلم يتنبه إلى الثورة الفكرية التي بدأت تعمل عملها في العقول وتحدث أثرها في النفوس. فلقد هال أشراف الفرنسيين ونبلاءهم ما وصلت إليه مطامع الرجل وما بلغته قحته وعبثه بمصالح الشعب ومال الدولة، فبدأت أصوات التذمر والاحتجاج تتصاعد من شتى النواحي، حتى لقد اجتمع بعض العظماء منهم وجهزوا جيشًا من رجالهم وأتباعهم وأعلنوا أنهم لا

يستطيعون صبرًا على تصرفات الوزير الأكبر وأنهم مستعدون لمقاومته بالوسائل القوية، ثم أصدروا بيانًا عنيف اللهجة ممهورًا بامضاءات الدوق ده فاندوم والدوق ده بويون والدوق دومين، وكلهم من كبار أعضاء الأسرة المالكة، وقد قالوا فيه:

"نحن الموقعون على هذا قد اجتمعنا وقررنا التعاون فيما بيننا على تثبيت سلطة ملكنا السيد الأعلى للدولة، والمحافظة على حقوق العرش وامتيازاته، وذلك إجابة منا لمطلب عزيز على الأمة ونزولا على رغبة الرأي العام في البلاد

"إن الأجانب والدخلاء قد تغلغلوا في شئون المملكة حتى استولوا على شخص الملك، وقيدوا حريته واحتكروا لأنفسهم بغير حق سلطة الحكم والإدارة وأصبحوا يباشرونها بكيفية لا تتفق وقواعد العدل، وبوسائل من الإرهاب والضغط لا يحسن السكوت عليها. فنحن نرمي إلى استخلاص هذه السلطة من أيدي الغاصبين لنعيدها إلى صاحب الولاية الشرعية وهو الملك، ونريد أن نخلص شخص الملك وكرامة التاج من تلك الأيدي الأثيمة وننقذها من شر المؤامرة المدبرة ضدهما"

ثم توجهوا بالخطاب إلى الملك نفسه فقالوا :

"إن جميع قوى الحكم باتت مركزة في يدي المارشال دانكر وأيدي أعوانه الذين بثهم في مناصب الدولة العليا ليخلوا له الجو فيحكم فرنسا وفقًا لما توحيه إليه شهواته وأغراضه، وليتحكم وحده في مصائر أفراد

رعيتكم وفي شرفهم وامتيازاتهم وحقوقهم، وتلك حال لا يرضاها فرنسي محب لوطنه مخلص لعرش بلاده"

ثم جعلوا الكلام إلى الشعب فقالوا: "أيها الفرنسيون، إذا كانت لا تزال فيكم بقية من كرامة الأجداد، وإذا كنتم حقًا ورثة أولئك الأمجاد الذين خصصوا حياتهم ووقفوا سواعدهم وسيوفهم على خدمة ملوك فرنسا وعرش مملكتهم، وإذا كنتم لم تفقدوا بعد الشعور بالكرامة الوطنية والعزة القومية لتدركوا ما هو نازل بوطنكم من المحن والشدائد والهوان على أيدي أولئك الخونة والدخلاء، فها قد دعا داعي الفداء وآن أوان البذل والتضحية فاشهروا سيوفكم ضد الدخيل الغاصب وهيا بنا إلى الأمام"

أخافت هذه اللهجة الخشنة الوزير كونشيني وأدخل الرعب إلى قلبه ما شاهده من علامات التململ وأمارات التذمر المتبدية من كل ناحية، فهرع إلى اتخاذ الأهبة للطوارئ ولدفع الخطر الداهم، ووضع أهل باريس تحت رقابة نشطة يقظة وقبض على جميع الذين اشتبه في إخلاصهم له. ونصب المشانق في مفترق طرقات المدينة وسرح حرس الملك ولم يترك لحراسته غير الجنود السويسريين مأجوريه وصنائعه، واستأجر فرقة من جنود إيطاليين استقدمهم للدفاع عن نفسه، ولم يكتف بذلك فأحاط الملك وأصدقاءه بجيش من الجواسيس وأعلن بلسان أعوانه أن التقرب من الملك أو الإسرار إليه بشئ أو الاختلاء به أمر مكروه قد يؤدي بمن يقدم عليه إلى الإعدام

وبعد أن أتم استعداداته على هذا النحو في باريس انصرف إلى اتخاذ مثلها في المدن التي كانت تحت سيطرته والواقعة بين ممتلكاته فحصنها ونصب المدافع في قلاعها وحشد بها الحاميات والجيوش

ولقد راع الرأي العام أن يرى هذا الأفاق يحل سلطانه محل سلطان الملك ويجعل من نفسه ملكًا إلى جانب صاحب العرش الشرعي، ويمهد للحرب الأهلية والفتن الداخلية ليحتفظ بنفوذه وجاهه، ويبذل ما سرقه من مال الفرنسيين في سبيل مقاتلة الفرنسيين. وتجاوز الارتياع طبقات الشعب إلى أنفس الوزراء فهالهم ما وصلت إليه الحال، وخافوا سوء العاقبة إذا هم انساقوا وراء هذا المغامر الطماع، فرفع بعضهم استقالتهم إلى الملكة ولكنها أبت قبولها ناصحة بالتريث والانتظار

وما كانت الملكة ماري ده مديسيس لتخفى عليها حقيقة الواقع إذ كانت هذه لحقيقة أظهر من أن تخفى حتى على من يتعمد التعامي عنها. ولقد بدأت تخشى عاقبة استرسال وزيرها المصطفى في خطته الخطرة ولكن ماذا تفعل وهو أقوى منها وقد خرج أمره من يدها حتى لم تبق لديها وسيلة لردعه وتقييده سوى الاعتراف بسلطة ابنها الملك وفي هذا الاعتراف نزولها عن العرش وهي لا تريد أن تنزل مهما كانت الأسباب؟

ويظهر للمؤرخ من استقراء وثائق ذلك العصر أن زوجة كونشيني كانت هي الأخرى تنظر إلى مجرى الأمة بعين القلق والاشفاق حتى لقد قالت للملكة يومًا: "أرجو أن تتداركي الحالة يا مولاتي فإن وراء الاضطراب

الحالي مخاطر وأهوالا. وإن زوجي سيضيع نفسه ويضيعك معه" ويظهر أن كونشيني نفسه لم يكن أقل قلقًا وإشفاقًا من زوجته وأنه فكر في الانسحاب قبل أن تهب العاصفة فلا يستطيع مواجهتها، ولكن السلطة والجاه كانا أحب إليه من السلامة، واغتراره بقوته كان أكبر من خوفه على مستقبله، لذلك آثر البقاء مغامرًا بكل شئ مصرحًا بقوله المشهور: "أريد أن أختبر الحظ لأرى إلى أي حد يقود صاحبه"

غير أن عرائض الامتعاض من الحالة والاحتجاج عليها كانت تزداد يومًا فيومًا وتنهال على الملك وأمه في كثرة مطردة. فهل يقف الملك الشاب مشلول التفكير مقيد الإرادة إزاء ذلك السيل الجارف؟ وهل يبدو أمام شعبه كما ظل يبدو أمام حاشيته طفلا عديم الهمة مسلوب الرأي لا يركن إليه في أمر ولا يعول عليه في ملمة؟ ثم حتام التريث والانتظار وها هم أعيان مملكته يكتبون إليه بصريح العبارة قائلين: "إن فرنسا لا تستطيع أن تصبر أكثر مما صبرت على الجائحة التي تحتاجها في هذه الأيام ولا أن تظل ساكنة إزاءها. وها نحن أولاء نصارح جلالتكم بأن سنكم ومواهبكم تسمح لكم بتولي شؤون العرش وإدارة أمور الدولة، وإن أول واجب على جلالتكم أن تبادروا إلى إنقاذ المملكة من الدخيل الذي يعيث فيها فسادًا"

تلقاء هذه الصراحة الجافة الحقة المؤلمة، لم يسع الملك أن يظل في تردده وتسويفه ولا أن يصم أذنيه عن تلك الصيحات النبيلة التي تهيب به أن يباشر حقوقه وينتزع أزمة الأمور من يدي كونشيني، فعمد إلى مكاشفة والدته بالأمر، وإلى طلب معونتها للتخلص من الوزير المفتون، مبينًا لها ما

في الاستكانة من خطر على سمعة الملوكية في البلاد. ولكن الملكة انتهزته وأقصته عنها قائلة: "ليس لطفل مثلك أن يشغل باله بتلك الأمور" ومن ذلك اليوم آلى الملك على نفسه أن لا يفاتحها في شئ وأن لا يشاورها في أمر.

وعجيب من امرأة ذكية كالملكة ماري دي مديسيس أن تظل عمياء البصر والبصيرة فلا ترى وراء ظواهر ابنها تلك القوة المفكرة المدبرة الكامنة فيه، ولا تقدر هذه الأريحية التي تهزه وتدفعه إلى العمل لاسترداد عرشه وسلطته، فتظل تتجاهله ولا تقيم له وزنًا حتى في الوقت الذي يدبر فيه مؤامرة هائلة للتخلص من وزيرها العاتي ثم للتخلص منها هي أيضًا!

* * *

كان مشروع الملك هائلا خطيرًا لا يكفي لتنفيذه مجرد الرغبة وصدق العزيمة بل يحتاج إلى معاونة الأنصار وإخلاصهم وإقدامهم وكتمانهم السر كل الكتمان. ولقد أفضى به أول ما أفضى إلى صديقه دوق لوين، ثم إلى سكرتيره الأمين يشار داياجان والبارون مودين والكونت تونسون والكونت مارسياك، وكلهم أوفياء لذاته مخلصون لقضيته يضحون بكل شئ في سبيل نصرته

وعقد هذا المؤتمر الصغير جلساته مرات بحث فيها المسألة من شتى نواحيها ووجوهها فرأى أول الأمر وجوب قتل الماريشال كونشيني. ولكن الملك الذي ينفر طبعه من مثل هذه الوسيلة أبى أن يوافق عليها،

فاضطر المؤتمر إلى البحث عن وسائل أحرى إلى أن ارتأى القبض على الوزير وتقديمه إلى المحكمة العليا لمحاكمته على الجرائم التي ارتكبها وعلى جرائم أخرى قد يظهر أدلتها تفتيش بيته وأوراقه. بيد أن القبض على كونشيني لم يكن بالأمر الهين فهو لا يسير في المدينة إلا نادرًا وفي أوقات لا سبيل إلى العلم بها من قبل. وإذا ذهب من داره إلى القصر فهو يذهب إليه وسط حرس عظيم مدجج بالسلاح. فإذا استطاع منفذو المؤامرة أن يفصلوه عن حرسه فهو لا محالة سيقاوم وعندئذ لا يبقى بد من قتله.

واقتنع الملك بأن قتل الوزير أمر لا مندوحة عنه فقال لأصحابه: "إني آمر بالقبض عليه فإذا امتنع الرجل عن الخضوع لأمري وتسليم نفسه فأنتم في حل من استعمال كل الوسائل لتنفيذ هذا الأمر"

وجاء دور التنفيذ والبحث عن الرجال المخلصين الفدائيين الذين يقومون بهذا المشروع الخطير. ووجد الملك ضالته في شخص المركيز فيتري قائد حرسه الخاص وكان جنديًا كامل الرجولة عظيم البأس عنيف المزاج حاد الطبع جريئًا إلى حد نسيان الذات فوقع اختيار الملك عليه

واستقدمه لويس وأسر إليه المسألة وأشار إلى ما يريده منه فلم يتردد بل قال: "اني هنا لتنفيذ أوامر جلالة الملك ولكن لا بد من أن أشرك معي ثلاثة أعوان أعول عليهم كل التعويل وهم أخي وصهري وصديق لي"

وفي اليوم التالي جاء المركيز فيتري بأعوانه وقدمهم إلى الملك بأسمائهم وطلب منه أن يصدر أمره إليه في مواجهتهم. فقال الملك: "إني

آمركم بالقبض على الماريشال دانكر بأية وسيلة" فاعترض فيتري قائلا: "ولكن إذا أبدى الماريشال مقاومة فماذا يجب أن نفعل؟" فصمت الملك وأطرق طويلا إلى أن انبرى السكرتير دياجان وقال: "إن جلالة الملك يريد في هذه الحالة أن تقتلوا الماريشال"، فأجاب المركيز متحمسًا: "هذه مشيئة الملك وسننفذها"، وانصرفوا..

وأشار على الملك أصدقاؤه أن يستدعي كونشيني بدعوى التحدث إليه في شأن من الشؤون حتى إذا صار في حضرته كان القبض عليه شيئًا ميسورًا، ومتى قبض عليه قدم للمحاكمة ولم يبق إلا أن يعلن الملك والدته بتنحيتها عن العرش وبعزل الوزراء الموالين لكبيرهم ويعين بدلا منهم أولئك الوزراء الذين خدموا والده هنري الرابع بأمانة ونزاهة وقد عزلهم كونشيني لاعتراضهم سبيل إغوائه وشهواته

واحتاط المؤتمرون لحالة ما إذا فشلت المؤامرة أو انفضح سرها وقرروا أن يسافر الملك في تلك الحالة إلى بلدة مو من أملاك المركيزة فيتري وهناك يجمع حوله الأشراف والنبلاء بجيوشهم ويسير بهم على كونشيني تاركًا للسيف تقرير مصير كل من الفريقين

وعادوا فعدلوا عن فكرة استدعاء الوزير خشية أن يتوجس ريبة من هذا الاستدعاء غير المألوف فيمتنع عن المجئ أو يأخذ حذره أو يتنبه إلى أن هناك أمرًا يدبر في الخفاء. لذلك قرروا أن يتربص له فيتري وأعوانه لدى مدخل القصر عندما يجئ ليزور الملكة زيارته اليومية حتى إذا ما دخل

من الباب وسار في الممر الموصل إلى البهو أوصد بعضهم هذا الباب في وجه حراسه بعد أن يكون البعض الآخر قد أوصد باب البهو المقابل له في وجه المارشال، وبذلك يقع في مأزق لا مخرج له منه ولا مفر

وفي اليوم المعين للتنفيذ جمع فيتري عشرين من رجاله وجعلهم في الممر الضيق الواقع بين ذينك البابين ولبث ينتظر قدوم الفريسة

وإنه لمما يدعو إلى العجب أن مؤامرة هائلة كتلك التي نحن بصددها يظل أمرها مكتومًا برغم وقوف هذا العدد الكبير من الناس على سرها وبرغم كثرة جواسيس الملكة وعيون وزيرها المنبثين حول الملك وحاشيته. وأدعى من ذلك إلى الدهشة والعجب رباطة جأش الملك الشاب في ذلك اليوم وسيطرته على أعصابه حتى لم تبدر منه إشارة أو كلمة تنم على المشاغل العظمى التي تشغل باله وتقلق نفسه، فلقد لبث وجهه منفرج الأسارير كعادته لا يبدو عليه أثر من العاصفة الثائرة في جمجمته وظلت أحاديثه مرحة لا تشوبها شائبة من اضطراب أو انفعال، وانصرف إلى ألعابه الصبيانية المعتادة في سكون يستر خبئ نفسه

وأزفت الساعة التي اعتاد الوزير أن يزور فيها الملكة كل يوم فكان المركيز فيتري يروح ويجئ في الممر مهتاجًا كالأسد في قفصه، وكلما مرت الدقائق ازداد هياجًا وكاد الشرر يتطاير من عينيه، وتأخر الماريشال عن الموعد ساعة فظن المركيز أن المؤامرة افتضحت وأن الرجل لن يجئ، فجمع رجاله واعتزم الزحف بهم نحو سراي كونشيني للقبض عليه فيها. وفيما هو

يهم بذلك جاءه البشير بأن الماريشال قادم، ولم تمض دقائق حتى ظهر كونشيني سائرًا على قدميه في طليعة حراسه وأمنائه، وكان منصرفًا عن كل شئ إلى قراءة عريضة رفعها إليه أحد الأعيان في الطريق. ولقد اجتاز ممشى الحديقة وتخطى عتبة الباب الأول وهو منهمك في القراءة فلم يتنبه إلى تلك الوجوه الغريبة التي تحتل الممر. وما اجتاز الباب حتى أغلقه رجال فيتري في وجه الحراس والأمناء غير مصغين إلى احتجاجاتهم واعتراضاتهم. ولما صار الماريشال في وسط الممر التف حوله الرجال في شكل دائرة ضيقة وتقدم نحوه المركيز فيتري ووضع يده على كتفه بقوة وقال: "بأمر الملك أقبض عليك"

انتفض كونشيني من هول هذه المفاجأة وسقطت الورقة من يده ونظر إلى ما حوله مشدوهًا وقال: "تقبض علي أنا؟" ثم تراجع إلى الوراء وصاح بالإيطالية: "إلي يا أصدقائي" ووضع يده على مقبض سيفه فكانت هذه الحركة هي القاضية عليه، إذ سرعان ما أخرج فيتري وخمسة من رجاله غداراتهم وأفرغوها في رأسه وصدره فسقط جاثيًا على ركبتيه ولم ينطق بكلمة، ثم لم تمض ثوان حتى كان جثة هامدة

وكان جِنّةً استولت على عقول هؤلاء الرجال فصيرتهم كالوحوش، فلقد كانوا يتصايحون قائلين: "اضرب.. اضرب.." وينهالون على القتيل طعنًا بمدادهم وسيوفهم وخناجرهم ثم ينقضون عليه فيجردونه من نقوده وجواهره وينزعون ثيابه ويركلونه بأرجلهم ويدحرجونه من مكان إلى آخر حتى ألقوه في حجرة صغيرة من حجرات القصر.

وبينما كانت هذه المأساة تجري في ممر قصر اللوفر كان الملك ينتظر نتيجتها في غرفته. فلما دخل عليه المركيز فيتري وقال: "لقد تم كل شئ يا مولاي" نهض وصافحه وقال له: "سأذكر لك هذه اليد يا مركيز"

ولقد بلغت الضوضاء مسامع الملكة في مخدعها فأرسلت إحدى نسائها تستطلع الخبر، فلما علمت ما حدث هرولت إلى غرفة ابنها مذهولة وهي تقول: "ماذا فعلت أيها الولد المنكود؟" فابتدرها الملك بإشارة حبست الكلام في فمها، وقال في لهجة السيد الأمر: "حسبك يا سيدتي فأنا الملك وقد أمرت. أما أنت فلن يكون لك بعد اليوم شأن في أعمال الدولة، واعتبري نفسك سجينة في غرفتك ولا تستقبلي أحدًا حتى أقرر لك مصيرًا آخر"

وبلغ مصرع كونشيني آذان الشعب فاحتشدت الجماهير أمام القصر تحيي الملك وتهتف له وتطالب بجثة الوزير الخائن. ولقد ألح الناس في هذا الطلب حتى ألقيت إليهم الجثة فأخذوها ولفوها في قماش قذر وجعلوها في إحدى حفر المقابر العامة بالمدينة، ولما كان الصباح استخرجوها وحملوها على أسنة الرماح وذهبوا بها إلى أحد الميادين الكبيرة وشنقوها. ولم يكتفوا بهذا التنكيل والتمثيل فجعلوا يرجمون القتيل المشنوق بالحجارة ويقطعون يديه وساقيه ثم ساعديه وفخذيه، ولما لم يبق منه غير الجذع أوقدوا النار وجعلوه فيها حتى اذا صار رمادًا ذروه في الهواء..

الكاردينال ريشيليو

ومؤامرة الماركيز سانمار

كاد الليل ينتصف وهدأت الحركة وسكنت الضوضاء، وجلس الكاردينال ويشيليو أمام مكتبه وتكدست عليه أكوام من ورق كان يتناول بعضه فيقرؤه أو يكتب على هامشه ثم يعيده إلى مكانه. وانفتح الباب وأقبل الحاجب يعلن قدوم الملك؛ فرفع الوزير عينيه قليلا ثم انكب على عمله كأن لم يكن شئ ، ودخل لويس الثالث عشر يتوكأ على عصاه مريضًا متعبًا. فنهض الكاردينال الشيخ متثاقلا وقد أثقلت كتفيه أعباء الحكم واعباء السنين. ومد يديه الى الملك وقال: "عذرًا يا مولاي.. إن ساقيّ لا تقويان على الحركة "، وارتمى الملك على مقعد وثير ونظر الى وزيره حزينًا مكتئبًا، وقال: "لا! لا! يا صديقي الكاردينال. كل هذا لا يفيد.. هواء العاصمة لا يلائمني وجو الريف لا يفيدني. وإني أشعر بالموت يدنو مني. وعما قريب ستغرب شمس محياي" فهز الحبر العظيم رأسه قائلا: "أما الموت يا مولاي فإني سابقك إليه، وها أنت تراه قد سطا على ساقيَّ وبدأ يتطرق إلى ما فوق، غير أن رأسي مادام سليمًا ويدي قادرة على تحريك القلم فسيظل هذا الرأس وستظل هذه اليد في خدمتك وخدمة عرشك حتى أسلم الروح"

وأطرق الملك وارتسمت على شفتيه ابتسامة هازئة، وقال وهو يتجنى: "وهل تستطيع أن تؤكد لي يا سيدي الكاردينال أن قلبك أيضًا سيظل يحبني ما ظل يخفق بين جنبيك؟"، فنظر الكاردينال إلى الملك شرزًا وأجاب: "وهل تشك في ذلك يا مولاي؟" قال: "إي والله، إن الشك يساورني بعض الأحيان"، ثم حدق في وجه الوزير وكأنه اعتزم أمرًا خطيرًا وقال: "ولكن لم لا أصارحك بكل ما في نفسي؟ أنت رجل عظيم يا صديقي، ولست أذكر في تاريخ فرنسا وزيرًا استطاع أن يسدي إليها من الخدمات بعض ما أسديت. ولقد تنقضي قرون وتنقرض أجيال قبل أن تحظى هذه البلاد برجل مثلك. لقد وليتك مقاليد الحكم، وفرنسا شعب وإقطاعيات والحروب الأهلية تمزق أحشاءها والفتن الداخلية تقطع أوصالها، فما زلت بها حتى جعلت منها وحدة عظيمة الشأن مهيبة المقام. وجعلت لي عرشًا رفيعًا وملكًا مترامي الأطراف. وأضفت إلى ممالك التاج مستعمرات كندا وجزر الأنتيل وسان دومنج وجيانا والسنغال. وأصبح لي بفضل سياستك وحكمتك جيش وأسطول تهابها إنجلترا وتحسب لهما إسبانيا ألف حساب. وأصلحت القوانين وعدلت الشرائع وأنشأت مجمع العلماء وأحييت معهد السوربون ودار الكتب ودار الطباعة، ورفعت في بلادي شأن العلوم والمعارف والآداب. وربطت فرنسا إلى حلفائها بشباك من المخالفات الوثيقة تطمئنني على أمنها وسلامتها. وإني لأباهي بك وبعرشي وملكي سائر الملوك.. كل هذا أعترف به ولكن.." وصمت الملك هنيهة فرفع الكاردينال جفني عينيه الثقيلين وقال: "ولكن ماذا..؟" فداعب الملك عصاه وقطب حاجبيه ونظر إلى الأرض كأنه لا يقوى على

مواجهة وزيره ثم استطرد: "ولكن يخيل إليَّ أيها الكاردينال العزيز أنك في اهتمامك بشئون الدولة والعرش قد نسيت سيد الدولة وصاحب العرش حتى صرت لا تحسب لهما حسابًا.. لست ألومك لأنك استأثرت بالحكم دوني وقبضت على أزمة الدولة بيد لا تلين. لا! ليس في الأمر شئ من ذلك، ولكني أفكر في أهلي وأصدقائي وما حل بهم منك وأسائل نفسي هل يجمل بملك أن يتخلى عن أهله وأصدقائه وأقرب الناس اليه فيدع يد وزيره تفتك بهم هذا الفتك الذريع؟ المرحومة الملكة والدتي قد نفيتها وتركتها تموت في منفاها حتى لم ترض أن تسمح لي بنقل رفاتها الى أرض الوطن. ووزيري مارياك نفيته أيضًا، وأخوه الماريشال مارياك قضيت عليه بالإعدام. وقريبي الدوق ده مونمورانسي قضيت عليه بالإعدام، وشقيقي جاستون يبين وهو لا يدري من خوفه منك ما ستطلع عليه به شمس الصباح، وصديقي الماريشال باسومبير يعاني حتى اليوم أحوال الباستيل. وصديقي الدوق دة بويون تطارده وتضطهده وتريد أن تنتزع منه قلعة سيدان، وصديقي المركيز فونتراي أهنته على ملأ من أعيان الأجانب ورجال البلاط، وصديقي الكونت دوتو.. وصديقي المركيز سانمار.. و.."

فاعتدل الوزير في كرسيه وقال في تهكم لاذع: "وماذا أيضًا؟"، وكأنما استأنس لويس الثالث عشر بوداعة الحبر الهائل في هذه الساعة فجمع كل شجاعته في لسانه وقال: "نعم! حدثني عن هؤلاء وما سر غضبك عليهم وفيم كل هذا العسف والإرهاق؟ والدتي مثلا. ما الذي جنته عليك؟"، وهنا برقت عينا الوزير وبسط كفيه على كومة من الأوراق وقال: "لم تجن عليّ شيئًا يا مولاي. واذا كان الأمر لا يتعلق إلا بشخصي

فلست أذكر لها إلا اليد التي أسدتها إليّ يوم رفعتني من رتبة الأسقف إلى رتبة الكاردينال، ولم أتجاوز الثانية والعشرين من عمري. لا! لم تجن عليَّ الملكة شيئًا، ولكنها جنت على فرنسا وعليك يا مولاي لما تمادت في علاقتها بخليلها الإنجليزي الدوق أوف بوكينجهام فجعلته يطمع في عرشك وعرش آبائك وأحفادك"

نزلت هذه الكلمات كالصاعقة على أذني لويس الثالث عشر، فستر عينيه بيده وصاح: "حسبك يا كاردينال!" فأمسك الكاردينال يد الملك وأزاحها عن وجهه الشاحب وانطلق يقول بصوت متهدج: "يومئذ خفت عليك وعلى عرشك فنسيت نفسي واستوى عندي رضاها وغضبها وأقصيتها عن فرنسا لأعيد اليك الأمانة التي سلمتنيها مصونة كلملة. فهل أخطأت إذ فعلت ذلك يا مولاي؟ إنك تحدثني عن مارياك وأخيه.. خائنان! كان النفي لأحدهما والإعدام للآخر جزاء وفاقًا. الدوق مونمورانسي؟ ثائر على العرش. أخوك جاستون؟ إنه يتآمر مع الأعداء على سلامة الدولة. أصدقاؤك ده بوين ودوتو وفومتراي وسانمار؟ خذ واقرأ".. ومد يده إلى ورقة كبيرة أخرجها من غلاف أسطواني الشكل وفتحها ووضعها أمام عيني الملك وقال: "أولئك هم أصدقاؤك الذين تسمح لهم بالتآمر علي ليقتلوني.. اقرأ يا مولاي".. وتناول الملك الورقة وجعل يقرأ، وما لبث أن تجهم وجهه وارتعدت يداه ونهض واقفًا وصلح: "ياللخيانة! ياللخيانة! معاهدة سرية بين أخي وملك إسبانيا.. مؤامرة على عرشي. جناية على حياتي تدبر في الخفاء!"، وتناول الكاردينال المعاهدة وطواها وأعادها إلى غلافها الأسطواني وقد وضع شفته السفلى بين فكيه، ونظر

إلى الملك المذهول ولم ينطق بكلمة. وجعل لويس الثالث عشر يروح في الغرفة ويجئ ويضرب الأرض بكعب عصاه، ثم وقف أمام الكاردينال وصاح: "قد أغفر لاصدقائي كل شئ ولكني لا أغفر مثل هذا. مر بالقبض على الدوق ده بويون والمركز دي تو يا كاردينال" فأجاب: "سأفعل" قال: "ولكن قد يتعذر عليك القبض على دي بويون وهو على رأس عشرين ألف رجل" قال: "سأقبض عليه. ولكن ليس ده بوين ودي تو كل القائمين بهذه المؤامرة، ويوجد إلى جانب اسميهما اسم آخر" فحدق الملك في وجهه وصاح: "من؟ سانمار؟" قال: "نعم.. سانمار" فتلعثم الملك وقال: "نعم.. هذا صحيح.. ولكن.. ألا يمكن!"، وهنا ضرب الكاردينال مكتبه بقبضة يده وانبثق من عينيه بريق مخيف وصاح بصوت كهزيم الرعد: "كفى ترددًا يا مولاي، إن العرش في خطر، ولن تخرج من هنا قبل أن تبت في الأمر، فإما أن تسلم الرجل للغلام وإما أن تسلم الغلام للرجل. وليس بين هذا وذاك سبيل. إما إعفائي من مسئوليات الحكم، وإما سانمار فوق النطع.. اختر لنفسك أحدنا يا مولاي وعجل في الاختيار"، فأشاح الملك بوجهه وهو يتمتم بين شفتيه: "لا! لا! هذا محال.. هذا لن يكون.. سانمار صديقي وأنت وزيري، ولا أستطيع أن أمكنك منه فتقتله ولم لا يا ربي... لماذا تأبى الأقدار إلا أن تكونا عدوين؟ علام هذا الخلاف بينكما ولم لا تتصافيان؟.. أنت وزيري العظيم وهو صديقي الحميم، وكل شئ يدعو إلى أن تربطكما رابطة المحبة والولاء. ولكنك تمقته وتنقم عليه وهذا هو الذي دفع به إلى ما فعل. إنكما سبب شقائي في هذه الحياة وإن عداوتكما لتجعلني أشقى إنسان في هذه البلاد"

ومد الكاردينال يديه وتناول بهما يد الملك وجذبه إليه في رفق واحترام وسلط عليه عينيه الوهاجتين واندفع يقول والكلمات تهوي من بين شفتيه جافة نافذة: "ألم تعاهدني أيها الملك على أن لا تخونني وألا تكتم عني شيئًا؟ ألم تقل لي أنك قد اصطفيتني من بين رعاياك وليًا تشركني في أمرك وتطلعني على سرك وتطلق يدي فيما فيه الخير لك ولعرشك؟ إن أصدقاءك يأتمرون بي ليقتلوني وأنت تعلم ذلك وتكتمه. ولقد لبثت أنتظر أن تكاشفني بسرهم وتوقفني على جلية أمرهم وظللت أتجاهل حتى ظنوا أني جاهل ما أجمعوا أمرهم عليه، وانطلق غلامك سانمار يسدل ثوب خيلائه ويسدر في غلواء النزق والشباب، ويقول لمن يريد أن يسمع إن ما بقي من حياتي ساعات أو أيام.. غلام لا شئ يميزه على سواه، يرفع صوته على صوتك ويجعل أمره من أمرك. غلام يعبث بثقتك حتى تنزلق قدمه إلى هاوية الخيانة فيهوي فيها حتى قمة الرأس ويحاول أن يسلم فرنسا للعدو وأن يهدم في يوم واحد ما أمضيت من حياتي عشرين عامًا في بنائه وإقامته. غلام يثير أعداءك البروتستانت في وجهك، ويؤلب الأمراء من تابعيك عليك، ويحالف الخصم لينصر أخاك في اغتصاب عرشك، ويوقد نار الفتنة فتعود الرءوس المطأطئة لترتفع أمامك، ويسلح الحانقين والمتمردين ويلقنهم كلمات الثورة والعصيان على تاجك وملكك. غلام في وسعي أن أخلق من أمثاله كل صباح لأعود فأسحقهم عند المساء. غلام مثل سانمار ليس أهلا لرحمتي ولا كفءً لغضبي تجئ أمامي وتقول إنه فدوي وإنه صديقك الحميم؟"

وكان الملك قد غطى وجهه بيده وحاول أن يسحب الأخرى من بين يدي الكاردينال، ولكن الكاردينال ظل ممسكًا بها وقد تهدج صوته واندفع يقول:

"أتظن يا مولاي أني إذ أقول لك ما أقول إنما أدافع عن نفسي أو أستمسك بنفوذي وسلطاني؟ أتظن أني لا أعرف قدر نفسي أو أني أجهل قدرتي على سحق غلامك سانمار كما أسحق الزجاج تحت قدمي... لا يا مولاي. لست أخشى على نفسي ولست أجهل مدى قوتي ولكني أريد أن أفتح عينيك بأصابعي لترى الحقيقة ولتكون على بصيرة من أمرك. لقد فكرت في أن أضع بين يديك أعباء الدولة الثقال لأراك وأنت تعهد بها إلى هذا الطفل.

ولقد أعددت لنفسي عزلة أقضي بها الأشهر الباقية من حياتي في راحة وهدوء بال، ولكن قلبي ينفطر كلما ذكرت ما سيؤول اليه أمر هذه الدولة العظيمة متى وضع مصيرها بين يدي غلامك الغر المخدوع. إن أمراء فرنسا وسادات الإقطاعيات إذا شعروا أن يدي الحديدية قد تراخت عن الشد على أعناقهم سيجيئونك في الغد رافعي الرءوس والسيوف يطلبون إليك أن ترد إليهم إمتيازاتهم وأن تجعل هذه الامتيازات وراثية في أبنائهم وسلالاتهم. فماذا أعددت لهذا اليوم العصيب؟ إن وزيرك الجديد سيوعز إليك بالتسليم، وسينكمش ملكك حتى لا يجاوز حدود مقاطعة أو مقاطعتين، وعندئذ يكون غلامك أهلا لتسيير دفة هذا الملك الضئيل ولن

يرى نفسه في حاجة إلى مطالعة هذه الأكوام من الوثائق والتقارير والرسائل والمعاهدات"..

قال هذا وقد اشتدت به ثورة الغضب فأزاح كومة من الأوراق بضربة من يده، وصمت هنيهة ثم قال: "أجب يا مولاي، ماذا ترى فيما أقول؟"، ولقد أخذت الملك عزة الملك فرفع رأسه وشمخ بأنفه وصاح: "أرى يا سيدي الكاردينال أن حسبي ما أمضيت من حياتي وأنا جالس فوق العرش لا أحكم، وأرى أني سأحكم بلادي من هذه الساعة بنفسي" فقال الوزير: "هذا حسن يا مولاي، ولكنّ حقًا علي أن أنذرك أنك تختار للحكم وقتًا عصيبًا وأن شؤون الدولة في هذه الأيام من أدق الشؤون" فأجاب الملك: "إني عليها لقادر وسأقرأ بنفسي الوثائق والتقارير" قال: "على بركة الله يا مولاي، وهذا ملكك بين يديك وليوفقك الله إلى ما فيه خيرك وليسدد خطواتك إلى ما فيه إسعاد رعيتك. لقد انتصف الليل وهذه هي الساعة التي أتلقى فيها المكاتبات الخاصة بالشؤون الخارجية وسآمر بعرضها عليك وإذا استوقفك أمر فستجدني في خدمتك"

ودق جرسًا فأقبل أربعة من الغلمان الأشداء حملوا كرسيه وخرجوا به من الغرفة، فلما بلغ حجرة أمناء السر أهاب بهم بصوت مسموع: "اعرضوا شؤون الليلة على جلالة الملك وتلقوا من جلالته الأوامر"، وغاب بكرسيه عن الأنظار

جلس الملك وحيدًا قويًا بعزيمته الجديدة راضيًا عن نفسه، فلقد ألقى له شخصية ملك كان يجهلها وقد وقف هذا الملك الذي كان يظن نفسه ضعيفًا في وجه الوزير العنيد يساجله ويغلظ له القول، ولعلها كانت أول مرة تجهمت فيها أسارير وجهه أمام الكاردينال الكبير، ففرك يديه وجلس أمام مكتب الحبر الشيخ وقرب إليه أكوام الأوراق، وتناول منها غلافًا فقرأ عليه كلمة "البرتغال". وتناول آخر قرأ عليه كلمة "هولاندة" وثالثًا ورابعًا إلى أن أتى على جميع أسماء ممالك أوربا. وفتح واحدًا منها فألفاه مقسمًا إلى أقسام بعدد أقسام كل مملكة من تلك الممالك، وألفى كل قسم يرمز بأرقام إلى أضابير لا يعرف مكانها ويحوي علامات وإشارات لا يدرك كنهها فأطبق الغلاف وفتح درجًا من أدراج المكتب، وتناول منه حافظة أوراق ضخمة فتحها فإذا هي رسائل رمزية لا تشابه رموز الواحدة منها رموز الأخرى فطفق يعد مفاتيح "الشيفرة" في هذه الرسائل فإذا بها تجاوز العشرة، فأغلق الدرج وأخذ من فوق منضدة قريبة حافظة أوراق أخرى جعل يقلبها بين يديه فإذا هي خليط من معاهدات وأوامر بمصادرة أملاك البروتستانت ومذكرات تتعلق بالجيش وأخرى بعلاقة فرنسا بالدول المجاورة.

ولشد ما كانت دهشة الملك عندما استخرج من وسط كرمة من الورق ملفًا يحمل هذا العنوان: "أعداء فرنسا في الخارج" جعل يتصفحه فإذا هو يشتمل على أسماء لم يسمع بها من قبل، وعلى مذكرات بحوادث لم يبلغه خبرها وعلى صور من معاهدات سرية ضد فرنسا عقدها ملوك كان يظنهم أصدقاء أوفياء، وتزايدت دهشة الملك عندما فتح صندوقًا ألفاه

مترعًا بمكتب من الملكة والدته إلى دوق بوكنجهام ورسائل من شقيقه إلى ملك إسبانيا يدله فيها على مواضع الضعف في قلاع الحدود. ومكاتبات متبادلة بين كثير من كبراء الدولة تحتوي على مشروع اغتيال الملك وإعلان الجمهورية وتقسيم إلى مقاطعات يستولي كل من هؤلاء الكبار على واحدة منها، وظل الملك يقلب الأوراق ويقرأ ما بها والدم يكاد يغلي في رأسه، والحجرة تدور به، ثم نظر فألفى وزير الخارجية رينوابيه واقفًا أمامه يقول: "إن التقرير الوارد إلينا من البرتغال يدل على أن الدوق ده براجانس يمد يده إلى قطالونيا، ويؤيدها في ثورتها"

فقاطعه الملك قائلا: "كيف يكون ذلك وصديقنا الدوق دوليفاريس رئيس لحكومة فيليب الرابع ملك إسبانيا؟" فأجاب الوزير: "إن مصائبنا في إسبانيا آتية من ناحية الدوق دوليفاريس، فهو الذي يمول الثوار البروتستانت ويمدهم بالذخائر والأموال، على أن المعلومات الوثيقة التي ترد إلينا من قطالونيا تثبت أن القطالونيين أميل إلى حكمنا منهم إلى حكم البرتغال وأنهم يطلبون معونتنا ويرفضون معونة الدوق ده براجانس"

– وكيف تعرض علي أن أضع يدي في يد الثوار؟

– إن نيافة الكاردينال يرى يا مولاي أننا نستطيع بهذه المعونة أن نضمن لتاج فرنسا هذا الشطر الكبير من ملك فيليب الإسباني، ولا محل اليوم لموالاة خصم يجاهرنا بالعداء ولا تزال جيوشه في حرب طاحنة مع جيوش جلالتكم

– دعني أفكر في الأمر وانتظر

– ولكن أهل قطالونيا لا ينتظرون يا مولاي فإن جيوش أراغون سائرة إليهم بقوة لا قبل لهم بها

– دعني أفكر

– أما في إنجلترا فإن الأمير روبرت قد خسر المعركة واستولى البرلمانيون على المدن الكبرى وجلالة الملك شارل الأول يطلب النجدة من هولاندة ولا يجدها

– سأبادر بإرسال النجدة إلى شارل يجب على الملك أن ينقذ الملوك عند الشدائد..

وتناول من يد الوزير الأوراق الخاصة بالشؤون الإنجليزية فرأى على هوامشها هذه التعليقات بخط الكاردينال ريشيليو:

– يحسن عدم الاندفاع في تأييد شارل الأول.. البرلمانيون أقوياء والملك يعتمد على الأسكتلانديين وهم خونة سيبيعونه بأرخص الأثمان. كرومويل سينتصر. كل معاونة ذاهبة هباء.. يجب الرفض لأن المال سيذهب سدى وسنفقد الرجال وصداقة الحكومة الإنجليزية القادمة

ورفع الملك رأسه وقال للوزير:

– انتظرني ولا تفعل شيئًا فقد يكون الخير في الانتظار"

– ولكن تأخير ساعة قد يقدم هلاك ملك إنجلترا سنة يا مولاي

– دعني أفكر وسأصدر الأمر في الوقت المناسب

وأمسك لويس الثالث عشر رأسه بيديه ورأى بعينيه مدى حقارته، وأحس أنه لا شئ أو هو شئ قليل الى جانب الكاردينال ده ريشليو، ولكن غلبته العزة مرة أخرى فنهض ثم انحنى على خريطة لأوربا كانت مفتوحة أمامه وشخص ببصره إليها فتجلى له فيها هول موقفه. تلك أقاليم الشمال والجنوب من فرنسا تتألب عليه وهذه إنجلترا وملكها يستصرخه لينجده، وهذه إسبانيا تحاربه وهولاندة تمالئ أعداءه عليه وبلجيكا تفتح صدرها للمتآمرين على عرشه. وأحس كأن الأرض تنشق من تحته فتتكشف عن هاوية بعيدة القرار، وزاغ بصره وأظلمت الدنيا في عينيه وشعر بدوار في رأسه حتى لم يقو على الوقوف، فاستند إلى المكتب ومد يده كأنه يستغيث بشئ لا يراه حتى لم يقو على الوقوف. فاستند إلى المكتب، ومد يده كأنه يستغيث بشئ لا يراه ثم دار حول نفسه وصاح بصوت متقطع: "ريشيليو.. ريشيليو.. إلي بالكاردينال" وخرَّ فوق كرسيه فاقد النطق لا يشعر ولا يعي

وفتح لويس الثالث عشر عينيه وطاف ببصره على ما حوله فرأى الكاردينال الرهيب إلى جانبه في ثيابه الحمراء ينبعث منها لون الدم ولون النار وقد سلط عليه عينيه المتقدتين، فأغمض الملك جفنيه ومر بكفه على

جبينه وقال في تنهد عميق: "احكم يا كاردينال" فقال الوزير وقد قدم إليه أمرًا بالقبض على المركيز ده سانمار: "إذن امض هذا الأمر يا مولاي" فتناول الملك قلمًا وأمضى ثم عاد فارتمى على مقعده وهو يقول: "دعوني.. إني أختنق.. دعوني.. إني أكاد أموت"

* * *

المركيز ده سانمار فتى في الثانية والعشرين من عمره غض الأهاب مليح الوجه رقيق الشمائل حلو الحديث ورث عن أبيه المركز ديفياه اسمًا وثروة وجاهًا، وبدا في البلاط الملكي وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره فتهافتت عليه النساء وسعى إليه النبلاء واصطفاه الملك صديقًا وخلا حميمًا وقلده منصب "الركبدار" وهو أعلى مناصب البلاط في ذلك الزمان؛ فتطلعت إليه أنظار ذوي الحاجات وأصبح كعبة الطالبين ومعقد آمال الأملين..

وكان الكاردينال ريشيليو كبير وزراء فرنسا يعلم من طباع الملك لويس الثالث عشر أنه ضعيف الرأي سريع التأثر لا جلد له على أعمال الدولة ولا طاقة بأعباء الحكم، فعمل على توثيق عرى الصداقة بين الملك والشاب عسى أن يتخذ من هذا الأخير أداة صالحة في توجيه ميول الملك نحو ما يريد أن تتجه إليه.

وليس عجيبًا أن يصل فتى كامار إلى أرفع مناصب البلاط، ولما يبلغ العشرين ربيعًا، فلقد كانت السنة تجري في تلك الأزمنة بأن تخلع

المناصب العالية على الشبان، حتى لقد تعين أسقف لوسون كردينالا وهو في الثانية والعشرين من عمره، ولم يبلغ الثلاثين حتى صار الكاردينال ريشيليو وكبير وزراء الدولة. ولقد عهد الملك إلى الأمير كونديه في قيادة جيوشه في حرب إسبانيا وهو بعد في الحادية والعشرين من سني حياته. وتعين المركيز دي تو مستشارًا في البرلمان وهو في التاسعة عشرة من عمره

بيد أن الطفرة كثيرًا ما تلعب بعقل الشبان وتذهب برشاد الفتيان، ولقد فتح سانمار عينيه على الحياة فألفى نفسه محاطًا بالنعماء والعزة والجاه والألقاب، يصحو من نومه فيلفى وزراء الدولة وكبراءها على بابه يستبقون مرضاته ويتلقون أوامره. ويسير في موكب كموكب الملك يحف به النبلاء والأشراف والقواد. وإذا غاب عن الملك ساعة أو بعض الساعة أرسل الرسل في أثره يستقدمونه، حتى إذا ما قدم أشرقت أسارير الملك وزال ما به من غم واكتئاب. وتلك لعمري أشياء من شأنها أن تذهب الطفرة برزانة سانمار فتولاه الغرور وغلبه الاعتزاز بالنفس وحسب أنه وصل إلى ما وصل إليه بفضل نبوغه وكفايته، فأطلق لاغتراره العنان وبات يحسب أن ما عليه إلا أن يشير للأقدار فتطيع، وأحب فتاة هي الأميرة ماري ده جونزاج ابنه الدوق دي مانتوه وحدثته نفسه بالاقتران بها ولكنها – وقد كانت تطمع في الاقتران بشقيق الملك – أبت أن تهب له يدها أو يكون أميرًا

وذهب الفتى إلى الكاردينال الوزير يعرض عليه أمنيته ويسأله أن يتوسط له لدى الملك لينعم عليه بلقب الإمارة، فالتفت إليه الكاردينال وألقى عليه نظرة احتقار وقال: "ما أنت يا بني أكثر من نبيل رفعتك

الحظوة إلى ما أنت فيه. فكيف تتسامى بنظرك إلى قلب الأميرة ده جونزاج؟ إلا أنها لو فكرت هي الأخرى بالاقتران بك لكانت أشد منك بلهًا وجنونًا" فخرج سانمار جريح الكبرياء كسير القلب وكأنما أحس في هذه اللحظة أن لا أمل له في تحقيق مطامعه ما دام الكاردينال على قيد الحياة، فبيت في نفسه الشر وصمم على الانتقام

ولقد خابت آمال الكاردينال في فتاه وأيقن أنه زرع جميلا في غير تربته، فقلب له ظهر المجن ولم يدع فرصة للإيقاع به تمر من غير أن يغتنمها

وكان الملك يريد أن يدرب سانمار على أعمال الحكم فكان يسمح له بحضور جلسات مجلس الوزراء. ورأى الكاردينال في ذلك شرفًا كبيرًا للفتى فاعترض عليه وأوعز إلى الملك أن مثل هذا الغلام لا يؤتمن على أسرار الدولة فلا يحسن أن يلم بها. وكان للوزير ما أراد وحرم الملك على صديقه الجلوس بمجلس الوزراء. وعرف سانمار من أين هبت عليه الريح فاستشاط غضبًا وأسرها للكاردينال ضغينة لا يمحوها إلا الموت، فكان بين الاثنين نضال شخصت له الأبصار، وانقسم فيه رجال البلاط إلى فريقين: فريق يؤمن بطالع الشاب الميمون ويؤيده، وآخر يثق بأن الكاردينال رجل الدولة وواحدها وأنه لا محالة فائز في هذا النضال مجهز على خصمه

وأحاط بسانمار كل الذين أصابتهم ضربات الوزير يذكون في نفسه نار البغض ويوغرون صدره عليه. وكان في طليعة أولئك المتذمرين

والمتهورين المركيز ده فونتراي، وقد أهانه الكاردينال يومًا في حفلة استقبال أحد السفراء، والأميرة ماري ده جونزاج التي كانت تحب سانمار وتريد الاقتران به على شرط أن يكون أميرًا، وكان الكاردينال يحول دون ذلك، والدوق ده بويون الذي حالف ملك إسبانيا على ملكه لويس الثالث عشر، فلما عفا الملك عنه ظن أنه لم ينل هذا العفو إلا بفضل سانمار وأن الكاردينال كان يعارض فيه، والأمير جاستون دورليان الذي كان يأتمر بعرض أخيه الملك ليجلس عليه أخاه الآخر فكان الكاردينال يفسد عليه تدبيراته ويفضح مؤامراته، والمركيز دي تو الذي تضامن مع هؤلاء حبًا في صديقه سانمار

ولقد عقدت هذه البعكوكة عدة جلسات بحث أعضاؤها خلالها خير الوسائل للخلاص من الحبر الوزير، فكان المركيز ده فونتراي يقول بوجوب اغتيال حياة الكاردينال بالسلاح. أما الأميرة ده جونزاج فكانت تشير بالالتجاء إلى السموم. وأما المركيز ده سانمار الذي يطمع في أكثر مما يطمعون فكان يرى وجوب عقد محالفة سرية مع إسبانيا يكون من شأنها أن يمدهم الملك فيليب الرابع بالجيش والمال وأن يسير الأمير جاستون ورليان شقيق الملك على رأس الجيشين الحليفين فيخلع الملك عليه ويجلس عليه أخاه الآخر ويصبح سانمار كبير وزراء الدولة وأن يدفع لهم ملك إسبانيا حالا أربعمائة ألف ليرة ليستطيعوا بها تجنيد جيش وتجهيزه وأن يتقاضى جاستون مائة وعشرين ألف ليرة معاشًا سنويًا وفي مقابل ذلك يسلم الدوق ده بويون قلعة سيدان التي في حيازته إلى الإسبان، ويعقد الملك الجديد

الصلح مع إسبانيا وتنتهي تلك الحرب الضروس التي تهدد فيليب الرابع بضياع عرشه وملكه

وأملى المركيز دوتو المعاهدة فكتبها سانمار بخطة ونقحها الدوق دو رليان خاطها المركيز فونتراي بين طيات معطفه وتنكر في زي راهب من الوعاظ المتجولين وسافر إلى إسبانيا يحملها إلى الوزير دوليفاريس

ولقد ترددت الحكومة الإسبانية أيامًا في الاعتماد على أولئك الإسبان، وكادت ترفض توقيع المعاهدة لولا أن اليأس من الصلح مع ريشليو حملها في النهاية على توقيعها وتسليمها إلى فونتراي فعاد بها مخيطة في طيات معطفه يجوب القفار ويتسلق الجبال ويسير بالليل ويختبئ بالنهار حاسبًا لعيون الكاردينال وأرصاده ألف حساب..

ولكن الكاردينال الذي كانت عينه لا تغفل ولا تنام والذي بث جواسيسه في بيوت الكبرياء ولدى جميع الحكومات، لم يلبث أن علم أمر المعاهدة السرية ورأى الفرصة سانحة للقضاء على خصومه القضاء الأخير، فاستقدم شرطيًا من أعوانه المخلصين اسمه لوبار دمون وأمره أن يتعقب المركيز ده فونتراي إلى إسبانيا وأن يمهله حتى يرى ما سيكون من أمر الحكومة الإسبانية حياله، وألا يالو جهدًا في الحصول على صورة من المعاهدة أو في الحصول على المعاهدة نفسها وإن كلفه الأمر قتل المركيز.

وظل لوباردمون يقتفي أثر فونتراي ويتبع خطاه حتى بلغ مدريد ولبث بها حتى أيقن أن المعاهدة أمضيت وأن فونتراي قد حملها إلى

أصدقائه بعد أن خاطها في طيات معطفه كما جاء بها فسبقه إلى ممر في جبال البرانس لم تكن للمركيز مندوحة عن أن يمر منه. وهناك تنكر في زي راع من رعاة الغنم وأقام كوخًا صغيرًا على سفح الجبل وجلس ينتظر الراهب في عودته

وكانت ليلة عاصفة مطيرة انقضت فيها الصواعق على قمم الجبال، واشتد هزيم الرعد ووميض البرق، وتدفق السيل من أعلى الجبل فصير السفح مستنقعًا واسع الأرجاء. وجلس الراعي يرقب الطريق وقد أوقد نارًا تهدي الساري إليه. ولم يطل به الانتظار، إذ ما لبث أن أبصر على ضوء البرق شبحا قادمًا يجوس الطريق بعصاه ويسير سير المحاذر اليقظ يتلفت ذات اليمين وذات الشمال ويتقدم بخطوات ثابتة واسعة حتى إذا بلغ الراعي قال:

– السلام عليك يا ساهر الليل في هذا الجو المضطرب

– وعليك السلام يا أبتاه. فيم اقتحامك هذا الطريق الوعر في هذا الللیل المخيف؟

– الواجب يناديني يا أبتاه. وما كان لخدام الله ان تثنيهم وحشة الليل ولا أن تقعدهم وعرة الطريق عن القيام بواجب الله

– ولكن الله رحيم بعبده يا أبتاه وهو لا يكلف نفسًا إلا وسعها وإنك لتستطيع أن تفعل غدًا ما تريد أن تفعله الليلة، فاجلس معي وجفف ثيابك المبللة على حرارة النار

– الحق أني متعب يا بني وقد مللت وعثاء السفر في هذا الليل البهيم فهل أجد لديك ما أتبلغ به وأطفئ نار الظمأ؟

– على الرحب والسعة أيها الأب الجليل. هناك على مقربة من هذا المكان كوخي الحقير تجد فيه شيئًا من الأدم وقليلا من النبيذ. سر أمامي يا أبتاه واسأل الله أن يخفف آلام ابنتي المريضة وأن يحفظ لي غنمي من الصواعق التي تتعاقب على هذا الوادي الرهيب

– وهل يشعر ساكن هذا المكان بالأمن يا ولدي؟

– لست أخشى غير الصواعق والعقبان. أما بنو الإنسان فلا يجتاز هذا الممر منهم غير المهربين وهؤلاء لا يطمعون مني في أكثر من أن أدلهم على الطريق

وسار الراهب وتبعه الراعي إلى أن أشرفا على بقعة صغيرة كستها بعض الحشائش والأعشاب وقليل من الهشيم فقال القس:

– عجيب ألا يكتسح السيل هذه الخضرة. ألا ما أعظم قدرة الله! إنها تجعل أحقر الأشياء يثبت في وجه أقوى العناصر

– وأعجب من ذلك أن تنبت الأعشاب على حافة الهاوية. حاذر يا أبتاه واسلك فلا تزل قدمك

وما تقدم الراهب خطوة فوق الحشائش والاعشاب حتى هوت به حفرة عميقة القرار، وكان لوباردمون قد أسرع فأمسك بتلابيب فونتراي فسقط الرجل وبقي معطفه في يد الراعي فجسه بيده ولما اطمأن الى أن المعاهدة فيه نادى الراهب أن اصبر حتى أجئ بحبل أنتشلك به. وهرع إلى كوخه وأضاء مشعلا وفكك أطراف المعطف وأخرج المعاهدة وتناول قلمًا ونسخ صورة منها ثم طواها وأعادها إلى مكانها وخاط المعطف وأعاده إلى ما كان عليه. وتناول حبلا طويلا وأدلاه إلى المركيز الراهب فجذبه به إليه. وسارا إلى الكوخ يحمدان الله على النجاة. ولما أصبح الصباح افترقا فذهب المركيز إلى أصدقائه يحدوه الأمل في المستقبل ويقويه الرجاء في النجاح. وسار لوباردمون نحو سيده الكاردينال يحمل إليه الغنيمة الغالية.

* * *

أيقن المركيز سانمار أن الساعة الرهيبة قد أزفت، وأن المستقبل بات طوع إرادته، وشجعه إقرار إسبانيا للمعاهدة على المضي في مصارحة الكاردينال العظيم بالعداء، وذهبت به الرعونة إلى حد التشهير به أمام الناس وفي كل مكان، وازداد نزقًا وغرورًا لما آنس من الملك جفاء نحو وزيره فطفق يعلن أنه لا محالة مورد الكاردينال موارد التلف وأن الكاردينال سيدخل عما قريب في ذمة التاريخ، واستأنس بمن حوله من الأنصار

والأتباع والممالئين والمتزلفين، فكان لا يتحرج أن يجاوز في التحدث عن الملك حدود الأدب واللياقة، وأخذ في خفة وطيش يفاوض قواد الجيش في كيفية تنظيم الانقلاب المنتظر، وينثر المال على الضباط والجنود ورجال الدولة وكل من يتوسم فيهم الضعف أو الطمع، وصار يوزع المناصبب سلفًا على أنصاره وتابعيه ويتوعد الذين لا يسايرونه في مطامعه بالويل وسوء المصير.

وبلغت هذه المساعي المجرمة أسماع الملك فخنق عليه بادئ الأمر، ولكن ما لبث أن تغلب عليه ضعفه وحبه لصديقه فاستدعاه إليه وجعل يلومه ويؤنبه وسانمار ينكر ويقسم أنه برئ، حتى اقتنع الملك بأن ما بلغه لا يجاوز حدود الوشاية وأن الكاردينال في حقده على المركيز لا يتورع عن السعاية بينهما بالكيد. وخرج الفتى من حضرة الملك أكثر غرورًا وأشد نزقًا وعنادًا حتى كتب الدوق دانجن إلى والده يقول: "إن المركيز سانمار يسير من زمن إلى زمن، ولن يمتد به الزمن حتى يسقط سقطة لا تقوم له بعدها قائمة"

وكان الكاردينال ريشيليو يعلم ما دق وما خفي من سلوك الشاب، ولكنه ظل يميله حتى تكثر هفواته وتتعدد سقطاته وحتى يستجمع الأدلة على خيانته فيضربه الضربة القاضية. وحصل الوزير على الرسائل الغرامية التي كان سانمار يتبادلها مع الأميرة ده جونزاج قريبة الملك، وفيها كثير من أسرار المؤامرة وتفاصيلها ومراميها وأسماء المشتركين فيها والقائمين بتدبيرها. وجاءت صورة المعاهدة السرية مكملة لهذه المجموعة الفاضحة

ودليلا صارخًا على خيانة أولئك الذين كان الملك يحسبهم أصدقاء مخلصين وأوفياء صالحين

وكانت الحرب ناشبة في تلك الأيام بين فرنسان وإسبانيا، وقد انتقل الملك ببلاطه ومعيته إلى مدن الجنوب ليدير بنفسه حصار مدينة بربنيان التي كان يخشى عليها زحف جيوش الملك فيليب. واصطحب معه سانمار وأصدقاءه الآخرين. أما الكاردينال فتخلف عنهم أيامًا بدعوى المرض ثم عاد فلحق بهم إلا أنه آثر البقاء بمدينة ناربون حتى يحكم نسج الشباك حول عصابة المتآمرين، فلما اتخذ للطوارئ أهميتها وأعد للأمور عدتها لحق بالملك في بربنيان وجعل يشكو إليه تدميرات أعدائه وما بيتوه من الشر وأخذ في الوقت نفسه يصلح ما بينه وبين الملك ويزيل ما ساد علاقتهما من التجافي والفتور

وبينما كان الكاردينال إلى جانب الملك يوغر صدره على خصومه، كان أولئك الخصوم يدبرون تنفيذ مؤامرتهم ويجمعون رجالهم تحت قيادة الدوق دورليان مزمعين الزحف نحو قلعة سيدان حيث يجدون الجيش الذي يمدهم به ملك إسبانيا، ومن هناك يزحفون بالجيشين الحليفين إلى بربنيان حيث يفاجئون الملك والكاردينال فيأخذونهما أسيرين

واتفق الماركيز سانمار مع الدوق دورليان والدوق ده بويون على التلاقي بمدينة ليون، وأوفدا إلى مدينة كاركاسون من ينتظر قدوم رسولها فونتراي ليستقدمه إليهما، وبينما الجميع يمرحون في الطمأنينة وينظرون إلى

المستقبل نظر الواثق المطمئن إذا أمر القبض على سانمار وزميله المركيز دي تو ينقض عليهم انقضاض الصاعقة

بدأ الكاردينال بالدوق جاستون دورليان فاستقدمه وقال له: "لم يبق أمامك يا مولاي سوى أن تستغفر لذنبك، وأن تطلب الرحمة من الله. بيد أني أعاهدك على إنقاذ رأسك إذا أنت عاونتني على كشف الستر عن الحقيقة كلها" ورأى الدوق أن لا سبيل له إلى الخلاص إلا بالاعتراف؛ فدوّن اعترافاته في مذكرة رفعها الكاردينال إلى الملك، وكانت بمنزلة الدليل القاطع على إجرام المؤتمرين

وفر المركيز ده فونتراي وصديقه الدوق ده بويون إلى إنجلترا هاربين من وجه العدالة، تاركين سانمار ودي تو فريسة للوزير الهائل. أما سانمار فقد حاول الفرار ولكنه لم ينجح، وضبط الشرط مختبئًا تحت سريره فاقتادوه إلى الملك حيث اعترف بجريمته في ذلة وضعة، وأما المركيز دي تو فكان أكرمهم نفسًا وأعلاهم همة إذ قدم نفسه إلى الملك ليلقى جزاء ما أثمت يداه

وعقد لهم الكاردينال محكمة خاصة بمدينة ليون مؤلفة من خمسة من مستشاري الدولة، وسبعة من مستشاري المحكمة العليا، وجعل رئيسهم صديقه وصنيعته الرئيس سجينه. واستمرت المحاكمة أيامًا صدر بعدها حكم القضاء بإعدام الشريكين..

وتقرر أن ينفذ حكم الإعدام في أحد ميادين مدينة ليون، وجئ بالمتهمين الصديقين فكان منظرهما وهما يتعانقان العناق الأخير منظرًا بالغ الأثر في نفوس الذين شاهدوه، وأديا فريضة الاعتراف للقس الذي صحبهما إلى النطع، ثم جعلا يتنازعان الأولوية في التقدم إلى الموت، وانتهى الأمر إلى أن استبق سانمار الجلاد وجثا على ركبتيه وقال: "قم بواجبك يا سيدي فلست أهاب الموت" وأبى أن تكبل يداه أو أن تغطى عيناه، ثم حيا الحاضرين وقال لجلاده: "هيا يا سيدي"

ونظر المركيز دي تو إلى رأس صديقه العزيز وهو يهوي على النطع فانحدرت من عينه دمعة حارة وقال: "إلى اللقاء أيها الأخ العزيز" وهرع إلى الجلاد وقال: "عجل يا سيدي فلست أريد أن تسبق روحه روحي بكثير"

فضيحة السحر والسموم

في بلاط الملك لويس الرابع عشر

يطيب للمؤرخين الفرنسيين أن يفاخروا الشعوب بعصر لويس الرابع عشر، وأن يباهوا الأمم بسيرة هذا الملك الذي كسف شمسه شموس الملوك حتى أنهم إذا تحدثوا عنه وعن عصره اكتفوا بأن يقولوا: الملك الأعظم والعصر الأعظم، مستغنين بهذه التسمية الفخمة عن كل تحديد وتعريف

وجميل من الفرنسيين أن يعظموا ملوكهم ويفخروا بماضيهم ويظهروا للعالم تلك الصفحة من تاريخهم حافلة بالمبرزين في العلوم والفنون والآداب والسياسة والحروب وأن يصوروا للناس "العصر الأعظم" عصر رقي وبلهينة ومتعة ورخاء، و"الملك الأعظم" ملكًا يسير اليمين في ركابه أينما سار، فإن ولى البر فالتراب تبر ونضار، أو ولى البحر فالأعاصير نسيم ورخاء.

كل هذا حسن وجميل، ولكن ألا يجمل بالمؤرخ – وهو يتوخى الحقيقة ويدونها كما هي، لا كما يحب قوم أن تكون – أن ينزع عن تلك الصورة إطارها الذهبي الوهاج، وأن يديرها ليرى وجهها الآخر وما يحويه هذا الوجه من شناعة يقشعر من هولها البدن ويندى من مخازيها الجبين؟

ألا فلننظر قليلا إلى ما يستتر وراء هذا الإطار، ولنر كيف انحطت الفضائل الإنسانية في ذلك "العصر الأعظم"، وكيف هوت التقاليد والأخلاق إلى الحضيض، وكيف كانت معشوقات الملك يسسن شؤون الدولة، وكيف كان الأدباء والشعراء يمثلون بالمروءة والكرامة، وكيف كان الوزراء يطارودن الأزواج الشرفاء ليحظى سيدهم بزوجاتهم، كيف كان الملك يطأ بقدمه هامات العدل والقانون حرصًا على سمعة معشوقاته، وكيف انغمس النبلاء ورجال الدين في الجريمة حتى بذوا في الإجرام أبشع المجرمين، وكيف ساد التدجيل والسحر والشعوذة عقول أرقى الطبقات، وكيف امتهنت المعاني الإنسانية السامية، معاني الشرف والعرض والأسرة والزوجية حتى صارت من موجبات السخرية والازدراء!

على أننا إذا لم نستطع أن نعرض لفضائح "العصر الأعظم" كلها في هذه الصفحات القلائل، فلا أقل من أن نتناول حلقة واحدة من سلسلة تلك المقابح والمخازي، فنزيح عنها طرف الستار لعل القارئ يلمح شيئًا مما يتوارى وراء تلك المظاهر الفخمة، والظواهر الرائعة، مظاهر البذخ والترف وظواهر العظمة والجلال.

* * *

ألحقت مدموازيل فرانسواز ده مورتمار ابنة الدوق ده موتمار بخدمة ملكة فرنسا سنة ١٦٦٠ وكانت لم تتجاوز بعد العشرين ربيعًا. وقد أعجبت الملكة بجمال وصيفتها وكياستها فاختارت لها زوجًا أحد أعيان

الريف وهو المركيز ده مونتسبان. بيد أن الفتاة الطموح لم تكن لتقنع بالحياة الزوجية الهادئة بعد أن بهرت عينيها حاية القصر والبلاط، ولا لتسكن إلى زوجها الشريف الريفي بعد أن رأت مدموازيل دي لافاليير التي كانت أقل منها جمالا وفتنة تستأثر بقلب الملك لويس الرابع عشر، وتصبح إلى جانب ملكة فرنسا ملكة غير متوجة تعنو لها الوجوه وتحنى أمامها الرءوس، لذلك أبت أن تصحب زوجها إلى قصره في الريف وآثرت أن تبقى في البلاط تغتنم الفرصة كلما سنحت لتبدو أمام الملك تلفت نظره بجمالها وهندامها وتتحين الرظف المناسب لتحل في قلبه محل مدموازيل ده لافاليير

أما جمالها فكان من ذلك النوع من الجمال الأخاذ القهار الذي لا حول للعقل حاله ولا قوة، والذي لا ترضى العين أن تفارقه وهي لا تقوى على أن تواجهه، جمال كالشمس تحس به النفوس وتهفو إليه القلوب ولكن لا تتسامى اليه الأنظار. وأما ظرفها وكياستها فيحدثنا عنها معاصرها المؤرخ سان سيمون إذ يقول: "كانت لطيفة المظهر حلوة الحديث ذات شمائل تخفي ما فطرت عليه من التعالي والكبرياء، وكان لها طابع خاص بها في كل شئ، حتى لتتعذر محاكتها في أي شئ، وحتى ليؤمن الناس بأن من المحال أن توجد امرأة أحد منها ذهنًا وأنقى أدبًا وآصل رأيًا" ومن أراد أن يعرف شيئًا عن رشاقتها وحسن هندامها فحسبه ما تقوله فيهما المركيزة ده سيفينيه: "جمالها لا يحدده الوصف وهندامها كجمالها وأنسها كهندامها، ولقد تبدت أمس في ثوب فيه فروق ألوان الذهب حتى لكأنه نسيج حاكه أمر صناع الجن لتلبسه أجمل نساء الإنس"

لم يطل الانتظار بالمركيزة ده مونتسبان إذ ما لبث الملك حتى وقع في شرك جمالها فاصطفاها خليلة. وآذنت شمس ده لافاليير بالمغيب، فتحولت الأنظار نحو الشمس المشرقة، وسرعان ما أصبحت قبلة الأنظار ومعقد الآمال. ولقد هام بها لويس الرابع عشر هيامًا جعله يتخطى في سبيل إرضائها كل الحدود ويتجاوز سائر الاعتبارات، حتى لقد بنى لها قصرًا بضواحي باريس كاد يحاكي بعظمته وفخامته قصر فرساي، وأعد لها مسكنًا في قصر فرساي نفسه عشرين حجرة تؤوي معيتها وحاشيتها على مرأى ومسمع من الملكة، وجعل من الرسميات المقررة أن تحمل كرام العقائل أمثال الماريشالة ده نواي ذيل ثوب المركزة كلما تنقلت على قدميها من غرفة إلى غرفة حين لم يكن يحمل ذيل ثوب الملكة غير غلام من غلمان القصر. وكانت المركيزة إذا غادرت القصر خرجت في موكب حافل تجر عربتها ستة من الجياد وتحف بالعربة كوكبة من فرسان الحرس الملكي وتتبعها حاشيتها في عربات فخمة، ويستقبلها حكام الأقاليم ووفود المدن، وتؤدى لها مراسم الإجلال على الطريقة التي تؤدى لملكة البلاد. وعين الملك أباها حاكمًا عامًا لمدينة باريس ومنح أخاها لقب "ماريشال فرنسا" وفرض طاعتها على موظفي الدولة حتى الوزراء. وكان يؤم "صالونها" كبار رجال الحكم وكبار الساسة وكبار الأدباء وكبار القواد يتقدمون إليها بالزلفى ويستبقون مرضاتها ويملقون أهواءها حتى باتت في الدولة صاحبة القول المسموع والكلمة التي لا ترد

ولقد رزقت من الملك سبعة أولاد، فرض لويس الرابع عشر على البرلمان أن يقرر شرعيتهم فأقرها وجعل لهم مقامًا مختارًا بين أمراء البيت

المالك وخص البنين منهم بأرفع مناصب الجيش وفرض التزوج بالبنات على من تخيرهم لهن من الأمراء، وهكذا استتب للمركيزة الأمر فباتت تتحدى القدر ولا تؤمن بتقلبات الأيام

* * *

بيد أن الحياة وإن صفت لا بد من أن يشوب صفوها شئ من الألم يذكر الإنسان بأن النعيم الأوفى لا يكتمل في هذه الدنيا، فقد كان للمركيزة زوج أبى القدر المعاند أن يكون متساهلا في شرفه متسامحًا في عرضه كسائر الأزواج في "العصر الأعظم" فلقد كان ممن رسبت في نفوسهم بقية من معنى الرجولة والإباء تجعله يغضب لشرفه وكرامته فكان غضبه يثير الدهشة والاستغراب لدى سكان فرساي، وإنا لنقرأ في ذلك خطابًا عجيبًا كتبته قريبة له اسمها مدموازيل ده مونباسييه لعله يحدثنا عن أخلاق العصر والقصر إذ تقول فيه: "إن المركيز ده مونتسبان رجل غريب الأطوار شاذ الطباع لا يفهم الحياة ولا يميز فيها بين ما يجب وما لا يجب، فلقد جاءني أكثر من مرة يشكو سوء حظه أو ما يعتبره هذا الأبله سوء حظ أي علاقة زوجته بالملك. لقد حاولت أن أقنعه بخطئه وشذوذ مسلكه ولكنه لم يزدد إلا عنادًا وإصرارًا على إخراج المركيزة من فرساي. بيد أني أيقنت آخر الأمر أني حيال مجنون لا سبيل إلى إقناعه أو رده الى الصواب، فذهبت إلى المركيزة زوجته وحدثتها بما كان، ونصحت لها أن تشير على الملك بسجنه. أما هي فقد كانت حزينة يائسة تشكو الحظ التعس الذي قيض لها هذا الزوج المتعب الذي يثير بسلوكه سخرية رجال البلاط.."

اشتد الغضب بالزوج يومًا فقصد إلى زوجته وهي في حفلة من حفلات القصر الساهرة ولطمها على وجهها، ووقف أمام الملك يذكره بالعرف الإنساني والآداب الاجتماعية، ويتلو آيات الكتاب المقدس التي تتوعد الزاني والزانية بالعقاب العاجل في الدنيا والقصاص الآجل في الآخرة، وظل يخطب والحاضرون يضحكون حتى ضاق الملك به ذرعًا فأمر بطرده فاقتادوه كما لو كان مجنونًا يخشى شره ويتقى أذاه..

نعم.. كان رجال البلاط يضحكون من الزوج المنكوب في عرضه وشرفه ويتخذون من نكبته سخرية وفكاهة، ولكن كان هناك شخص لا يضحك ولا يسخر، ذلك هو الملك الذي كان يشعر ببشاعة جريمته ولا يقوى على التكفير عنها، ويدرك أنه لولا تسامح البيئة الفاسدة التي يعيش في وسطها لأودت هذه الجريمة بعرشه ولعصفت بتاجه وصولجانه

ولقد ازدادت هواجس الملك وساورته الهموم لما أصبحت المركيزة أمًا، فقد كان يحب أولاده منها ويعرف صراحة القانون في أن الطفل الذي يولد أثنا قيام الزوجية يعتبر ابن الزوج مهما كان الواقع غير ذلك، وكان يخشى أن يخطر لزوج المركيزة أن يطالب بأولادها باعتبارهم أولاده في نظر القانون. وازداد موقف الملك حرجًا لما أصدر مطران مقاطعة سانس حكما يحرم سيدة كانت تعيش كما تعيش المركيزة في حيازة رجل غير زوجها. وكانت مطرانية سانس تشمل بلدة فونتبلو التي كان البلاط مقيمًا بها يومئذ، فلقد أدرك الملك أن معشوقته هي المقصودة بهذا الحكم، وأدركت

المركيزة ذلك أيضًا فغادرت أيضًا فونتنبلو ولم تعد اليها إلا بعد وفاة ذلك القس النبيل

وأيقن الزوج آخر الأمر أن كل مساعيه ومشاغباته في سبيل استرداد زوجته ذاهبة سدى، وآذنته الفراسة أن الملك لن يجيب من علياء العرش على توسلاته إلا بالقبض عليه وزجه في السجون، فلبس يومًا ثياب الحداد وشارات الحزن، واستقل عربة مجللة بالسواد، وأقبل على القصر يستأذن الملك في السفر إلى مزارعه، ولقد كان منظر الزوج المحزون يومئذ منظرًا مؤثرًا جمع حوله قلوب الذين كانوا يسخرون منه بالأمس، وتبدت جريمة الملك بشعة أمام العيون، وأحس الماجنون والمستهترون بغلظة ذلك العاهل الذي يسخر قوى العرش في استباحة الأعراض والكرامات، ولكن الشاعر العظيم موليير، شاعر الأخلاق، أبى الا أن يسخر بلاغته في خدمة الجريمة، فألف روايته الشهيرة Amphitryon ومثلها على مسرح القصر وانهال فيها على الزوج التعس دعابة وسخرية ومجونًا حتى أضحك الساخطين والناقمين وأعادهم إلى صف الملك، وانطلقت الأكف تصفق والحناجر تهتف للشاعر الماجن وهو يقول: "ياليت شعري هل في مشاركة الأرباب من عار؟"

سافر المركيز إلى مزارعه، وحدث وهو في طريقه إليها أن اشتبك مع رجاله في مشاجرة مع عمدة قرية بربنيان، ورفع الأمر إلى الوزير الأكبر لوفوا، فكتب هذا الوزير إلى حاكم المقاطعة كتابًا يقول فيه:

"إن أوامر جلالة الملك تقضي بإجراء تحقيق سريع بطريقة تؤدي إلى إدانة المركيز ده مونتسبان وتجعل عقابه أمرًا محققًا، وحبذا لو استطعتم أن تحملوا الشهود على أداء شهادة من شأنها أن تضاعف خطر الجريمة المعزوة إليه حتى يكون في الإمكان القضاء عليه مع المحافظة على مظاهر احترام العدل والقانون. ولا شك أنكم تقدرون أهمية الأمر قدرها عندما أقول لكم أن لدينا من الأسباب ما يدعو إلى ذلك وأن المسألة مسألة جلالة الملك...."

وهنا نترك للقارئ أن يظن بالعدالة في "العصر الأعظم" ما يشاء، موقنين أن كتاب الوزير لوفوا غني عن كل تعليق، ونستمر في حديثنا فنقول: إن المركيز ده مونتسبان أحس أن الملأ يأتمرون به ليقضوا عليه، ففر إلى إسبانيا هاربًا من وجه الملك الطاغية، ملتمسًا من عدل الله بعد أن يئس من يأس من عدل الناس، وازدادت مخاوف لويس الرابع عشر بعد أن أصبح زوج خليلته طليقًا في بلاد لا سلطان له عليها، وخشي أن يعمد الى المطالبة بأولاد زوجته، فأوعز إلى معشوقته أن ترفع الدعوى على زوجها أمام المحكمة طالبة الانفصال عن زوجها جسمًا ومالا. ورفعت الدعوى وظلت معلقة أمام محكمة الشاتليه، ووقف القضاة حيارى بين ما يريده الملك وما يريده الحق، ولكن الحيرة لم تلبث طويلا بعد أن لوح الملك لكبير القضاة بكرسي وزراة الحقانية، فصدر الحكم في ٧ يوليو سنة ١٦٧٤ قاضيًا بفصل المركيزة عن زوجها بحجة أن الزوج بدد الثروة المشتركة، وأساء معاشرة الزوجة وأنه غير كفء لها.. وهكذا قدر على "الملك الأعظم" أن يمتهن حرمة العدل بعد ان امتهن حرمة العرش وحرمة الرعية..

كانت السنون قد انقضت على تلك العلاقة الغرامية الأثيمة، وبدأ السأم يتسرب إلى قلب لويس الرابع عشر لما تلألأت في سماء فرساي أنجم رنت إليهن عين الملك بعد أن ملت طلعة المركيزة ده مونتسبان طوال تلك السنين. وكان أول تلك الأنجم مدموازيل ده روشفور تيوبون، وقد مرت بقلب الملك مرورًا لم يكن له ما بعده، ولم يحفل به غير المعشوقة المهجورة التي رأت فيه بدء نهايتها. وجاءت بعدها الأميرة دي سوبيز التي قال عنها أحد ظرفاء البلاط: أنها أحبت الملك لفرط حبها لزوجها، ذلك أنها تريثت ريثما حصلت لزوجها على ما كان يتطلع إليه من رتب ومناصب ومعاش، ثم حزمت أمتعتها وانسحبت في غير ضجة معلنة أن المكان شاغر لمن تريد أن تشغله، ولحقت بزوجها الوديع الهادئ فألفته قرير العين مرتاح النفس إلى تلك الغيبة المفيدة المنتجة، يرى رأي موليير وينادي معه: "يا ليت شعري هل في مشاركة الأرباب من عار؟"

وخلفتها على سرير المعشوفات مدام ده لودر فكان بدرها يسطع حينًا ويخسف حينًا، حتى أفل أفولا لم تعد بعده شيئًا مذكورًا، وانصرف الملك عنها إلى مدام دي مانتنون أرملة الشاعر سكارون وكانت قد ألحقت بالقصر مربية لأولاد المركيزة فما لبثت أن شغلت مكانها من قلب الملك وأصبحت المحظية المدللة، وانتقل إليها ما كان يحف بالمركيزة من مظاهر العناية والإجلال والتعظيم.

ولكن يلوح لمن يتتبع سيرة الملك لويس الرابع عشر في غرامياته أنه كان متعطشًا إلى حب جدي يملأ الفراغ الكبير الذي أحدثه زهده في

المركيزة ده مونتسبان وأن في نفسه مثلا أعلى من الجمال والأنوثة لم يصادفه في كل من تلك العشيقات، وإلا فكيف تفسر اندفاعه نحو الواحدة منهن بجمعة قلبه ونفسه حتى ليظن المحيطون به أن جميلا قد صادف بثينته أو أن قيسًا قد وقع على ليلاه، ثم لا تنقضي أسابيع أو شهور حتى يعاوده الضجر وينتابه السأم، فيهيم بين نساء البلاط يفتقد المرأة التي يناديها قلبه فلا يجدها؟

وساق إليه الحظ المواتي ضالته المرجوة في شخص فتاة في الثامنة عشرة من عمرها شقراء كالسنبلة تفيض عيناها الزرقاوان طفولة، ويقطر وجهها عذوبة، وتنضج روحها رقة وبشرًا. تلك كانت مودموازيل أنجيليك ده فونتانج، سليلة أشراف تخطاهم الحظ وقعدت بهم صعوبات الزمن، وسحرهم ما كانوا يسمعونه عن معشوقات الملك، فأرادوا أن يكون لفتاتهم من هذا النعيم نصيب، وأرسلوها إلى القصر وصيفة متوسمين فيها ما يجعل فؤاد الملك يهوي إليها فلم يخطئوا الحساب. ولقد هام بها لويس الرابع عشر وأعطاها من قلبه ومجده ما لم تحظ بمثله عشيقة من قبل، وتوسطت شمسها سماء فرساي فكسفت ما كان يحيط بها من الاقمار، وأيقن سكان القصر أنهم باتوا أمام الكوكب الذي لا يأفل بل حيال الشمس التي لا تغرب ولا تغيب

دبت أفاعي الغيرة والحسد في قلب المركيزة ده مونتسبان وجعلت تروح وتغدو هائجة مضطربة، تستقبل أحيانًا أناسًا غير معروفين لأحد من رجال القصر وتنتبذ بهم من البطانة في مخدعها مكانًا منعزلا، فلا يدري

أحد ما يدور بينها وبينهم من الأحاديث أو الأعمال. وثارت كبرياؤها لما فرض عليها الملك البقاء في فرساي لترمق بعينيها دورة النجم الجديد في سماء البلاط، فهدرت وزمجرت وطار صوابها حتى قالت للملك يومًا وهي تغاضبه: إنها تحمد الله على هذا الفراق الذي أراح أنفها من رائحة إبطيه النتنة. ثم اعتكفت عن الناس أيامًا ظنوا فيها أنها تبكي وتنتحب وتندب عزها الزائل ودولتها الدائلة، ولكن الله يعلم أنها كانت تفعل غير ذلك..

بيد أن العام لم يتم دورته حتى كان الموت قد اختطف الدوقة أنجيليك دي فونتانج، فذهب الناس في تأويل ميتتها كل مذهب، فمن قائل أنها ماتت مسمومة، ومن قائل أنها ماتت بفعل السحر، ومن قائل غير ذلك. أما نحن فندع الحوادث تتكلم والتاريخ أصدق الحاكمين

بينما كانت هذه الفضائح والمخازي تجري في قصر فرساي، بينما كان الملك ينتقل بين عشيقاته كما تنتقل الشمس في البروج، وكانت السلطات القضائية تحقق قضايا السحر والسموم، وقد اندلعت ألسنة تلك القضايا الفاضحة، فهاج لها الرأي العام حتى لم يثق بالقضاء العادي، فأمر بتشكيل محكمة خاصة مستعجلة تتولى تحقيق تلك القضايا والفصل فيها، وكانت قضية المركيزة ده برانفلييه – المتهمة بتسميم أبيها وزوجها وأخويها وعشاقها وخدامها – قد فتحت العيون وكشفت أمام المحققين عن أجواء واسعة في عالم الإجرام.

وكان قساوسة كنيسة نوتردام قد أعلنوا من غير أن يعينوا الأسماء ولا الأشخاص أن معظم الذين وفدوا عليهم لتأدية فريضة الاعتراف واعترفوا بأنهم سمموا بعض الأفراد. وكانت الريب والظنون قد أحاطت بمصرع دوقة أورليان قريبة الملك، وبالميتة العجيبة التي ماتها الوزير هود دي ليون وبالأمراض التي صحبت مرض الدوق سافوا حتى وفاته. وكان أولو الأمر قد ضبطوا ورقة سقطت من "جيب" أحد المترددين على كرسي الاعتراف بكنيسة الآباء اليسوعيين، وفيها مشروع مؤامرة لتسميم الملك وولي العهد، فاهتم الملك للأمر أيما اهتمام، وانعقدت المحكمة المستعجلة وظلت توالي التحقيق حتى هداها البحث إلى شخص ضبطت بين أوراقه وثيقة يفهم منها وجود جمعية واسعة النطاق تضم السحرة والمشعوذين والكيميائيين ومزيفي النقود، ولها أعضاء كثيرون منبثون في قصر الملك وفي بيوت الأمراء والنبلاء والأشراف.

ووفق النائب العالم إلى ضبط جمعية أخرى من السحرة تتزعمها امرأة اسمها مونفوازان لم يلبث خطرها أن تجلى لعيون المحققين لما أيقنوا أن هذه المرأة كانت تتآمر مع المركيزة ده مونتسبان على حياة الملك، ولما قام أمامهم الدليل القاطع على أن المركيزة كانت تختلف إلى أعضاء تلك الجمعية لتستعين بعملهم وسحرهم على الاستئثار بقلب الملك وعلى الكيد لمافساتها من العشيقات.

ولكي يدرك القارئ أهمية السحر في "العصر الأعظم"، ومبلغ اعتقاد الناس فيه، نقول إن الفيلسوف اللاهوتي الكبير بوسويه كان يؤمن بالسحر

ويثق بقوة أثره في حياة الإنسان، وإن المحاكم كانت تعتبر قضية مسلمًا بها فتصدر الأحكام بعقاب السحرة على ما ارتكبوه بسحرهم ضد الناس، وأن السحر كان علمًا يرثه الأبناء عن الآباء ويحتفظون بسره لذراريهم وديعة يلقنونهم إياها ويحرصون على تعاليمهم أن تذاع، وكان بعضهم لا يعترفون بمعرفتهم أصول السحر حتى فوق آلات التعذيب، بل وفوق النطع ساعة الإعدام. ولقد كان الانتقام من العدو بوسائل السحر أمرًا مألوفًا بين الشعب سواء في ذلك المتعلمون والجهلاء والطبقة الدنيا وطبقة النبلاء

على أننا لا يهمنا هنا من أمر السحر في القرن السابع عشر إلا ما يتعلق ببطلة موضوعنا المركيزة ده مونتسبان، فلقد ثبت للمحققين أنها بدأت تزور دور السحرة حوالي سنة ١٦٦٦ وهي السنة التي تطلعت فيها إلى استهواء الملك واعتزمت أن تنزل من قلبه منزلة المعشوقة المحبوبة. وفي ذلك تقول ابنة الساحرة مونفوازان في محضر التحقيق لما جئ بها بعد إعدام أمها لتقرر ما تعلمه من علاقات المركيزة بأمها الساحرة: "إن المركيزة كانت تهرع إلى والدتي كلما آنست من الملك ملالا وفتورًا ، أو صادفت منه إعراضًا ونفورًا، وكانت والدتي تصحبها إلى بعض القسس ليقيموا لها صلوات خاصة من شأنها أن تقربها إلى قلب الملك، وكان القسس يصنعون لها مساحيق تدسها في طعام الملك، وهذه المساحيق تسمى مساحيق الغرام، ولتركيبها طرق مختلفة أعرف منها مزيجًا من الذراريح (الذباب الهندي) ودم الخفاش وأجزاء من رءوس حيوانات صغيرة تجفف وتسحق

وتخلط بالدم البشري وتصنع منها في النهاية عجينة يأكلها الملك بعد أن يباركها القسيس"..

وشهد الساحر لوساح أمام المحققين فقال: "إن المركيزة كانت تعتمد في اجتذاب الملك إليها على الأب ماربيت قسيس كنيسة سيفران الذي كان يلبس المسوح الكهنوتي ويصلي أمام الهيكل بعض صلوات يرتل خلالها الأناشيد الكنسية. ثم كانت مدام ده مونتسبان تركع على ركبتها فيباركها الأب ماربيت وهو واضع يديه على رأيها بينما هي تدعو وتبتهل الى الله أن ينيلها أمنيتها فتقول: "أريد أن يخصني الملك بحبه وولي العهد بصداقته، وأريد أن لا يفتر الملك من حبي وأن تصبح الملكة عاقرًا وأن يعاف الملك سريرها ومائدتها وأن يجعل لي الحظوة الكبرى حتى لا يرد لي أمرًا ولا يخيب رجاء. وأريد أن أظل مهيبة محترمة من أعيان الدولة وكبرائها، وأن يدعوني الملك ليستنير برأيي في كل المسائل، وأريد أن يحل غضب الملك بالآنسة لافاليير فيكرهها وأن يحدث ما يحمله على طلاق زوجته فأتزوج به وأصبح ملكة فرنسا"

ويستطرد الساحر لوساح في تقرير معلوماته فيقول: "ولقد رأيت الأب ماريت مرة وهو يشق صدر حمامتين ويخرج قلبيهما يقطران دمًا ويبارك أحدهما ويسميه لويس الرابع عشر ويبارك الثاني ويسميه المركيزة ده مونتسبان، ثم يضم القلبين الواحد الى الآخر وهو يصلي ويقول: "فليكن كذلك أمر صاحبي هذين الاسمين"

وشاءت الأقدار أو المصادفات العجيبة المدهشة أن تلفت المركيزة نظر الملك على أثر هذه الصلوات، فما أن كاشفها الملك بحبه حتى أيقنت أن السحر قد بدأ يؤتي ثماره، فاندفعت تجوب أندية السحرة يقودها إليها الشفالييه فانانس، وظلت تنتقل من ساحر إلى ساحرة حتى تعرفت إلى قسيس اسمه جيبور، كانت له على ما ظهر خبرة واسعة بفنون الزار ووسائل استخدام الجن، ولقد قصدت إليه المركيزة ذات ليلة ليسعفها بما أوتي من العلم فأقام لها زارًا يصفه أحد الشهود في محضر التحقيق فيقول:

"خلعت المركيزة كل ثيابها حتى ما يستر العورة ونامت عارية الجسد على مقعد مستطيل وأقبل الأب جيبور يمسح جسمها بيده وينادي: يا أستاروت ويا أسموديه ويا ملوك الحب أسألكم أن تقبلوا هذه الضحية التي أقدمها إليكم وأطلب منكم أن تشملوا هذه المرأة بعطفكم ورعايتكم وأن تجعلوها محبوبة الملك لا يشاركها في قلبه وعواطفه أحد.. ومد القس يده وراء ستار وحمل طفلا صغيرًا لا يتجاوز عمره الشهرين وتناول سكينًا غرسه في رقبته وقدحًا تلقى فيه دم الطفل حتى امتلأ وفاض، ثم ألقى الطفل الذبيح جانبًا وكان قد مات، فحملته امرأة وخرجت به من وراء الهيكل، وأقبل القسيس بقدح الدم يطوف به حول رأس المركيزة وقلبها وهو يتمتم صلوات لم أفهم منها كلمة، ثم عاد ينادي استاروت واسموديه وملوك الجن وهو جاثم أمام جسد المرأة العارية. ونهضت المركيزة بعد ذلك ونفحته مبلغًا كبيرًا من المال وانصرفت"

ولقد تردد المحققون أول الأمر في تصديق هذه الشهادات لفرط شناعة ما ترويه، فاستحضروا عشيقة الأب جيبور – وكانت لا تعرف أنه متهم – وسألوها أن تقص عليهم كيف كان رفيقها يقيم الزار على جسد المركيزة فأنكرت وأصرت على الإنكار حتى إذا ما رأت آلات التعذيب تنصب أمامها اعترفت وجاء اعترافها مؤيدًا لشهادة الشهود، ثم جئ بالقس جيبور فأدلى إلى المحققين باعتراف كامل شامل قضى على كل الريب والشكوك

ورجع المحققون إلى النشرات الطبية التي كان الطبيب الخاص يذيعها عن صحة الملك كلما مرض، فوجدوا تواريخها منطبقة على التواريخ التي عينها الشهود لزيارة المركيزة أندية السحرة الذين كانوا يقدمون إليها المساحيق والسوائل ليأكلها الملك ويشربها. ولقد كانت بعض النوبات العصبية وأوجاع الرأس والمفاصل وآلام المعدة والأمعاء تعتري الملك فيحار الأطباء في تعليلها وفي وسائل شفائه منها.

ولشد ما كانت دهشة المحققين عندما اتضح لهم آخر الأمر أن تلك الأمراض الطارئة لم تكن إلا نتيجة ما كانت المركيزة الجميلة تدسه لعشيقها في المأكل والمشرب بواسطة خدام تختارهم خاصة لخدمته على المائدة

ولعمر الحق كيف كان يجوز للمركيزة أن تشك أو تتردد في الإيمان بفعل السحر وأثره فيما تبتغيه وهي ترى نجمها مطرد الصمود، والملك يهجر عشيقاته عقب كل زار ليعود إليها باكيًا تائبًا مستعطفًا؟ وكيف لا

تؤمن بعلم القس جيبور وخبرة الأب مارييت وهي ترى الملك ينفر شيئًا فشيئًا من عدوتها لافاليير حتى ينتهي به الأمر الى أن يكرهها على أن تقوم بخدمة المركيزة كإحدى الوصيفات، ثم يعرض عن مدام ده لودر ولما يمض معها ليال معدودات، ويزهد في الأميرة سوبيز فتبرح القصر ولا تعود تخطر له ببال، ويهجر مدام ده مانتون فلا يزورها إلا لمامًا بعد أن هام بها كالمجنون؟

حقد النساء كافر، فإذا امتزجت به الغيرة أخرج المرأة عن صوابها ودفع بها إلى أقصى حدود الشر والجريمة. ولقد يهون على المرأة كل شئونها لكن لا تهون عليها كبرياؤها تدوسها امرأة أخرى تنازعها قلب عشيقها. ولقد وجدت المركيزة ده مونتسبان في هذه الحالة النفسية الحادة فعقدت مؤتمرًا من السحرة وشاورتهم في الأمر فلجأوا إلى الوسائل القصوى في السحر، ولكن حب الملك للدوقة الشابة أنجيليك ده فونتانج كان أقوى وأمنع من أن تؤثر فيه الصلوات والرقى والتعاويذ. إذن فلا وسيلة إلا السم، وليهلك الملك ولتهلك الدوقة وليكن بعد ذلك من الأمر ما يكون

وكان للملك يوم من كل شهر يجلس فيه على العرش ليستقبل المظلومين والضعفاء من رعيته يرفعون اليه تظلماتهم وشكاياتهم في عرائض مكتوبة. فاقترحت المرأة مونفوازان أن تذهب بنفسها إلى القصر لترفع إلى الملك عريضة تطلي ورقها بذلك السم حتى إذا مستها يده سرى الدم في دمه فلا ينجو من أثره القاتل. أما الدوقة ده فونتانج فقد استحضرا لها أحد أتباعها وألبساه لباس تجار الأزياء وزوداه ببضائع فيها قفاز مسموم

صنع من أجمل أنواع الجلد وزركش أحسن زركشة، وأرسلاه إلى الدوقة يعرض عليها بضاعته ويغريها بتجربة القفاز الجميل

ولكن شاء حسن حظ الملك أن يمرض في اليوم المعد لاستقبال أصحاب الشكايات، فكان لا مناص للساحرة من انتظار مثل هذه اليوم من الشهر التالي، ثم لم تمض أيام حتى قبض عليها لتهم أخرى فأحرقت العريضة المسمومة، وهكذا نجا لويس الرابع عشر من الهلاك بأعجوبة من أعاجيب المصادفات. أما الدوقة ده فونتانج فقد لبست القفاز فاعتلت صحتها فجأة وكانت في الشهر الأخير من أشهر الحمل فلما وضعت لم تقو بنيتها المتهدمة من أثر السم على تحمل آلام الوضع فماتت. وهكذا استراحت المركيزة ده مونتسبان من تلك المزاحمة التي طالما جعلتها تنام بليلة الملسوع

* * *

انتهت المحكمة المستعجلة من تحقيق هذه القضية البشعة ورفع النائب العام تقريره إلى الملك مسهبًا حاويًا كل تلك التفاصيل يؤيدها من الأدلة والبراهين ما لا سبيل إلى الشك فيه. وفتح الملك عينيه على تلك الحقائق المرعبة ووقف على ما كانت تكيده له هذه المرأة التي حسبها ملاكًا طاهرًا فإذا هي تتكشف عن وحش مخيف فألقى نفسه بين أمرين أحلاهما مر: إما أن يدع العدالة تجري في مجراها وتأخذ الفاجرة بما أثمت، وهي التي خصها بأوفر نصيب من قلبه ومجده، وظل يرفعها حتى كادت

ترتقي العرش، وهنا لا مفر من فضيحة يسير بذكرها الركبان ويتحدث بها العالم وتظل لاصقة باسمه وبأسماء أبنائه، وإما أن يطوي أوراق القضية وينقذ المجرمة من براثن القانون لينقذ شرفه وسمعة بلاطه مما يكشف عنه التحقيق. ولقد آثر الثانية وأصدر أمرًا بحل المحكمة المستعجلة وبوقف الإجراءات فيما يتعلق بالمركيزة وبإحراق المحاضر حتى لا يبقى لتلك المخازي أثر رسمي وثابت في الأوراق، مكتفيًا بما أصدرته المحكمة من أحكام على السحرة شركاء عشيقته في الإجرام.

وأقبلت المركيزة على الملك تبكي وتستغفر وتجثو أمامه وتتوسل إليه بالدموع الحارة والتوبة الصادقة، وتحاول أن تبرر جرائرها بمختلف الأعذار وشتى الملطفات، فلما استنفدت ما لديها من الوسائل وآنست منه عدم الاكتراث لها تحركت في نفسها كبرياء المرأة وتجمع في ذاكرتها ما قاسته من آلام الغيرة وتباريح الجوى وما أصابها من المهانة والإذلال. فهبت واقفة وأمطرت الملك وابلا من اللوم والتعنيف قائلة أنها إذا كانت قد أقدمت على ما أقدمت عليه فلان حبها كان أقوى من صوابها ولأن الملك لم يرحم كبرياءها الجريحة وعزتها المستباحة، وختمت دفاعها وهي تهوي إلى الأرض فاقدة رشدها قائلة: "والآن هذه أم أبنائك بين يديك فاصنع بها ما تشاء"

وغادرت المركيزة القصر وهجرت باريس وانتبذت من الناس عزلة قصية في دير من أديرة الريف. وقد حرم الملك على أهل حاشيته ذكر

اسمها أمامه، حتى إنه لم يسمح لها بحضور حفل زواج ابنها وابنتها وحرم على أولادها لبس الحداد عليها بعد مماتها

وكأن حياة التدين والرهبنة قد أوحت إلى قلب هذه المرأة العاتية بعض الشعور بالندم على ما أسلفت، فتوسلت إلى زوجها المركيز ده مونتسبان أن يعفو عنها وأن يتقبلها في بيته تائبة نادمة، ولكنه أرسل إليها يقول: أنه لا يريد أن يراها ولا أن يسمع بها ما دام حيًا.. وهكذا قضي عليها أن تعيش في الدير المنعزل سبعة وعشرين عامًا تصلي وتزكي وتواسي المرضى والفقراء وأبناء السبيل، ثم وقفت كل ما لها على أعمال الخير والبر والتقوى عسى أن تتسع رحمة الله لما أجرمت، واستقبلت الموت باسمة هادئة وهي تقول: "إن الله أرحم من أن لا يغفر لضعيفة مثلي، وهو الغفور الرحيم.."

مأساة عقد الملكة

لم تقاس نبيلة في حياتها ما قاسته "جان ده فالوا" التي عرفت فيما بعد باسم "الكونتس ده لاموت" فلقد شبت هذه الفتاة في أحضان الفقر وعاشت عيشة مضطربة ملأى بالحوادث والفواجع، فمن حياة العدم والفاقة إلى حياة البذخ والترف، إلى أن انتهت إلى كل ما ينتهي إليه المجرمون من التعذيب والسجن والتشريد، فلما كانت طفلة كانت تسير في الطرقات تستطعم المارة وتستجديهم وتتناول الدريهمات، مادة يدها الصغيرة قائلة: "أكرموا يتيمة من سلالة آل فالوا" فإذا جمعت من صدقات الموسرين ما يملأ حفنتها هرعت إلى أمها راضية مرضية..

وأتاحت لها رحمة الأقدار محسنة انتشلتها من براثن العدم وأدخلتها ديرًا من أديرة الراهبات أمضت به سنوات ثقلت عليها فيها حياة التدين، ففرت من الدير هائمة على وجهها حتى حلت ضيفة ثقيلة على أسرة كريمة في ريف فرنسا. ولم تبرح دار هذه الأسرة حتى كانت قد تزوجت بأفاق فقير يحمل لقب "الكونت دي لاموت" وكل ظروفه تحمل على الشك في صحة لقبه ونسبه. وأقامت معه في باريس تستثمر ملاحتها وحسن قوامها وتعيش من عطف هواة الجمال المبذول والعرض المباح والحب الرخيص؛ كانت جميلة فاتنة وكانت متوقدة الذهن ماكرة، عركت صروف الزمان، وجست بإصبعها مواضع الضعف في الرجال، وعلمتها الحاجة سعة الحيلة وحسن التدخل ولطف التخلص، وأكسبتها حياة البؤس

والأملاق خبرة واسعة في اكتساب العطف والثقة، وقدرة هائلة على الكذب والمخاتلة، فإذا أرادت أن تكذب كان كذبها أشبه الأشياء بالصدق، فهي تستعين بحركات يديها وأسارير وجهها في توكيد ما تقول حتى ليقع في حبالها أكثر الناس احتياطًا وأشدهم تنبهًا وحذرًا

استطاعت جان ده فالوا أو الكونتس ده لاموت أن تتسلل إلى الأوساط الباريسية العالية، وأن تحيط نفسها برعاية بعض الأسر النبيلة، وقد جبلت الأستقراطية في كل زمان على أن تحنو على النبيل الفقير، وعلى أن تكرم عزيز قوم ذل. وهل يعطف على ذل النبيل إلا النبيل؟.. وظلت جان تتسلل من وسط إلى وسط تتحدث في كياسة ولباقة عن ماضيها التعس وحاضرها الحزين، يعاونها شبابها وجمالها على اكتساب محبة الناس واستدرار عطفهم. وكأن ما لقيته من النجاح المتواصل جعلها لا تقنع بمعاشرة أعظم الأسر الباريسية حسبًا وأرفعها شأنًا وذكرًا ، فحبب إليها الطمع – والقزم اذا أنس في نفسه بعض القوة تنمر – أن تتقرب من الملكة ماري أنطوانيت زوجة الملك لويس السادس عشر..

اتخذت الكونتس جان ده لاموت في سبيل الوصول إلى الملكة سبلا شتى، ولكن أبواب الملوك لا تفتح لكل طارق، فلما أعيتها الحيل وضاقت بها السبل لم تجد بدا من أن تكون صديقة الملكة رغم أنفها، ورغم أنها لم تسمع بها ولم تشعر بوجودها..

وانطلقت جان في الأوساط الباريسية تزعم بأساليبها الخادعة أن صاحبة العرش لما علمت أمرها رقت لحالها واستدعتها إليها واستمعت لحديثها ثم أحاطتها بعنايتها وغمرتها بنعمتها واصطفتها صديقة لها، وكانت، كلما جلست إلى كبير أو ذات شأن، تطنب في مدح الملكة والتحدث بآلائها ونعمها وتصف الدموع التي كانت تنحدر من عينيها وهي تسمع كيف كانت جان الصغيرة سليلة آل فالوا ملوك فرنسا تطوف بالسكك والدروب تتسول عشاءها أو ثمن الدواء لأمها المريضة، وتنتقل من ذلك إلى التحدث بما أسبغته عليها ماري أنطوانيت من نعم جزيلة وخير وفير، وتتدرج من هذا وذاك إلى أن تسرد لمحدثها أنها صارت الملكة الصاحبة التي إليها يشتكي الحزن والصديقة التي إليها ينتهي الجزل..

وشاءت المصادفة أو شاء القدر المسيئ أن تتعرف الكونتس جان ده لاموت بالكاردينال لويس ده روهان عميد الكنيسة الفرنسية وابن عم الملك لويس السادس عشر ، والكاردينال ده روهان شاب جميل غني مسرف متلاف، عينه الملك سفيرًا في بلاط النمسا فبهر أعيان فيينا بفخامة مخبره وسمو مظهره حتى كسفت أبهته أبهة البلاط. ولم يكن ثوبه الكهنوتي ولا لقبه الديني ليحولا بينه وبين أن يمرح في حياة اللهو ومرح كل شاب له من جماله ونسبه وماله ما يذلل أمامه حصون الجمال ومعاقل الفضيلة والعفاف. فلما كثرت حوادثه الغرامية وذاعت صلاته النسوية لم تجد إمبراطورة النمسا بدًا من أن تكتب إلى ابنتها ملكة فرنسا لتحث زوجها على سحبه.

وعاد الكاردينال روهان إلى فرنسا وتسلم منصب عميد الكنيسة الفرنسية وهو منصب يعادل وزير الأديان في هذه الأيام، وقد كانت له فيما مضى شوكة وعظمة. واستبشر الكاردينال الشاب بالمستقبل واتسعت أمامه دائرة الأماني والآمال وذكر ما كان من غرام الكاردينال مازاران بالملكة آن دو تربش، وما كان من غرام الكاردينال ريشليو بالملكة ماري دي ميدسيس، وأوحت هذه الذكريات إلى نفسه الطامحة أن يحذو حذو سلفيه العظيمين فيتخذ من قلب الملكة ماري أنطوانيت سلمًا يرقى به إلى الحكم فيصبح في فرنسا الملك غير المتوج، وفي أوربا الرجل الفذ صاحب القول الفصل والأمر الذي لا يرد، ولكنه ما كاد يستقر بباريس حتى أحس نفور الملكة منه وغضبها عليه، وأدرك أن ما كانت تكتبه الإمبراطورة إلى ابنتها قد أوغر صدر هذه عليه، وأن سياسة أسرته التي كانت تعارض سياسة الملكة في التقريب بين فرنسا والنمسا قد ضربت بينه وبين الملكة الشابة سدًا منيعًا. عندئذ عرف من أين هبت عليه الريح التي اقتلعته من سفارة فيينا وأيقن أن لا سبيل إلى تحقيق مطامعه ما دامت الملكة غاضبة عليه، فآلى على نفسه ليتزلفن إليها وليستعيدن رضاها مهما كلفه الأمر وأمضه الصبر، وظل يتربص الفرص ويتحين الظروف

وهذا هو الكاردينال ده روهان بطل هذه الحادثة التاريخية العجيبة التي نرويها، وتلك هي المطامع التي كانت تعمر نفسه لما تعرف بالكونتس جان ده لاموت صديقة الملكة ومستودع أسرارها على ما كانت تزعم وتقول

وأقبلت جان على الكاردينال تحدثه عن حاضرها وماضيها فتثير عطفه وحنوه حتى خصها بنصيب وافر من صندوق النذور، وعاون زوجها في الحصول على رتبة في الجيش، ثم توثقت بينهما رابطة الإشفاق والإعجاب من ناحية، ورابطة عرفان الجميل مع الرغبة في الاستغلال من الناحية الأخرى

وجاء ذكر الملكة عرضًا في سياق الأحاديث، ووقف الكاردينال على تلك الصلة المتينة المزعومة التي تربط صديقته الجديدة بالملكة الشابة فألفاها سبيلا معبدًا إلى تحقيق ما كان يجيش في صدره من المطامع والأماني. وكان كلما قطعت جان التحدث عن الملكة عمل على وصله والاستزادة منه حتى فطنت إلى ما وراء هذا الشغف بالملكة وبذكرها، فكانت لا تجود عليه من الحديث إلا بالقدر الذي تهتاج به نفسه ويحرك فيها الرغبة في المزيد. وهي كلما أسرت اليه شأنًا من شؤون الملكة الخاصة أقسمت أنها ما كانت لتبوح به لولا أنه ولي نعمتها، وتستحلفه أن لا يدع هذه الأسرار الخطيرة تتسرب إلى أسماع الناس حتى لا تلوك ألسنتهم اسم الملكة وسيرتها

وغلبت مهارة المرأة فطنة الرجل، والمرء مفطور على تصديق ما يوافق هواه، وكشف الكاردينال لصديقه الكونتس عن دخيلة نفسه وأفضى إليها بما يرجوه على يديها من الآمال، وتوسل إليها أن تكون وسيطة خير وصلح بينه وبين الملكة وأن تعمل جهد طاقتها لترضاها عنه لعلها ترضى

ومضت بعد ذلك أيام وجان تروح وتجئ موهمة أنها ذاهبة إلى القصر أو عائدة من القصر، وكان يحدث أن يذهب الكاردينال ليزورها نهارًا فيلقاه زوجها قائلا بلهجة المهموم الحزين: أنها ذهبت إلى فرساي، فإذا أعاد الكرة في المساء ألفى الزوج يندب حظه الذي جعل الملكة تستأثر بحب زوجته فتصرفها عنه وعن بيته، ويستشيره في خير الطرق وأنجعها في قطع هذه العلاقة الملكية التي إن كانت تشرفه فهي تفسد عليه حياته وتكدر صفوه المنزلي

كل هذا والكونتس تطمئن الكاردينال على حسن سير الأمور، وتؤكد أنها لا محالة ناجحة في تحويل عواطف الملكة إليه، وكان يوم دخل الكاردينال على صديقته فألفاها متهللة مشرقة يكاد الفرح ينفجر من أساريرها، فما أن دنا منها حتى طوقته بذراعيها وأوسعته مدعبة وتقبيلا ثم انتبذت به من زوجها مكانًا قصيا وأسرت إليه بعد تمهيد معقول وهي تتلفت ذات اليمين وذات الشمال خشية سامع أو رقيب: أن ليس أحب إلى قلب الملكة من أن يكون الكاردينال العظيم راغبًا في رضاها وأنها ترحب بمقدماته الودية أيما ترحيب ولا تنتظر غير الظروف المناسبة لتقابلها بمثلها

وسلمها الكاردينال كتابًا إلى الملكة ضمنه ما يعتلج بصدره من الإخلاص والاحترام والولاء، وتضرع إليها فيه أن تشمله بعطفها وألا تحرمه رعايتها. وحملت الكونتس الكتاب وعادت إليه بعد أيام برد مكتوب بخط الملكة وعليه توقيعها تقول فيه: إن صديقتها جان قد أزالت ما كان قد

علق بفكرها من ماضي الكاردينال وأنها تقدر إخلاصه وولاءه واحترامه، ولا يسعها أن تضن بعطفها ومودتها على من يتوسل إليها بهذه العواطف السامية

ذهبت نشوة الظفر بلب الكاردينال الساذج فلم يفطن إلى أن الكتاب مزور تزويرًا متقنًا، وبات ليلته ساهرًا يقلب الكتاب بين يديه ويقبله معتبرًا هذه الورقة أساس سعادته ومجده وعظمته. وليت شعري ما الذي كان يحدو بالكاردينال إلى أن يتشكك في صدق الكونتس وفي صحة مصدر هذا الكتاب؟. أليست جان ده فالوا صنيعته الرافلة في بحر فضله ونعمته؟ أليست صديقة الملكة وأمينة أسرارها كما هو معلوم ومشهور؟ أليس له من رفعة المقام وعزة الشأن وعلو الحسب وكرم النسب وجمال الشباب ما يجعله أهلا لهذه الخطوة؟ ولماذا يستكثر على نفسه ما وصل إليه ريشيليو ومازاران من قبل؟ ثم لماذا تكذب جان وتزور؟ وأي مطمع لها من وراء ذلك وهي لم تطلب منه شيئًا ولن تنال منه إلا ما يجود عليها به من تلقاء نفسه؟

لا، لا! الكتاب إذن صحيح لا ريب فيه، والمستقبل بسام للأماني محقق للآمال فما عليه إلا الصبر والانتظار..

وتعددت الرسائل وتعددت الردود وحصلت الكونتس على نوع من الورق الفاخر يحمل في إحدى زواياه زهرات الزئبق الثلاث شعار الملكة. واستعانت بمزور ماهر اسمه "رستوه" كان شرطيًا ثم صديقًا لزوجها

ثم عاشقًا لها، فكانت تستكتبه تلك الردود بخط نسوي يقلد به خط الملكة، ثم تحملها إلى الكاردينال فيكاد يجثو أمامها فرحًا وإكبارًا. وانه لمن المضحك حقًا أن نتصور هذا الكاردينال العظيم دليل الأسرة المالكة وأحد أقطاب الدولة العظام، وهو يسهر الليالي في إنشاء الرسائل ويكد ذهنه فيتخير الألفاظ ويرهق مخيلته في صياغة عبارات التودد والاستعطاف ثم يكون مآل هذا الإنشاء البديع إلى يد ذلك الشرطي الفظ الذي لا يعدم كلامًا لطيفًا يرد به عليه ويوقعه بإمضاء ماري أنطوانيت

على أنه ما كان معقولا أن تستمر هذه المراسلة إلى ما شاء الله. وقد شعرت جان أن الهواجس تساور الكاردينال الساذج، وأن هذه الهواجس قد تصبح ريبًا فشكوكًا تعصف بما عقدته عليه من الآمال. وشكا الكاردينال إليها ان الملكة – وقد ذهبت في الرضاء عنه إلى حد كتابة هذه الرسالة إليه – لا تخطو خطوة أخرى تظهر بها هذا الرضاء في شكل عملي محسوس. ولكن سرعان ما هدأت الكونتس روعه وأنامت هواجسه وأفهمته أن الملكة حيرى لا تدري ماذا تفعل، فان حزب الوزير بروتاي خصم الكاردينال القوي وعدوه اللدود، ما يزال قوي النفوذ لدى الملك. وأن هذا الوزير يناهض مساعي الملكة لدى زوجها في تقريب الكاردينال إليه، وأنه لا بد من أن يترك للملكة الوقت الكافي لتعالج فيه المسائل فتقضي على نفوذ بروتاي وحزبه وعندئذ تسير الأمور وفق ما تريد..

وكأنما أبت المصادفات العجيبة إلا أن تعاون الكونتس في اللعب بعقل الكاردينال فهيأت لها ظرفًا ما كانت تحلم به ولا تجرؤ على التفكير فيه

ذلك أنها ذات يوم وجدت زوجها وهو يسير في أحد المتنزهات إلى جانب امرأة، فلما اقتربت منهما لتتبين تلك المرأة راعها عظيم الشبه بينها وبين الملكة ماري أنطوانيت؛ فتقاطيع الوجه متشابهة، والقوام متشابه، ولا ينقص هذه المرأة إلا ان تتسمى باسم الملكة لتكون هي الملكة..

وسرعان ما أدركت الكونتس كل ما تستطيع أن تستغله من هذا التشابه العجيب فحيت رفيقة زوجها أحسن التحيات، وأثنت على جمالها ورشاقتها، ودعتها إلى بيتها وهناك توثقت بينهما روابط الألفة السريعة حتى خيل إلى الغريبة أنها بين أهلها وذويها

كانت هذه المرأة تدعى "نيكول لوجيه" وقد أغدقت عليها الكونتس في الحال لقب البارونة وأسمتها البارونة أوليفا، وكانت حسناء شقراء وديعة الخلق لينة العريكة لا تبتغي من الحياة إلا عيشًا هادئًا تبذل في سبيل الحصول عليه جمالها لمن يدفع الثمن، وتنتقل من عاشق ليلة إلى رفيق يوم هازئة بالحياة مستهترة بكل شئ

وانقضت الأيام وهي لا تفارق بيت الكونتس جان ده لاموت، سابحة في هذا النعيم الهنئ، راتعة في تلك البحبوحة التي لم تألفها من قبل، مذهولة من كل ما ترى وما تسمع، وقد سحرتها مولاتها الجديدة أحاديثها

عمن تعرف من الكبراء والعظماء وتسلطت على رأسها وإدراكها حتى جعلت منها آلة تسمع فتطيع

وفي يوم من الأيام فاجأتها جان بهذا السؤال: "ألا تودين يا أوليفا ان تربحي بلا تعب خمسة عشر ألف ليرة؟" فحملقت الفتاة في وجه صاحبتها وقالت غير مصدقة: "وكيف يكون ذلك؟"، قالت: "المسألة أيسر مما تتوقعين، فإن صديقتي الملكة تريد أن تقابلي بالنيابة عنها رجلا في بستان قصرها وأن تدعيه يجثو أمامك ويقبل يديك ثم تعطيه وردة" قالت: "وبعد ذلك؟" فقاطعتها قائلة: "وبعد ذلك لا شئ إلا أن تنالي الخمسة عشر ألف ليرة، ولا تسأليني أكثر مما فعلت، وانتظري الكونت ده لاموت الذي سيذهب بك غدًا إلى فرساي"

وأسرعت جان إلى الكاردينال، ودخلت عليه ووجهها يفيض بشرًا وقصت على سمعه ما كان من ثمرة مساعيها وأن جلالة الملكة وافقت تحت تأثيرها على أن تضرب له موعدًا سريًا في منتصف الليل عند الكشك المعروف في بستان القصر باسم كشك الزهرة

وعند الساعة الثامنة مساء اليوم التالي صحب الكونت ده لاموت البارونة أوليفا في عربة إلى بلدة فرساي، وهناك سلمها إلى امرأته التي عهدت بها إلى صديقة اسمها "روزاليا" عنيت بإلباسها الزي الذي أعدوه لغرضهم وصففوا شعرها على الطريقة التي تتبعها الملكة في تصفيف

شعرها، وبعض الرفاق من هذه العملية نظروا إليها وصاحوا: "لقد نجحنا" ثم ذهبوا إلى عشائهم مازحين هازلين

وقبيل منصف الليل قصدت جان إلى دار الكاردينال، وذهب الباقون إلى بستان قصر فرساي الذي كانت أبوابه تترك مفنوحة للجمهور في ذلك الحين. وساروا الهويني حتى اجتازوا مداخل البستان الخارجية ووصلوا إلى الخمائل الكثيفة التي تكتنف كشك الزهرة والكونت ده لاموت يضغط ذراع أوليفا المسكينة التي كانت تنتفض من الرعب والفزع، ويجرها إلى جانبه فلا يدع لها وقتًا للتردد والتفكير

وانتصف الليل وكان الظلام حالكًا والنجوم تبعث إلى الكون نورًا ضئيلا، وقد هب على البستان نسيم ليالي الصيف الدافئة فصار يبعث بأغصان الأشجار عبثًا خفيفًا. وجذب ده لاموت ذراع أوليفا إلى مدخل الكشك وقال: "قفي هنا وتشجعي إلى النهاية يا صديقتي، وألا نكون قد خسرنا كل شئ" وتركها وغاب في الظلام

وقفت الفتاة حيرى تجيل الطرف فلا تبصر إلا الأشجار تترنح كأنها الأشباح ولا تسمع إلا حفيف الأغصان وخرير المياه تنحدر من النوافير إلى أحواض البستان الواسعة. وقد استولى عليها خوف عظيم جعل قلبها يخفق خفقانًا سريعًا، وأحست العرق الرطب يندي جبينها، واصطكت أسنانها وهمت بالفرار من هذا الموقف الرهيب لولا أن سمعت وقع أقدام تقترب منها وأبصرت شبح رجل يدنو وقد لف نفسه برداء كبير

وأنزل حافة قبعته على عينيه. فلما صار منها على قيد خطوة رفع قبعته وجثا على ركبتيه وتناول طرف ثوبها وقبله. ومدت المسكينة يدها المرتجفة من الهول فتناولها الكاردينال ووضع عليها قبلة حارة ثم تنهد عميقًا خرج من أعماق نفسه، وانحدرت من عينيه دمعة ساخنة سالت على أطراف أنامل أوليفا وتمتم يقول: "مولاتي.. مولاتي.." وسحبت أوليفا يدها واقتلعت من صدرها وردة مدتها إليه فتناول اليد والوردة بيديه وظل يقبلهما طويلا ثم نهض وهو ممسك يدها وأراد ان يطوق جيدها بذراعه فنطقت بكلمات غير مسموعة فهم منها أنها تقول: "كن واثقًا أني نسيت الماضي"، وأرادت أن تفلت منه، ولكنه جذبها في رفق ولين إلى باب الكشك، وفيما هو يدفعها إلى داخله أقبل ريتوه في زي فتى من فتيان القصر وقال بلهجة الخائف المضطرب: "أسرعي يا مولاتي فإن الكونت دارتوا شقيق الملك وزوجته آتيان من هذه الناحية" وتناول يد أوليفا وانصرفا مهرولين

ونظر الكاردينال إلى ما حوله، فلما لم ير شيئًا ولم يسمع شيئًا لبس قبعته وضم الوردة إلى صدره وانصرف، وهو يحسب أن ملكة فرنسا قد وهبته قلبها في داخل هذه الوردة، ووهبته جسمها إذ مدت اليه يدها ليقبلها

وجاءته الكونتس في اليوم التالي تحدثه عما كان من أمر الملكة بعد هذه المقابلة السعيدة، وتؤكد له أنها ظلت تذكره بخير ما تذكر به النساء من يحببن من الرجال، وأنها ستنتهز الفرص لمقابلته كلما سنحت، وآذنتها

الفراسة بأن تطرق الحديد وهو ساخن فجاءته بعد يومين وهو مازال تحت تأثير المقابلة اللذيذة وأسرت إليه أن الملكة في حاجة إلى خمسين الفًا ذهبًا تساعد بها عائلة فقيرة وأن هذا المبلغ يعوزها الآن، فهي تسأله أن يقرضها إياه لأجل قريب. وبادر الكاردينال فقدم المال المطلوب شاكرًا لله تلك الظروف السعيدة التي تجعل ملكة فرنسا تعول عليه إذا أعوزها المال..

ولكن خمسين ألفًا لا تسد فراغ جيوب ريتوه والكونت وزوجته، لذلك عادت جان إلى الكاردينال تسأله مائة ألفا غيرها لطارئ لم تكن الملكة تتوقعه، ودفع الكاردينال المائة ألفا مغتبطًا. ولا شك أن جان كانت ستعيد الكرة لولا أن أتاحت لها الظروف ما هو خير.

* * *

كانت جان تعرف فيمن تعرف محاميًا غير ذي شأن اسمه لابروت، يمت بصلة القرابة إلى جواهريين كبيرين في باريس وهما "بيمهر" و"باسانج"، ولقد أفضى إليها هذا المحامي يومًا بأن الجواهريين كانا قد صنعا عقدًا فاخرًا من الألماس اقترضا في سبيل الحصول على حجارته الكبيرة مبالغ طائلة بأرباح مبهظة وظنا أنهما يستطيعان بيعه إلى الملك لويس الخامس عشر ليقدمه هدية إلى عشيقته الدوقة دوباري، ولكن الملك مات قبل أن تتم الصفقة. وزاد المحامي فقال إن الجواهريين ذهبا بالعقد يعرضانه على الملك لويس السادس عشر عسى أن يشتريه لزوجته ماري أنطوانيت، ولكن هذه أبت قبوله لما علمت أن ثمنه مليون وستمائة ألف ليرة، وقالت إن حاجة

فرنسا إلى سفن حربية تشترى بهذا المال أكثر من حاجة الملكة إلى التحلي بالجواهر الغالية. واستطرد المحامي حديثه وقال إن الجواهريين لما رأيا نفسيهما في أزمة خانقة من جراء هذا العقد المبهظ الذي لا يقدم على شرائه أحد، ذهبا وارتميا على قدمي الملكة متوسلين إليها أن تنقذهما بشرائه من الخراب والإفلاس، ولكن الملكة أعرضت عنهما، وقال إنها لا ترهق خزانة الدولة بتحميلها هذا المبلغ الفادح، ونصحت لهما أن يجزئا العقد إلى قطع يبيعان كلا منها على حدة. ولكن الجواهريين يريان قيمة العقد في كونه قطعة واحدة وأن تجزئته تفقده معظم قدره، ولذلك فهما يتبرعان بجعل كبير من المال لمن يستطيع أن يهديهما مشتر ينقذهما مما هما فيه. وألح المحامي لابورت على الكونتس في أن تستعين بصداقتها للملكة على تحبيذ هذه الصفقة لها وإقناعها بوجوب الإقدام عليها حتى إذا تمت اقتسم المحامي والكونتس ذلك الجعل الذي يتبرع به الجواهريان.

وجاء بيهمر وباسانج وفتحا صندوق العقد وبدت حبات الألماس الكبيرة يبهر بريقها نظر الكونتس ويحرك منظرها شهوة المال في نفسها، وتناولت بيديها التحفة الفنية الغالية وظلت تقبلها ثم التفتت إلى الجواهريين وقالت: "اني أعرف سيدًا عظيمًا يشتري هذا العقد وهو سيستدعيكما إليه لتتفقا وإياه على الثمن وشروط البيع التي ترتضيانها. أما أنا فأود أن أظل بعيدة عن هذه الصفقة ولا أحب أن يذكر اسمي فيها"

ولقد كان النبلاء والذين يترددون على البلاط يعلمون رفض الملكة شراء هذا العقد الغالي، ولكن ألسنة السوء كانت تتهامس بأن

الملكة إنما رفضته مكرهة وبأنها في الحقيقة لا تشتهي شيئًا اشتهاءها الحصول عليه، ففكرت جان في أن تستفيد من هذه الإشاعة، وذهبت الى الكاردينال، وقالت: "إن الملكة تريد شراء هذا العقد، ولكنها لا تريد أن تظهر أمام وزراء الدولة وأعيانها بمظهر الملكة المسرفة المتلاف التي تؤثر زينتها على مصالح وحاجات الحكومة. ولقد فكرت طويلا في كيفية الحصول على ثمن هذه القطعة الغالية، ولكنها لم تجد إليه سبيلا، وأنها قد اعتزمت آخر الأمر أن تشتريه من مالها الخاص على أن تدفع الثمن أقساطًا في بحر سنتين. بيد أنها، وهي ترغب في أن يظل أمر هذه الصفقة مكتومًا حتى يتيسر لها دفع معظم قيمته، وترى مما لا يجعل بها أن تتفق عليها مباشرة مع الجواهريين، وتستحسن أن يكون بينها وبينهما وسيط له من الثروة والحيثية الاجتماعية ما يطئمنهما على كنزهما فيفاوضهما في الثمن ويحرر معهما شروط البيع والدفع ويرفعها إليها لتوقعها، وبذلك يتم كل شئ. ولما كانت الملكة لا تعرف من أصدقائها من تعول على فطنته مع الحرص على سرها فهي قد فكرت فيك يا مولاي وأمرتني أن أسألك إذا كنت ترضى أن تمدها بمعونتك في تحقيق هذا الأمر الخطير"

وأخرجت جان من صدرها كتابًا بخط الملكة، تقول فيه أنها لا تستطيع دفع هذا المبلغ الكبير دفعة واحدة، وأنها ترغب في أن يكون الدفع على أربعة أقساط متساوية مدى كل منها ستة أشهر، فإذا قبل بيهمر وشريكه هذه الشروط فإنها تعتمد على صديقها ده روهان في إنهاء الصفقة على هذا الوجه، وتنتظر أن يرفع إليها شروط البيع في أقرب وقت لتوقعها بإمضائها..

لم ير الكاردينال الساذج في كل ذلك إلا نزوة جديدة من نزوات الملكة الطائشة، وإلا مصداقًا لما هو معلوم من نزقها ورعونتها. ولكن ماذا عليه في ذلك؟ إن المسألة لا تكلفه أكثر من مفاوضة الجواهريين وحملهما على قبول تقسيط الثمن، فكيف يتردد في تقديم هذه الخدمة للملكة التي جازفت بكل شئ في سبيل لقائه عند منتصف الليل في بستان القصر؟

استقدم الكاردينال روهان بيهمر وشريكه وسرعان ما تم الاتفاق على ما تريده الملكة، وفي التاسع والعشرين من شهر يناير سنة ١٧٨٥ وقع الجواهريان شروط البيع، وقد نص فيها على أن يكون الثمن مليونًا وستمائة ألف ليرة تدفع على أربعة أقساط، ويحل القسط الأول في اليوم الأول من شهر أغسطس. وحمل الكاردينال شروط البيع إلى الكونتس لتحملها إلى الملكة، ولم يمض يوم حتى عادت جان بالشروط من قصر فرساي وإلى جانب كل فقرة من فقراتها كلمة "مقبول" وفي نهايتها توقيع الملكة ماري أنطوانيت بنفس الخط الذي كانت تكتب به الرسائل إلى الكاردينال.

وتسلم الجواهريان الشروط مغتبطين بهذا النجاح، وسلما العقد الثمين إلى الكاردينال، ولم يخطر لأحدهما أن يتحقق صحة توقيع الملكة، لأن صفقة يعقدها عظيم كالكاردينال ده روهان ابن عم الملك وعميد الكنيسة الفرنسية وكبير أسرة روهان، إن صفقة كهذه لا يمكن أن يتسرب إليها الشك، ولا أن ترقى إليها الظنون..

وفي اليوم الأول من شهر فبراير حمل روهان العقد إلى بيت جان لتسلمه إلى الملكة. ولما أراد أن ينسحب ألحت عليه في البقاء حتى يجئ رسول ماري أنطوانيت ليتسلم الوديعة. ولعمري لو أن شيئًا من سوء الظن خامر الكاردينال لزال في هذه اللحظة عندما رأى أن رسول الملكة هو نفس الشخص الذي هرع إليهما في بستان القصر ينبههما إلى مجئ شقيق الملك وزوجته ليلة المقابلة السعيدة، ولكن أنى للكاردينال أن يعلم أن رسول الملكة اليوم، وفتى القصر بالأمس، ما هو إلا صاحبنا ريتوه الشرطي الفظ والمزور الكبير؟

ولبث الكاردينال ينتظر أن تزين الملكة نحرها بالعقد الجميل، ولما طال به الانتظار سأل الكونتس في ذلك فقالت إن الملكة لا تريد أن تظهر هذا العقد قبل أن تكون قد دفعت جزءًا كبيرًا من ثمنه حتى يكون ظهوره بعد ذلك مفاجأة لطيفة للملك وللوزراء. وزادت في تطمين الرجل فأنهت أن الملكة ترى الثمن مبهظًا، وأنها تعتمد عليه مرة أخرى في تخفيضه، وحبذا لو استطاع أن يوفر عليها من هذا الثمن مائتي ألف ليرة

وفاوض الكاردينال الجواهريين، ونجح فيما أراد وأملى عليها كتابًا رفعه بيهمر بيده إلى الملكة، قالا فيه: "مولاتي.. إنا لنكون سعيدين جد السعادة إذا تفضلت جلالتك واعتبرت الشروط الجديدة التي عرضت علينا وقبلناها، علامة أخرى من علامات الطاعة والولاء الذين ندين بهما لشخصك الكريم. وإنا لمغتبطان حقًا كل الاغتباط إذ نعلم أن خير حلية أخرجتها يد الصناع ستحلى جيد خير الملكات وأجملهن في هذا الزمان"

رفع بيهمر بيده تلك الرسالة إلى الملكة في الثاني عشر من يوليو بمناسبة حلية كان الملك قد أوصاه بصنعها لتقدم إلى ماري أنطوانيت في حفلة تعميد نجلها الدوق دانجوليم. وقد تناولت الملكة الرسالة ولم تفضها إلا بعد أن انصرف الجواهريين، ولما قرأتها لم تفهم منها شيئًا أعطتها إلى وصيفتها مدام كامبان فلما لم تفهم هي الأخرى منها شيئًا ألقتها في نار المدفأ ولم تعد تفكر فيها

حل أول أغسطس وحان دفع القسط الأول وظل الجواهريان ينتظران، فلما لم يصلهما شئ رفعا الأمر إلى الكاردينال الذي بادر إلى الكونتس يستعلم منها جلية الخبر فاستهملته حتى تسأل الملكة.. وعاودت في اليوم التالي تقول أن الملكة تطلب مهلة أول اكتوبر لأن المال يعوزها في هذه الأيام..

وأشكل الأمر على الجواهريين، وذهب بيهمر وباسانج إلى قصر فرساي وقابلا مدام كامبلان وصيفة الملكة، ولشد ما كانت دهشتهما عندما قالت لهما في أكثر ما يكون من الهدوء والطمأنينة: "إن الملكة لم تشتر العقد ولا تعلم من أمر التعاقد شيئًا"

هرع الجواهريان إلى الكاردينال، ودار بين الثلاثة جدال عنيف نجح الكاردينال بعده في بث شئ من الطمأنينة إلى قلب الرجلين فانكصا مزودين بكثير من الوعود والعهود والمواثيق، ولكن الوساوس والشكوك بدأت تساور صاحبنا الكاردينال، وخاف أن يكون ضحية مهزلة يمثلها

بعض مهرة اللاعبين، فخطر له لأول مرة أن يتحقق صحة توقيع الملكة وحقيقة موقفها في مسألة العقد وشرائه..

اتضح لروهان بعد البحث والتحقيق أن الرسائل مزورة، وأن الكونتس جان ده لاموت قد هزئت به ولعبت بعقله هذا الزمن الطويل وأدرك المغفل مدى غفلته، وأيقن أنه بات حيال مشكلة عويصة لا يعرف كيف يكون الخلاص منها. وطفق يستعلم فعلم سر المؤامرة، وأن الكونت ده لاموت وزوجته وصديقهما ريتوه قد فكوا حجارة العقد واقتسموها وانطلق كل منهم يبيع نصيبه منها في أسواق إنجلترا وسويسرة، فحار في أمره وصار يقلب المسألة على وجوهها فلا يرى لنفسه منها مخرجًا..

فكر في ان يذهب إلى الملك ويعترف له بكل شئ عسى أن يجد وإياه حلا لهذا المشكلة، ولكن ما الذي يقوله للملك؟ وكيف يفسر له المسألة؟ أيقول له أنه اجترأ على عرضه وسما بنظره إلى جمال الملكة وطمع في حيازة قلبها وجسمها؟ أم يوقفه على تلك المقابلة المضحكة التي وقعت ذات ليلة تحت نوافذ الملك وفي بستان قصره؟ أم يطلعه على تلك الرسائل المزورة التي كانت الملكة تعلله فيها بالوصول القريب؟

لا! لا! كل شئ إلا هذا، وليس أمامه سوى أمر واحد وهو أن يستدين ثمن العقد ويدفعه بأكمله للجواهريين ويشترط عليهما كتمان الأمر إلى ما شاء الله، وبذلك يضع حدًا لذلك الإشكال الكبير، ولقد سعى فعلا إلى اقتراض المبلغ، وكادت المسألة تقف عند هذا الحد لولا أن الملكة

أفضت إلى زوجها لويس السادس عشر بما نقلته إليها مدام كامبلان من مسألة العقد والتعاقد، وطلبت إليه أن يستدعي الجواهريين ليسألهما عن حقيقة الأمر. فلما حصل الكاردينال على المال وهم بدفعه كانت ألسنة الفضيحة قد اندلعت ولم يبق لهذا الحل مكان

وجاء الجواهري بيهمر إلى القصر، وسألته الملكة تفاصيل المسألة فقصها عليها كما وقعت فأهاج الأمر كرامتها، إذ رأت عرضها وسمعتها ضحية مؤامرة سافلة وأمرت الجواهري أن يقرر كل ما قاله في تقرير مكتوب يرفعه إلى الملك وطلبت إجراء تحقيق سريع

ورأى الملك أن لا تتجاوز المسألة ما وصلت إليه وأن يضع لها تسوية لا تجعل اسم الملكة مضغة في الأفواه، ولكن الملكة كانت ترى الفرصة سانحة للانتقام من عدوها الكاردينال ده روهان ومن أسرة روهان صاحبة الحملة ضد التفاهم مع النمسا، أي مع مملكة أبيها وأمها، فلم ترض باقتراح زوجها وأبت إلا أن يقوم تحقيق يوزع على كل نصيبه من المسؤولية في هذا الحادث الخطير، وقالت: ليست المسألة مسألة هذا أو ذاك من الناس، وإنما هي مسألة عرض الملكة وكرامتها وسمعتها بل وكرامة العرش وسمعته، فيجب أن يلقى كل جزاء ما أثمت يداه. وأثارت بهذه العبارات وأمثالها غضب الملك وهاجت كرامة الزوج فاندفع وراءها لويس السادس عشر يحبذ رأيها ويقول: "إن الجميع أمام العدل والقانون سواء"

ولكن أنى للملك أن يعرف في تلك الساعة ما سيجره هذا الاندفاع الأحمق على شخصه وعلى عرشه من الرزايا والكوارث، وأنى له أن يدرك بنظره القصير أن فضيحة العقد أول معول تضربه الثورة في قوائم عرشه وعرش أبنائه وأحفاده وأن الملكة إذ تشبثت بوجوب القيام بالتحقيق إنما خطت بيدها سطرًا من أسطر الحكم الذي قادها إلى النطع في ساحة الإعدام؟ ولكن هكذا قدر فكان!

كان يوم ١٥ أغسطس سنة ١٧٨٥ يومًا جرت العادة أن تقام في مثله من كل عام صلاة كبيرة بقصر فرساي احتفالا بعيد صعود السيد المسيح إلى السماء، واحتفالا بعيد مولد الملكة ماري أنطوانيت. فكان رجال الدولة وأعيانها وكل ذي حيثية من سكان باريس وفرساي يجتمعون في ذلك اليوم ليشهدوا الصلاة في القصر يقيمها رئيس الكنيسة الكاردينال ده روهان. ولقد احتشدت الألوف من الناس في ذلك اليوم ووقفوا ينتظرون مجئ الكاردينال العظيم لتبدأ الصلاة. ولكن الكاردينال أبطأ وسرعان ما ذاعت إشاعة بين الحاضرين مؤداها أن الملك استدعاه إلى مكتبه وأن الحديث بينهما قد يطول. وبينما هم وقوف إذا باب حجرة الملك يفتح على مصراعيه وإذا الكاردينال يخرج منه مطأطئا رأسه شاحب اللون كسير الطرف، وإذا الوزير بروتاي يصيح بأعلى صوته مناديًا كبير الأمناء: "يا حضرة الدوق ده فيلروا، بأمر جلالة الملك آمرك أن تقبض على حضرة الكاردينال"

كان الكاردينال قد دخل على لويس السادس عشر فألفى الملكة إلى جانبه ووراءهما صديقه الدوق ده ميرومسنيل وزير الحقانية، وعدوه اللدود الوزير بروتاي، وألفى على المنضدة تقرير الجواهريين وقد سلطت عليه الملكة عينين تتقدان حقدًا وغضبًا. وناداه الملك وقال: "هل لك يا ابن عمي أن تحدثني عن صفقة شراء عقدتها باسم الملكة؟ ونزلت هذه الكلمات على رأس الكاردينال كالمطرقة أو كما تنزل الصاعقة فصمت صمتًا طويلا وأطرق مليا ثم قال: "الحقيقة يا مولاي أني ضحية مؤامرة دنيئة ولكني لم أخدع أحدًا ولم أرد السوء بأحد"

فقال الملك: "إذا كان الأمر كما تقول يا ابن عمي فلا بأس عليك اذا أفضيت إلينا بالحقيقة" وهنا نظر الكاردينال إلى من حوله نظرة الغريق يتلمس المعونة فلا يجدها، نظر فرأى الملك هادئ الحركات، ولكنه متجهم الوجه مقطب الجبين، ورأى الوزير ميرومسنيل مطرقًا شاحب اللون متأثرًا من دقة الموقف، والتقى نظره بنظر الملكة فألفى الشرر يكاد يتطاير من عينيها، ثم نظر إلى الوزير بروتاي فرأى وجهه يطفح حقدًا وشماتة فأطرق مرة أخرى ولم يجب

ولاحظ الملك حرج موقف الرجل فأخذته به الشفقة وقال: "ما دمت لا تستطيع الكلام فاكتب لنا ما لا تريد أن تقول" وخرج الملك وتبعته الملكة والوزيران وجلس الكاردينال أمام المنضدة وتناول قلمًا وورقًا وكتب القصة كما وقعت بتفاصيلها. وبعد فترة من الوقت عاد الملك ومن معه وقرأ ما خطته يد الكاردينال وقال:

– وأين هي هذه المرأة التي تسميها الكونتس ده لاموت؟

– لا أعرف الآن أين هي يا مولاي

– وهذه الرسائل التي ظننت أن الملكة كتبتها إليك أين هي؟

– إنها عندي ولكنها مزورة يا مولاي

وعم الجميع سكوت هو أشبه الأشياء بالوجوم وأطرق الملك برهة يفكر فيما يجب أن يفعل وصاحت الملكة: "وكيف سولت لك نفسك يا سيدي الكاردينال أن تصدق أني ألجأ إليك مجازفة بشرفي وكرامتي ومتخطية سائر الاعتبارات لتعقد بالنيابة عني مثل هذه الصفقة المزرية؟" ووافقها الوزير بروتاي على استهجان أمر الكاردينال وعلى استنكار ما كان من سلوكه حيال ملكه وملكته وعرش بلاده. وقال الملك للوزير: "يا مسيو دي بروتاي، مر بالقبض على الكاردينال" فخرج الكاردينال من حضرة الملك وسار كما رأينا بين صفوف الحاضرين للصلاة وهم في ذهول يلثمون يديه ويشيعونه بالدعوات الطيبات

وبعد أيام قبضت السلطات على الكونتس ده لاموت، وكانت قد اختفت في بلدة بارسوروب كما قبضت على ريتوه في سويسرا، وعلى البارونة أوليفا في بلجيكا، وجئ بالجميع وقدموا للمحاكمة. وإذا كان المقام لا يتسع هنا لسرد وقائع تلك المحاكمة المهمة فلا أقل من أن نقول أن شعب فرنسا بأسره بل أن أوربا كلها قد تتبعت سيرها باهتمام كبير. ولقد

انقسمت فرنسا في هذه المسألة فريقين: فريق سمي وقتئذ بالنمسويين وهم أنصار الملكة، وفريق النبلاء والأشراف وهم أنصار الكاردينال. وحشد آل روهان قواتهم وأنصارهم يبثون الدعوة ضد الملكة ويلطخون اسمها بأقذر ما يمليه الحقد من التهم والأباطيل، وانطلق أنصار الملكة من ناحيتهم يختلقون على الكاردينال أرذل الإشاعات والأقاويل.

وهكذا وقف الشعب الفرنسي خلال هذه المحاكمة الطويلة على كثير من فضائح العرش ودخائل القصور، وهكذا تعلم الشعب كيف يحقر العرش طبقة النبلاء والأشراف التي طالما ظنها معقل الفضيلة والكرامة والكمال، وهكذا زعزعت هذه القضية أركان العرش وهزت قوائمه وعصفت بمكانة الملكية في القلوب فكانت بمثابة مقدمة للثورة الفرنسية التي شبت الشعب من فضائح العرش ومن فضائح النبلاء.

الرجل ذو القناع الحديدي

التاريخ ملأن بالألغاز والأسرار، ولكني لا أعرف لغزًا تاريخيًا أسال من مداد المحابر ما أساله اللغز المعروف باسم "الرجل ذو القناع الحديدي"، ولا أعرف سرًا أثار من اهتمام المؤرخين وأهاج من عقولهم ما أثاره وأهاجه هذا السر الغريب، فلقد ذهب فريق إلى أن "ذا القناع الحديدي" إنما هو الشخص الذي كان يجب أن يعتلي عرش فرنسا باسم لويس الرابع عشر، وذهب فريق آخر إلى أنه ابنه. وقال فريق ثالث بل هو لورد إنجليزي. وقال آخرون أنه دوق بوفور، وأنه دوق مونموث وأنه الوزير فوكيه، وأنه ابن الملكة آن دوتريش من عشيقها دوق بوكنجهام. وأنه ابن ماري ده مديسيس ملكة فرنسا من الكاردينال مازارن، وأنه الشاعر موليير، وأنه جد نابليون الأول، وزعم غيرهم غير ذلك مما لا يمكن التوفيق بينه ولا استيضاح وجه الحقيقة فيه.

وإنه والحق يقال، شئ لا يشرف التاريخ ولا المؤرخين أن تثار مسألة "الرجل ذو القناع الحديدي" في خلال مئات من السنين، وأن يكتب فيها الكاتبون ومنهم من يعتبرونه حجة في التأليف التاريخي – خمسين كتابًا يذهبون فيها خمسين مذهبًا ثم ينتهون منها الى عشرين حلا أو تفسيرًا للغز لا يمكن ان يكون له أكثر من حل واحد قائم على حقيقة واحدة

وإذا كان قارئ هذه الأسفار الضخمة يحار في تعليل انفراج مسافة الخلاف بين جميع هذه الآراء، فإنه لتعتريه الدهشة إذ يرى اسم فولتير العظيم في طليعه أسماء مؤلفيها ثم أنه ليتولاه شئ يقرب من الذهول عندما يتحقق في النهاية أن فولتير هو المضلل الأكبر لمؤرخي "الرجل ذو القناع الحديدي" وأنه صاحب الفرية التي استمد منها الكتاب ضلالهم في الأساطير التي وضعوها لحل هذا اللغز التاريخي الكبير.

* * *

ابتدأت مشكلة "الرجل ذو القناع الحديدي" من اليوم الذي اطلع فيه بعض المنقبين في محفوظات سجن الباستيل على مذكرات يومية كان يكتبها مسيو ده جونكا نائب الملك في هذا السجن. وقد جاءت في تلك المذكرات بتاريخ ١٨ سبتمبر سنة ١٦٩٨ عبارة هذا نصها: "في الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم رأينا لأول مرة مسيو ده سانمار حاكم السجن الجديد، وقد حضر لاستلام مهام منصبه ومعه مسيو ده روزارج، وقد أحضرا معهما سجينًا من سجن بنييرول يحمل فوق وجهه قناعًا لا يفارقه، واسم هذا السجين مجهول لدى الجميع ولا يسمح لأحد بالسؤال عنه، وقد ادخله مسيو ده سانمار ساعة وصوله إلى برج باسينيير حتى إذا ما جن الليل قدته ومعي مسيو روزارج إلى الحجرة الثالثة من برج برثوديير، وهي الغرفة التي أعددتها له قبل مجيئه ببضعة أيام، أما هذا السجين فقد وكل إلى مسيو ده روزارج أمر العناية به على أن لا يناوله الطعام غير حاكم السجن بنفسه"

تلك بداية "قصة الرجل ذي القناع الحديدي" في مذكرات ده جونكا، وإذا ظللنا نتصفح تلك المذكرات وجدنا فيها ما يأتي بتاريخ ٢٠ نوفمبر سنة ١٧٠٣، أي بعد خمس سنوات من النبذة السابقة: "إن السجين المجهول الذي ظل طول هذا الزمن يحمل فوق وجهه قناعًا من القطيفة السوداء، والذي كان يحرسه من سنوات عدة مسيو سانمار في سجن بنييرول وسجن سانت مرجريت – قد أحس انحراف صحته منذ أيام، وقد توفي الساعة العاشرة من مساء أمس من غير أن يعتريه مرض شديد. وقد أدى فريضة الاعتراف إلى القس جيرو الذي دهش عندما علم بموته. وقد دفن عند الساعة الرابعة بعد ظهر اليوم بمقبرة القديس بولس، وشهد على سجل الوفاة كل من مسيو روزارج ومسيو أراي". بعد ذلك بقليل يضيف صاحب المذكرات: "علمت أنهم أطلقوا على السجين المجهول بمناسبة وفاته اسم ماركيل " Marchiel " وأنهم أنفقوا أربعين جنيهًا على دفنه"

وقد ظل الباحثون يسيرون على هدي تلك البيانات اليسيرة حتى وجدوا في سجل الوفيات بمقبرة القديس بولس وبتاريخ ٢٠ نوفمبر سنة ١٧٠٣ اسمًا لمتوفى يدعى ماركيولي " Marchioly " وقد وقع على السجل إزاء هذا الاسم كل من مسيو ده روزارج ومسيو أراي، فلم يبق شك لدى أولئك الباحثين في أن صحة اسم سجين الباستيل المقنع هي ماركيولي لا ماركييل

تلك هي الوثائق الثلاث الصحيحة التي دونها شهود لا يرقى الشك إلى صدق شهادتهم. وإذا كانت تلك الوثائق الثلاث لا تنير المسألة ولا تبين للناس من هو السجين ذو القناع الحديدي، فلا أقل من أنها تعتبر المرجع الأول والأخير ونقطة الابتداء لمن يريد الاهتداء إلى حقيقة السر الرهيب.

ولقد ظلت مسألة "الرجل ذي القناع الحديدي" خامدة لا تشغل بال الناس ولا تثير اهتمامهم حتى سنة ١٧٤٥ ويكاد الباحث في ثنايا الأعوام الأربعين التي انقضت بين وفاة السجين وهذا التاريخ، لا يعثر على شئ عن ذلك الرجل لا في كتب التاريخ ولا في المذكرات الخاصة غير عبارتين قصيرتين كتبتهما الأميرة "بالاتين" نسيبة لويس الرابع عشر إلى صديقتها دوقة هانوفر، وذلك في سنة ١٧١١، حيث قالت في الأولى: "علمت أن رجلا أمضى سنوات طويلة في سجن الباستيل يحمل على وجهه قناعًا، وقد مات ودفن بهذا القناع، ولم يعلم أحد حقيقة اسمه ولا شيئًا عن شخصه". وقالت في الثانية: "كتبت إليك في رسالتي السابقة عن السجين ذي القناع الذي مات في الباستيل، والآن أستطيع أن أقول لك ما علمته وهو أن الرجل لورد إنجليزي اشترك في مؤامرة دوق برويك ضد الملك غيليوم"

ولكن هاتين العبارتين الغامضتين فضلا عن خطأ ما تحويانه من المعلومات لم تحدثا أثرًا ولم تثيرا بحثًا، وظل الصمت يخيم على ذكرى السجين المجهول حتى كان عام ١٧٤٥ إذ ظهر كتاب مطبوع في هولندا

عنوانه "مذكرات سرية عن تاريخ بلاد الفرس"، وكان ذلك الكتاب غفلا من اسم مؤلفه ولو أن اسمه معروف وهو فولتير، وقد وردت فيه عدة قصص ونوادر أراد بها واضعها النيل من بلاط الملك لويس الرابع عشر ولكنه لما لم يجسر على تعيين الأسماء والأمكنة استغنى عن التصريح بالتلميح وجعلها قصصًا شرقية مسرحها بلاد فارس وبلاط ملوكها. ومن تلك القصص التي حواها الكتاب في خلاصتها: أنه ولد للشاه عباس (والشاه عباس هنا رمز للملك لويس الرابع) طفل في الخفاء من إحدى عشيقاته اسمه جعفر (يعني الكونت ده فيرماندوا) وأن جعفرًا هذا تشاجر مع ولي العهد ابن الشاه الشرعي ولطمه على وجهه. ولما كان لا بد من عقاب المعتدي الزنيم جزاء اجترائه على ولي العهد، آثر الشاه عباس أن يسجنه طول حياته على أن يأمر بإعدامه، فسجنه في قلعة كقلعة الباستيل بعد أن وضع على وجهه قناعًا من حديد أمره أن لا يخلعه أبدًا حتى لا يعرفه أحد"

وقد لاقت هذه القصة الشفافة ارتياحًا لدى الكثيرين وصادف منهم قبولا واقبالا، ورسخ في أذهان الناس الى حين أن سجين الباستيل المقنع كان الكونت ده فيرماندوا ابن لويس الرابع عشر من عشيقته مودموازيل لافاليير، ورغم أن الوثائق الرسمية تثبت أن هذا الكونت ده فيرماندوا مات سنة ١٦٨٣ أي قبل وفاة السجين المقنع بخمسة عشر عامًا، فقد ظل الناس موقنين أن صاحب القصة صادق فيما رواه، وأن الرسميات هي التي قضت بأن يدون اسم الكونت في سجل الأموات سترًا للفضيحة وصرفًا للأفكار عن البحث والاستقصاء.

ثم ظهر كتاب فولتير "تاريخ عصر لويس الرابع عشر"، وفولتير حجة المؤرخين في القرن الثامن عشر، وقد جاء فيه ما يأتي: "حدث بعد وفاة الكاردينال مازارن ببضعة أشهر حادث لم يسبق له مثيل، ولعل أغرب ما في هذا الحادث أن جميع المؤرخين قد جهلوه، وما زالوا يجهلونه حتى اليوم. ذلك أن رجلا زجّ في سجن سانت مرجريت وقد أحيط مقامه فيلا بالأسرار العميقة. أما هذا السجين فمجهول الاسم حديث السن طويل القامة جميل الوجه نبيل الطلعة. وكان يستر وجهه بقناع من حديد ذي مفصلات عند موضع الذقن والفكين تسمح لحامله أن يأكل وهو لابسه، وقد صدرت الأوامر لحاكم السجن أن يقتله إذا حاول نزع قناعه أو التفوه بكلمة تعلن حقيقته أو تنم عن شخصيته. وقد زاره الوزير لوفوا في سجنه وظل يخاطبه وهو واقف احترامًا لمقامه. وقد نقل هذا السجين فيما بعد إلى الباستيل حيث أسكنوه أفخر حجرة فيه وأحاطوه بأفخم مظاهر العناية والرعاية والاحترام، حتى أن حاكم السجن ما كان ليسمح لنفسه بالجلوس في حضرته. وقد توفي هذا الرجل سنة ١٧٠٣ ودفن في مقبرة القديس بولس"

وما قرأ الناس هذه النبذة من قلم الكاتب العظيم المؤرخ الملك الأكبر حتى انطلقت الألسنة في بيداء التخمين، وهامت العقول في فيافي الظنون، وذهب كل في التأويل والتقول مذهبًا يرضيه. ونجح فولتير فيما أراد الوصول إليه وحرك في نفوس الناس الرغبة في تعرف سر "الرجل ذي القناع الحديدي" ولم يرد أن يعلق على ما أورده من الأخبار بكلمة، بل كالها للقارئين مجملة مبهمة شائقة تغري بالبحث والاستقصاء والتنقيب..

ثم عاد فولتير الداهية عدو الملوك والملوكية فأعاد الكرة لمناسبة مناقشة بعض مواد الموسوعات وذكر السجين "ذا القناع الحديدي" وقال: وإذا كانوا قد وضعوا على وجه الرجل قناعًا، فإنما وضعوه ليخفوا عن العيون شبهًا عظيمًا بينه وبين شخص آخر لأن هذا الشبه كان لا يدع الناظر إلى أحدهما يخطئ في التعرف على الثاني. ويظهر أن مصلحة العرش ومصلحة الدولة كانتا تقتضيان إخفاء ذلك الشبه العجيب.. "وبعد أن انتقل المؤرخ الى موضوعات أخرى عاد الى أسطورته فقال: "وكان حاكم السجن يحضر بنفسه صحون الطعام ويضعها على المائدة بيده ثم ينسحب ويغلق الأبواب. وحدث أن خط السجين يومًا بشوكة الطعام على صفحة صحن من فضة سطورًا وألقى الصحن من النافذة إلى سفينة راسية على الشاطئ القريب من برج السجن، فالتقط الصحن صياد كان هناك وأعاده إلى الحاكم فلما تناوله مسيو ده سانمار وقرأ ما هو مسطور عليه تولاه الذعر وسأل الصياد: "هل قرأت ما كتب على هذا الصحن وهل أطلعت عليه أحدًا؟" فقال: "لا. لست أعرف القراءة ولم يره معي أحد. قال: "إذًا أنت سعيد بهذا الجهل إذ لو كنت قرأت ما هو مكتوب لأعدمتك في الحال".

وفي الطريق إلى الباستيل كان مسيو ده سانمار ينزل مع السجين من المركب متى حان وقت الطعام ويضرب طنبًا تنصب فيه المائدة ويجلس أمامه الحاكم وبكل من يديه غدارة مصوبة إلى صدر السجين حتى لا يفوه بكلمة أو يحاول الفرار.. إني أعلم من أمر الرجل ذي القناع الحديدي الشئ الكثير ولكني لا أستطيع أن أبوح بأكثر من ذلك"

نعم لم يرد فولتير أن يبوح بشئ، ولكن الشئ الذي لم يرد أن يبوح به بل الفرية التي لم يرد أن ينسبها لنفسه، كان يضعها على لسان طابع مؤلفاته وشارحها فيجئ هذا الطابع الشارح ويدون في هامش الصفحة ما يمليه عليه المؤلف تعليقًا على المتن فيقول: "إن الرجل ذا القناع الحديدي هو بلا شك الأخ الأكبر للملك لويس الرابع عشر، وقد حدث بعد وفاة الكاردينال مازاران أن علم الملك حقيقة مولده، وأيقن أنه ليس ابن لويس الثالث عشر، وإنما هو ابن الملكة من الكاردينال وزيرها وأن له أخًا هو ابن الملك المتوفى والوارث الشرعي لعرش فرنسا، وأن الملكة في تعلقها به (أي بلويس الرابع عشر) لأنه ابنها الأول من عشيقها المحبوب قد أجلسته على العرش بغيًا وعدوانًا. ولم يكن أمام الملك والحالة هذه ألا أحد شيئين: إما أن يقتل هذا الأخ، وإما أن يخفيه عن الأبصار والأسماع. وقد لجأ إلى الوسيلة الثانية حرصًا على سلامة عرشه وعلى طمأنينة الدولة. ولا شك أنه آثر سجن أخيه وتغطية وجهه بقناع من الحديد على أن يرتكب جريمة قتل كانت تحتمها ظروف السياسة وتبررها حالة فرنسا"

هذه هي الضربة التي كان فولتير يريد أن يضربها، وهذه هي الطعنة المسمومة التي صوبها إلى صدر الملوكية، وهذا هو السهم القاتل الذي راشه عدو الملوك إلى الصميم من قلب النظام الملكي.

كان الفرنسيون يقدسون ملوكهم لاعتقادهم أن هؤلاء الملوك قد تلقوا تاجهم من يد الله، وأن الملك منهم يرث هذا الحق السماوي عن أبيه، وهذا سر احترام الشعب للعرش ولشخص الجالس عليه، ولكن ماذا

يقول الشعب الآن، وقد أصبح يعلم أن اكبر ملوكه جاهًا وأضخمهم ملكًا وأزهرهم عصرًا إنما اغتصب عرشه من أخيه الشرعي وقضى على هذا الأخ بالسجن المؤبد ظلمًا وبغيًا، وماذا يصبح تقديس وراثة العرش وهذا هو الشعب يرى أولاد الخنا يعتلون الأريكة ويملأون باسمهم صفحات التاريخ بينما ورثة العرش الشرعيون يقضون حياتهم في الباستيل ويغطون وجوههم بأقنعة من حديد؟

نعم لقد نجح فولتير فيما أراد وأدخل في روع الشعب أن الجالس على عرش فرنسا والذين سبقوه إليه والذين سيخلفونه عليه لا يتلقون حقهم من الله، وإنما يتلقونه من يد البغي والإثم والإجرام، فتقديس وراثة العرش حماقة كبيرة، وسماوية الحق الملكي حماقة أكبر، فإذا لم يكن الحكم الملكي صالحًا بذاته كان أخلق به أن يزول، وبما أن هذا الحكم قد سار في فرنسا سيرة الظلم والاستبداد فيجب استئصاله والقضاء عليه..

ولقد حاول بعض المؤرخين أن يعيدوا الأمور إلى نصابها وأن يصححوا الوقائع، ولكن أنى لصوت العقل أن يصل إلى مخيلات الجماهير؟ وما الذي تستطيعه الوثايق الرسمية والحجج المنطقية حيال فكرة رسخت في أذهان الجماعات وتوارثتها الأجيال؟

وازداد الناس يقينًا من صحة الرواية عندما قرأوا ما كتبه البارون ده جليس من "أن إفشاء هذا السر الرهيب قد أقلق بال ملوك فرنسا، إذ علموا أن الملكة التي حملت سفاحًا من وزيرها الكاردينال قد أجلست ثمرة

هذا السفاح على عرض فرنسا وسولت لها نفسها أن يصبح ابنها الشرعي سجينًا يغطي وجهه بقناع من حديد؟

ونشرت بعد ذلك مذكرات زعم ناشرها أنها للكردينال ريشليو، وهي مذكرات لا شك اليوم في أنها مزورة على الوزير العظيم، وقد ورد فيها تأييد واضح لرواية فولتير وتعزيز لقصته الخيالية، فهل يبقى بعد كل ذلك للريب مجال؟ كلا! وستعمل هذه الأسطورة الكاذبة عملها، وستكون من أهم الأسباب في زعزعة أركان العرش الملكي، ومن أقوى العوامل في ثورة الشعب على الملكية والملوك..

ولم تقف الأسطورة عند حد الذيوع بين الجماهير، بل تخطت سلم العرش وارتفعت إلى أذني الملك لويس الخامس عشر إذ سأله الكونت ده شوازول يومًا عن حقيقة اسم السجين المقنع فأجابه الملك جوابًا غامضًا إذ قال: "لو علمت حقيقة هذا الرجل لأدركت أن المسألة أتفه وأحقر مما تظن" ولكن الكونت ده شوازول لم يقنع بهذا الجواب، وأوحى الى المركيزة ده بومبادور أن تسأل وأن تلح في السؤال، فانتهزت فرصة وجودها بين ذراعي الملك وهي تداعبه وتدلله، وفاجأته بالسؤال عن الرجل ذي القناع الحديدي، فلم يستطع أن يرفض الإجابة وقال: "إنه كان وزيرًا لأحد أمراء إيطاليا". ثم جاءت الملكة ماري أنطوانيت بدورها، وسألت زوجها لويس السادس عشر فأجابها بأنه لا يعلم عن هذا السر شيئًا وأمر بالبحث في الأوراق القديمة، ولما لم يهتد منها إلى شئ لجأ إلى وزيره "موريبا" فأجابه: "إن الرجل ذا القناع الحديدي كان أحد رعايا دوق مانتو، وكان رجلا لا

يؤمن خطره لكثرة دسائسه"، وهذا الجواب مدون في مذكرات مدام كامبلان كبيرة وصيفات الملكة ماري أنطوانيت ومربية أولادها. ولكن ماذا تفيد رواية الملوك ووزرائهم في دحض فرية فولتير الذي كان يشغل وظيفة "مؤرخ الملك"، وما الذي يجديه تأكيدات هؤلاء الملوك، وهم متهمون بأنهم إنما يفعلون هذه الروايات لمحو وصمة مخزية في نسبهم

واستمرت أسطورة "الرجل ذي القناع الحديدي" تتغلب على المعقول واللا معقول حتى جاء عصر نابليون، وخطر لأحد المؤرخين المتقربين بالزلفى إليه أن يبرر اعتلاءه عرش فرنسا، فادعى أن الإمبراطور من سلالة السجين المقنع. وفي ذلك يقول هذا المؤرخ العجيب: "إن الرجل ذا القناع الحديدي أحب ابنة أحد حراسه، وقد تملك عواطفها جمال وجهه (لعله يريد أن يقول جمال قناعه) فحملت منه ووضعت غلامًا نزحت به إلى جزيرة كورسيكا، ووكلت تربيته إلى امرأة صالحة أوصتها به خيرًا قائلة لها أنها أتت به من مصدر عظيم – وبالفرنسية de bonne partوبالإيطالية Buona parta ومنها اسم بونابرت Bonaparte " "– وبما أن الرجل ذا القناع الحديدي هو ابن ملك فرنسا ووارث عرشها الشرعي فلا شك في أحقية حفيده نابليون بهذا العرش."

ومضى القرن الثامن عشر وشغلت قصة الرجل ذي القناع الحديدي فريقًا من الكتاب والمؤرخين لا نقف منهم إلا عند إسكندر دوماس الكبير وميشليه. وإنا لنقرأ رواية دوماس الشهيرة "الفيكونت ده براجيلون" فنجد فيها الاسقف ديربلاي يخاطب السجين المقنع ويقول:

"أنت يا ابن الملك لويس الثالث عشر.. أنت يا وارث عرش فرنسا.. يا لويس الرابع عشر الحقيقي ستجلس على عرشك وعرش آبائك بعد أن يكون الله قد أزاح عنه الغاصب الزنيم" والسجين المقنع في نظر الأسقف ديربلاي هو فليب ده فرانس الذي كان يجب أن يلقب بلويس الرابع عشر. ويجئ مسليه مؤرخ الثورة الكبرى والعالم الحجة الثقة فيكتب ليؤيد الأسطورة الذائعة فيقول: "وإذا كان الملك لويس السادس عشر قد قال لزوجته ماري أنطوانيت أنه يجهل سر الرجل المقنع فإنه كان يعلم حقيقة ذلك السر، ولكنه كان يضن به أن تبادر الملكة فتنقله إلى أسرتها المالكة في فيينا.. وإني أرجح أن الرجل ذا القناع الحديدي كان أخًا للويس الرابع عشر، وكان يهم ملوك فرنسا ألا يعلم الناس أن هذا الملك الدعي قد اغتصب العرش من أخيه"

بيد أن أسطورة فولتير أخذت تتلاشى بمضي الزمن وبتعاقب المؤرخين الذين تصدوا لدحضها وتكذيبها، ثم بدأت تتخذ في أواخر القرن التاسع عشر شكلا آخر، فلقد وفق الأستاذان بورجو وبازري، وهما من العلماء المحققين، إلى استكشاف مفتاح اللغة الاصطلاحية (الشيفرة) التي كان لويس الرابع عشر يكتب بها رسائله السرية. واستطاع بهذه الوسيلة قراءة كثير من الأوراق التي ظلت إلى عهدهما سرًا مغلقًا في وجه الجميع. ومن بين هذه الأوراق رسالة بإمضاء الوزير لوفوا وخط يده موجهة الى الجنرال "كاتينا" وفيها يقول: "ولا أراني في حاجة إلى القول بأن جلالة

الملك قد استاء أيما استياء للخطة العقيمة التي اتبعها مسيو ده بولوند [1] والتي جعلته يرفع الحصار ولا ينتظر النجدة التي أمرته بانتظارها. لذلك يرى جلالته أن تأمر بالقبض عليه وأن تسجنه في قلعة بنييرول وأن تحيطه بالحراس الأمناء الذين يوصدون عليه الأبواب ليلا ونهارًا ولا يسمحون له بالتنزه إلا فوق سطوح القلعة على شرط أن يضع فوق وجهه قناعًا حتى لا يتبينه أحد"

وما عثر الأستاذان بورجو وبازري على هذه الوثيقة حتى صاحا صيحة الفوز والظفر، وأعلنا في غير تحفظ أنهما وضعا إصبعيهما على حل اللغز الخالد، وأن الرجل ذا القناع الحديدي لا يمكن أن يكون شيئًا آخر غير الجنرال ده بولوند، ولا يمكن أن ينهض دليل على ذلك أكبر من أنها كان سجينًا بقلعة بنيرول وأنه كان يلبس قناعًا، بيد أن هذه النظرية تكون صحيحة لو لم يثبت التحقيق التاريخي أن مسيو ده سانمارس غادر قلعة بينييرول بسجينه المقنع قبل القبض على ده بولوند بزمن طويل.

أما والتاريخ يثبت ذلك فلا سبيل إلى تصديق بورجو وزميله، على أن هناك دليلا أقطع للشك من هذا وهو أنهم عثروا على ورقة بخط الجنرال ده بولوند تاريخها سنة ١٧٠٥ أي بعد وفاة ذي القناع الحديدي بعامين، إذًا لا بد من البحث في اتجاه آخر، وهذا الاتجاه الآخر والصحيح هو الذي اتجه إليه المؤرخ المدقق الكبير الأستاذ فونك برانتانو في كتابه الجليل: "أساطير ومحفوظات سجن الباستيل"، والذي أقره مجمع علماء فرنسا

[1] مسيو ده بولوند قائد من قواد الجيش سلك سلوكًا معيبًا في معركة كوني وغضب عليه الملك وسجنه

وأجازه عليه فلقد كتب هذا العالم الكبير فصلا ضافي الذيول عن قصة الرجل ذي القناع الحديدي أماط فيه اللثام عن حقيقة الشخص واسمه ومركزه الاجتماعي وتاريخه حتى لم يبق خفي ولا مستور. ولا مرية في أن هذا المؤلف قد أراح الباحثين من الضلال في بيداء الأوهام والظنون، وكشف للناس عن سر رهيب ظل يحير العقول مئات من السنين.

وإنا لنبادر إلى إجابة سؤال القارئ الذي تفضل بمتابعتنا إلى هنا فنقول أن الرجل ذا القناع الحديدي لم يجد. وأن الذي وجد حقيقة سجين كان يستر الجزء الأعلى من وجهه بقناع من القطيفة الخفيفة السوداء كالذي يلبسه الناس هذه الأيام في المراقص الملثمة، وأن هذا السجين الذي ذهب المؤرخون في محاولة معرفته كل مذهب إنما هو المركيز "أركول أنطونيو ماتيولي" وزير شارل الرابع أمير مانتوا وسجين الملك لويس الرابع عشر في سجن الباستيل.

كان الأمير شارل الرابع دوق مانتوا شابًا عديم الأهلية للملك، مسرفًا متلافًا أرهق نفسه ودولته بالديون ونضبت موارد ايراده فبات في حالة عسر مالي شديد، وكان الملك لويس الرابع عشر يعلم عنه ذلك. ويعلم في الوقت نفسه أن من أملاك هذا الأمير قلعة تسمى قلعة كازال تشرف على الحدود الفرنسية المتاخمة لمانتوا، وأن هذه القلعة لازمة لحماية تلك الحدود؛ فأوفد إليه سفيره القس ديستراد يساومه في شرائها ويعرض عليه ثمنًا لها ينقذه من الإفلاس الذي يهدده، وقد أبان هذا القس لوزير الأمير. الكونت ماتيولي، رغبة الملك في شراء القلعة فصادف هذا العرض

هوى نفس الوزير واتفقا على أن يسافر هذا الأخير بعد موافقة أميره ليقي جلالة الملك بنفسه ويفاوضه في الصفقة..

وفي اليوم الرابع عشر من أكتوبر سنة ١٦٧٨ تسلم الوزير ماتيولي من سيده الأمير شارل الرابع تفويضًا في بيع قلعة كازال فسافر إلى فرساي مزودًا بأوامر تقضي بسرعة إنهاء الصفقة مع كتم الأمر خشية تسربه إلى الخارج. وفي الخامس عشر من شهر ديسمبر كان ماتيولي يوقع مع الوزير لوفوا معاهدة ود وصداقة سرية بين مملكة فرنسا وإمارة مانتوا، ومن شأن هذه المعاهدة السرية أن تحتل الجيوش الفرنسية قلعة كازال لتعدها لحماية الدولتين المتحالفتين..

وفي المساء استقبل الملك لويس الراع عشر وزير الأمير سرًا في مخدعه الخاص وأراد أن يكافئه على قيامه بتلك المفاوضة الناجحة فأهداها قطعة من الألماس الثمين ومبلغًا مرضيًا من المال وانصرف السفير شاركًا للملك كرمه، واعدًا بكتمان السر، ما شاء الملك أن يكتم.

ولكنه ما كاد يطأ أرض إيطاليا حتى حنث بوعده وكشف سر المعاهدة وأبلغ نصوصها إلى بلاط تورين وإلى حكومة البندقية وإلى حكومة إسبانيا، وأقام تلك الحكومات وأقعدها في البندقية على البارون داسفيلد الذي أوفده الملك ليستولي بفرقة من جيشه على القلعة، وأخفق مشروع البيع وانهار صرح المعاهدة..

هنا ثارت ثائرة الملك لويس الرابع عشر وصب جام غضبه على وزيره لوفوا، وكبر عليه أن يتلاعب به وزير حقير كماتيولي وأصر في نفسه على الانتقام. وجاء السفير ديستراد ليشفي غليله من غريمه فاقترح على الملك فكرة مخادعة ماتيولي واستدراجه إلى الحدود الفرنسية حتى إذا ما حل بها قبضوا عليه واقتادوه إلى حيث يشاء غضب الملك أن يكون. وقبل الملك ما عرضه عليه سفيره وأوصاه بشدة الحذر والاحتياط. وذهب السفير القس وأحكم صلات المودة بينه وبين الوزير، ودعاه يومًا إلى حفلة صيد ظلا فيها حتى أقبل المساء، ونظر ماتيولي فألقى نفسه في غابة لا يعرفها وتظاهر السفير ورجاله بأنهم ضلوا الطريق وظلوا يبحثون لعلهم يهتدون، وكانت إشارة اتفقوا عليها فأحاط الرجال بالوزير وأوثقوه وكبلوه بالحديد وحملوه إلى قلعة بنييرول القريبة من الحدود. وفي ذلك يقول القائد كاتينا في خطابه إلى لوفوا: "ولقد حدث كل هذا في فترة كلمح البصر، وفي أقل ما يكون من العنف والغلطة واسم هذا هذا اللص مجهول حتى من الضباط الذين أسروه وكبلوه وساقوه إلى السجن"

وفي القلعة قيدوا اسمه "استانج" في سجل المسجونين ولكن اسم "ماتيولي" بدأ يظهر شيئًا فشيئًا في مراسلات الوزير لوفوا مع مسيو ده سانمار بشكل لا يدع مجالا للشك في أن ماتيولي هو "الرجل ذو القناع الحديدي" الذي حير المؤرخين؛ ففي سنة ١٦٨١ كتب لوفوا تعليماته إلى سانمار يوم عين حاكمًا لسانت مارجريت وهو يقول فيها: "وسنرسل إليك فيما بعد سجينك القديم..".

وكتب سانمار إلى السفير ديستراد يقول: "تسلمت بالأمس أمر تعييني وسأصحب اثنين من المساجين وهما معروفان باسم ساكني الحجرة السفلى. أما ماتيولي فسيبقى هنا مع سجينين آخرين"

وبعد ذلك بقليل نقل ماتيولي إلى جزيرة سانت مرجريت وصار تحت حراسة سانمار، وهذا ثابت في سجل سجن سانت مرجريت. وقد كتب سانمار إلى لوفوا: "إن الناس حيارى في أمر سجيني المجهول ويودون بشق الأنفس لو يعلمون من هو، وقد ذاع بينهم أنه دوق بوفور وأنه لورد إنجليزي وهأنذا أختلق لهم كل يوم حكاية لأصرفهم عن معرفة حقيقته..."

وفي ١٩ يوليو سنة ١٦٩٨ كتب الوزير إلى سانمار: "إن جلالة الملك يستصوب أن تنتقل بسجينك القديم إلى سجن الباستيل "فاذا أضفنا إلى هذه الوثائق وثيقة موت الرجل ذي القناع الحديدي التي دون فيها أن اسمه ماركيولي، وماركيولي تحريف لكلمة ماتولي تجلت لنا حقيقة الأمر وعلمنا أن لويس الخامس عشر كان صادقًا عندما قال للماركيزة ده بومبادور: "إن السجين المقنع كان وزيرًا لأحد أمراء إيطاليا" وأن الوزير "موريبا" كان صادقًا أيضًا عندما قال للويس السادس عشر: "أنه كان أحد رعايا دوق مانتوا وأنه كان لا يؤمن خطره لكثرة دسائسه"

أما السر في إلباسه القناع وفي شدة الحرص على كتمان اسمه فيفسره أن القبض على وزير دولة أجنبية وسجنه بلا محاكمة أمر لا تجيزه القواعد المرعية ولا تقاليد الملوك، فكان من المهم لدى لويس الرابع عشر

أن ينتقم لنفسه بدون أن يعرض سياسة فرنسا إلى الاصطدام مع غيرها في مسألة من هذا النوع الشاذ

تلك حقيقة الرجل ذي القناع الحديدي التي شغلت الناس ثلاثمائة عاما، ولا شك أن الأستاذ فونك برانتانو بإماطة اللثام عن هذا السر العظيم قد حرم الكتاب والمؤرخين مادة واسعة تجري فيها الظنون مطلقة العنان كما حرم مؤلفي الروايات وكتاب المسارح مادة كانت تسعفهم في وقت الحاجة بكثير من الحوادث الخيالية التي يطيب سماعها وتطيب قراءتها للجماهير، ولكن التحقيق العلمي لا يجامل ولا يحابي

الحياة في سجن الباستيل

من ذا الذي يذكر سجن باستيل ولا يقشعر بدنه هولا وتتعاقب في ذهنه سلسلة من الصور المفزعة، صور أولئك التعسين الذين كان يقضى عليهم أن يعيشوا في أحجار تحت الأرض لا ينفذ إليها الهواء ولا يبلغها ضوء النهار، وترتع فيها الجرذان وتزحف الثعابين وتعشش الهوام والحشرات؟ ومن ذا الذي لا يثور ضميره كلما ذكر "لاتود" سجين الباستيل الذي أمضى من حياته خمسة وثلاثين عامًا منبطحًا على وجهه فوق كومة من القش المبلل برطوبة الأرض، مكبل اليدين والقدمين بسلاسل من الحديد لا يستطيع من ثقلها أن يحرك يدًا ولا قدمًا؟ ومن ذا الذي لا تتقزز نفسه كلما ذكر ذلك الحاكم المستبد الغاشم الذي كان يزج بالمغضوب عليهم إلى تلك المقابر المقامة للأحياء وهم لا يعلمون لم يدخلونها ولا متى يتاح لهم الخلاص منها! ومن ذا الذي يقرأ كل هذا أو يسمع به ولا يحمد الله الذي أنقذ فرنسا بل الإنسانية من غلظة الاستبداد والمستبدين!؟

خذ أي سفر من أسفار التاريخ واقرأ ما دوّن في صفحاته عن سجن الباستيل، فماذا تجد؟ تجد الصورة التي قدمنا وتجد أفظع منها وأبشع، تجد صورًا وقصصًا وأساطير لو عمد الرواة إلى الاغتراف منها أو إلى استحيائها لوجدوا فيها نبعًا لا ينضب وكنزًا لا يفنى، ولكن ما أظلم التاريخ تسطره الأهواء وتمليه الأغراض! وما أخصب مخيلات الجماهير

تبذر فيها الأسطورة الخرافية فتزهر وتنمو وتصبح بعد حين شجرة متشابكة الفروع مترامية الأغصان، فإذا حاولت استئصالها ألفيت جذوعها متشعبة في أذهان الناس حتى لترتد عنها قواك وأنت كليل.

وهل تاريخ الباستيل، أو ما يطيب للناس أن يسموه تاريخ الباستيل إلا أسطورة أو خرافة أذاعها "لاتود" وهو أفاك كل رأس ماله أنه كان سجين الباستيل، واستثمرها "لانجيه" وهو أديب بائس وجد في نشر هذه الخرافة موردًا للعيش؟ وهل كل ما حل بالباستيل وما حل بالأسرة المالكة في فرنسا من جرائه إلا بعض ما تنبأ به المسيو شفالييه وكيل سجن الباستيل يوم كتب إلى مدير الشرطة يلفت نظره إلى الإشاعات التي تدور حول السجن، وعما يترتب عليها من الخطر فقال: "إن هذه الإشاعات وإن كانت كلها كاذبة ستصبح ذات خطر جدي يومًا من الأيام. وذلك بفضل تهافت الناس عليها وبفضل ما يجده مروجوها في ترويجها بين الدهماء من الفوائد والأرباح"

* * *

الباستيل حصن حربي قديم يرجع تاريخ بنائه إلى النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وقد صيره ملوك فرنسا فيما بعد قلعة Chateau fort يسجنون فيها ذوي الشأن ممن يغضبون عليهم، ثم استحالت مع الزمن سجنًا عاديًا هدمه غوغاء باريس في الرابع عشر من شهر يوليو عام ١٧٨٩ ولقد كانت قلعة الباستيل، وعلى الأخص في القرن السابع عشر،

سجنًا أرستقراطيًا لا عار على أحد أن يسجن فيه. يؤيد ذلك ما كتبه إيطالي اسمه سيباستيان لوكاتللي في كتاب يصف لمواطنيه رحلته إلى باريس حيث قال: "إن ملك فرنسا لا يسجن في الباستيل إلا الذين يحيطهم برعايته من المذنبين"، وما كتبه الوزير ده باري إلى زميله دارجانسون: "إني لا أعرف للشخص الذي حدثتني عنه من الاعتبار ما يجعله أهلا لشرف الاعتقال بسجن الباستيل"

بيد أن أرستقراطية الباستيل لم تتجاوز نهاية القرن السابع عشر إذ استحال، كما قدمنا، سجنًا عاديًا لا يتميز عن غيره من السجون إلا بأهمية نزلائه في عالم الإجرام، وبالمعاملة التي كانوا يلقونها فيه. حتى إن غوغاء باريس لم يجدوا بين جدرانه يوم دكوها غير سبعة سجناء وهم أربعة مزورين ومعتوه ونصاب وفاسق اعتقل إجابة لرغبة ذويه. ولشد ما كانت خيبة أمل الباريسيين يوم جمع الرعاع جموعهم وهدموا أسوار السجن الرهيب وأبادوا حصن الاستبداد لينقذوا منه ضحايا المستبدين، فإذا بهذه الضحايا أولئك السبعة. وإذا بأولئك السبعة أول الآسفين على خلاصهم من هذا الاعتقال الذي كان يدر عليهم الخير والبركة وطيب العيش وحسن المقام.

يقول فونك برانتانو: "أما في القرن الثامن عشر فقد كان الباستيل قصرًا يسجن فيه الملك من يرى وجوب سجنه لسبب أو لآخر، وللمسجونين أن يعيشوا فيه كما يحبون. فلهم أن يختاروا لغرفهم ما يروقهم من الأثاث أو أن يفرشوها بأثاث يأتون به من منازلهم. ولهم من الطعام ما يشتهون، يأمرون فيجاء به أو يشترونه من الخارج لحسابهم الخاص. ولكل

منهم أن يستخدم من الخدم من يشاء. وإذا كان السجين غنيًا استطاع أن يعيش في الباستيل عيشة الأمراء، وإذا كان فقيرًا تولى الملك أمره وأجرى عليه من المال ما يكفيه لينفق على نفسه وكثيرًا، ويدخرون ما يقتصونه ليعيشوا به بعد مغادرة السجن عيشة الترف والسعة..

"وقد تعدل هذا النظام فيما بعد، فكان الملك يرصد على السجين الفقير مبلغًا من المال لينفق عليه. وطالما حدث أن كان السجين يستكثر هذا المبلغ ويطلب أن يستبقى له منه جانب. وهكذا غادر بعض سجناء الباستيل سجنهم مزودين بثروة لا يستهان بها، ولعلنا نتبين من ذلك لماذا كان بعض أولئك السجناء يأبون مغادرة الباستيل أو يرتكبون عقب خروجهم منه ما يعيدهم إليه، ولعل ذلك يفسر قول السجين مورليه عندما كان الحراس يدفعونه إلى خارج الأسوار: "أجزل الله ثواب هؤلاء الطغاة الخيرين"!..

"ولما لم يقف طمع بعض نزلاء الباستيل عند حد اضطر الملك أن يأمر أن لا يصرف المال المخصص للإنفاق على السجناء إلا فيما جعل له"

أما غرف السجن فقد ظلت أشبه الأشياء بغرف القصور المنيعة أو القلاع، حتى كان أواخر القرن السابع عشر فتعددت حوادث فرار المسجونين بطرق جعلت الباستيل هزؤة الهازئين وسخرية الساخرين، فلم

تر الحكومة بدًا من تحويل كثير من غرفه إلى غرف سجون حقيقية أحكمت على نوافذها قضبان الحديد وأوصدت أبوابها بالسلاسل والأقفال.

والآن لكي نسهل للقارئ إدراك حقيقة الحياة في سجن الباستيل سنسير بالسجين من ساعة القبض عليه إلى ساعة الإفراج عنه، عارضين فيما بين ذلك كل نواحي الحياة في ذلك السجن العجيب

يصدر المرسوم الملكي Lettre de cachet بالقبض على فلانفي حمله ضابط من ضباط الشرطة ويسير به إليه في وسط خمسة من الجنود، ويتلوه عليه ثم يمسس كتفه بعصا قصيرة بيضاء فينهض الشخص ويتبع الضابط إلى باب البيت حيث تكون عربة فخمة كعربات النبلاء تنتظرها فيركبانها لتسير بهما إلى الباستيل. وكانت التقاليد والتعليمات تقضي على ضباط الشرطة أن يسلكوا مع المقبوض عليهم خير مسالك المجاملة وحسن المعاملة. حتى إنه ما كان يخطر ببال أحد ممن يشهدون حادثة من تلك الحوادث أنه حيال تنفيذ مرسوم بالقبض على شخص قضي عليه بالسجن، ولولا وجود الجند لخيل إلى الناس أن صديقًا يدعو صديقه إلى حفلة، وقد جاء ليأخذه من داره إليها. وإنا لنروي الحادثة التالية مصداقًا لما نقوله:

حدث أن اختطف رجل اسمه "لوفور" فتاة إنجليزية، وجاء بها ليعاشرها في باريس، ورفع أهلها أمره الى الملك فأمر بسجنه في الباستيل سترًا للفضيحة وتحاشيًا لقضية ليس في تقديمها إلى القضاء ما يشرف أسرة

نبيلة كأسرة الفتاة. وذهب ضابط الشرطة إلى دار "لوفور" في الموكب والمظهر اللذين وصلاهما حتى خيل إلى خادم الرجل أن سيده مدعو إلى وليمة، فلما ركب السيد إلى جانب الضابط أسرع الخادم، جريًا على عادته، إلى المقعد الخلفي وتبوأ. ولشد ما كانت هشة الجميع عندما وصلوا إلى سجن الباستيل وألفوا الخادم يهبط بسرعة ويفتح لسيده باب العربة. ولشد ما كانت دهشة الخادم أيضًا لما علم أنه وسيده بين جدران الباستيل، على أنه لما أراد الانصراف قيل له: "أما وقد صحبت سيدك إلى هذا المكان فيجب أن تبقى معه فيه"

أما النبلاء وعلية القوم وكبار موظفي البلاط والحكومة فكان يكفي للقبض عليهم أن يكتب الملك الى الواحد منهم كتابًا يقول فيه: "قضت إرادتي أن تقيم في قصري الباستيل ابتداء من الساعة كذا من يوم كذا"، وتعتبر هذه الدعوة بمثابة أمر قبض. وأي نبيل يدعوه الملك إلى قصره ولا يلبي الدعوة؟! ومتى وصل المذنب إلى الباستيل بادر الضباط إلى تقديمه لحاكم السجن الذي يجلسه ويهدئ روعه، وبعد أن يستكتبه عبارة مؤداها أنه تشرف بتسلم المرسوم القاضي بسجنه يدعوه إلى تناول الطعام معه، كما يدعو الذين يكونون قد صحبوه إلى السجن من الأهل والأصدقاء. وفي هذه الأثناء يكون عمال السجن قد فرغوا من إعداد الغرفة الخاصة به وفق ما يقتضيه مقامه في الهيئة الاجتماعية. وإذا حدث ولم تكن إدارة السجن على استعداد لاستقبال السجين طلبت اليه أن يمضي ليلة أو ليلتين حيث يشاء حتى تعد له المكان اللائق به. يؤيد ذلك ما ورد في مذكرات مسيو ده جونكا نائب الملك في سجن الباستيل بتاريخ

٢٦ يناير سنة ١٦٩٥: "قدم الينا أمس مسيو ده كور لاندون قائد الفرسان يحمل أمرًا ملكيًا بسجنه، فرجا منه الحاكم أن يقضي الليلة في فندق من الفنادق القريبة وأن يعود في الغد ريثما يكون قد جهز له غرفة. وعند الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم عاد مسيو ده كورلاندون إلى الباستيل وتناول طعام الغداء مع الحاكم العام وبعد الاستراحة من الطعام اقتدناه إلى غرفته"

وكانوا قبل أن يدخلوا السجين غرفته يذهبون به إلى مكتب الإدارة حيث يطلبون منه أن يسلم كل ما يحمله من الأشياء التي لا يسمح لسجين باستبقائها، فإذا كان يحمل نقرًا أو جواهر أو سلاحًا أو غير ذلك حزمت هذه الأشياء جعلت منها رزمة يختمها صاحبها بختمه أو يوضع عليها ختم الباستيل إذا لما يكن لصاحبها ختم.

وكان سجن الباستيل يشتمل على ثمانية أبراج يحتوي كل برج منها على أربع أو خمس طبقات من الغرف، أسوأها حالا تلك التي كانت في الطابق الأسفل، وهي التي أطلق عليها مؤرخو الباستيل كلمة "الزنازين" Cachots فقد كانت غرفًا مبنية تحت الأرض رطبة مظلمة لا ينفذ إليها الهواء النقي ولا الضوء، وقد خصصت هذه الزنازين للمحكوم عليهم بالإعدام، ويؤكد فونك برنتانو أنها لم تستعمل من أول عهد الملك لويس الخامس عشر إلا لمعاقبة السجناء الذين استحقوا بسوء سلوكهم أو بمحاولتهم الفرار عقوبة رادعة. على أن عقوبة الإقامة بتلك الزنازين لم تكن تتجاوز بضعة أيام، هذا وقد حرم الملك لويس السادس عشر استعمالها

تحريمًا باتًا. ولم يذكر أحد السجانين الذين سئلوا أمام هيئة التحقيق الثورية أنه أدخل سجينًا في إحدى تلك الزنازين.

أما سائر غرف القصر فكانت تدفأ بالمدافئ الثابتة أو المتحركة، وكانت حوائطها مبيضة بالجير وأرضها مبلطة بالآجر. أما الجدران فقد زينها السجناء بمختلف الرسوم والنقوش التي كانوا يقضون أوقاتهم في التفنن فيها. وحدث أن لاحظ الحاكم العام أن سجينًا قد ولع بالرسم وبرع فيه حتى غطى جدران حجرته برسوم جميلة فجعل ينقله من غرفة إلى غرفة أخرى حتى أتم نقش كثير من غرف الباستيل

وكان نزلاء الباستيل كما أسلفنا يستوردون أثاث غرفهم من بيوتهم أو من الخارج، ولكن هذه الطريقة كانت تتيح لكثير منهم الاتصال بأشخاص لا تؤمن عاقبة اتصالهم بهم، لذلك لم يجد أولو الأمر بدًا من العدول عنها إلى فرش الغرف على نفقة الحكومة مع استبقاء بعضها خاليًا من الأثاث لمن يريد أن يؤثثه على نفقته من عظماء النزلاء.

وتحدثنا مدام ده ستال في مذكراتها بأنها قد زينت حوائط غرفتها بأستار ثمينة وغطت النوافذ بستائر من المخمل، وأن الماركيز ده ساد الفاسق الأشهر كان يعلق على الجدران صور بعض جميلات النساء ولعلهن من عشيقاته. ويقول فونك براتانو نقلا عن محفوظات الباستيل، إن القس بريجو فرش غرفته بخمسة مقاعد كبيرة وثمانية من الكراسي ومكتب ومنضدتين وثلاث لوحات زيتية كل منها في إطار فخم، وأن الكونت ده

بليل لما غادر السجن حمل معه أمتعته، وهي مكتبة حوت ثلاثمائة مجلدا وأدوات مائدة كلها من الفضة المنقوشة، وسريرا ذا أستار من الدمقس الموشى بالذهب، ومرآتين كبيرتين وبضعة مقاعد كسيت بالجلد وأخرى بالحرير، ولوحات مصورة ومناضد وخزائن ومصابيح من النحاس المفضض، وشمعدانات من الفضة الخالصة، وهذا لعمري أثاث لا نصادفه في أفخم الفنادق حتى في هذه الأيام..

وجرت العدالة على أن تحقق قضية نزيل الباستيل في اليوم الأول لقدومه، ولكن كثيرًا ما حدث أن أجل التحقيق لأسباب استدعت التأجيل. وهذا يكذب بتاتًا ما يقال من أن السجين كان يزج به في الباستيل وهو لا يعرف جريمته. أما تحقيق القضايا المهمة فكان يجري أمام هيئة مؤلفة من ثلاثة. وقد وصف السجين دوموربيه قضاته فقال: "كان الرئيس مستشارًا مسنًا ذكيًا لبقًا، ولكنه فظ خشن الطبع واسمه مارفيل. أما العضو الثاني فرجل مؤدب فطن وهو مسيو ده سارتين. وأما الثالث واسمه مسيو ده فيلفو فكان رجلا ماكرًا مخادعًا حاد الطبع لا يلين"، وكانت نتيجة الحقيق ترفع عند الانتهاء منه إلى جهة عليا تبت في أمر المتهم، إما بإقرار الحكم، وإما بالإفراج. وإذا تبين للمحقق أن السجين مظلوم استصدر في الحال مرسومًا ملكيًا بإطلاق سراحه. وكانت مراسيم الإفراج تصدر بسرعة نتمنى لو أن إجراءات العدالة في العصر الحالي تسير بمثلها. ولعل مما يشرف النظام الاستبدادي في القرنين السابع عشر والثامن عشر أن نقول إن الحكومة كانت تعوض المتهم الذي تتضح براءته بشئ من المال عما أصابه من الظلم. وأمثلة ذلك كثيرة نختار بعضها: فهذا محام

اسمه سوبيه قبض عليه بتهمة نشر كتاب تطاول فيه على مقام الملك وسجن من أجله رهن التحقيق ثمانية عشر يومًا، فلما ظهرت براءته صرفت له الحكومة تعويضًا يعادل ثلثمائة جنيها من عملتنا المصرية. وهذا المدعو بيرايرا أمضى بالباستيل خمسة أشهر ثم أقام الدليل على براءته، فرتب له الملك دخلا سنويًا يعادل مائة جنيها. وأحسن ما في هذا النظام العادل أن الحكومة كانت تتولى الإنفاق على الأسر الفقيرة التي يسجن عائلها في الباستيل مهما كان ذنبه عظيمًا. يؤيد ذلك ما نقرأه في كتاب الوزير ده شوازيل إلى وكيل الباستيل: "تشرفت بتسلم الخطاب الذي تفضلتم بكتابته إليَّ خاصًا بالمدعو جونكير شاير سجين الباستيل ويسرني أن أخبركم بأنني قد حصلت لأولاده من الحكومة على إعانة جديدة قدرها ثلثمائة ليرة، وذلك نظرًا لحالة الفاقة التي وجدوا أنفسهم فيها بعد سجن عائلهم"، وأمر المعاش الذي رتبته الحكومة للفيلسوف فولتير عقب خروجه من الباستيل معروف ومشهور.

وإذا دخل السجين الباستيل ظل أمره مكتومًا إلا على ضباط السجن حتى يتم تحقيق قضيته، فكان لا يتصل بزملائه نزلاء السجن ولا بموظفيه ولا يسمح لأحد بالاقتراب منه سوى خادمه إذا كان قد اصطحب خادمًا. ولعل أغرب ما في مسألة وجود الخدم بالباستيل أن الحكومة كانت تنفق عليهم وتدفع مرتباتهم طول مدة إقامتهم مع سادتهم في السجن. ولما كانت الوحدة من أشق الأشياء على نفوس المسجونين، فإن إدارة الباستيل كانت تسمح لكل اثنين أو ثلاثة منهم أن يقيموا معًا في حجرة واحدة، وكان اختيار السجين مساكنيه أمرًا متروكًا لرغبته. ولقد يستطيع القارئ أن

يكون لنفسه فكرة صحيحة من الحياة في الباستيل إذا هو قرأ مذكرات كل من مدام ده ستال وجورفيل وبوسي رابوثان وهينكان وغيرهم من الذين أمضوا جزءًا من حياتهم في ذلك السجن؛ فإن هذه المذكرات تصرح بأن كثيرًا من المسجونين كانوا يمرحون في الباستيل كما يشاءون، يزورون أصدقاءهم ويستقبلونهم في غرفهم في أي ساعة من النهار، وأنهم كانوا يقضون اليوم في مزاولة الألعاب الرياضية على اختلاف أنواعها.

ويقول بوسي رابواثان إنه كان يستقبل في غرفته زوجته وأصدقاءه الذين يفدون من الخارج لزيارته، وإنه كان يقيم الولائم ويدعو إليها بعض رجال البلاط. وتؤكد مدام ده ستال أنهم كانوا يصرخون لبعض نزلاء الباستيل بالخروج منه لقضاء بعض الأعمال في المدينة على أن يعودوا إليه في المساء. وها نحن أولاء ننقل من مذكراتها هذه الفقرة التي تدلنا على مبلغ ما كان المسجونون يتمتعون به من الحرية في سجن الباستيل. قال: "وكنا نقضي جزءًا من النهار عند حاكم السجن في غرفته حيث كنت ألعب الورق مع مسيو ده بويمبادور ومسيو ده بوادافيس، وإذا انتهينا من اللعب انتقلنا إلى حجرتي حيث تنعقد جمعية من أصدقائنا فنمضي الوقت في اللهو والسمر. أما السهرة فكنا نقضيها في الغالب عند الحاكم"

أما فيما يتعلق بطعام المسجونين فأمر يكاد العقل لا يصدقه، ومهما أقمنا على صدق روايتنا من البراهين فسيرتاب القارئ في تصديقنا. ذلك أن الملك كان يخص كل سجين بمرتب يومي لغذائه يتناسب ومركزه الاجتماعي، وكان هذا المرتب يختلف ما بين ستين قرشًا ومائتين وأربعين

قرشًا من عملتنا المصرية. ويؤكدون أن الكاردينال روهان كان ينفق بالباستيل كل يوم ما يعادل عشرة جنيهات وأن الرنسدي كورلاند أنفق في خمسة أشهر أقامها بالباستيل ما يعادل ألفي جنيها. بعد ذلك لا يجوز لنا أن ندهش إذا سمعنا عن فخامة الأطعمة التي كانت تقدم لنزلاء الباستيل، تلك الفخامة التي لا نجد لها مثيلا في كثير من الولائم التي تقام في أيامنا الحاضرة.

يقول رينفيل، وقوله حجة في الموضوع، لأنه من الذين أمضوا حياتهم في التشهير بسجن الباستيل: "ودخل السجان ووضع طعام العشاء فألفيت أمامي حساء بالبازلة الخضراء والخس ذات لون جميل وطعم لذيذ. وفي داخلها ربع دجاجة، وفي صحن آخر قطعة من اللحم البقري عليها هالة من الزبدة والبقدونس المخروط، وفي صحن ثالث قطعة كبيرة من الكفتة زينت جوانبها من خصية العجل وخصية الديك والهليون وعيش الغراب. وفي صحن رابع لسان ضأن مطبوخًا مع بعض الخضر، ثم قطعًا من البسكويت الحلو وتفاحتين، وإلى جانب كل ذلك زجاجة من نبيذ البورجوني. ولما أبصرت هذا العشاء الفاخر هالني الأمر وسألت السجان هل أدفع ثمن كل ذلك، أو الملك هو الذي يدفع؛ فطمأنني وقال لي: "اطلب ما شئت وجلالة الملك يدفع الثمن" ولا يتوهمن القارئ أن هذا الطعام كان مقدمًا لرجل ذي شأن فما كان رنفيل سوى جاسوس حقير.

وهذا شاهد آخر وهو السجين دو موربيه يصف لنا طعامه ويعدد الألوان التي تقدم له فيقول: "كانوا يقدمون لي ستة ألوان منها حساء

بالجمبري وحويانات بحرية أخرى (لعلها حساء البويابيس) ثم سمكة من النوع المعروف بسمك موسى وجزءا من الدجاج المشوي وأنواعًا من الخضر والفاكهة والحلوى المطبوخة" وحدث أن طلب دومورييه دجاجة لغذائه وكان اليوم يوم جمعة فاعترض السجان بأن الدين يحرم أكل الطير يوم الجمعة فصرخ دومورييه في وجهه: "أأنتم أمناء على أجسامنا أم أمناء على عقائدنا؟ اذهب وجئني بدجاجة في الحال"، ولم يمض غير برهة حتى كانت الدجاجة أمامه يحشو بها معدته السابغة.

وهذا خطاب من وكيل الباستيل يتحدث فيه عن سجين اسمه فييل لا يأكل لحم الضأن ولا العجل ولا البقر فيقول: "وها نحن أولاء مضطرون إلى ألا نقدم له سوى لحوم الطير لأنه يزعم أن لحم الأنعام لا يوافق معدته"، وهذا لانجيه الذي أثرى من التشهير بالباستيل يعترف بأن طاهي السجن كان يحضر له كل يوم قائمة المأكولات فيؤشر بقلمه على كل ما يشتهيه منها فيقدم إليه..

ويقول المؤرخ فونك برانتانو أنه اطلع في محفوظات الباستيل على ما قدم إلى مسجون حقير الشأن اسمه تافرنييه في خلال شهر واحد هو مارس عام ١٧٨٩ فأدهشه ما وجده فيها من عدد زجاجات الخمر والنبيذ والبيرة وكميات التبغ والقهوة والسكر، حتى انه ليعتبر كرم إدارة الباستيل إسرافًا ليس بعده إسراف.

والآن ننتقل إلى ملابس المسجونين، وقد قدمنا أن الملك كان يكسو فقراءهم من مال الدولة، فنجد أنهم ما كانوا يلبسون ملابس السجون العادية، بل كانوا يرتدون معاطف من النوع الذي نعرفه باسم Robe de Chambre محشوة بالقطن أو بفراء الأرانب، وثنايا مبطنة بالقطيفة الحريرية. وكانوا يتخيرون الألوان التي تروق أذواقهم، حتى إن سجينة تدعى سوفي أبدت رغبتها في الحصول على ثوب من الحرير الابيض مزين بأزهار خضراء، فذهبت زوجة وكيل الباستيل تجوب باريس باحثة لدى الخائطات عن ثوب تتوافر فيه هذه الأوصاف، ولما لم تجد غير ثوب من حرير أبيض مخطط بخطوط خضراء أرسلوا إلى السجينة يرجونها أن تقتنع به إذ لم يتيسر لهم إيجاد الآخر. وبين محفوظات الباستيل خطاب من سجين اسمه هوجونيه إلى وكيل السجن يقول له فيه:

"سيدي الوكيل إن الأقمصة التي أحضروها إليّ أمس ليست هي التي طلبتها، وأذكر أني طلبت أقمصة من قماش ناعم وذات أكمام مطرزة لا هذه الأقمشة الخشنة التي لا تصلح إلا للسجانين والتي أرجو أن تردوها الى الحاكم ليحفظها لنفسه إذا شاء، أما أنا فلا أرتديها"

وكان للسجناء حق استحضار الكتب، وقد أسلفنا خبر الكونت ده ليل الذي جمع في حجرته أكثر من ثلاثمائة كتاب، وهذا زميله لابوميل وقد جمع منها أكثر من ستمائة ولم تكن الحكومة لتضن عليهم بشراء الكتب التي يزعمون أنها لازمة لما يقومون به من البحوث والدراسات، وبلغ بالحكومة التسامح إلى أن أباحت مطالعة الصحف لنزلاء الباستيل.

أما رياضة المسجونين فكانت أمرًا مباحًا إذ كان لهم أن يتنزهوا فوق سطح الأبراج وفي حديقة السجن وأن يعنوا بتربية بعض الحيوانات الأليفة والطيور، وأن يستعملوا آلات الموسيقى على اختلاف أنواعها كما كانوا أحرارًا في أن يشتغلوا بأي عمل يقتلون به الوقت، فكان بعضهم يشتغل بالنجارة وآخرون بالتنجيد وغيرهم بالخياطة والتطريز. ويروي وكيل الباستيل: "أن أحد المسجونين وهو مسيو ده فياروا لم يكن له عمل غير تفكيك خياطة ثيابه وإعادة خياطتها بضع مرات في اليوم". وكانوا يلعبون النرد والشطرنج والورق. وحدث في سنة ١٧٨٨ أن طلب بعض السجناء "بلياردو" ليلعبوا عليه فأجيب طلبهم ونصب لهم البلياردو في غرفة واسعة..

وكان المرسوم إذا صدر بالإفراج عن سجين حمله البريد إلى إدارة السجن، وسلم إلى أهل السجين فيأتون به ليزفوا إليه البشرى بأنفسهم، وسرعان ما كانت إدارة السجن تبادر إلى تسليم السجين أوراقه وحوائجه، وبعد أن يوقع تعهدًا بألا يعود إلى ارتكاب ما سجن من أجله، وبأن يظل مخلصًا للعرش وللملك، ويفتحون له الأبواب ليذهب إلى حيث يشاء.

ويذكر رينفيل أن كثيرًا من السجناء كانوا يغادرون الباستيل رغم أنوفهم متمنين لو طالت إقامتهم فيه، وسيرة السجين "لاتود" الذي كان إذا غادر الباستيل أسرع فارتكب ما يعيده إليه أشهر من أن نذكرها في هذا المقام.. تلك هي الحياة في الباستيل، وهذا هو نظام السجن الذي ظلمه التاريخ وأحاط اسمه بأشنع السير وأبشع الذكريات! ألا فما أظلم

التاريخ تخطه الأغراض وتمليه الأهواء. ويا رحمة الله على أولئك الطغاة المستبدين الذين ما أجبنا بظلمهم إلا بعد أن قاسينا عدل العصر الذي نعيش فيه!!!

الفتى الكورسيكي

في مستهل سنة ١٧٦٩ ظهر نجم مذنب في السماء فقال أهل الطيرة والمنجمون: سيحدث في بحر العام حدث يزعج الدنيا أو سيولد مولود يكون له في العالم شأن خطير. وفي الخامس عشر من شهر أغسطس كانت السيدة ليتسيا زوجة شارل بونابرت تصلي في كنيسة أجاكسيو ففاجأها المخاض فأسرعت إلى بيتها، ولم تكد تضطجع على أول صفة صادفتها حتى وضعت غلامًا كبير الرأس عالي الصياح عنيف الحركة يمص بنانه ولا تهدأ حدقتاه في عينيه، وكان ذلك المولود هو نابليون بونابرت إله الحرب وأعظم الرجال الذين عرفهم التاريخ..

ولقد يتعذر على المؤرخ أن يعين جنسية نابليون بونابرت على وجه التحقيق؛ فأسرته إيطالية الأصل نزحت أواسط القرن السادس عشر إلى جزيرة كورسيكا واستوطنتها، أما الجزيرة نفسها فقد تداولت ملكيتها أيد كثيرة منذ ذلك العهد، إذ انتزعها أمراء أراجون من أملاك البابا، ثم خرجت من يديهم إلى أيدي كونتات نيس ثم استولى عليها ملوك فرنسا ثم امتلكتها جمهورية بيزا، فجمهورية جنوة، ثم استقلت وظلت مستقلة إلى أن عادت فرنسا فاستولت عليها في شهر مايو سنة ١٧٦٩، أي قبل مولد نابليون بثلاثة شهور. فإذا كان الطفل قد ولد فرنسي التبعية — وهذا ما لا شك فيه — فإن جنسيته تصلح لأن تكون موضوعًا للتنازل بين كثير من

البلاد، مثله في ذلك كمثل كريستوفر كولومب الذي ما تزال إسبانيا وإيطاليا تتنازعان جنسيته حتى اليوم

ولقد تكشف نابليون منذ حداثته عن طفل عنيف الطبع صلب الإرادة عصبي المزاج حتى لتقول أمه لجارتها: "إن عفريتًا يسكن جسم هذا الغلام"، ثم تكتب إلى صديقة لها سألتها عن أحواله: "إن ميوله متجهة إلى الحرب، فينما إخوته يشترون لعبًا عادية ويرسمون على الجدران وجوها آدمية وحيوانات، أراه يشتري بدريهماته سيفًا صغيرًا ونفيرًا، ويرسم على الحائط صفوفًا من الجند متراصة كأنها في الميدان"

وكان ينزل إلى الشارع فيجمع لداته ويقسمهم قسمين، ويجعل نفسه على رأس أحدهما ويجعل على رأس الفريق الثاني أصحهم جسمًا وأقواهم بنية، حتى يأمر فتدور المعركة بين الفريقين بالأيدي والعصي والحجارة وتظل ناشبة حتى يفر العدو أمامه، فيقف راضيًا عن نفسه يثني على همة الشجعان من أنصاره، وينهال بالضرب على المقصر أو من حاول الفرار، ثم يعود إلى البيت أشعث الشعر، دامي الوجه واليدين، ممزق الثياب، فتنهره أمه فيتلقاها باسمًا ويقول: "لقد انتصرت"

وتشب الثورة الاستقلالية في الجزيرة بزعامة باسكال باولي، فتنحاز أسرة بونابرت إلى فرنسا وتظل موالية لها، فاذا ما استتب الأمر للفرنسيين وهدأت الاحوال كافأت الحكومة شارل بونابرت بوظيفة تدر عليه مرتبًا شهريًا يرضيه، فترحل الأسرة من الجزيرة إلى فرنسا، ويسعى الأب لدى

السلطات وذوي الجاه وينجح في أن ينخرط ابنه نابليون – ولما يتم العاشرة من عمره – في سلك تلاميذ مدرسة بريين الحربية الابتدائية، وكان حديث عهد باللغة الفرنسية يتكلمها برطانة إيطالية حتى نطق اسمه: "نابليوني بيونابارته"، فيضحك رفاقه في المدرسة ويسخرون منه. ولكن طبيعته المتكبرة كانت لا تتحمل السخرية، فإذا لجوا فيه انهال عليهم ضربًا ولكمًا وركلًا، حتى يلزمهم باحترامه والكف عن مناوءته.

ويقول بوريان زميله في الدراسة ومستشاره الخاص فيما بعد: "كان نابليون بيننا محبًا للعزلة صموتًا دائم الاكتئاب، يمشي في فناء المدرسة منفردًا مهموم النفس يكاد لا يلقي بالا إلى ما حوله ولا يعبأ بشئ مما يفعله إخوانه كأن شاغلا أسمى من كل هذا يشغل خاطره ويستأثر بتفكيره، ولعل للشوق والحنين إلى الوطن أثرهما في تلك الحالة النفسية"

وإذا غطت الثلوج فناء المدرسة والفضاء المحيط بها شتاء، عاودت الغلام رياضته المحبوبة. وعندئذ يخرج من عزلته ويجمع زملاءه ويشيد حصونًا من الثلج ويجعل من الزملاء جيشين يتولى قيادة أحدهما ويغير به على حصون العدو، متخذًا من كرات الثلج قذائف صغيرة وكبيرة يصلي بها هذا العدو، ولا يزال به حتى يجليه عن مواقعه ويستولي عليها. ثم يعود فيجمع الجيشين ليملي عليهما ملاحظاته وليمنح المحسنين ما يستحقونه من الألقاب.

على أنه برغم هذه الميول الحربية المبكرة وبرغم فرط ذكائه وتوقد ذهنه، لم يكن بالطالب المجتهد ولا بالحائز رضاء أساتيذه ومعلميه، فإذا ما وزعت الجوائز آخر السنة لم يفز إلا بنصف جائزة قاسمه النصف الثاني منها زميله بوريان. أما في مادتي الخط والأملاء فلم يفته أبدًا أن يكون آخر زملائه في الترتيب، حتى لقد يئس المدرسون من تقويم خطه ومن تلقينه أصول الهجاء. فلما صار إمبراطورا عمد إلى تعيين موظفين في ديوانه تخصصوا لدراسة كتابته ولم يكن لهم عمل سوى فك رموزها. وكانوا إذا أشكلت عليهم كلمة أو جملة وعجزوا عن قراءتها، يرجعون إليه فيها فيعجز هو الآخر عن قراءتها، ولكنه لا يعترف بذلك بل يصيح: "لست خطاطًا، ومع ذلك فكتابتي سهلة واضحة فكيف لا تقرأونها؟" ثم يملي كلمة أو جملة بدلا من تلك التي استعصت عليهم وعليه قراءتها بعد أن يستوحيها من سياق الكلام. ولعل ذلك لأن فكره كان يسبق قلمه، فيحاول أن يدرك القلم الفكر فتجئ كتابته عبارة عن سلسلة خطوط منحنية أو متكسرة يصعب تمييز حروفها. ولقد مات ومازال كثير من مخطوطاته غير مقروء حتى اليوم. ويقول مؤرخه الأكبر فريدريك ماسون: "إن رداءة خطه قد أفادته في كبره إذ طالما أخفت أخطاءه في الهجاء"

أما عدم تقدير معلميه إياه فيبدو في عدم ترفقهم به عند العقاب، فلقد حدث أن أتى ذنبًا فأرادوا أن يعاقبوه فألبسوا رأسه قلنسوة تمثل رأس حمار وجعلوه يجثو على ركبتيه في حجرة المائدة أثناء تناول طعام الغداء. ولقد كبرت على نفسه تلك الإهانة، ولم تحتملها فاعترته أزمة عصبية حادة نقلوه على أثرها إلى مستشفى المدرسة فاقد النطق، ولبث يستشفي أيامًا

عانى خلالها أشد الآلام. ولقد كتب أحد ممتحنيه أمام اسمه في تقرير العام عن حالة الطلاب: "مشكوك في صلاحيته للخدمة البرية، وقد يكون بحارًا لا بأس به"!!

وأتم الفتى الكورسيكي علومه الحربية الابتدائية والتحق بمدرسة باريس الحربية الثانوية، وفيها تجلت مواهبه التي لم يقدر لأساتيذه الأولين أن يستكشفوها. ولقد تنبأ له أستاذه المسيو ليجوي بمستقبل باهر في الفنون العسكرية وقال: "سيكون هذا الشاب عظيمًا إذا ساعدته الظروف"، وكان العالم الكبير لابلاس يمتحنه يومًا فأدهشته مواهبه وأعجب باستعداده كل الإعجاب فقال: "حبذا لو عشت حتى أرى إلى أين يصل هذا الصبي، فإني ألمح في هذا الجسم النحيل نفسًا وثابة ثائرة لا تقنع بشئ، وألمح تحت هذه الجمجمة عقلا ليس كعقول سائر الناس"، ولقد عاش لابلاس حتى صار وزيرًا للداخلية في عهد تلميذه الإمبراطور نابليون...

ويروي الثقات أن شارل بونابرت، لما حضرته الوفاة ودخل في طور البحران، كان يشير كأنه يدفع شيئًا غير مرئي ويقول: "أين ابني نابليون ليقتل بسيفه شبح الموت الماثل أمامي؟"، وأن عمه جوزيف جمع أولاده وأولاد اخيه وهو على فراش الموت، وقال لهم مشيرًا إلى نابليون: "هذا أصغركم سنًا ولكنه سيكون زعيم الأسرة وعميدها فلكم أن تركنوا إليه وتعولوا عليه"

ولم يمض نابليون أكثر من سنة واحدة في مدرسة باريس الحربية حتى نال إجازتها النهائية التي لا ينالها الطلاب عادة قبل ثلاث أو أربع سنين يمضونها في الدرس والتحصيل، وتخرج منها ضابطًا برتبة الملازم الثاني، والتحق بإحدى فرق الجيش المعسكرة بمدينة فالانس.

ويعيش الضابط الناشئ بونابرت في تلك المدينة عيشة الكفاف والأملاق التي لا يتسع مرتبه الضئيل لأحسن منها، فيسكن غرفة صغيرة في نزل متواضع باثنى عشر قرشًا في الأسبوع، ويتناول طعامي الغداء والعشاء بخمسة قروش، ولكنه لا يضيق نفسًا ولا يتذمر كأنه واثق من أنها أيام لا بد من أن تنقضي فيعقبها اليسر والرخاء. وبعد فكيف يهتم بالمأكل والمشرب وهو الذي أمضى حياته لا يقدر لذة الطعام حتى لقد كانوا يصفون أمامه الألوان على المائدة دفعة واحدة فيتناول منها جميعًا في آن واحد وبسرعة مربكة لمؤاكليه، أو يأمر فينصب له خوان صغير إلى جانب مكتبه فيلتهم الألوان وهو مكب على قراءة الأوراق، أو وهو يملي الأوامر والتعليمات؟. أما النوم فلم يكن بالعملية المهمة في حياته. فلقد كان يكتفي بثلاث أو أربع ساعات ينامها، ثم ينهض على أثرها نشطًا مستجمًا موفور القوة، وكان يعتبر النوم مضيعة للوقت ويقول: "ما أحوج عملي إلى الساعات التي أنامها! حقًا إنه لمن مصائب الإنسان أن يقضى عليه بغيبوبة متقطعة تستغرق ربع حياته"

وتردد الضابط الصغير على الأوساط الراقية في المدينة فلا يهم باله سوى أن هندامه لا يتفق والمظهر الذي يود لو يظهر به، فثوبه عتيق،

ومرتبه لا يمكنه من شراء ثياب جديدة، وأنظار النساء لا تقع عليه إلا لتنصرف عنه إلي زملائه الحسني البزة والمتأنقين، ولكنه كثير التفاؤل، كبير الأمل في المستقبل، فهو ينتظر هذا المستقبل على مضض واثقًا من أنه آت لا ريب فيه.

ويتصل بمطران الإقليم فترتاح إليه نفس المطران، ويتوسم فيه شخصًا غير عادي فيميل إلى صحبته، ويتولاه برعايته، ولا يلبث أن يلمح شيئًا من المطامع الهائلة التي تعتلج في نفس الشاب، فيشفق عليه من بعد غاياته مع قصر وسائله، وينصح له بالتواضع والقناعة مؤكدًا أن الدنيا متاع الغرور، وأن النعيم الأوفى إنما هو نعيم الآخرة، وأنه إن قنع وتواضع ورضي فسوف يحظى بما وعد الله المؤمنين من قصور الجنة وعروش السماء. وهنا تبرق عينا الضابط الناشئ ويقاطع الحبر متسائلا في أكثر ما يمكن من الجد: "ولم لا يكون لي في الدنيا عرش يا أبتاه؟" فيبتسم المطران الجليل ضاحكًا ويربت على كتف صاحبه ساخرًا ويقول: "لا تيأس يا ولدي من فضل الله" فيشيح الضابط بوجهه ويجيب: "لست يائسًا ولكني لا أحب الانتظار"

ويقضي نابليون أوقات الفراغ وفترة الانتظار في المطالعة، فينكب على قراءة الكتب انكبابًا كبيرًا، ويستوعب ما فيها ويهضمه. وهو يميل إلى قراءة التاريخ وسير الغزاة والفاتحين، وقلما يصادفه رفاقه بغير كتاب في هذا الموضوع. ويشتد ولعه بالمطالعة والاستقراء حى ليكتب وصيته: "أوصي ابني أن يقرأ التاريخ وأن يطيل فيه التأمل والتفكير، فليست في العالم فلسفة جديرة بهذا الاسم إلا تلك التي نستخلصها من صفحات التاريخ.

وليتدبر سير القواد الكبار وليتذكر حياة الملوك العظام فتلك هي السبيل إلى تعلم فن الحرب وفن حكم الشعوب"

وإذا مل المطالعة عمد إلى مراسلة أهله وإخوته، وإن في رسائله إليهم لشيئًا عجيبًا ينم على ثقته بالمستقبل واطمئنانه إليه، فهو يكتب إلى أخيه جوزيف: "إني أتوسم فيك الخير وسوف أنتفع بك". ويتحقق توسمه ويصير جوزيف ملكًا على إسبانيا، ويكتب إلى أخيه الثاني لوسيان: "وأغلب ظني إن بقيت على ما أنت عليه فإنك لن تكون شيئًا مذكورًا " ويصح ظنه فلا يسمو لوسيان عن لقب أمير. ويكتب إلى أخيه الثالث لويس: "لو ملكت هواك وقريت إرادتك لصرت رجلا ولاستطعت أن أعتمد عليك فهل أنت فاعل؟" وتصدق فراسته ويصير لويس ملكًا على هولاندة. ويكتب إلى أخته كارولين: "وإني لأراك من هنا شامخة الأنف مصعرة الخد تمشين مشيتك الوقور كملكة تصعد درجات عرشها، ثم لا ألبث أن أضحك متى شكوت أن قصوى أمانيك معطف جديد"، ويا ليت شعري هل ظل يضحك وقد جعلها ملكة على عرش نابولي إلى جانب زوجها الملك موراه؟

أما الأسرة فشرهة نهمة لا تقف حاجاتها عند حد؛ فإذا صار قائدًا وأرسل إليها معظم ما تصل إليه يده من النقود طلبت المزيد، وإذا صار رئيسًا أعلى للدولة بلقب القنصل الأكبر، وأفاض عليها المال والعزة والجاه طلبت المزيد، وإذا صار إمبراطورا وأغدق عليها النعم والألقاب والإقطاعات والتيجان والعروش ظلت تطلب المزيد. وهكذا يلقي

الإمبراطور نفسه بين إخوة وأخوات لا شئ يرضيهم ولا يقنعون بشئ، فهذا الأخ لا يكتفي بلقب الإمارة ويريد عرشًا، وذلك الآخر لا يقنع بمملكته الصغيرة ويلتمس مملكة أوسع. وتلك الأخت تحسد أختها على صيرورتها ملكة وتأبى إلا أن تكون ملكة مثلها، فإذا لم يكن ثمة مملكة أوسع أو عرش شاغر أو تاج مهيأ فالجمع غاضبون حانقون متحاسدون. ولقد احتدمت المنافسة بينهم يومًا وكثرت مطالبهم وجاءوا أخاهم يعرضون عليه شكاياتهم وما تمليه عليهم الأطماع الواسعة، ولبث نابليون يستمع إلى هذه الغايات المستعرة في نفوس ما كانت لتحلم ببعض ما هي فيه، حتى إذا انصرفوا غير راضين دق يدًا بيد وقال لمن معه: "كأني بأولئك الحمقى يظنونني أضن عليهم بتركة أبيهم الملك المرحوم"

أما السيدة الوالدة فكانت حكيمة قانعة كلما تسلقت وراء ابنها درجة من سلم المجد والعظمة استغرقت في تفكير عميق وتنهدت وقالت: "حبذا كل هذا لو أنه يدوم"

ولكن ما لنا وللإمبراطور وأسرته، ونحن هنا إنما نعني بالضابط الكورسيكي الصغير؟

تنتقل الفرقة من فالانس إلى بلدة أوكسون ويعمل الضابط بونابرت تحت إمرة الجنرال دوتيل وتسترعي مواهبه نظر القائد فيشير بترقيته إلى رتبة اليوزباشي ويكتب في تقريره عنه: "هذا ضابط موهوب وعلى شئ كثير من النبوغ، ولسوف يكون له شأن يذكر وأرجو أن يوجه

مواهبه العظيمة في الخير". ويظهر أن هذا التقدير كان متبادلا فلقد كتب نابليون في مذكراته: "إن الجنرال دوتيل هو الذي علمني كيف أطيع ثم علمني كيف أطاع". ولما شارف الوفاة ذكره في وصيته وأوصى له بمائة ألف فرنك من ماله الخاص.

وتصل إلى المعسكر أنباء مقدمات الثورة الكبرى التي ستغرق العرش والبلاد في بحر من الدم، ويلمح بونابرت خلل الدخان وميض النار التي ستشتعل، ويتبين من غليان النفوس وفورة العقول أن أحداثا كبيرة تتهيأ، وأن انقلابًا عظيمًا سوف يقع ويتمخض عن عهد جديد وأنظمة جديدة، فتستعر في نفسه جذوة السيطرة والسلطان ممتزجة بشعلة الشباب، وتحدثه نفسه بأن الحياة تبسم له وأن العهد العتيد يناديه، فيظل يرقب الحوادث ويتتبع مجرى الأمور موقنًا أن المستقبل القريب يكن له شيئًا فما عليه إلا أن يتريث وينتظر..

وتهب الثورة الكبرى فيرسلونه إلى باريس على رأس كتيبة يحافظ بها على النظام، ويتاح له بذلك أن يكون على مقربة من مسرح الحوادث، وأن يشهد الملك لويس السادس عشر يقسم يمين الإخلاص للدستور الجديد بينما الشعب الزاخر يحيط بدار الندوة صاخبًا ومزمجرًا، فيهمس بونابرت في أذن زميل له: "إن شيئًا من العزيمة والحزم وشرذمة من الجنود المخلصين كفيلان بكبح جماح هذا الشعب الهائج، أما إرضاء الشعب فشئ ميسور فهو لا يطلب سوى أن تحكمه حكومة قوية عادلة" ثم يشهد هجوم الجماهير على القصر الملكي وأفاعيله الشنيعة فيه فيكتب إلى

شقيقه: "لقد رأيت جمهرة من حثالة القوم تقتحم أبواب التويلري، ولو كنت أملك من الأمر شيئًا لسلطت مدافعي على أولئك الطغام ولطهرت منهم الأرض في مثل لمح بالبصر.. إن هؤلاء الناس ليسوا شريرين بالفطرة ولكنهم مسحورون بشعوذة زعماء يودون الوصول إلى أغراضهم ولو سحبوا إليها في بحر من الدماء، وقد شجعهم ضعف الملك واستسلامه، ويا لشقاء شعب يحكمه ملك ضعيف!"

ولعل القارئ يلمح معنا في تلك الأقوال والآراء رأس الإمبراطور العتيد يطل من وراء كتف اليوزباشي الصغير، وينبئنا بما سوف يكون من أمره عندما يعتلي عرش فرنسا، ويضع على مفرقه تاج شارلمان..

ويمضي على هذه الحوادث عامان وتتألب أوروبا على فرنسا خشية أن تمتد ألسنة نيران ثورتها إلى جاراتها، ويحاصر الأسطول الإنجليزي سواحل فرنسا الجنوبية وتحتل جيوش بريطانيا العظمى ميناء تولون، ويرسل بونابرت ليعمل تحت إمرة الجنرال كارتو المكلف بالدفاع عن المدينة، فما يكاد يطلع على الخطط المرسومة للدفاع حتى يتبين خطأها وسوء تدبيرها، فيضع خطة أخرى يعرضها على رؤسائه. ولكن الجنرال كارتو رجل شديد الاغترار بنفسه رغم جهله وفساد رأيه، فيكبر عليه أن يعمل بمشورة مرءوسيه أو أن يسمح لمرءوس أن ينتقد خططه، فلا يجد بونابرت وسيلة إلى إقناعه إلا بأن يستعين عليه بالسلطات العليا في المدينة فتتدخل هذه السلطات في الأمر وتحمل القائد على الأخذ بخطة الضابط الشاب، ويتولى الشاب تنفيذ هذه الخطة بنفسه فتنجح نجاحًا يبهر الجميع وتخلص المدينة

من يد العدو ويجئ خلاصها فاتحة لمجد اليوزباشي بونابرت وبداية للمدار الذي يدور فيه حتى يصل إلى العرش.

ويجتاز بونابرت الرتب العسكرية بخطوات سريعة، فلا يأتي عام ١٧٩٤ حتى يكون قائدًا للمدفعية برتبة اللواء ولما يتجاوز سنة الخامسة والعشرين. ولا يتوهمن أحد أن ارتقاءه سلم الرتب كان سهلا أو ميسورًا، فلطالما اعترض سبيله حسد الحاسدين وعاقت خطاه مكائد الكائدين، حتى لقد عزوا إليه مرة تهمة الانتقاض على الثورة، وأمرت الحكومة العرفية بالقبض عليه فانتزع من وسط جنوده واقتيد إلى السجن رهن المحاكمة. ولبث في سجنه أربعة عشر يومًا ظهرت بعدها براءته فأطلق سراحه وأعيد إلى الجيش ليقود الحملة ضد النمسا وليصد إغارتها على أرض الوطن وعندئذ تتبدى مواهبه في القيادة وتتجلى عبقريته الحربية في سلسلة انتصارات تشخص إليها الأبصار.

بيد أن حملة الإفك والحسد لا تقعد بعد خيبتها الأولى ولا ترضى لنفسها بالهزيمة، بل تنشط أقوى وأحكم من ذي قبل، وتصوب نحو القائد الشاب سهامها المسمومة، ويتولاها كل الذين قعدت بهم قلة الكفاءة أو تخطاهم الحظ أو بهرتهم شمس بونابرت المشرقة فينجحون في اقتلاعه من منصب القيادة العامة للجيش المجهز ضد إيطاليا، ويرسلونه لقيادة فرقة تقمع ثورة محلية في غرب فرنسا حيث لا ميدان لنشاطه ولا عمل تتجلى فيه مواهبه، بل حيث ينطفئ نوره ويخبو ذكره وينساه الناس.

ويدرك بونابرت ما يراد به فيهرع إلى باريس ويقابل وزير الحربية ويحتج على هذا النفي الملطف ويلح في أن يظل في منصبه، فيقول له الوزير الحسود: "إن سنك لا تؤهلك بعد للقيادة العامة"، فتثور كبرياؤه ويجيب: "ولكني اكتسبت من الخبرة في ميادين القتال ما لا يكتسبه غيري بالجلوس في المكاتب ولا بالعمر الطويل"، ثم يتمارض ويعتذر بالمرض عن قبول منصبه الجديد ويلتمس أجازة طويلة يرجو أن تتحسن الأحوال قبل انقضائها..

وبعد فها هو ذا يعيش في باريس عيشة ضنك وإملاق، ويسير في شوارعها كأنه يسرح همومه، بسترة بالية ونعلين أوسع من قدميه ورباط رقبة متهدل وقبعة تكاد تغطي عينيه. وها هو ذا بعد أن دلله الحظ وتبسمت له الأيام يذوق مرارة ضياع الأمل وخيبة الرجاء، ويرى المستقبل قاتمًا في وجهه فيخيل إليه أن الحظ قد خانه وأدبر ولن يعود.

ويقنع ببسيط المأكل وخشن المنام، ولكنه لا يملك من النقود ما يكفل له حتى هذه العيشة الضيقة الخشنة فيبيع عربيته ويبيع كتبه ويرهن ساعته، ثم يلجأ إلى الاقتراض من الأصدقاء. فإذا ضاقت به الدنيا ويئس من كل شئ كبر على نفسه أن يعيش مغبونًا في هذا الوطن الذي لا يقدر الرجال فيفكر في الرحيل إلى بلد آخر، وليكن هذا البلد القسطنطينية حيث يجعل سيفه في خدمة آل عثمان

ولكن تريد الأقدار ألا يطول به البؤس واليأس فتسقط الحكومة العرفية ويحل محلها مجلس إدارة الدولة (الديركتوار) فتنتهي الأزمة وتنجاب الغيوم عن سماء حياته، ويعاد قائدًا عامًا للحملة المسيرة على إيطاليا، ويتعرف في الوقت نفسه بالسيدة جوزفين أرملة الجنرال بوهارنيه أحد ضحايا حكم الإرهاب، فتنزل في قلبه وتستولي على عواطفه فيخطبها ويتزوج بها فتتم له نعمة الدنيا وتتفتح أمامه أبواب المجد والعظمة من جديد

ولتعارف الجنرال بونابرت بجوزفين حكاية لا بأس بها من إيرادها؛ فلقد كانت الحكومة تنهى الأهالي عن حمل السلام وحيازته، وتعاقب بالإعدام كل من يحرز سلاحًا من أي نوع، وذهب الصبي أوجين بوهارنيه موفدًا من قبل أمه إلى القائد العام الجنرال بونابرت ليرجو منه أن يسمح للأسرة بالاحتفاظ بسيف المرحوم عميدها أثرًا وتذكارًا. ولم يشأ بونابرت أن يخيب مسعى هذا الصبي الذكي الشجاع فسمح له بما يريد. وفي اليوم التالي جاءت السيدة جوزفين لتشكر له هذا الصنيع، فما إن رأى وجهها وسمع صوتها وأعجب بهندامها حتى وقع في شرك جمالها، وعرف الهزيمة لأول مرة في حياته.

وكانت جوزفين قد أوشكت بسوء سيرتها بعد وفاة زوجها أن تفقد حيثيتها الاجتماعية فلم تكن لها مندوحة عن أن تستعيد هذه الحيثية بزواج يرضي كبرياءها، ولو لم يكن فيه ما يرضي قلبها المتحول الذي لم يألف الاستقرار. ولم يلق بونابرت بالا إلى تحذير أصدقائه إياه من ماضيها المعيب وحاضرها المريب، بل أقبل عليها بجمعة قلبه وعواطفه، صافحًا عن

الماضي، مؤملا في المستقبل، غير عابئ إلا بالحاضر الشهي الهنئ، ويظل كذلك حتى يفتح عينيه على الحقيقة المرة المؤلمة فإذا جوزفين المحبوبة تخونه مع رجال هم دونه في كل شئ، وهكذا تقيم الدليل مرة أخرى على أن المرأة هي المرأة، أي ذلك البحر العجيب الذي لا يعرف له شاطئ ولا يسبر له غور، والذي لا يعرف من أين تهب رياحه ولا إلى أين تتجه عواصفه.

ولم يسعد بونابرت بتمضية شهر العسل كله إلى جانب زوجته؛ فقد اقتضت الأحوال رحيله على رأس الجيش لفتح إيطاليا ولصد الجيوش النمساوية المغيرة عليها، وها هو ذا يتسلق جبال الألب وينحدر منها كالسيل العرم على سهل لومبارديا فيكتسح العدو ويستولي على إيطاليا ثم يولي وجهه شطر جيش النمسا فيسوقه أمامه في سلسلة معارك موفقة حتى يهدد مدينة فيينا، فيبادر النمسويون إلى طلب الصلح وتضع الحرب أوزارها بعد أن تسجل للقائد الشاب قائمة انتصارات حاسمة سريعة كان الفضل أكبر الفضل فيها لصحة إدراكه للمواقف وسرعة تدبير الخطط وتنفيذها وللمثل العالي للشجاعة والاستهتار بالموت الذي كان يضربه كل يوم لجنوده ومرءوسيه.

أما شجاعته واستهتاره بالموت واستهدافه للخطر فحسبنا مقياسًا لها موقفه يوم معركة أركول. فلقد أراد القائد النمساوي أن يحول دون عبور الفرنسيين قنطرة مقامة على نهر البوني، فسلط عليها كل مدافعه لينسفها، فكانت القذائف من كل نوع تتساقط عليها كالمطر، وأدرك بونابرت أن

نسف القنطرة يفقده النصر أو يجعل النصر أمرًا مشكوكًا فيه، فاستحث رجاله على عبورها مهيبًا بهم: "إلى الأمام أيها الشجعان!" ولكن الشجعان تقاعسوا أمام ذلك الجحيم المستعر وبدت عليهم علامات التردد والخوف، فانتزع بونابرت العلم من حامله ورفعه في يده عاليًا وصاح: "من أحب فرنسا فليتبعني" ومرق من بينهم كالسهم وعبر القنطرة تحت وابل من الحديد والنار، فلما أبصره جنوده عند طرفها الآخر استولت عليهم الحمية وهتفوا: "لتحيا فرنسا" واندفعوا فرسانًا ومشاة واجتازوا النهر وأحرزوا النصر بعد بضع ساعات

ويتم لبونابرت فتح إيطاليا ويلبث فيها شهورًا يدير شؤونها وينظم أحوالها ويدخل على أنظمتها القائمة شتى الإصلاحات، جاعلا من نفسه شبه ملك تحيط به حاشية كاملة، فيستقبل الملوك والأمراء ووزراء الدول، ويخلق حوله بلاطًا كبلاط الملوك، كأنه يدرب نفسه على مظاهر الحياة الملكية المنتظرة. ثم يعود إلى باريس فيستقبله الشعب بأروع مظاهر التقدير والإجلال، ويفتح له مجمع العلماء أبوابه وينتخبه عضوًا فيه، ويغير المجلس البلدي اسم الشارع الذي يسكنه فيجعل اسمه "شارع النصر" وتحدد الحكومة يومًا لاستقباله استقبالا رسميًا في قصر لوكسمبورج، فيحتشد في ذلك القصر رؤساء الدولة ووزراؤها وقواد الجيش وأعيان العاصمة، حتى إذا أقبل نهض الجميع وقوفًا وحيوه برفع القبعات، وتقدم نحوه أعضاء مجلس إدارة الدولة يعانقونه ويقبلونه والحسد ينهش أفئدتهم حتى ليحس منهم ذلك فيكتب: "كنت أشعر وهم يقبلونني أن أسنانهم تتحرك لتمزقني"

والآن وقد تم له هذا الفتح المبين، وأضاف إيطاليا إلى أملاك فرنسا، وأوقف النمسا عند حدودها موقف الطاعة والاستكانة ورفع علم بلاده فوق مستوى أعلام الدول، هل يهدأ ويقنع ويستريح؟ لا.. فهو يعلم أن الشهرة عارية لا تدوم، وأن الرأي العام سريع التحول لا يلبث طويلا حتى ينسى أحب الناس إليه، وأن المجد كالنار لا بد له كل يوم من وقود وإلا خبأ وانطفأ. إذن لا بد من ميادين حرب جديدة يسجل لنفسه على أديمها انتصارات جديدة، ولكن إنجلترا التي طالما منى نفسه بغزوها منيعة الشواطئ لا تهاجم، وروسيا بعيدة المنال، وليس في جو السياسة ما يبرر عدوانًا على بروسيا أو إسبانيا فإلى أين يوجه نشاطه وفي أي ميدان يصرف قواه؟.. وهنا نقرأ له هذه العبارة الغريبة في كتاب منه إلى أخيه: "إن أوربا صغيرة لا يتسع ميدانها للمجد الذي أبتغيه"، وهنا يستهويه الشرق ويجتذبه سحره ويقع اختياره على مصر فيعد العدة لفتحها تمهيدًا لغزو الهند وانتزاعها من بين براثن الإنجليز

إذن فغزو الهند هو الفكرة الهائلة التي حفزت بونابرت إلى فتح مصر، وتلك الرقعة الواسعة من الأرض الواقعة بين شواطئ فرنسا ونهر الجانج هي الميدان الذي ارتضاه ليسرح فيه أطماعه وينمي مجده وعظمته. ولكنه إذ أقدم على ذلك المشروع المهول لم يحسب حساب الأسطول الإنجليزي الذي أغرق سفائنه في مياه أبي قير والذي ظل يغذي مدينة عكا طوال مدة حصارها حتى ارتد عنها الفرنسيون خائبين. وهكذا قدر على بونابرت أن يرى مشروعه الجرئ يتداعى، وصرح أمانيه في تأسيس إمبراطورية شرقية ينهار

وبينما هو في مصر يحاول فتحها فتحًا علميًا بعد أن فتحها فتحًا عسكريًا إذا الأنباء تتوالى عليه من فرنسا بأن البلاد منقسمة على بعضها، والخزانة العامة على هاوية الإفلاس، والمجاعة تهدد الشعب، ومجلس إدارة الدولة عاجز عن تيسير الشؤون، وإيطاليا خرجت من السيطرة الفرنسية، وأوربا متحالفة على فرنسا متأهبة لمحاربتها والحالة العامة تقتضي حكومة قوية بل يدًا من حديد تقبض على أزمة الأمور

إذن ففيم البقاء بمصر وكل شئ في وطنه يناديه وتلك فرصه مهيأة لمن يعرف يصيدها، وليس في فرنسا رجل ذو قيمة أو مكانة يزاحمه في الطريق؟

ويهرع بونابرت إلى بلاده فيلفى الحالة على ما سمع وأسوأ مما سمع، ويفحص نفسه وقواه فيجد أنه رجل الساعة الذي لا رجل سواه، في ضربته المعروفة بيوم "١٨ برومير" إذ يسقط الحكومة الإدارية ويحل المجلس النيابي ويطرد ممثلي الأمة منه بقوة الجنود، ويجعل على رأس الدولة قنصلين صوريين هو ثالثهما ورئيسهما بلقب القنصل الأول، وينصب نفسه حاكمًا بأمره لا راد لكلمته ولا معقب لحكمه، ويستفتي الأمة في كل ذلك فتفتي وفق ما يريد.

وإذا كان الجنرال بونابرت قد برهن على عبقرية حربية عديمة المثال، فقد آن للقنصل الأول بونابرت أن يبرهن على عبقرية في ولاية الأمر تضعه في الصف الأول من صفوف الحكام والمصلحين، إذ لا تمضي

سنوات قلائل حتى يصل إلى تنظيم الإدارة وإصلاح القوانين وموازنة الإيراد والمصروفات وتثبيت سعر العملة وتدعيم قواعد الأمن وتهذيب نتائج الثورة الكبرى وتزويد البلاد بأعظم الجيوش وفتح أبواب الوطن أمام أبنائه المهاجرين والتوفيق بين الأحزاب وإبراز فرنسا أمة ملتئمة الشمل عزيزة الجانب مرعية المقام. فإذا ما ذهب إليه مجلس الأمة بكامل هيئته عام ١٨٠٤ ليلتمس منه باسم فرنسا أن يتفضل فيرضى بارتقاء العرش وتقلد تاج شارلمان، لم ير الفتى الكورسيكي في كل ذلك إلا أمرًا تمليه الظروف وتقتضيه طبيعة الأحوال، وهكذا يصبح الضابط بونابرت الإمبراطور نابليون!!

مؤامرة لقتل بونابرت

كانت الفتاة آن – ماري دروسوبيز من بنات ذلك الجيل التاعس المنكود الذي عاش إبان الثورة الفرنسية الكبرى، فلم تبلغ السن التي يحس فيها الإنسان نعماء الحياة وبأساءها حتى كانت العاصفة قد هبت على فرنسا فدكت فيها الأنظمة وقلبت الأوضاع؛ فهؤلاء أمراء البيت المالك مشردون في مختلف العواصم، والخاصة والنبلاء مشتتون في المنافي والمهاجر، والذين بقوا منهم في أرض الوطن فقراء صودرت أملاكهم فباتوا يعانون مرارة الأملاق والفاقة، ويعللون النفس بالصفو يعقب العاصفة، وبالاستقرار يأتي بعد طول الفوضى والاضطراب

ومنذ فتحت الآنسة آن – ماري دوروسوبيز عينيها على الحياة، عانت مع أهلها كل ما عانته الأسر النبيلة المضطهدة إذ ذاك من أهوال التنكر في مختلف الأشكال والتسمي بالمستعار من الأسماء، والاختفاء من الشرطة نهارًا في السراديب، والفرار أمامهم ليلا في الغابات والأحراش، والتنقل السريع الدائم من حمى أسرة في المدن خائفة جزعة، إلى حمى أسرة أخرى في الريف مرتابة قلقة، وترقب الاعتقال أو الموت ينقض عليها في أي ساعة من ساعات الليل أو النهار..

فلما هدأت العاصفة وسكنت الريح، كان رب الأسرة الكونت دي دروسوبيز قد لقي حتفه فوق المقصلة، وكان ابناه قد تطوعا في

عصابات الملك فقتلا في الحرب الأهلية التي شبت لمناهضة الثورة والحكومات التي أعقبت الحكومة العرفية، وكان بيت الأسرة في باريس قد صودر من الأملاك والأموال، وقصرها في فرساي قد أحرق وزالت معالمه. ولم يبق للكونتيس دروسوبيز وابنتها إلا أن تقنعا بما تيسر بعد كل ذلك من وسائل العيش، فاستأجرتا في فرساي مسكنًا يؤويهما على ضيق إلى أن تنفرج الأزمة وتتحسن الأحوال..

وكان طبيعيًا أن تعود الخاصة فتصل ما انقطع من علاقاتها القديمة ببعضها، وأن تتواد وتتزاور، وأن تتعزى وتتواسى، وإذا كانت المصائب تؤلف عادة بين المصابين، فما بالك بهؤلاء الذين نكبوا في آبائهم وأبنائهم وامتيازاتهم، وأصبحوا غرباء في وطن كانوا فيه حتى الأمس القريب سادة ملء السمع والبصر؟

وكان من الذين توثقت بينهم وبين آل دروسوبيز روابط الألفة والصداقة سيدة تدعى مدام ده ليموالان، أعدم زوجها هي الأخرى بسكين المقصلة إبان عهد الإرهاب، وقتل عشرة من أقاربها في ثورة الملكيين بإقليم الفانديه، ولم يتبق من أسرتها العديدة سوى ابنين كبيرهما مفقود لا يعرف مقره، والثاني شاب في الثلاثين من عمره، رشيق القامة جميل الوجه كيس ظريف هو الشفالييه كلود ده ليموالان.

كان الشفالييه ده ليموالان قد ساهم بقسط وافر في القلاقل التي أثارتها عصابات الملك في إقليمي بريطانيا والفانديه، وأبلى في مقاومة

حكومة الثورة الإدارية أحسن البلاد، وظل منغمسًا في مؤتمرات الملكيين ومغامراتهم ضد القنصل الأول بونابرت حتى وفق هذا الأخير. ومنذ ذلك الحين أخلد الشفالييه كلود الى السكينة وطابت له الحياة الهادئة في عزلة قريبة من مدينة مانت التي لم يكن أهلها يعرفون عنه أكثر من أنه نبيل ريفي يقضي أوقاته في الصيد أو مطالعة الكتب ولا يحب الاختلاط بالناس

ومذ استتب الأمر لبونابرت وانجابت عن سماء حكومته الغيوم التي كانت تهددها شعر أصدقاء كلود بتحول ملموس في ميوله السياسية؛ فلقد انقلب هذا الملكي المتطرف العنيد بونابرتيًا متحمسًا يطري أعمال القنصل الأول ويشيد بما آثره على البلاد، ولا يسمع باستعراض عسكري يقيمه إلا ويذهب لمشاهدته فيصفق للقائد العظيم مع المصفقين عند قدومه ويهتف مع الهاتفين عند انصرافه، ويغشى بعض الأندية السياسية فلا يمل ترديد أسفه على ما كان من جهله بقيمة الرجل وإنكاره لمزاياه. ولا يفتأ يعدد الحسنات التي أغدقها على الوطن والشعب ويتوقع منها المزيد

ولقد هان عليه في هذا السبيل استنكار أمه لسياسته الجديدة واستياء أصحابه من هذا التحول العجيب. أما خاله القس كلوريفيير فكان له في كل ذلك رأي آخر، فلقد كان إذا ذكر ابن أخته يهز رأسه ويسترسل في تأمل عميق ويقول: "يخيل إلي أن جمجمة هذا الشاب تخفي تحتها عاصفة هائلة، وأن وراء هذا المظهر الهادئ الوديع سرًا رهيبًا سوف ينكشف"

وكان الشفالييه يتردد على فرساي من وقت لآخر ليزور أمه وأصدقاء أسرته، ومن ثم نشأت بينه وبين آل دروسوبيز صلة تعارف لم تلبث أن تطورت إلى صداقة وثيقة جعلته يزورهم كلما مر بفرساي. ولقد أعجب كلود من أول يوم بجمال الآنسة آن – ماري وبما تحلى به هذا الجمال من صفات تعززه وتبرزه، فلقد كان لها من الرشاقة والذكاء والتواضع وطيب الشمائل وحلو الحديث ما يستوقف على حسنها الأنظار ويجتذب اليها القلوب

ولم تقف الفتاة جامدة إزاء العواطف التي كان الشاب يقدم بها لحبه الناشئ المسكين، فلقد قدرت هي الأخرى بهاء طلعته وكمال رجولته، وعطف قلبها عليه ذلك المظهر الحزين الذي لا يفارقه، والذي ينسجم كل الانسجام مع تفكيره الهادئ وطبيعته الحيية المستوحشة، وأكبرته في نظرها ذكريات الثورات والحروب التي خاض غمارها، فمالت إليه بجمعة قلبها ورأت فيه رجلا يحقق ذلك المثل العالي من الزوج الذي طالما تخيلته وأملت أن تصادفه يومًا من الأيام.

ولم تشأ العناية الساهرة على قلوب المحبين أن تطول بالحبيبين فترة الرنو والمخادنة، فلقد تشجع كلود وخطب الفتاة إلى أهلها، وطربت مدام ده دروسوبيز لهذه الخطبة التي باركها الخال كلوريفيير بصلواته ودعواته، ولم تمض أسابيع حتى احتفلت الأسرتان بهذا الحادث السعيد، ولم يبق إلا انتظار الوقت الملائم لإقامة حفلة العرس فيسافر الشابان إلى إحدى مدن الشواطئ لتمضية شهر العسل في دعة وسكون

لم يخطئ الخال كلوريفيير إذ تنبأ بأن جمجمة ابن أخته تحجب عاصفة هائلة وبأن وراء مظهره الهادئ الوديع سرًا سوفينكشف، فإن الشفالييه ده ليموالان كان يستتر خلف نزعته البونابرتية ليصرف عنه أنظار الوزير الرهيب فوشيه القائم على رأس وزارة البوليس، وأنظار رجاله المنبثين في كل مكان. وإذا كان كلود يخشى فوشيه ورجاله فلسبب قوي، وهو أنه كان يدبر مؤامرة هائلة لقتل القنصل الأول بونابرت، ويشفق أن يفتضح أمرها قبل أن يودي بحياة الجبار الذي اعتلى منصب الرئيس الأعلى للدولة تمهيدًا لارتقاء عرش أسرة البوربون.

كان الشفالييه يعيش لهذا الغرض بباريس منذ ثلاثة شهور، وقد أشرك في مؤامرته صديقًا قديمًا من زملائه في ثورة إقليم الفانديه اسمه ريجنان، وخادمًا أمينًا اسمه كاربون ذا سوابق معروفة في قطع الطريق على عربات البريد لنهب ما تحمله من أموال الحكومة إلى مختلف المدن في الأقاليم.

ففي السابع عشر من شهر ديسمبر سنة ١٨٠٠ ذهب كاربون الى أحد تجار الحبوب وابتاع منه عربة نقل صغيرة ذات عجلتين وفرسًا هزيلة عجفاء دفع ثمنها مائتي فرنك واستأجر لهما مكانًا أودعهما فيه مدعيًا أنه تاجر متنقل يجوب بعربته أنحاء الضواحي ليبيع فيها الخضر والبقول.

وكان تصميم المتآمرين يقضي بأن يأتوا ببرميل يملأونه بارودًا وشظايا من الحديد ومواد أخرى مفرقعة ويربطونه على سطح العربة بعد أن يدلوا منه فتيلا طويلا مشربا بالكبريت أو بمادة من نوعه سريعة الالتهاب، وأن يجعلوا العربة والبرميل في الطريق العام الذي يمر منه بونابرت كل يوم، فإذا أقبل في موكبه أشعلوا الفتيل وتركوا البرميل الجهنمي يفعل فعله المدمر في كل ما تصادفه شظاياه.

ولقد اتخذ الشفالييه الحيطة لكل شئ حتى لا تتجه إليه ظنون البوليس، فبينما كان المعزوف لدى الجميع أنه مقيم بمدينة مانت، استأجر لنفسه عدة غرف في مساكن متعددة وفي أماكن متباعدة من أحياء العاصمة، كانت له غرفة في شقة يسكنها المسيو لكلير تاجر الحلوى والفطائر بشارع موانو، وكان المسيو لكلير يعجب أشد العجب لتلك التغيرات المفاجئة التي تطرأ كل يوم على شكل مستأجره الجديد، فلقد تقدم إليه هذا المستأجر أول يوم فعرفه أسود الشعر حليق الوجه حسن الهندام، ولكنه لم يلبث حتى رآه في اليوم التالي أشقر فاقع الشقرة يرتدي ثوب عامل حقير، ثم إذا بهذا الشاب ينقلب شيخًا متجمد البشرة تكتنف عينيه الغضون، ويسير محدودب الظهر يتوكأ على عصاه، ثم إذا به يعود فتى غض الأهاب أنيق الملبس يتثنى في مشيته كأنبل فتية ذلك العصر، ولكن لم يشأ المسيو لكلير أن يشغل نفسه بهذه التقلبات وظن أن في الأمر سرًا غراميًا يقضي على صاحبه بذلك التنكر وارتاح إلى هذا التعليل وانصرف إلى عمله مطمئنًا هادئ البال..

وكانت للشيفالييه خلاف هذه الغرفة مخابئ أخرى يلجأ إليها كلما أراد تضليل البوليس، فمنها قبو في بيت امرأة تدعى مدام جوردان كان يختلف إليه من وقت لآخر، فإذا سألته صاحبة الدار أين يقضي لياليه الأخرى أجابها بأنه يسهر على أخت له مريضة في الطرف الآخر من المدينة، وحجرة عند مدام فالون شقيقة خادمة كاربون، وقد أخفى فيها برميل البارود بعد أن حشاه بشظايا الحديد منتظرًا أن يتهيأ له الظرف الذي يطلقه فيه على القنصل الأول فيبيده ويخلص الملك والملكيين من ذلك الغاصب الذي لم تستطع يد أن تناله بعد بسوء.

ولعمري ما أشق تلك العيشة التي كان يعيشها الشفالييه دي ليموالان وما أمرّها! لقد كان يرتمي على فراشه مضنى القلب منهوك العقل محمومًا من أثر ما عاناه طول اليوم في تحضير جريمته والتمهيد لها، فما يكاد يغمض جفنيه حتى يتمثل له شبح الجريمة هائلا مفزعًا بشعًا يقض مضجعه ويطير النوم من عينيه، فإذا أخذته سنة من السكرى توالت عليه الرؤى المخيفة والأحلام المزعجة فيهب مذعورًا ويظل ينتفض من هول ما رأى. وإذا صحا من نومه عاودته مخاوفه وأوهامه، وساورته همومه وأشجانه وأخذ يذرع الشوارع ذهابًا وجيئة فيفحص الأماكن ويقيس الأبعاد ويستعلم عن المكان، ولا يدع مهمة ولا تافهة إلا ويحسب لها ألف حساب. ثم يلتقي بحبيبته المحبوبة فيعمد إلى جهد جبار يكبت به عواطفه المضطربة ويقمع ثورة نفسه القلقة واهتياج فؤاده المشتت ليبدو أمامها مؤنسًا مرحًا، وليحدثها عن حبه وعن أمله في المستقبل القريب. ولقد كانت الفتاة الذكية تحس بغريزة المرأة أن حبيبها يجتاز طورًا غير عادي في حياته، وأن

هذا المرح المفتعل والأنس المصطنع ستار تكاد تلمح من ورائه شيئًا لا تعلمه ولا تجسر على الاستفسار عنه، فتكتم وساوسها عن صاحبها ولكنها لا تتمالك من أن تصوب إليه نظرة تلو النظرة فاحصة منقبة عسى أن تخترق نظرتها الحجب وتهتك الأستار وتتعرف ما وراء هذا المظهر الهادئ من سر رهيب؛ فإذا خانتها الفراسة وأعياها التأمل والتفكير تنهدت من أعماق صدرها وسلطت عينيها الصافيتين على عيني خطيبها وسألته: "هل أنت سعيد؟" فيربت على كتفيها ويقفل شفتيها بقبلة حارة طويلة ويجيب: "أتشكين في ذلك يا آن!"

* * *

اقترب عيد الميلاد وأخذت الأسرتان تتأهبان لحضور الصلاة التي تقام عند منتصف الليل لهذه المناسبة كل عام، وكان المفروض أو المأمول ألا يتخلف الشيفالييه عن مشاركة أهله وأصهاره في تلك الصلاة وفي العشاء الذي يعقبها، ولكن صاحبنا اعتذر وادعى أنه قد ارتبط مع خاله القس كلوريفيير بوعد سابق يقضي عليه بأن يحضر الصلاة التي يقيمها هذا الحبر الجليل في جهة أخرى من المدينة.

وافترق الحبيبان على موعد قريب يتلاقيان فيه، وذهبت الفتاة آن – ماري لتركع أمام الهيكل المقدس ولتفتح لله سريرتها النقية وقلبها الطاهر فتبتهل إليه أن يبارك حبها وزواجها وأن يكتب لها ولخطيبها السعادة في الدارين، وذهب كلود ليموالان ليحمل عربته برميل البارود وليفتك بأرواح

عدد من عباد الله لا ذنب لهم ولا جريرة إلا أنهم كانوا هناك بالقرب من فعلته الشنعاء.

ولقد ودع ليموالان خطيبته وهو لا ينتظر من بعد فعلته إلا أحد شيئين: إما النجاح وإما الموت. ولو أن أحدًا من الناس تنبأ له بما سوف يكون لما اعتبره أقل من مجنون، ذلك لأنه قدر عليه ألا ينجح وألا يموت، وقدر عليه في الوقت نفسه ألا يرى خطيبته العزيزة بعد ذلك اليوم..

ففي الرابع والعشرين من شهر ديسمبر – أي ليلة عيد الميلاد – علم ليموالان وشريكاه أن القنصل بونابرت سيذهب في الساعة الثامنة من المساء إلى مسرح الأوبرا ليشهد تمثيل رواية جديدة وعرفوا الطريق الذي سيخترقه موكبه، فأحضر كاربون العربة تجرها الفرس ووقف بها أمام منزل شقيقته، وتعاون المتآمرون على حمل البرميل الثقيل وأنزلوه إلى الشارع وربطوه بالحبال فوق العربة بعد أن أسدلوا عليه غطاءً من قماش سميك يحجبه، وساروا بعربتهم إلى ميدان الكاروزيل الذي يصل قصر التوياري بالشوارع المؤدية إلى دار الأوبرا..

فلما انتصفت الساعة الثامنة كانت المقاهي والمشارب المحيطة بالميدان غاصة بزبائنها وقد ازداد إقبالهم عليها ليلة العيد، فجلس بعضهم يتسامرون، وانصرف البعض الآخر إلى التلهي بمختلف الألعاب، والكل فرحون مبتهجون. وأوقف سان ريجان وليموالات العربة بجانب زاوية شارع سانيكيز عند تقاطعه مع الميدان العام، وكان كاربون قد أنهى مهمته

فودعهما وانصرف. فأخذ كل منهما يجوب ناحية من الشارع كما لو كانا غريبين لا يعرف أحدهما الآخر، وقد اتفقا على أن يرصد ليموالان الطريق حتى إذا أبصر موكب القنصل وهو يغادر حديقة القصر أشار إلى سان ريحان ليشعل الفتيل.

ولم تمض دقائق حتى أخذ الموكب يتهيأ للمسير، وبدت طلائع الحرس عند باب بستان القصر، وأدرك سان ريحان أن ساعة العمل دقت فأدار العربة بحيث جعل رأس الفرس عند أسوار المنازل واستوقف طفلة صغيرة لا تتجاوز الرابعة عشر من عمرها كانت تجتاز الطريق صدفة وعرض عليها أن تمسك بزمام الفرس برهة صغيرة في مقابل دريهمات أعطاها إياها، فقبلت الطفلة هذا العرض فرحة مسرورة، وأمسكت اللجام ووقفت كما أمرت وهي لا تدري ما يخبئه لها القدر. وأطل سان ريحان من زاوية الشارع فأبصر الموكب قادمًا، ولكنه أبصر أيضًا ليموالان جامدًا في مكانه لا يتحرك.

ليت شعري ما الذي دهى الشفاليه في تلك اللحظة الرهيبة فعقل يده وشل حركته وجعلته كالصنم المنصوب؟ لقد وقف المسكين مشرد الفكر ذاهلا تمر بذهنه سراعًا صورة مخطوبته العزيزة وقد لبست ثياب العيد وتأهبت للصلاة والوقوف بين يدي الله، وصورة هذا العاهل القادم الذي سوف يتناثر جسمه بعد دقائق في الهواء. وصورة هذا الموكب المهيب الذي أراد له سوء الطالع أن يسير في ركاب عظيم مقضي عليه بالإعدام. وصورة أولئك الأبرياء في البيوت وفي المشارب وقد جلسوا ينتظرون

عشاءهم آمنين سعداء فإذا الموت ينقض عليهم من حيث لا يحتسبون. مرت هذه الصور المفزعة بذهنه سراعًا فوقف واجمًا مشدودًا. وظل كذلك حتى مرت به الطلائع ومر به الحرس الراكب يحيط بمركبة القنصل، وأبصر على ضوء المشاعل والمصابيح وجه بونابرت يبتسم لزوجته الجالسة إلى جانبه، فلم تطاوعه يده على الحركة ولم يطاوعه لسانه على النداء ولم ينتبه إلى نفسه حتى كان الموكب قد فات.

عندئذ حانت منه التفاتة إلى شارع سانيكيز فأبصر شيئًا كوميض البرق أضاء المكان فجأة ثم سمع فرقعة هائلة أصمت الآذان، وإذا بزجاج النوافذ يتكسر وأخشاب البيوت تتطاير، وكتل من الآجر والطوب تتناثر، وأجسام بشرية ترتفع وتقع، وخيول تنصب مقدميها في الهواء وتهوي. وإذا بكل ذلك يسقط على الأرض فيحدث دويًا منكرًا بين طبقات كثيفة من الدخان تعمي العيون وتتصاعد منها رائحة بارود تؤذي المعاطس والأنوف..

وتبددت طبقات الدخان وانكشف الميدان وأطل السكان من البيوت وتجمع الناس حول مكان الحادث فإذا جثث القتلى والجرحى من الرجال والجياد تغطي الأرض، وإذا أكوام من الأخشاب والأحجار والزجاج والطوب والتراب تغطي تلك الجثث، وإذا بالمقاهي والمشارب قد تحطمت نوافذها وأبوابها ومناضدها وتمدد الذين فيها بين قتيل وجريح، وإذا بعويل عال ينتشر من كل ناحية وأنين خافت ينبعث من بين الأكوام..

ماذا حدث! لا أحد يعلم! نعم لقد رأى بعض الناس وميض البرق وسمعوا الفرقعة ولكن ما سببهما؟ لا جواب. وكانوا قد أبصروا منذ قليل عربة صغيرة واقفة وإلى جانبها طفلة صغيرة ممسكة بعنان فرس، فأين العربة وأين الطفلة وأين الفرس، لا شئ من ذلك هناك سوى أشلاء متناثرة وشظايا مبعثرة وقطع لا تدل على أكثر من أنها بقايا إنسان أو بقايا حيوان أو جماد.. أما عربة القنصل فكانت تسير ويسير حولها ما بقي من الحراس والجنود، وعندما بدأ الناس يتبينون حقيقة الواقعة كان بونابرت يقتحم باب الأوبرا فتستقبله الموسيقى بنشيد المارسلييز..

* * *

بعد انقضاء ساعتين على الفاجعة كان الشفالييه دي ليموالان يطرق باب المرأة ليجويو ويسألها عن صاحبه سان ريجان، فأجابته أنه عاد منذ قليل وآوى إلى فراشه، فدخل الشفالييه وألفى زميله منبطحًا على سريره محملق العينين كالمجنون تتردد أنفاسه كالحشرجة في صدره ويكاد لا يقوى على حركة

– ماذا بك يا صديقي؟

– جرح أصابني وأرجو أن يكون على غير ذي خطر

وقص سان ريجان قصته على صاحبه، وقال إنه أبصر موكب القنصل قادمًا لبث ينتظر الإشارة المتفق عليها، فلما لم تصدر عمد إلى

الفتيل فأشعله وأسرع بالابتعاد، ثم لم ير شيئًا ولم يسمع شيئًا ولم يشعر بشئ. ولكنه تنبه إذ أحس ببرودة الليل فألفى نفسه طريح الأرض على بعد مائتي خطوة من المركبة، والدم يسيل من جنبه، فاستجمع قواه وجرى نحو نهر السين وألقى فيه جلبابه الملوث بالدماء، وظل يجر ساقيه حتى وصل إلى حجرته.. ونادى ليموالان صاحبة الدار وقال لها أن صديقه قد دهمه جواد جامع فأصابه بجرح قاتل ورجا منها أن تعتني به ريثما يجئ بقسيس يتلقى من الجريح اعترافه الأخير، وهرول إلى الخارج ثم عاد بعد وقت ومعه خاله القس كلوريفيير وأحد الأطباء، وأدى الجريح فريضة الاعتراف بين يدي القسيس ثم أخذ الطبيب يغسل جراحه ويضمدها وانصرف مؤكدًا أن ليس ثم خطر يهدد حياة الشاب.

وفي الغد أحس سان ريجان بعض الانتعاش، فغادر منزل المرأة ليجويو ولم يعد إليه. أما كاربون فقد آوى من ليلة الحادث إلى بيت شقيقته ولبث مختبئًا فيه حتى جاء الشفالييه دي ليموالان فأخذه وقاده إلى دير قديم تعمره طائفة من الراهبات المعروفات باسم "راهبات المحبة" وأوصى به رئيسة الدير الأم سيسيه. وأفضى إليها بأنه موفد به من قبل الأب كلوريفيير، وقد كانت للأب كلوريفيير منزلة في قلوب الراهبات تجعلهم لا يعصين له أمرًا..

وكان طبيعيًا أن يقف البوليس على قدم وساق ليحقق الجريمة وليكتشف الفاعلين، ولقد انصرفت عنايته من بداية الأمر إلى العربة والفرس فجمعوا بقاياها وعرضوها على جميع الباعة والتجار فاستطاع تاجر

الحبوب أن يعرف فرسه التي باعها إلى كاربون ودلهم على أوصاف المشتري. ولقد كادت تحريات البوليس تنتهي إلى الفشل لولا أن كاربون، وقد سئم الإقامة الطويلة في الدير. كان يخرج من وقت لآخر في الطرقات ليستنشق الهواء، وهكذا عرفه أحد الشرطة وهو يتنزه ذات ليلة على ضفاف السين فاقتفى أثره حتى إذا رآه يعود إلى دير الراهبات أبلغ الأمر إلى رؤسائه ولم تنقض الليلة حتى قبضوا عليه وعلى جميع الراهبات..

أما سان ريجان فلم يكن ليأمن على نفسه الالتجاء إلى أي بيت من البيوت، لأن أوامر وزارة البوليس كانت تقضي على أصحاب الفنادق والدور أن يبلغوها اسم أي شخص نزل أو ينزل لديهم من تاريخ الحادثة، فآثر أن يهيم على وجهه متشردًا في الشوارع والطرقات متنكرًا في شتى الأزياء والحالات، ولقد عثر عليه العسس يومًا وهو يحاول الاختفاء فقبضوا عليه..

وأخذ المحققون يستجوبون مدام ليموالان والأب سيسيه والمسيو لكلير تاجر الحلوى وكل من ظهرت له صلة بالمتهمين، وثبت في النهاية أن الفاعلين الحقيقيين هم ليموالان وسان ريجان وكاربون. فحكم على الآخرين بالإعدام وحصر البوليس كل جهوده في العثور على الشفالييه

أما الشفالييه فقد كان في باريس متخفيًا مع خاله القس كلوريفيير في مخبأ لم يهتد أحد إليه. ولقد لبثا فيه سنة كاملة حتى فترت همة الشرطة وأيقنت السلطات أنهما غادرا العاصمة بل هاجرا إلى بلد أجنبي. فلما

آنسا ذلك خرجا من مخبئهما ورحلا إلى إقليم بريطانيا وأقاما به زمنًا ثم تسللا إلى أحد الموانئ واستقلا سفينة مسافرة وأبحرا فيهما إلى أمريكا يحملان اسمين مستعارين..

ولقد كتب الشفالييه إلى خطيبته يعترف لها بما أثمت يداه ويعتذر عما كان منه، ويتوسل أن توافيه إلى مدينة بلتيمور ليقيما فيها حفلة زواجهما وليعيشا سعيدين فيكفر بحبه لها وبعبادته إياها عما سببه لها من الحزن والغم والآلام. ولكن الفتاة كانت قد أمضت الأشهر الطوال في شر ما تمضي فيه الحياة، مدلهة، ولهى، حيرى، كسيرة القلب، ومشتتة العواطف ممزقة الأعصاب تتلهف على حبيبها الذي لا تعرف له مصيرًا ولا مقرًا، فتحاول أن تتنسم أخباره ولا من يدلها عليه. تبيت وتصحو وجريمته البشعة ماثلة أمام عينيها. فإذا نفر عقلها أو تقززت إنسانيتها نهض للمجرم من قلبها ألف عاذر وألف شفيع. وتريد أن تنسى أو تتناسى، وتجهد نفسها في أن تسدل بينها وبين الذكرى الأليمة حجابًا، فتهب ذكريات الماضي السعيد تلهب قلبها وتذكي اللوعة في صدرها، فتبكي وتبكي، وترفع حدقتيها الزرقاويين إلى السماء وتبتهل: "الصبر.. الصبر يا الله!" وبرحت بها الآلام يومًا، وأسقمتها الهموم ويئست من كل شئ وأحست أن كسر قلبها لا يجبر وجرح فؤادها لا يندمل، فركعت لتصلي وناجت ربها قائلة: "لئن أنقذته يا رب لأهبنك نفسي حتى الممات"

فلما جاءها كتاب حبيبها، وأيقنت أنه حي يرزق تناولت ورقًا وكتبت إليه بقلم يلبس من مداده ثوب حداده: "أيها العزيز.. لست أحكم

على عملك؛ فالحكم على مثل هذه الأعمال من شأن الله. وحسبي أن أسأله لك الغفران، وإذا كانت الأيام قد فرقت بضرباها الوجيعة بين شخصينا، فهي لن تقوى على التفريق بين قلبين ارتبطا برباط الحب المقدس. ولولا نذر سبق لهرعت إليك. لقد صليت من أجلك كثيرًا ولقد جعلت صلواتي حارة ومخلصة حتى تقبلها الله فكتب لك السلامة، فلعلك في ساعة من ساعات التوبة والاستغفار تذكرني وتسأل الله لي الرحمة ولنفسي الهدوء والسكينة. إني أحبك ولكني لن أكون لك ولن أكون لغيرك، فقد نذرت نفسي لله، وهأنذا أهبها له مستسلمة راضية، فالوداع أيها الحبيب العزيز"

وفي اليوم التالي التحقت الآنسة آن – ماري دروسوبيز بدير راهبات المحبة باسم الأخت ماري كلير. وأمضت فيه حياتها تصلي وتشكر الله إنقاذه لحبيبها، وتذكر هذا الحبيب فتبكيه بالدمع الهتون، وفي يوم من الأيام تسلمت الأخت ماري كلير كتابًا من الشفالييه دي ليموالان فإذا فيه:

"أيتها الأخت القديسة الطاهرة.. لا أريد ان أعود فأقلق قلبك بعد هدوئه وطمأنينته؛ فالحمد لله الذي أنزل السكينة على قلبك وقربك إلى جواره ريثما تحلين من جنته في المكان اللائق بقدسية أمثالك من الملائكة الأطهار.. لقد تعذبت طويلا وقاسيت كثيرًا، وكنت أظن أنني سأظل شقيًا أو يتولاني الله برحمته، ولكنك أيتها الأخت قد ضربت لي المثل وأنرت أمامي الطرق، وهأنذا ألبس مثلك مسوح الرهبنة وأعيش في

دير أخوتي الكرمليين لا عمل لي سوى التوبة والاستغفار، ولا هم لي سوى أن يتقبل الله توبتي واستغفاري فيقبضني إليه في عباده الصالحين.. صلي أيتها الأخت وادعي، فصلاتك مقبولة ودعاؤك مستجاب، أما أنا ففي انتظار لقائك في دار النعيم سأفني نفسي في الصلاة والندم والتكفير عسى أن أكون أهلا لك في الآخرة بعد أن كنت غير جدير بك في الأولى، والله أرحم من ألا يغفر للعبد.. "الخاطئ النادم الأخ الكرملي كلود ليموالان"

مقتل دوق أنجان

صفحة سوداء من تاريخ نابليون

كان القنصل الأول بونابرت مكبًا على دراسة خريطة للمنطقة الواقعة بين حدود فرنسا ونهر الرين وقد أخذ يقيس عليها بعض الأبعاد عندما فتح الحاجب الباب وأعلن قدوم القنصل الثاني كامباسيريس والمسيو ريبال مدير الأمن العام، فلم يصبر بونابرت حتى يجتاز الزائران عتبة الباب بل ابتدر أحدهما قائلا:

– عجيب يا مسيو ريبال أن يكون دوق أنجان مقيمًا بالقرب من الحدود يدبر المؤامرات مع الجنرال بيشجرو وألا تطلعني على ذلك!

– ولكن...

– ولكن ماذا؟ أتظنونني كلبًا مهدر الدم يجوز قتله على قارعة الطريق بينما تعتبرون أعدائي رجالا مصوني الذوات لا يجوز إزعاجهم ولا مسهم بسوء؟ لقد طفح الكيل يا سادة وصرت لا أطيق صبرًا على هذا الحال. إن أمراء أسرة البوربون وأشياعهم لا يدخرون وسعًا في سبيل إعدامي، وهذا هو الكونت دارتوا شقيق الملك يرصد لي القتلة في كل مكان، فحتام تظل حكومتي عمياء عن تلك التدابير المجرمة؟

– الحمد لله فقد كانت العواقب دائمًا سليمة..

– نعم سليمة، ولكن ليس بفضلك ولا بفضل رجالك يا مسيو ريبال، وإلا فأين كنتم ليلة حاول سانريجان أن ينسفني وزوجتي وحاشيتي ونحن في طريقنا إلى الأوبرا؟ وأين كنتم يوم قبضت بيدي على الشاب الذي دخل هذا القصر ليقتلني وهو متنكر في زي بائع المستحدثات؟ وجورج كادودال الذي يثير الحرب الأهلية في مقاطعة الفانديه ويرسل أعوانه ليغتالوا حياتي ولا تزال أيديكم قاصرة عن القبض عليه؟.. والجنرال مورو والجنرال بيشجرو اللذان يسخرهما لويس الثامن عشر وأقاربه للفتك بي.. والشاب سان فيكتور المختفي في باريس ولا يعرف البوليس له مقرًا.. ثم ذلك الشخص العجيب الذي يرتاد نواحي القصر وتعرفونه باسم الرجل ذي العباءة السوداء، هل عرفتم حقيقته؟.. لا لا! إن هذا لكثير! وما دام بوليسي عاجزًا عن حمايتي فسأعمد إلى وسائلي الخاصة للضرب على أيدي أولئك المجرمين. نعم سأقابل الشر بالشر وسأقتص من آل بوربون اقتصاصًا رادعًا يلقي الرعب في قلوبهم ويعيد الصواب إلى عقولهم، ولا بد لي من تحطيم رأس كبير منهم حتى يعلموا أني لست أهزل وأن دمي ليس من الهوان على ما يتوهمون..

وكان بونابرت يتكلم في حدة وغيظ جعلا مدير الأمن العام يؤثر الصمت على أن يؤجج باعتراضاته ثورة ذلك الرجل الهائل فأطرق مليا ولم يتكلم، أما كامباسيريس فقال: "ما أظن الصرامة تذهب بحضرة القنصل الأول إلى هذا الحد إذا وقع بين يديه أمير من أمراء البوربون" فعاودت

بونابرت ثورته وصاح في وجه محدثه: "ما هذا الذي تقوله يا سيدي؟ ألا فليكن معلومًا أنني لا أرحم أحدًا من أولئك الأثمة الذين يدبرون قتلي.. لست أخشى الموت، وأنا أواجهه كل يوم في ميدان الحرب، فليبرز أعدائي أمامي في حرب شريفة إذا استطاعوا. أما الاغتيال فجريمة سافلة لا أترفق بمرتكبيها والويل لمن يقع في قبضتي منهم"

وكأنما كان كبار رجال الحكم في فرنسا يحسون أن القنصل الأول بونابرت سيتكشف قريبًا عن الإمبراطور نابليون العظيم، فكانوا يتقون غضبه ويتحاشون معارضة آرائه، ولذلك صمت كامباسيريس ولبث صامتًا حتى هدأت العاصفة ثم انسحب مع صاحبه ريبال تاركين الرجل الجبار يذرع الغرفة جيئة وذهابًا بخطواته السريعة التي تنم على انفعال نفسه أو فكره بأمر ذي بال، وفي العشية استدعى بونابرت اثنين من قواده الأمناء وهما الجنرال كولانكور والجنرال برتييه واختلى بهما طويلا ليدبر معهما وسائل اختطاف دوق أنجان

* * *

كان الأمير الشاب لويس بوربون كونديه دوق أنجان وابن عم الملك لويس الثامن عشر وحفيد الأمير كونديه الكبير قد هاجر فيمن هاجر من أمراء البيت المالك عقب شبوب الثورة الكبرى فأقام في بلجيكا زمنًا ثم انتقل منها إلى ألمانيا؛ فلما عين القائد بونابرت رئيسًا للدولة الفرنسية بلقب القنصل الأول كان دوق أنجان يقيم ببلدة آيتنهايم يتولى

أعمال دوقية بادن الألمانية بالقرب من حدود فرنسا. وقد اختار هذه العزلة إثر زواجه بالأميرة شارلوت روهان التي هام بحبها حتى شغل بها عن قضية أسرته فكان يقضي إلى جانبها حياة هنيئة هادئة تهون عليه آلام الغربة، تكاد تنسيه أن للملوكية في فرنسا حزبًا كبيرًا لا يزال يقاوم الحكومة ويثير الأرض والسماء في سبيل إعادة آل بوربون إلى عرشهم المغصوب

أما حاشية الأمير الشاب فلم تكن أكثر من مستسر (سكرتير) كان له بمثابة الرفيق والصديق، وبعض خدام أمناء وكلب روسي جميل أهداه إليه القيصر، وكان يهوى من أنواع الرياضة البدنية الصيد والقنص، ويمضي فيهما معظم ساعات النهار من كل يوم، حتى إذا بدأ الليل يرخي سدوله عاد إلى الزوج المحبوبة ليتناسى بين ذراعيها شقاء المنفى والمشاغل الكبرى التي تنغص عليه هناءه وتستنفذ تفكير أقاربه وذويه، ولقد استعرض بونابرت أسماء أمراء أسرة البوربون وأماكن إقامتهم خارج فرنسا فألفاهم جميعًا بعيدين عن متناول يده إلا هذا الأمير التعس الذي أراد له سوء الطالع أن يتخذ مقامه بالقرب من الحدود.

وكان بونابرت يعلم أن دوق أنجان أقل آل بوربون خطرًا وآمنهم جانبًا، وأن له من شبابه وحبه لزوجه الجميلة ما يشغله عن تدبير المؤامرات، ولكنه كان يعلم أيضًا أن لا بد من الفتك بأمير من بيت لويس الثامن عشر ليثوب الآخرون إلى رشدهم وليوقنوا أنه إذا عاقب كان شديد العقاب. وما دامت الظروف لا تسمح له بالتريث حتى يتخير من بينهم المذنب الحقيقي فيوقع به القصاص، وما دام سوء حظ دوق أنجان قد

أوجده في متناول يده، فليكن ما تريد الأقدار أن يكون، وليكفر هذا الشاب التعس بحياته عن ذنوب أسرته وليقل التاريخ بعد ذلك ما يشاء أن يقول..

ويأبى الحظ السئ الا أن يلازم الأمير فيتحالف عليه غضب بونابرت وخطأ الناس، فلقد حدث أن أرسل وزير الأمن العام الى محافظ مدينة ستراسبورج يطلب إليه تقريرًا عن أخبار الدوق فأوفد المحافظ أحد رجاله إلى آيتنهايم ليستقصي الأحوال عن كثب، فمكث الرسول بها يومًا أو بعض يوم وعاد يقرر أن شخصًا اسمه "توميري" وآخر اسمه "شميت" يترددان على بيت الدوق ويختليان به طويلا، ولقد التبس هذان الاسمان على سمع المحافظ وظن أن توميري هو الجنرال "ديموربيه" المعروف بولائه للملك وعدائه لبونابرت حتى لقد هجر فرنسا ليجعل نفسه في خدمة لويس الثامن عشر، وأن شميت هو "الكابتن سمث" الإنجليزي الذي اتهم مرة بمحاولة اغتيال حياة القنصل الأول.

وأرسل المحافظ إلى الوزير تقريره قائمًا على الخطأ في السمع والفهم، فثارت ثائرة بونابرت وزالت البقية في نفسه من التردد والتحرج وآلى ليضربن الضربة التي تؤدب أسرة البوربون. وأصدر أوامره إلى الجنرال أوردنر بأن يذهب إلى ستراسبورج ويتولى قيادة حاميتها، وبأن يرسل من هذه الحامية قوة تحت قيادة الجنرال فريريون تجتاز الحدود الألمانية وتحاصر قصر الدوق في آيتنهايم وتقبض عليه وتعود به أسيرًا، وبأن يدع قوة احتياطية عند نهر الرين لتسعفه فيما لو طرأ طارئ أو اقتضت الحال

استعمال الوسائل العنيفة للنجاح. أما الاعتداء على دولة أجنبية مسالمة بتسيير الجيوش في أرضها، وامتهان كرامة حكومة صديقة باختطاف أحد اللاجئين اليها عنوة وغصبًا، فمسألة تافهة لا تستوقف عزيمة بونابرت وحسبه بعد إنهاء عمليته أن يقدم اعتذارًا إلى الحكومة الألمانية فتنتهي المشكلة بسلام.

وكان الجنرال فريريون يتعشى في بيت البارون ستومف، أحد الملكيين المهاجرين، عندما وصله الأمر بالزحف نحو آيتنهايم للقبض على الدوق، فما قأه حتى بهت واضطرب فنهض من المائدة وانتبذ بصاحب الدار ركنًا من الغرفة وأطلعه على الأمر ثم همس في أذنه: "إن هذا الذي يريدونه من عمل شاق وغير شريف وما لجندي مثلي أن يقدم عليه إلا كارهًا، فحبذا لو استطعت أن تتنذر صاحبك الدوق حتى يغادر آيتنهايم في الوقت المناسب"

وأسرع البارون ستومف فكتب إلى صديقه الكونت روش المقيم بالقرب من الأمير يحثه على إنذار الشاب بوجوب الرحيل فور الساعة حتى ينقذ نفسه من الخطر الداهم. وما أن تسلم الكونت روش الرسالة حتى هرع إلى القصر ولكنه ألفى الدوق غائبًا في الصيد فترك له كلمة تنبئه بحقيقة الأمر وتوسل إليه فيها ألا يبيت الليلة في قصره ثم أفضى بالسر إلى الأميرة شارلوت وناشدها ألا تدع شمس الغد تطلع عليهما في آيتنهايم

وعاد الدوق من الصيد بعيد الغروب جائعًا متعبًا فلم يهتم بشيء سوى عشائه ونومه غير آبه لتحذير صديقه ولا عابئ بتوسلات زوجته، ودخل عليه أحد خدامه وأفضى إليه في لهفة تنم على قلق شديد أنه أبصر من النافذة رجلين يجوسان خلال الحديقة وكأنهما يدرسان مداخل القصر ومخارجه ويشيران إلى الطرق المؤدية إليه. وأضاف الخادم أنه ارتاب في أمر الرجلين فأرسل وراءها زميلا له وأن هذا الزميل تعقبهما طويلا وعاد فأخبره أن أحدهما شرطي متنكر من شرطة ستراسبورج..

ولم يشأ الأمير رغم كل ذلك أن يلقي بالا إلى هذه الرواية ولا أن يعيرها اهتمامًا بل قال أن الحكومة الفرنسية لا تستطيع الاعتداء على حرمة الدولة الألمانية، وأن حكومة بادن لا ترضى تسليم لاجئ سياسي التجأ إليها، ثم صرف خادمه بعد أن أوصاه بالحذر والانتباه، إلا أن الأميرة شارلوت لم تستهن بالأمر استهانة زوجها به، فلقد قلقت وأحست أن خطرًا يتهددهما، فألحت على الدوق في أن يرتحلا إلى مكان آخر بعيد عن الحدود يكونان فيه أكثر طمأنينة وأمنًا. ونزل الأمير على إرادتها غير مقتنع ووعدها بالرحيل بعد يومين لأنه كان على موعد مع صديقه المركيز جرونستين ليذهبا صباحًا إلى الصيد

وفي فجر اليوم الخامس عشر من شهر مارس سنة ١٨٠٤ استيقظ الأمير والمركيز مبكرين وارتديا لباس الصيد وتناولا طعام الإفطار وأخذا يتأهبان للركوب، ولكن الخادم دخل عليهما شاحب الوجه يكاد الخوف يعقل لسانه وقال أن جنودًا كثيرين يحيطون بالقصر ويحاصرون

منافذه، فأطل الدوق من النافذة ورأى الجنود منتشرين في البستان والبعض منهم يتقدم نحو باب القصر، فارتد إلى الوراء وقال: "يجب أن ندافع عن أنفسنا" وتناول بندقية صوب فوهتها نحو قائد الجنود ولكن صديقه جرونستين انتزعها من يديه قائلا: "هل ارتكبت شيئًا يا مولاي حتى تلجأ إلى هذه الوسيلة العنيفة؟" قال: "لا" قال: "إذن علام المقاومة؟ ثم ماذا تجدي هذه المقاومة ونحن محاصرون بهذا العدد الكبير؟"

وسمع الدوق والذين معه دقًا على الباب وأصواتًا تنادي: "افتحوا الأبواب وإلا حطمناها"، ولم تمض برهة حتى كانت الردهة والبهو والغرف قد اكتظت بالجند وتقدم قائدهم الكولونيل شترلو وقال: "أيكم الدوق دانجان؟" فأجاب الأمير في عزة وكبرياء "أنا الدوق فماذا تريد مني؟"

– باسم القانون أقبض عليك

– باسم أي قانون يا هذا وأنت ضابط فرنسي وأنا مقيم في أرض ألمانية؟ وماذا ارتكبت حتى تجئ بهذا العدد من الجنود لتقبض علي؟

– هذه أشياء سوف تعرفها فيما بعد، أما الآن فأرجو ألا تضطرني إلى استعمال القوة.

وخاطب شارلو جنوده وقال: "خذوا هؤلاء الناس جميعًا واجعلوهم خارج المدينة"

وأحاط الجنود بالأمير وصاحبه وخدامه واقتادوهم وساروا بهم يجتازون شوارع القرية وقد استيقظ أهلها على صوت وقع حوافر الخيل وضوضاء الرجال، وأقبلوا يتعرفون حقيقة الواقع فكان الكلونيل شارلو يهدئ روعهم ويقول لهم انها عملية بوليسية متفق عليها مع الحكومتين

وفي اليوم العشرين من شهر مارس كان الدوق دانجان سجينًا في قلعة فانسين بضواحي باريس، وكانت تعليمات المدير رييال وأوامره قد سبقت السجين إلى حاكم القلعة وهذا نصها: "إن شخصًا مجهولا سيمضي زمنًا غير معين في القلعة تحت إمرتكم وتريد الحكومة ألا يتسرب إلى الخارج أي نبأ يتعلق به أو أيه إشارة تنم عن شخصيته، فيجب أن لا يوجه إليه سؤال عن اسمه. وإن القنصل الأول يعتمد على حسن تقديركم للأمور في تنفيذ هذه التعليمات بدقة وعناية مع التحفظ التام في علاقاتكم بالسجين"

وتلقى الجنرال موراه حاكم باريس العسكري في المساء نفسه أمرًا من القنصل الأول بتشكيل محكمة عسكرية تتولى محاكمة الدوق دانجان على جريمة حمل السلاح ضد الحكومة الفرنسوية والتآمر على سلامة الدولة وأمنها. ولا يظن القارئ أن الجنرال موراه كان حرًا في اختيار أعضاء المحكمة، فإن بونابرت كان قد أرسل إليه تعليمات سرية تتضمن أسماء الضباط الذين وقع عليهم اختياره وكتب في نهاية تلك التعليمات: "أريد أن يكون الجنرال هولان رئيسًا، وعليه أن يفهم أنه يجب الانتهاء من المحاكمة وإصدار الحكم هذه الليلة، فإذا جاء الحكم قاضيًا بالإعدام —

وهو ما لا أشك فيه – وجب التنفيذ عقب صدوره توًا على أن تدفن الجثة بفناء قصر فانسين. وسيكون الجنرال سافاري إلى جانبك ليشرف بنفسه على كل شيء"

وصل أعضاء المحكمة إلى قصر فانسين عند الساعة التاسعة من المساء فسمعوا صوت فؤوس ومعاول تعمل في فناء القاعة فلما استفهموا قيل لهم إن بعض العمال يباشرون عملية ترميم صغيرة في السور. أما الحقيقة فهي أن رجال الجنرال سافاري كانو يحفرون القبر الذي يدفن فيه الدوق دانجان بعد محاكمته أي أن حكم الإعدام كان أمرًا مقررًا لا محيص عنه.

وكان الأمير مستغرقًا في نومه من أثر التعب والإعياء اللذين عاناهما في السفر طيلة الأيام الماضية، ولكن لم يطل به النوم حتى أيقظه أحد الضباط في عنف، فسأله الشاب وهو يغالب النعاس ويدلك جفنيه بأصابعه: "ماذا تريد مني؟" – نريد التحقيق معك – وفي أي تهمة ؟ – تهمة التآمر على حياة القنصل الأول أو على سلامة الدولة أو على أي شيء من هذا القبيل

بهت الأمير لهذه المفاجأة وكأنه لم يفهم ما قيل له، فاستجمع قواه العقلية وقال: "ما هذا الذي تقوله يا سيدي؟ أنا تآمرت على حياة الجنرال بونابرت؟" ثم تبسم ضاحكًا وأضاف: "لا شك في أنك تمزح يا سيدي" ثم نهض وارتدى ملابسه وسار وراء الضابط إلى الغرفة التي اختاروها للتحقيق

وجلس أمام الضابط المعين للقيام بمهمة المدعي العام واسمه الكابتن دوتانكور وأجاب على أسئلته فذكر اسمه وألقابه ومحل ميلاده، ثم أفضى إليه بنوع العيشة التي يعيشها فقال أنه كغيره من الأمراء المهاجرين يتقاضى مرتبًا شهريًا من الحكومة الإنجليزية بصفة قرض يوفى عند اليسر وأن هذا المرتب هو مورد هو مورد رزقه الوحيد في هذه السنين وأنه لا يعرف الجنرال بيشجر ولم يشترك في أي مؤامرة ضد القنصل الأول ولا ضد حكومته، وإنما اشترك مع زعماء أسرته في توجيه حملة مسلحة ضد الحكومة الجمهورية بغية إسقاطها باعتبارها حكومة غاضبة وغير شرعية، وأنه حمل السلاح لا لاغتيال أحد بل لمحاربة الجنرال بونابرت في سبيل رد العرش إلى صاحبه الشرعي الملك لويس الثامن عشر، وقال إنه بصفته أميرًا من بيت بوربون كومنديه لا يسعه إلا أن يتشبث بحقوق أسرته وإلا أن يناضل عنها جهرة والسيف في يده

ويقول الضابط دوتانكور في المذكرات التي نشرها قبيل وفاته: "لقد كان الأمير يدلي إلي بتلك التصريحات الخطيرة في عزة وشجاعة جعلتاني أكبره أيما إكبار، ولقد حاولت أكثر من عشرة مرات أن أحمله على العدول عنها وأوحي إليه بالإجابة التي قد تنقذه ولكنه كان يصر على أقواله إصرارًا مؤيدا حتى لقد قال لي: "إني أدرك تمام الإدراك الرغبة الشريفة التي تدفع بك إلى محاولة حملي على تغيير أقوالي كما أدرك مدى الخطر الذي يتهددني إذا أنا أصررت عليها ولكني لا أريد الاستفادة من تلك الرغبة إذ لا يجمل بمثلي إلا أن يقرر الحقيقة كما هي"

ويكتب شاتوبريان معلقًا على هذا الموقف العظيم فيقول: "لله ما أمجد تلك الصفحة في تاريخنا المجيد، فتلك فرنسا الجمهورية تحاكم الملوكية فتحييها تحية الاحترام والإعظام ثم تحكم عليها بالإعدام"

وحمل الضابط المحقق إلى المحكمة أوراق القضية، أستغفر الله، بل ورقة القضية إذ لم تكن الإضبارة (الدوسيه) تحتوي على غير تلك الورقة التي تتضمن أسئلة المحقق وأجوبة المتهم عليها. وانعقدت المحكمة العسكرية فلم تستدع شاهد إثبات ولا شاهد نفي، لا ولم يتقدم للدفاع عن الأمير محام أو وكيل، ولعمري علام الأوراق والشهود والمحامون، والحكم مقرر من قبل والقبر محفور ينتظر ضيفه الكريم؟!

رأس الجنرال هولان الجلسة وكانت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وأرسل يستدعي المتهم الذي كان النعاس قد غلبه فنام البرئ الواثق من براءته. وجئ بالدوق أمام قضاته ووجهت اليه تهمة التآمر على سلامة الدولة فكرر ما قاله في محضر التحقيق منذ نصف ساعة، وأكد أنه إنما يعمل هو وأفراد أسرته على إعادة الحكم الملكي إلى فرنسا بالوسائل المشروعة الشريفة التي لا ينكرها القانون ولا يأباها العرف الإنساني، ثم طلب وألح في أن يمهد له سبيل مقابلة القنصل الأول قائلا: "إنني لا أشك في أن سوء تفاهم قد وقع وأنا كفيل بإزالته إذا تحدثت في شأنه إلى الجنرال بونابرت. وإن لي من اسمي وألقابي وحيثيتي ما يحمله على إجابة طلبي كما أن في موقفي الآن ما يحملكم على إبلاغ رغبتي إليه"

واختلت هيئة المحكمة بنفسها للمداولة ثم صدر حكمها بالإجماع وهو يقضي بإدانة الدوق وهذا نصه: "وبعد سماع مرافعة المدعي العام وسماع أقوال المتهم في الجلسة المنعقدة علنًا بقصر فانسين، قررت المحكمة العسكرية تطبيق المادة... من القانون رقم... الصادر بتاريخ... ونصها: "..."، وحكمت على المتهم بالإعدام، وأمرت بتنفيذ هذا الحكم فورًا"

ولعل أعجب ما في هذا الحكم العجيب قول المحكمة أن المحاكمة كانت علنية! فلعمري أي علانية تلك التي تتوافر في محكمة جلستها بعد نصف الليل في سجن داخل قلعة في ضاحية من ضواحي المدينة يحاصرها الجنود مسلحين؟

أما رقم المادة التي طبقتها المحكمة ورقم القانون الذي استندت إليه والنصوص التي حكمت بمقتضاها فقد تركتها المحكمة بيضاء كما يراها القارئ في نص الحكم الذي أوردناه، وإنا لنقرأ في ذلك اعترافًا غريبًا اعترفه رئيس المحكمة في مذكرات نشرها لتبرير موقفه فقال:

"لقد استقدمونا لأمر كنا نجهله حتى ساعة وصولنا إلى قصر فانسين، وهناك طلب منا أن نحاكم المتهم ونحن أبعد الناس عن الإلمام بالقوانين، فكل منا قد اكتسب رتبة وألقابه في ميادين القتال. أما القانون والإجراءات القضائية فأشياء غريبة عنا، وقد زاد الطين بلة أن المدعي العام وكاتب سر الجلسة لم يكونا أعلم بها منا"

ويكتب الكابتن دوتانكور المدعي العام في مذكراته فيقول بسذاجة مضحكة: "وهل من ذنبي أني حضرت مائة معركة حربية ولم أحضر في حياتي محاكمة أتعلم منها الإجراءات والأصول؟"

وبعد أن أصدرت المحكمة قرارها تناول رئيسها الجنرال هولان قلمًا وورقًا وبدأ يكتب، ولكن الجنرال سافاري اقترب منه وهمس في أذنه: "ماذا تفعل؟" قال: "أكتب إلى القنصل الأول بأن المحكوم عليه يرغب في مقابلته" فاتلع سافاري القلم من يد الرئيس وقال: "لقد صدر الحكم وانتهت مهمتك، أما الباقي فمن شأني أنا"

وانصرف الدوق دانجان إلى حجرته عقب اختلاء المحكمة بنفسها للمداولة، وهم بخلع ثيابه ليتهيأ للنوم، ولكنه لم يكد يفعل حتى دخل عليه حاكم القلعة يتبعه بعض السجانين والجنود وأمره بأن ينهض ويسير وراءه فسأله الدوق: "إلى أين تقودونني؟" فلم يحر الحاكم جوابًا، فاستطرد الشاب المسكين قائلا: "أظنكم تضنون علي بهذه الغرفة فتريدون نقلي إلى أقبية القصر"، وهنا هز أحد الجنود رأسه رحمة وحنانًا وقال: "بالأسف لا يا سيدي" فأدرك الدوق أن السهم نفذ والقضاء حم فسار وراء الحاكم رافع الرأس ثابت الخطى حتى وصلوا به فناء القصر وأوقفوه أمام فصيلة الجند المكلفة بإعدامه.

وكان الظلام حالكًا والبرد قارسًا وخيوط رفيعة من المطر تتساقط فتكسب المكان وحشة مروعة، وقد عم الصمت أرجاء ذلك القفر الخرب

حتى لا يسمع فيه إلا وقع قطرات المال على خوذات الجنود وبنادقهم، واصطفت الفصيلة أمام حافة القصر المحفور وجئ بالدوق وأسندوا ظهره إلى الحائط وعلقوا على صدره مصباحًا صغيرًا ينير للجنود طريق المقاتل من جسم المحكوم عليه

وتقدم أحد الضباط يريد أن يعصب عيني الأمير فرد الأخير بإشارة رقيقة من يده وقال: "ستجدني شجاعًا يا سيدي فلا حاجة بي إلى هذا" ثم أخرج من جيبه ورقة مطوية وهمس في أذن الضابط: "أفيك من المروءة ما يجعلك تقوم بخدمة صغيرة لشاب لم يبق بينه وبين الموت إلا طرفة عين؟ خذ هذه وأوصلها إلى زوجتي الأميرة شارلوت روهان" وكانت الورقة تحتوي على هذه الكلمات: "الوداع يا حبيبتي المعبودة"، وقد جعل في طيها خصلة من شعره وخاتم زواجه

وعدل الأمير قامته وزرر معطفه وأشار بيده إلى قائد الفصيلة قائلا: "ألا تسمحون أن يحضر أحد القساوسة موتي حتى أؤدي بين يديه فريضة الاعتراف؟" وبلغ الجنود بأحد الضباط إلى حد النذالة في هذا الموقف الرهيب فصاح مازحًا: "إنه يريد أن يموت ميتة الرهبان" فنظر إليه الدوق نظرة احتقار لا توصف، وأدرك أن القوم يضنون عليه بهذا العزاء، فجثا على ركبتيه وصلى صلاة قصيرة ختمها برسم الصليب على صدره ونهض وحرك المصباح حتى جعله على قلبه وأهاب بالضابط: "هيا يا سيدي" فأشار الضابط إلى الجنود اشارة انطلق الرصاص على أثرها من أفواه البنادق، وخر الأمير صريعًا وتمدد فوق الأرض جثة هامدة، ولم تمض

على تلك الفاجعة أسابيع حتى اعتلى القنصل الأول بونابرت عرش فرنسا باسم الإمبراطور نابليون.

* * *

كان لمقتل الدوق دانجان أقبح الصدى في أجواء العالم المتمدين، وأسوأ الوقع في نفوس الشعوب والحكومات، حتى لقد ظنت أوروبا أن نابليون سيعيد إلى فرنسا عهد الإرهاب الذي انقضى بمصرع روبسبيير. وأحس بونابرت أن الضمير العالمي قد ثار عليه ساخطًا متقززًا، فحاول بشتى الوسائل أن يبرر فعلته أو يخفف من آثارها، فانطلق سفراؤه يؤكدون في البيئات السياسية والأوساط الاجتماعية أن الجنرال سافاري أساء فهم تعليماته فأسرع في تنفيذ الحكم قبل أن يخطره بمؤاده، وأن القنصل الأول كان ينتوي العفو عن الأمير ولكن السهم نفذ قبل أن يتدارك الأمر وأنه لو علم رغبة الدوق في مقابلته لما تردد في استقباله.

بيد أن كل هذه المحاولات ذهبت سدى فلم تنجح في تسكين الخواطر الثائرة ولا في إخفات صيحات المقت والاستنكار التي أخذت تتصاعد من كل مكان، والتي لم يبق ذو حيثية أو مقام إلا اشترك فيها، فلقد أعاد جوستاف أودلف ملك السويد إلى صديقه فريدريك ملك بروسيا قلادة نشان النسر الأسود التي كان هذا قد أهداها إليه لأن نابليون يحمل مثلها، وكتب إليه في ذلك يقول: "إن قوانين الرجولة والمروءة تأبى علي أن أكون زميلا في شئ لقاتل الدوق دانجان"

وأعاد لويس الثامن عشر إلى ملك إسبانيا قلادة الفراء الذهبي لأن نابليون يحمل مثلها أيضًا وشفعها بهذا الكتاب المجيد :

"سيدي وابن عمي العزيز.. لست أرضى أن يكون في هذا العالم شيء مشترك بيني وبين المجرم الأكبر الذي أوصلته جرأته بمعاونة الحظ إلى اقتعاد عرش فرنسا بعد أن لطخه بدم أحد أبناء البربون. وإذا كان ديني يأمرني بالصفح عن قاتل أثيم فإن الظالم الذي يحكم شعبي اليوم سيظل عدوًا لي ما حييت. ولقد تقضي مشيئة الله لأسباب لا أعرفها أن أنهي حياتي في المنفى بعيدًا عن وطني، ولكنني لن أدع لمعاصري ولا للأجيال القادمة مجالا لأن تقول أنني في لحظة من سني محنتي قد وهنت أو ضعفت فصرت غير أهل لعرش آبائي وأجدادي"

وكتب المسيو دوبان أحد كبار رجال التشريع في مستهل رسالة خصصها لإقامة الدليل على أن محاكمة الدوق دانجان لم تكن محاكمة وإنما كانت تمهيدًا مصطنعًا لارتكاب جريمة قتل بشعة، وعلى أن أعضاء المحكمة العسكرية لم يكونوا قضاة وإنما كانوا ضباطًا في الخدمة يؤمرون فينفذون، قال: "إن مقتل الأمير التعس دوق أنجان قد أحزن قلب الأمة الفرنسية بقدر ما لوث شرف الحكومة القنصلية، فما من شك في أن اختطاف هذا الأمير من مرقده في بلد أجنبي يتمتع فيه بحماية القانون العام، ومحاكمته أمام محكمة صورية مؤلفة من قضاة لا صفة لهم تخولهم حق القضاء، واتهامه بتهم ملفقة لا أساس لها تنهض عليه ولا أصل ترد إليه، والحكم بموته فور الساعة ليلا داخل أسوار سجن وتنفيذًا لحكم لم يكتسب بعد صفته

القانونية إذ لم تصدق عليه السلطات المختصة بمراجعة أحكام المجالس العسكرية، ما من شك في أن كل ذلك أبشع عمل إجرامي تستطيع حكومة مستبدة أن تقدم عليه.. لا، لم يذهب دوق أنجان ضحية خطأ قضائي أو تصرف اداري كما يقولون، بل يجب أن نسمي الأشياء بأسمائها فنقرر أنه ذهب ضحية جريمة مدبرة ليس من شأنها أقل من أن تثير الضمير البشري ومن أن تحيط ذكرى مرتكبيها بالمقت ما بقي في العالم عدل وقانون"

ويجئ بعد ذلك الجنرال هولان رئيس المحكمة العسكرية فيحاول هو الآخر تبرير موقفه أو يتلمس الظروف المخففة من سخط الناس عليه فيقول في مذكراته:

"كنت رئيسًا للمحكمة ولكني في الحقيقة لم أكن شيئًا، فلد كان هناك واحد غيري يدير كل شئ ويأمر بكل شيء (يريد الجنرال سافاري)

"لم أذكر في صيغة الحكم وجوب تنفيذه فور الساعة كما قيل، وإنما تلك تكملة أدخلها غيري على الحكم بعد أن تسلمه منا، وإلا فكيف يتفق ذلك ومحاولتي الإعراب للقنصل بونابرت عن رغبة المتهم في مقابلته، لقد قال لي سافاري إن مهمتي انتهت، وأن الباقي من شأنه، ففهمت من عبارته أن هذا الباقي إنما هو التمهيد للمقابلة المرجوة، وفهمت بالتالي أنه لا يزال أمامي متسع من الوقت أقابل فيه حاكم باريس العسكري ووزير الحقانية والقنصل الأول لأفضي إليهم برأيي في القضية والحكم، وأطلب

منهم التنفيذ أو تخفيف العقوبة. ولقد غادرت غرفة الجلسة مطمئنًا إلى ذلك، ووقفت بردهة القصر أشاور زملائي فيما يجب أن نفعل، وبينما نحن نتشاور إذا بنا نسمع دويًا صادرًا عن ناحية فناء القلعة، عقد ألسنتنا وحبس الكلام في حلوقنا وقضى على كل أمل لدينا، فلقد أدركنا والأسى يقطع منا نياط القلوب أن الحكم نفذ، وأن الدوق المسكين صار في عداد الأموات

"إنني أقسم بالأصالة عن نفسي وبالنيابة عن زملائي أننا لم نرد هذا التنفيذ ولم نقض به. وكيف يكون ذلك والحكم لم يبلغ بعد إلى القائد العام حاكم المدينة وهو صاحب السلطة المختصة التي يجب بداءة ذي بدء أن توافق عليه، بيد أننا إذ سمعنا دوي الرصاص ظننا أن هناك أوامر نجهلها قد صدرت إلى الجنرال سافاري، وأوجبت عليه هذا التنفيذ فإذا لم تكن ثمة أوامر، فعليه أن يحمل وحده مسئولية عمله أمام الحكومة وأمام التاريخ، أما نحن فلا نسأل عدلا إلا عما فعلنا وإلا عن النية الطيبة التي كانت تقودنا إلى إنقاذ حياة الأمير.

"تلك عشرون سنة قد تصرمت على ذلك الحادث الأليم، ولكنها لم تخفف حتى اليوم من قسوة وقعه على نفسي، ولا من الحسرة التي تنتابني كلما ذكرته، ألا فليرمني الناس بالخطأ أو الجهل، وليأخذوا عليَّ طاعتي العمياء لرجل حسبته مختارًا من العناية الإلهية لإسعاد فرنسا، وولائي المطلق لحكومة ظننتها شرعية وصالحة فأقسمت لها يمين الولاء، ولكني أرجو أن

يقدروا عند الحكم تلك الظروف التعسة التي وجدت فيها عندما دُعيت إلى الجلوس في قضية الدوق دانجان"

وعلى أن نابليون بعد أن استنفد كل أساليب الدفاع عن نفسه وهو في ذروة مجده، وبعد أن حاول بشتى صنوف الوسائل أن يزيل هذه الوصمة من تاريخه طوال مدة حكمه، عاد وقد أحس بالموت يدنو منه فاعترف بجريمته متلمسًا لها الأعذار والمبررات فدون بخط يده في وصيته: "لقد أمرت بالقبض على الدوق دانجان لأن ذلك كان أمرًا لا بد منه لمصلحة فرنسا ولسلامتها وللمحافظة على هيبة حكومتها ولأني وجدت مرة أخرى في ظرف مماثل لذلك الذي أعدم فيه الدوق لما ترددت في عمل ما عملته"

ولعل فيما عاناه نابليون بمنفاه وفيما قاساه من الغصص والآلام أواخر حياته تكفيرًا عن تلك الجريمة يلطف من قسوة التاريخ والناس عند الحكم عليه..

دولة تتآمر على عفاف امرأة

في اليوم الأول من شهر يناير سنة ١٨٠٧ كان الإمبراطور نابليون في طريقه إلى فارسوفيا عاصمة بولونيا، وقد وقف بباب مدينة بروني ليستبدل بجياد عربته المتعبة جيادًا مستجمة. وكانت الجماهير قد احتشدت لتحيي الإمبراطور الذي علقت عليه بولونيا كل آمالها في الاستقلال، فارتفعت الأصوات تدوي بالدعاء له، ونزل الماريشال دوروك من العربة وشق لنفسه طريقًا إلى الخان، فلما بلغ بابه سمع نداء استغاثة، ورأى أيد ترتفع كأنها تستنجد به وصبية حسناء تخاطبه بالفرنسية قائلة: "أتوسل إليك يا سيدي أن تنقذنا من هذا الموقف وإن تمكننا من رؤية الإمبراطور"

وقف الماريشال وألقى نظرة إلى التي تخاطبه فإذا هي صبية عليها منظر النبل شقراء ذات عينين زرقاوين تفيضان سماحة وظرفًا، وبشرة رقيقة ناعمة صبغها الحياء فكأنها أوراق الورد، قصيرة القامة قليلا ولكنها رائعة جمال الوجه بديعة التكوين. وقد صحبتها صديقة لها لا نتحدث عنها إذ لا يهمنا من أمرها شيء.

مد الماريشال دوروك يده إلى السيدة وقادها وصديقتها إلى عربة الإمبراطور وقال: "مولاي! هذه سيدة تحملت كثيرًا من المشاق لتراك" فرفع الإمبراطور قبعته للتحية ومال برأسه نحو الصبية ليحدثها. ولكن ما بقبلها

فاض على لسانها فلم تدعه يتكلم وقالت: "مرحبًا بك يا مولاي. إن أرض بولونيا لتشرف بأن تطأها قدماك وإن البولونيين مهما فعلوا لتحيتك فهم لا يستطيعون أن يعبروا التعبير الصادق عما تكنه أفئدتهم من الحب لشخصك العظيم. وإن هذا الوطن المنكود ليضرع إليك أن تأخذه بيده لتنقذه من الاستعباد"

وبينما كانت الصبية تلقي العبارات بصوت متهدج غلبه التأثر والحياء، كان الإمبراطور ينظر إلى وجهها بإنعام وانتباه، فلما انتهت تناول باقة من الزهر كانت في عربته وقدمها إليها وقال: "احفظي هذه الأزهار عربونًا على حسن نياتي نحو بلادك التي يهمني أمرها. وأود لو نتقابل في فارسوفيا، ولعلي أكون يومئذ قد استحققت كلمة شكر من فمك الجميل"

ثم صعد الماريشال إلى جانب العاهل وتحركت العربة مسرعة بين تهليل المهللين وهتاف الهاتفين وأدارت الصبية وجهها لتشيع العربة، ولكنها بعد برهة قصيرة لم تعد ترى سوى قبعة نابليون ترتفع وتنخفض لترد تحية هذا الجمع الزاخر

* * *

كانت هذه الصبية تدعى ماري فاليسكا، وهي ابنة أسرة عريقة في المجد قليلة المال، تربت على مبادئ الفضيلة فشبت على الطهر والعفاف متمسكة بعروة الدين والوطن. أما الحب فلم تكن تعرف منه غير حب الله الذي لم يعد يعادله في قلبها غير حب وطنها المنكود. ولم تتجاوز ماري

الخامسة عشرة من عمرها حتى تقدم إليها خاطبان: الأول شاب روسي جميل غني من بيت رفيع، لم ترض به زوجًا لانه روسي، والروسيا تستعبد وطنها، ولأنه ابن أحد القواد الذين أذاقوا بولونيا مر الاضطهاد. والثاني شيخ يناهز السبعين له أحفاد يزيد عمر أحدهم عن عمر ماري تسع سنوات، ولكنه كبير قومه وغني ووارث اسم من أكبر الأسماء. ذلك هو الكونت فاليسكي.

ولقد حاولت الفتاة أن ترفض اليد التي مدها إليها الشيخ، ولكن أمها النبيلة الفقيرة ما كانت لترفض مثل هذا الصهر الذي يعيد إلى البيت رواءه القديم؛ فعقد للكونت الشيخ على ماري اليافعة. ولم تمض السنة حتى رزقت منه غلامًا كان سلوة أحزانها وتعزية لها فيما تخطاها من الهناء.

ولكن أيقضى على هذا الغلام هو الآخر أن يعيش بلا وطن وأن يقاسي صولة الغاصب في بلاده وأن يستجدي العدو أملاك آبائه المصادرة وتراث أجداده المسلوب؟ كلا! بل يجب أن يكون ابنها بولونيًا حرًا. ولن يكون كذلك ما بقيت بلادها راسفة في قيود الاستعباد. إذن لا بد من أن تستقل بولونيا! ومن أقدر من نابليون على إعادة استقلالها إليها؟ إن نابليون الذي قهر النمسا وألمانيا ولم يبق أمامه إلا أن يتغلب على جيوش الروسيا، لهو العدو الطبيعي للدول التي تقاسمت بولونيا، ومن ثم فهو الصديق الطبيعي الذي أتاحه الله لينقذ هذا الوطن المستذل من أيدي غاصبيه. فكيف لا يكون معقد آمال البولونيين ومحط رجائهم فيما يرجونه من نهوض واستقلال؟ وهذا هو نابليون قادم، ألا فليهرع الشعب إلى

لقائه. وليجد نابليون من تحية هذ الشعب ما يستدر عطفه عليه؛ لذلك كانت الكونتيس ماري فاليسكا عند باب بلدة بروني في طليعة الجموع التي احتشدت لتحية المنقذ المنتظر.

غابت عربة الإمبراطور عن عيني الصبية، ولكن هذه ظلت في مكانها جامدة شاردة البصر كالمسحورة لا تنطق ولا تتحرك ولا تفكر، حتى إذا هزتها صاحبتها عادت إلى نفسها وأحست باقة الزهر في يدها فأرسلت عليها نظرة حيرى كأنها لا تدري ما تفعله بها ثم جعلتها في منديل وأوصت صديقتها بكتمان ما كان، وسارت بعربتها إلى مسكنها في فارسوفيا فبلغته في ساعة متأخرة من الليل. وهناك خلت إلى نفسها وأخذت تفيق شيئًا فشيئًا كما يفيق الإنسان بعد حلم غريب، ولولا باقة الزهر لما شكت في أن ما حدث إنما كان حلمًا وقد انقضى كما تنقضي الأحلام.

وصل الإمبراطور إلى فارسوفيا فأقيمت له الحفلات والأعياد وتنافس أعيان المدينة في الاحتفاء به، ولم يبق كبير ولا نبيل إلا حظي بشرف المثول بين يديه. وقد زين الكونت فاليسكي لزوجته أن تصحبه في السهرات التي يحضرها الإمبراطور فأبت فلم يرد أن يلح عليها وتركها في إبائها إلى حين.

ولكن حدث أن زارها كبير نبلاء المدينة اسمه البرنس بونياتوفيكي ليدعوها إلى سهرة راقصة تقام في قصره إكرامًا لنابليون، فلما اعتذرت أفضى إليها بأن الجميع لاحظوا أن الإمبراطور قد اختص بعنايته سيدة

تدعى البرنسيس لوبوميرسكا، وأنهم كانوا في سبيل مرضاته يتعمدون أن يجعلوها في طريقه أينما سار ظنًا منهم أنه قد فتن بها أو مال إليها، بيد أن الماريشال دوروك قد أفهمهم ضلالهم وأفضى إليهم أن الإمبراطور إذا كان يكثر من التودد إلى هذه الأميرة فلأنها تذكره بصبية مجهولة التقى بها في بلدة بروني وأهداها باقة من الزهر، وأنه لا شيء يسر جلالته ببقدر ما تسره رؤية هذه الصبية مرة أخرى. ثم ذكر لهم أوصافها وتفاصيل ما وقع بينها وبين سيده. وأضاف الأمير بونياتوفسكي أن كبراء المدينة قد انطلقوا كل في طريق يستقصون ويبحثون حتى اهتدوا إلى الزميلة التي كانت ترافق الصبية المجهولة في بروني واستعلموا منها عن صاحبتها فدلتهم عليها وأنبأتهم أنها الكونتيس ماري فاليسكا. ثم قال إنه جاء ليدعوها إلى حفلته الراقصة لأن رجال الحكومة وأعيان الدولة يريدون ذلك إرضاء للإمبراطور، وظل الأمير يلح ويلحف وظلت الشابة تأبى وتعتذر حتى يئس وانصرف.

ولكنه ما كاد يخرج حتى توافد عليها رجال الدولة وعظماؤها الذين ترتكز سمعتهم الطيبة على ما لهم من الاعتبار والاحترام في نفوس الناس، وكان الواحد بعد الآخر منهم يتوسل إليها أن تجيب دعوة الأمير قائلا: "من يدري ياسيدتي؟ لعل الله يريد أن يستخدمك في بعث هذا الوطن العزيز!" ثم جاء دور زوجها – وكان يجهل مقابلة بروني ولا يرى في إلحاح هؤلاء النبلاء على زوجته إلا اعترافًا منهم بمركزه الاجتماعي وإلا أنهم يشرفون بلدهم بتقديمه وامرأته إلى الإمبراطور – جاء دور زوجها فابتدأ بالرجاء والتوسل وانتهى إلى الأمر والصلف حتى أذعنت المسكينة لما يريدون ووعدت أن ستحضر الحفلة

وحل اليوم المنتظر وأزفت ساعة الذهاب إلى قصر بونياتوفسكي وأقبل الزوج يستعجل زوجته ويبدي الملاحظات على زينتها وهندامها ويعجب كيف أنها لا تريد أن تبز نساء المدينة بهاء ورونقًا. استقلا العربة إلى قصر الأمير، ودخلت الكونتيس بين صفين من المعجبين والمعجبات والكل يلهجون بالثناء على هندامها وجمالها. ولما كانت نبيلات المدينة قد قدمن جميعًا إلى الإمبراطور بأسمائهن فقد أبى عليها حياؤها أن تكون موضوع تقديم خاص.

وجلست ماري ووقف وراءها الأمير يهمس في أذنها أن الإمبراطور كان ينتظرها في شوق وقلق وأنه إذ رآها أشرق وجهه وتهلل وجعل يستعيد اسمها كمن يتغنى به وأنه أمره أن يرقص معها، ولكن ماري اعتذرت وقالت أنها لا ترقص ولا تحب الرقص. وعبثًا حاول الأمير أن يفهمها أن هذا أمر الإمبراطور وأن نجاح الحفلة يتوقف على رقصة ترقصها. وأصرت على الرفض إصرارًا جعل الأمير يلجأ إلى الماريشال دوروك الذي ذهب إلى سيده وأخبره بما كان.

وأقبل ضباط أركان الحرب الفرنسيون على الكونتيس يتقربون إليها غير عالمين أن عين النسر ترمقهم، لأن ما كان أمرًا مذاعًا بين البولونيين كان سرًا مكتومًا على رجال الإمبراطور وحاشيته. وسرعان ما قطب نابليون جبينه غيظًا وانهالت الأوامر من فمه على الماريشال برتييه لتشتيت أولئك الذين يزاحمونه وهم لا يعلمون، فعلى الجنرال بيريجور أن يلحق في الحال بالفرقة السادسة، وعلى الجنرال برتران أن يكون قبل

الصباح في برسلو وعلى هذا أن يجهز لا أدري ماذا وعلى ذلك أن يذهب إلى لا أدري أين، حتى صفا للعاهل الجو، وأولئك القواد والضباط يصدعون بالأمر ويغادرون الحفلة ساخطين ناقمين لا يعلمون أن المصيبة انصبت على رؤسهم لا لشيء سوى أنهم حاموا حول الفريسة التي ترنو إليها عين الأسد.

وبما أن الكونتيس فاليسكا لا ترقص فلا معنى لأن يرقص المدعون، وصدرت الأوامر بالكف عن الرقص، وقام الإمبراطور يطوف قاعات الاستقبال مشتت الذهن شارد البصر يحاول أن يلاطف النساء وهو لا يدري ما يقول، حتى لقد سأل عانسًا شوهاء إذا كان زوجها يغار على جمالها، وسيدة بدينة ضخمة الجسم إلى حد مضحك إذا كانت تجيد الرقص. وكان لا يسمع ما يقال له أو يسمع ولا يفهم. وظل كذلك حتى بلغ به المطاف فاتنة لبه فتوقف أمامها وقال بصوت مسموع: "إن هذه الثياب البيضاء لا تجمل ولونك الأبيض" ثم همس في أذنها: "كنت أظن أني أستحق أن تستقبليني بأحسن مما فعلت" فلم تجب، فتفرس في وجهها برهة ثم ابتعد. وبعد دقائق غادر القصر وأقبل الجميع يجمعون ما تناثر من كلمات الإمبراطور ملقين اهتمامهم إلى ما قاله للكونتيس فاليسكا ملحين عليها لتنبئهم بما لم يسمعوه. ولكنها احتفظت بسرها، ولم ترد أن تفضي به إلى أحد. وفي طريقها إلى دارها أخبرها زوجها أنه قبل بالأصالة عن نفسه وبالنيابة عنها دعوة إلى حفلة عشاء تقام في الغد وسيحضرها الإمبراطور.

وهمت المسكينة أن تبوح لزوجها بسر الشرك المنصوب ولكنه انطلق يوصيها باختيار أفخر الثياب وأجمل الزينات، وما كانت تبلغ مخدعها حتى سلمتها وصيفتها غلافًا وجدت فيه الرسالة الآتية:

"لم أر إلاك، ولم أعجب إلا بك، ولا أرغب إلا فيك، فهل من كلمة تهدئ نفسي الهائجة؟".

قرأت هذه الرسالة وما أتت على آخرها حتى كورتها في يدها نافرة من أسلوبها الجرئ. وأخبرتها الوصيفة أن الرسول وهو البرنس بونياتوفسكي لا يزال ينتظر الرد أمام سور الحديقة، فازدادت غضبًا وحنقًا وقال: "اصرفيه فليس لدي رد" ولكن الأمير لم يرتح إلى هذه الهزيمة وعالج الوصيفة حتى جعلها تقوده إلى سيدتها التي ما رأته حتى أوصدت في وجهه الباب وأعلنت من ورائه أنها تسلمت الرسالة ولن تجيب عليها. وظل الأمير يرجو ويتوسل ويلح ويعنف ويهدد نصف ساعة كاملا معرضًا نفسه بهذا الموقف المريب إلى فضيحة شنعاء، وهي لا تزداد إلا إصرارًا حتى يئس وانصرف ساخطًا..

وفي الصباح سلمتها وصيفتها رسالة ثانية أبت أن تفض غلافها وأعادتها مع الأولى إلى الرسول آمرة أن يردها إلى كاتبهما..

وعند الضحى اجتمع في دارها وزراء الدولة والزعماء السياسيون ومعهم الماريشال دوروك يريدون مقابلتها فاعتذرت بأنها مريضة لا تغادر غرفتها. ولكن زوجها الذي خشي أن يقال إنه غيور عليها أبى إلا أن

تستقبلهم فرضيت بعد جهد أن يصعدوا إليها. وهناك تألب عليها الجميع وانصبت عليها النصائح من كل ناحية وتقدم منها رئيس الوزراء وقال: "إن من الاعتبارات يا سيدتي ما يجب أن يخضع له كل شيء. ونحن اليوم حيال فكرة إنقاذ أمة بأسرها فيحسن أن يزول التوعك الذي ألم بك وأن تجيبي دعوة الداعي إلى حفلة العشاء، واعلمي أن الرفض في مثل هذه الأحوال لا تقدم عليه بولونية مخلصة تشفق على وطنها مما نزل من الأهوال"

إذن فقد وجب أن تنهض وأن تقبل الدعوة وأن تعمل بنصيحة زوجها فتذهب إلى عشيقة البرنس بونياتوفسكي لتسترشد بخبرتها فيما يجب أن يكون عليه زيها وزينتها. وهناك تعهد بها العشيقة إلى شابة من صديقاتها تعرف كيف تتسلل إلى العقول والقلوب فتظل تهمس في أذنها أن الوطن يناديها وأن شهداء بولونيا يناجونها وأنها إن ضحت بأثمن شيء فإنما في سبيل أشرف غاية. ولما آنست أن إباءها أخذ يتزعزع أطلعتها على الرسالة الآتية وقد وقعها عظماء الدولة وزعماؤها ورجال الحكم فيها:

"أيتها السيدة: إن أعظم الحوادث قد يترتب على أصغر الأسباب. ولقد كان للنساء في جميع الأزمنة سلطان كبير في تسيير سياسة العالم وفي حل المشكل من الأمور، وتلك حقيقة يشهد بها تاريخ العالم القديم والحديث. وستظل النساء من أقوى العوامل ما دامت الشهوات متسلطة على ميول الرجال

"ولو كنت رجلا لقدمت حياتك راضية مختارة في سبيل قضية الوطن العادلة الشريفة، ولكنك امرأة وطبيعة المرأة لا تسمح لها أن تخدم بلادها في مواقف الحرب والصدام. بيد أن هناك من التضحيات ما تستطيعين أن تقدمي عليه وما يجب أن تلزمي به نفسك إلزامًا وإن كان من نوعٍ قاس لا يحتمل..

"وهل تظنين أيتها السيدة أن استير قد سلمت نفسها لأحشويرش[٢] خضوعًا لعاطفة الحب؟ ألا إن الرعب الذي كان يستولي عليها حتى تقع فاقدة الرشد كلما نظر إليها، لدليل على أنه لم يكن للحب نصيب في هذا التزاوج. ولكنها قدمت نفسها ضحية لقومها وكان لها في النهاية مجد أنقاذهم. فهل يتاح لنا أيتها السيدة أن نتحدث عن مجدك وسعادتنا بمثل ما نتحدث به عن مجد استير وسعادة قومها؟

"ألست بنتًا وأمًا وأختًا وزوجًا لكرام من البولونيين الذين تتكون منهم ومنا وحدة الوطن، تلك الوحدة التي لا تتقوى إلا باتحاد العناصر على ما فيه مصلحة الجميع؟"

إذن فالأسرة والوطن والدين يقضون عليها بالتسليم. وكل من يحملون في الدولة ألقاب العلم والمجد والشرف يلحون عليها بوجوب التسليم. الجميع يتآمرون على عفاف امرأة ضعيفة لا تجد زوجًا يحميها ولا أهلا يمدونها بالنصح ولا صديقًا تشاوره في الأمر، ثم يتعاونون فلا يدعون

---

[٢]قصة استير واحشويرش معروفة في التوراة

عاملا للتأثير عليها من غير أن يحركوه. ولقد أطلعوها على الرسالة الثانية من رسائل الإمبراطور وهي التي أبت أن تفض غلافها فإذا نصها: "هل أغضبتك يا سيدتي؟ كنت أطمع في أن ألقى منك غير ما لقيت، فهل أخطأت؟ إن اندفاعك نحوي قد فتر بينما اندفاعي نحوك يزيد حتى لقد سلبتني الراحة فهلا تمنين بشيء من الفرح والسعادة على قلب لا يريد إلا أن يعبدك؟ وهل يصعب عليك إلى هذا الحد أن تجيبي على رسائلي بكلمة؟ إنك مدينة لي بجوابين؟"

ثم يجئ زوجها وهي في وسط ذلك الاضطراب النفسي فيحتم عليها مرة أخرى أن تذهب إلى حفلة العشاء، والمسكينة تعلم أن ذهابها إنما خطوة لها ما بعدها وأنها إن خطتها فقد أعلنت هزيمتها إذ أن هذه الخطوة هي التسليم بعينه. ثم ها هي تلك غرفة الاستقبال تمتلئ مرة أخرى برسل الدولة يلحون ويلحفون ولا يدعونها وحيدة خشية أن تراجع نفسها فيعاودها إباؤها. وينشب في نفسها عراك هائل بين عاطفتين قويتين: عاطفة الوطنية وعاطفة الشرف، فلا تلبث هذه أن تميل بها حتى تعود الثانية فتتغلب عليها، وتظل كذلك حيرى مترددة مشتتة الذهن مضعضعة الصواب، حتى تعود فتقع تحت الضغط المنصب عليها من كل ناحية فتتزعزع قواها وتلين قناتها وتبكي حياءً من ضعفها ثم تبتسم ابتسامة الإذعان والتسليم. وبعد فما الذي تخشاه ما دامت لا تحب نابليون ولا تشعر في حنايا قلبها بأي عاطفة نحوه غير عاطفة الإكبار والإعجاب؟ وأي خطر يهدد شرفها من وجودها في حفلة تموج بالناس وتراعى فيها أصول اللياقة والاحتشام؟

واصطف المدعوون والمدعوات وبينهم مدام فاليسكا لاستقبال الفاتح العظيم، وأقبل نابليون يحيط به رجاله؛ فانحنت الرءوس إجلالا لذلك الذي عارض القدر فأذل من أعز، وأعز من أذل، والذي تناول الحوادث فبدلها على غير ما تريده سنة الزمن. أقبل بخطواته الضيقة السريعة ينظر يمنة ويسرة ويلقي البسمات على الجانبين حتى وصل إلى الكونتيس فاليسكا فقال: "قيل لي إنك كنت مريضة يا سيدتي فهل زال ما ألم بك؟"

وعلى المائدة كانت ماري جالسة أمام الإمبراطور بجانب الماريشال دوروك، وقد طفق العاهل يستفسر عن تاريخ بولونيا ويستمع إلى الأجوبة في انتباه واهتمام. ولكن عينيه ما انفكتا شاخصتين نحو معبودته لا تفارقان وجهها الجميل إلا لتتجه نحو دوروك. وكان الإمبراطور يملي على الماريشال ما يقوله للكونتيس فاليسكا بإشارات ونظرات سرية لا يعرفها غيره، فكان دوروك إذا فرغ من إبلاغ الرسالة التفت إلى سيدة يتلقى ما بعدها. وحدث أن وضع الإمبراطور يده على الجانب الأيمن من صدره فتردد الماريشال في الفهم ونظر إلى الإمبراطور مستفهمًا ثم ما لبث أن أدرك ومال نحو ماري يسألها ماذا فعلت بباقة الزهر، فأخبرته أنها تحفظها تذكارًا لنجلها. فقال: "أتسمحين يا سيدتي أن نقدم اليك ما هو أليق بك؟" فاشمأزت الكونتيس من هذه الجرأة وصاحت: "أنا لا أحب غير الأزهار" وتدارك الرجل ما فرط منه وأسرع فقال: "إذن سنقطف زهر الغار من أرض بولونيا لنقدمه إليك"

وأدركها نابليون في زحام المدعوين وقد هجروا المائدة، وتناول يدها وضغطها بقوة وسلط عليها أشعة عينيه اللتين لم يقو على التحديق فيهما إنسان وقال: "لا.. لا.. إن عينيك الصافيتين تفيضان حنانًا، والطيبة تكسو محياك فحتام هذه المقاومة؟ إنك خلقت للرحمة لا للتعذيب، سلمي وإلا فأنت أقسى النساء"

انفضت الحفلة واستسلمت الكونتيس فاليسكا إلى صديقاتها فذهبن بها إلى دار البرنس بونياتوفسكي حيث التف حولها رهط الناصحين يهنئونها بما نالته من الحظوة والاعتبار، وانهالوا عليها توسلا ورجاء مرددين أن الوطن يناجيها وأن استقلال بولونيا أصبح رهين خطوة تخطوها وأنها الوحيدة التي تستطيع قيادة هذا القادر على ما لا يقدر عليه سواه. ثم أخذوا يتسللون الواحد بعد الآخر كأن تسللهم أمر مرتب من قبل. فلما لم يبق منهم غير عشيقة الأمير دخل الماريشال دوروك وأغلقت من ورائه الأبواب وجلس بجانبها ووضع على ركبتيها مظروفًا وتناول يدها وقال: "أترفضين توسل رجل لم يعص له الزمان أمرًا ؟" وطفق يتكلم كثيرًا وهي تغطي عينيها بيدها وتجهش في البكاء ولا تجيب ولكن صديقة الأمير بالنيابة عنها وتؤكد أنها لا محالة ذاهبة إلى حيث ينتظرها الإمبراطور. وإذا تقززت نفس ماري من هذا التأكيد عادا يهزان وتر الوطنية في قلبها الضعيف ويرميانها بالتقصير في حق أمتها التي تؤمل على يديها الخلاص. ثم نشرت عشيقة الأمير المظروف وقرأت "سيدتي: إن العظمة لتثقل على النفس أحيانًا، وهذا ما أشعر به الآن. وكيف أستطيع أن أجيب مطلب قلب يود لو يطير إليك فتقعده أثقال الاعتبارات العالية؟ أه لو أردت يا

سيدتي! إنك أنت التي تستطيعين أن تزيلي ما بيننا من العوائق، وهذا صديقي دوروك يعاونك ويمهد لك السبيل. تعالي.. تعالي.. فكل رغباتك مجابة وسيكون وظنك أعز على نفسي متى أخذتك الرحمة بقلبي المعذب المسكين" ن.

الآن تغير وضع المسألة، وها هو ذا الإمبراطور يقرر بنفسه أن حظ بلادها رهن قبولها. ومرت أمام عينيها صورة بلادها المستقلة وقد تجمعت أوصالها المقطعة وتألفت أطرافها المتناثرة وحلق النسر الابيض – شعار وطنها – يعلن للعالم أن بولونيا أمة عظيمة وشعب مستقل، ثم مسحت جبينها بيديها وانهمرت الدموع من مآقيها وقالت في تنهد عميق: "اصنعوا بي ما شئتم، وليكن ما يريد الله أن يكون" فلما وافت الساعة العاشرة من الليل وضعوا على وجهها نقابًا كثيفًا وغطوها بعباءة فضفاضة وساقوها إلى عربة كانت تنتظرها في وسط الشارع ودفعوها إلى داخل العربة وركب بجانبها رجل طويل القامة لا تعرفه ولم يشأ أن يعرفها بنفسه بل لم يتفوه بكلمة. وسارت العربة حتى بلغت مدخلا سريًا نفذت منه إلى حديقة القصر، ثم أنزلوها وهي تكاد لا تعي وسارت تجر قدميها مستندة إلى ذراع الرجل الطويل، واقتحمت دهليزًا في نهايته باب انفتح فجأة على مصراعيه وألفت وراءه الإمبراطور...

جلست ماري وجثا الجبار مدوخ المماليك ومذل الملوك عند قدميها، جلس ينظر إليها نظرة توسل ونظرة استعطاف، وحاول أن يتكلم فانعقد لسانه ولم يسعفه البيان فتمتم قائلا: "ماري.. ماري.."، ثم نهض

يجذبها إليه في لين عنيف وهي تدفعه عن نفسها في أدب واستحياء، ولبثا يتحدثان، أو قل لبث يتحدث وهي تبكي وتنتحب وظل يوجه إليها الأسئلة مستفسرًا عن أصلها وسنها وحياتها، وينتقل من هذا إلى الاستعطاف والتذلل وهي لا تزداد إلا تباعدًا ولا تجيب بغير الدمع الغزير. وآذنت نابليون فراسة الغرام أن كل هجوم مقضي عليه بالفشل في هذه الليلة، فعدل عن خطة الهجوم إلى استدراج العدو مرجئًا الحملة والاستيلاء إلى الغد. وظلا يتسامران حتى كانت الساعة الثانية من الصباح إذ سمع على الباب دقًا خفيفًا فنهض باسمًا وقد أخذ يديها وقال: "هيا أيتها الحمامة الجميلة، جففي دموعك واذهبي لتستريحي ولا تخشي من النسر شرًا بعد اليوم فهو لا يستطيع شيئًا ولا قوة له حيالك إلا قوة الحب وإنه لا يبغي سوى قلبك قبل كل شيء" ثم عاونها على ارتداء عباءتها وقادها إلى الباب ووضع يده على قبضته وأقسم ألا يفتحه أو تقسم أن تعود، فأقسمت..

واستيقظت ماري من نومها فألفت بجانب سريرها عشيقة البرنس بونيا توفسكي وقد حملت إليها هدايا الإمبراطور وهي من الجواهر الثمينة، بينها باقة من الألماس صاغتها أيدي أمهر الصناع. فتناولت بعضها وضربت به الحائط قائلة: "أيظنون أنهم يشترونني بالجواهر والمال؟" وقامت مغضبة تأمر صديقتها الجديدة أن تعود من حيث أتت، ولكن سرعان ما هدأت الصديقة اللبقة غضبها ثم أخرجت من جيبها رسالة نشرتها أمها وقرأت: "ماري.. ماريتي الجميلة.. أنت أول من تتجه اليه أفكاري، فلا عجب إذا كانت أول رغبة لي هي أن أراك. ستعودين. أليس كذلك؟ لقد

وعدت وإذا أخلفت وعدك طار إليك النسر ليحملك إلى وكره. أؤمل أن أراك على مائدة العشاء وفي انتظار ذلك تفضلي واقبلي مني هذه الباقة التي أرجو أن تصبح رمزًا لحبنا نتناجى به إذا لم نستطع التحدث بين الناس. وإذا رأيتني أضع يدي على قلبي فاعلمي أني أقول لك أني أحبك وأن قلبي طافح حبًا، وإذا أردت أن تحبيني فضعي يدك على الباقة لأفهم أنك تشاطرينني الحب العميق. أريد أن تحبيني يا ماري وأريد ألا تفارق يدك هذه الباقة" ن. ولكن بلاغة هذه العواطف لم تشفع لدى ماري في جرأة ذلك الفاتح الذي يريد أن يغزو قلوب النساء كما يغزو القلاع والحصون، لذلك أعرضت عن الهدايا وأمرت بإعادتها ثم قبلت أن تحضر حفلة العشاء..

وكان الإمبراطور قد تبوأ مكانه من الحفلة لما دخلت الكونتيس فاليسكا، فما رآها حتى أرسل عليها شواظًا من عينيه ثم نهض وتقدم إلى ناحيتها مسرعا ووجهه يفيض حنقًا وغضبًا؛ فخافت أن تخونه الرزانة فيقدم على مظاهرة علنية تفضحها في هذا الجمع العظيم، وأسرعت فوضعت يدها على قلبها في المكان الذي عينه لوضع الباقة، فلم يلبث حتى انفرجت أسارير وجهه وأجابها بإشارة مماثلة لإشارتها وحاد عن طريقها، وانتبذ بالماريشال دوروك مكانًا منعزلا وهمس في أذنه بعض كلمات.

وكان مكانها على المائدة أمام الإمبراطور بجانب دوروك كما حدث في المرة الأولى، ودار الحديث بينها وبين الماريشال حول بولونيا ومستقبلها وما فعله نابليون حتى اليوم في سبيلها وما انتوى أن يفعله فيما بعد. كل هذا

والإمبراطور يحادث مضيفيه ويلقي عليهم الأسئلة في أهم الشئون ويصغي إلى أجوبتهم ويناقشها ويده لا تبرح صدره عند مكان القلب وعيناه لا تفارقان فاتنته الحسناء. ولما هم المدعوون بالانصراف تقدم الماريشال دوروك منها وقال: "قد أمرني مولاي أن أذكرك بوعدك يا سيدتي" قالت: "لن أذهب" قال: "نحن جنود نابليون ما تعودنا أن نفرط في حصن عهد إلينا المحافظة عليه" قالت: "إذن أنا أسيرة!" قال: "معاذ الله يا سيدتي ولكنك في حراستي"

واتخذت نفس الاحتياطات التي اتخذت أمس ودخلت الحمامة وكر النسر فتلقاها متهللا، وكان قد يئس من قدومها، وأجلسها ووقف أمامها يسائلها في لهجة يمتزج بها بعض العنف: "لماذا حاولت مقابلتي في بروني؟ ولماذا تركتني تحت تأثير جمالك الساحر؟ ولماذا رفضت جواهري؟ ولماذا لم تجعلي يدك على قلبك كما كنت أريد؟" وظل يرسل عليها هذا الوابل من الأسئلة السريعة، والمسكينة لا تستطيع أن تجيب، ثم أمسك يدها وقد عبس جبينه وبرقت عيناه وقال: "اعلمي أني لا أهيم إلا بالمستحيل وبقدر ما يتعذر علي الوصول إلى شئ تشتد رغبتي فيه. إن المستحيل يذكي في نفسي جذوة لا تنطفئ حتى أحصل عليه. أني أريد.. أتفهمين ما أقول؟ أريد أن تحبيني، وستحبينني. لقد بدأت أنفذ شيئًا من رغباتك وهأنذا قد غرست البذرة الأولى من استقلال بولونيا وأكرهت روسيا على أن تنزل عما اغتصبته من أرض بلادك. فعلت كل هذا وسأفعل أكثر منه، ولكن احذري من أن تستهيني بحبي. أترين هذه الساعة في يدي؟ إني أحكم بولونيا كما أحطمها الآن"

أمام هذا البركان الثائر، وأمام هاتين العينين اللتين ترسلان وهجًا لا تقاومه الأبصار، وأمام هذه الساعة التي تطايرت شظاياها على حائط الغرفة، وأمام هذا التهديد الذي ينصب كالسيل من فم رجل نهض بعرضه الدهر وسار في ركابه الملوك، لم تستطع المسكينة سوى أن تقع على الأرض مغشيًا عليها. ولما أفاقت كان الفاتح العظيم قد غزا منها الحصن المنيع...

طلاق الإمبراطورة جوزفين

في سنة ١٨٠٦ كان الإمبراطور نابليون الأول قد أمضى على عرش فرنسا زهاء ثلاث سنين، وقد خضعت لسلطانه ممالك أوربا، ودان له ملوكها بالطاعة والولاء، فظن أن الأمر استتب له وأنه أسس إمبراطوريته على دعائم ثابتة لا تهن، وقوائم قوية لا تتزعزع، فبات راضي النفس مطمئن البال، لا ينغص عليه هناءه إلا فكرة واحدة وهي أنه قارب الأربعين وليس له ولي عهد يرث من بعده هذا الملك المترامي الاطراف

لم يقنع الضابط الكورسيكي الصغير من الحظ بأن يعتلي عرش فرنسا، ويضع على مفرقه تاج شارلمان، ولا بأن يقف بين ملوك العالم كأنهم الهالة وهو القمر. ولا بأن يصبح المعز المذل يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ولا بأن يجعل من المماليك والتيجان والعروش منحًا وإقطاعات وهدايا يهبها للأقارب والأصهار والتابعين، لم يقنع من الحظ بكل هذا وعز عليه أن يرتحل عن الدنيا تاركًا تلك الإمبراطورية الضخمة تحت رحمة الأقدار فتنزول بزواله أو تؤول إلى من لا يحمل اسمه ولا يخلد ذكره. فأراد أن يكون أيضًا مؤسس أسرة مالكة ترث عرشه ومجده وتظل تسيطر على فرنسا حتى يرث الله الأرض ومن عليها

ولكن أراد القدر المسيء أن لا تحمل منه زوجته جوزفين، وأن يختلط عليه الأمر فلا يدري أهي العاقر أم هو العقيم. أما هي فليست

بالعاقر وقد ولدت من زوجها الأول فتى وفتاة هما الأمير أوجين والأميرة أورتانس، ولكنه هو الآخر لا يشك في نفسه، فقد رزق من إحدى وصيفاتها غلامًا جاء مولده شاهدًا بقدرته على الإنتاج. إذن لم يبق إلا أن جوزفين أصيبت بالعقم بعد زواجهما، وعلى ذلك فلا أمل له في وارث إلا إذا تزوج بامرأة أخرى لعل الله يتم نعمته عليه ويهبه هذا الغلام الذي تصبو نفسه إليه، ولكنه يحب جوزفين حبًا يملك عليه عواطفه وميوله؛ فهي رفيقة الصبا الغامض وزميلة البداية المتواضعة، والزوجة الميمونة التي يتفاءل بطلعتها ويحسب حظه من حظها. فاذا كانت السنون قد جارت على جمالها وأذهبت نضرة الشباب من وجهها وأساءت إلى تقاسيم جسمها، فهي لم تنزع من قلبه ذكريات الماضي القريب والبعيد؛ فلطالما بسمت له والحظ عابس فخففت عنه الكرب والهموم، ولطالما أحاطته بحبها وعطفها وتشجيعها فعاونته على مواجهة أحرج الحالات وأدق الظروف. وبعد فهي المرأة المتواضعة التي تجنبت شؤون الملك ومشاكل الدولة، وقنعت بأن تكون ملكة الزي والرشاقة والملاهي والمسرات، وهي ربة القصر التي استطاعت بظرفها وكياستها أن تطبع بطابعها تلك الأرستقراطية الخشنة التي خلقها من أهل الريف ورفعها من الحضيض الأسفل الى السماء الأعلى، وأن تهذب في سرعة ولباقة أولئك الأفظاظ الغلاظ الذين جاء بهم من ميادين القتال فنصبهم مراشلة وأمراء يحملون أرفع الأوسمة وأسمى الألقاب، وأن تضرب المثل الصالح الجميل لأولئك السيدات اللائي تبعن أزواجهن في رقيهم فانتقلن فجأة من المغاسل والمطابخ إلى الولائم في

السرايات والمراقص في القصور، وصرن يقفن مع أعيان الدولة جنبًا إلى جنب في المقابلات والأعياد والتشريفات.

فكيف يفارق هذه الزوجة الحنون والصديقة النافعة التي تسلقت وراءه سلم المجد حتى بلغت معه الذروة وكيف يطاوعه قلبه إذا هو أراد هذا الفراق؟ ولكن ليست المسألة مسألة عواطف، فهناك السياسة العليا ومقتضياتها، وهناك مستقبل الأسرة وصالح الدولة ومصير الإمبراطورية، وهذه اعتبارات لها قيمتها ووزنها فلا يستطيع أن يغفلها ولا أن يصرف النظر عنها؛ لذلك نراه كثير التردد والحيرة يقدر ثم يتراجع ويخدع نفسه فيسمي التردد والتراجع تبصرًا وحسن تدبير، ثم يرجئ ويسوف، ثم يحاول أن يوفق بين عواطفه وأمانيه فيفكر في أن يختار ابن أخيه من ربيبته أورتانس وليًا لعهده، ولكن يجئ الموت فيختطف الغلام وينهار صرح الأمل فيعود الى التفكير وتبقى نفسه نهبًا بين ما يحب وما يجب، وتمضي السنون وهو حيران قلق لا يهدأ له بال ولا يستقر عند رأي

وفي خلال ذلك تعيش الإمبراطورة جوزفين عيشة مضطربة قلقة؛ فهي تعلم نيات زوجها وتعرف أن تردده قد يطول ولكنه لا يدوم. وتحس أن هذا الحلم الهنئ الذي طال أوشك أن ينقضي لتعقبه اليقظة بحقائقها المروعة، وتشعر أنها وإن طال المدى أو قصر ستنزل يومًا درجات هذا العرش الذي اعتلته في ساعة من ساعات كرم الزمان. وها هي تقف كل يوم أمام المرآة تزن بقية جمالها وتسائل نفسها في لهفة ولوعة: أتقوى هذه البقية الذابلة الواهية على الاحتفاظ بعواطف زوجها الجامحة المتمردة؟ ثم

تعمد يأسها وحسرتها إلى المساحيق والمعاجين والأصباغ والألوان تحاول أن تصلح بها ما أفسده الدهر وعبثت به يد الأيام من هذا الجمال. وتهرع إلى مستحدثي الأنماط ومستنبطي الأزياء فتغدق عليهم المال عسى أن تظفر منهم بما يخفي تراخي صدرها ويداري تضخم خصرها ويستر ترهل أردافها.

وتتعمد – وهي المرأة المرحة الطروب – أن لا تضحك ولا تبتسم حتى لا تظهر من خلال شفتيها أسنانها التي عدت عليها عوادي الزمن، فأذهبت ببياضها اللؤلؤي وأكسبتها خضرة كخضرة الصدأ لا تسر الناظرين

وبعد فها هي ذي أسرة بونابرت تناصبها العداء وتتحزب عليها وتشجع الإمبراطور على تطليقها، وها هو ذا صديقها الجهنمي الوزير فوشيه الذي طالما سندها وقوي بسببها وأخلص لها النصح والإرشاد وحطم من حولها الدسائس وكفاها شر المؤامرات، ها هو ذا يستشعر من سيده اتجاهه الجديد فيقلب لها ظهر المجن ويتخلى عنها بل ويتنكر لها ويصبح من غلاة محبذي الطلاق وأقوى الدعاة إليه. فما يخلو ناد أو مجتمع أو مشرب أو محفل من أعوان له يذيعون ويؤكدون قرب وقوع الطلاق فيمهدون للفكرة بهذه الإذاعة ويهيئون لها الرأي العام. فيا ليت شعري ماذا تستطيع امرأة أن تفعل حيال كل تلك القوى المتألبة عليها سوى أن تعتصم بالصبر وتسلم لله الأمر وتنتظر؟

وتسبق الطلاق علامات الملل ودلائل الإعراض فيستقل نابليون بحجرة لنومه ثم لا يلبث حتى يتخذ لنفسه جناحًا من القصر بعيدًا عن الجناح الذي تبيت فيه زوجته، ثم يخرج على سائر التقاليد والاعتبارات فيقضي لياليه بين أحضان الكونتيس فاليسكا في البيت الذي أعده لها في طرف من أطراف المدينة، ويدرك أعداء جوزفين كل ذلك فينشطون للحملة عليها ويجمعون على العمل للتخلص منها، حتى ليسمح فوشيه لنفسه أن يذهب اليها بغير إذن من سيده ويظهرها على الحالة ويغريها بأن تسبق رغبة زوجها وتطلب الطلاق خدمة للأسرة وتحقيقًا لمصالح الدولة، فلا تجد المسكينة حولها من تشتكي إليه حزنها أو تفضي إليه بأمرها فتهرع إلى مخدعها لعلها تجد في البكاء تفريجًا لهمها أو تخفيفًا للوعتها

ويدخل الإمبراطور فيجدها على هذا الحال فترتمي على صدره وتذرف الدمع السخين من عينيها الجميلتين وتبثه مخاوفها ووساوسها وتشكو إليه سوء ما تلقاه من رجاله وأهله، فتهن قوة الجبار العاتي أمام ضعف المرأة الباكية وتتلاشى إرادته حيال دموعها المسبلة فيحاسنها ويلاطفها ويترفق بها ويترضاها حتى إذا ما طابت نفسًا وابتسمت غادرها ساهرة حيرى تسائل النجم عما يخبئه لها الغد القريب

ويعود نابليون إلى شواغل نفسه فتساوره ذكريات الماضي ومقتضيات المستقبل، ويتناوبه ذل العاطفة وحكم الواجب، فيبيت هو الآخر مسهد الجفن مشرد الفكر حيران لا يلوي على شيء. وعجيب من هذا الرجل القاسي الذي اندفع في الحياة مغامرًا وراء غايات هائلة يحطم في

طريقها الحواجز ويقتلع الحوائل ولا يعرف في سبيل تحقيقها هوادة ولا رحمة، عجيب من هذا الطاغية الذي عاش أسيرًا لأطماع غير محدودة ولا معقولة استنزف في خدمتها دم فرنسا وصبغ به أديم الأرض وأفنى زهرة جيل بأسرى تركهم في ميادين القتال رممًا متناثرة وأشلاء مبعثرة، عجيب من هذا الجبار الصلب العنيف أن يضعف اليوم أمام امرأة، وأن يعرف الحنو والإشفاق سبيلهما إلى قلبه المتحجر متى رأى هذه المرأة تبكي مهيضة الجناح كسيرة الخاطر!

ولكنه الحب أقوى من كل شئ وأقوى من الموت، يقهر الجبابرة ويذل النفوس المتكبرة، بيد أن جوزفين كانت تحمل في نفسها عوامل القضاء على سعادتها وهنائها، وإذا كان الإمبراطور قد أصبح أمامها بادي التردد غير مستقر الرأي، فقد أبى حظها المدبر وطالعها المولي إلا أن يجعلاها تساعد بشذوذ سلوكها وسوء تصرفها على أن تنفر زوجها منها وعلى أن تجتث من قلبه تلك العاطفة المتزعزعة التي ظلت تربطه بها وتجذبه إليها

كانت جوزفين متلاف مسرفة إلى حد الجنون، وكان المال يتسرب من بين أصابعها بلا حساب ولا تقدير حتى لقد أزعج تبذيرها الحكومة فوجهت إليه نظر الإمبراطور، ولقد عرف تجار الأزياء والجواهر ميلا إلى الترف واقتناء كل جديد ثمين فكانوا يتوافدون على القصر كل صباح حاملين أغلى ما أبدع الفن من مصوغات وأقمشة ومطرزات ومعاطف وقبعات وأحذية وقفازات ومساحيق وعطور وتحف ولعب. وقلما رجع أحد

منهم بشيء من بضاعته إذ كانت تشتري كل شئ حتى لقد أحصوا بعض مقتنياتها وثيابها فظهر أن لديها ستمائة وستة وسبعين ثوبًا وثمانمائة زوجًا من القفازات وأربعمائة وستين قبعة وقس باقي الأشياء على هذه النسبة. أما أثمان المجوهرات والمصوغات فكانت عبئًا ثقيلا على مالية الإمبراطور ومالية الدولة إذ تبلغ في بعض السنين مليونًا ونصف مليون من الفرنكات. وقد اضطر زوجها آخر الأمر إلى أن يمنع أولئك التجار من دخول القصر.

وكانت، برغم ما تغدقه عليها خزانة الحكومة وخزانة الإمبراطور من المال، مغرقة في الديون مرهقة بمطالب الدائنين فما يكاد زوجها يفي دينًا حتى ينهض على إثره عشرة مطالبين، وتتكرر المأساة كل سنة ويغضب نابليون ويتوعد ثم يدفع صاغرًا أمام حزنها ودموعها

وكانت لفرط قلقها على المستقبل كثيرة التشاؤم كثيرة التفاؤل تجئ بالعرافات وقارئات الكف ومستنطقات الغيب وتؤويهن إليها وتشملهن برعايتها وتحميهن من العدالة والقانون، ولقد دخل عليها زوجها يومًا فألفى عندها عرافة ذائعة الصيت في عالم الإجرام والموبقات ووجد معها شابًا اتضح أنه توسل بها إلى دخول القصر ليغتال حياة الإمبراطور..

وكانت شديدة الغيرة على زوجها ترصد العيون من حوله وتتجسس عليه وتنفق الأموال الكثيرة في تعرف أخباره واستطلاع أسراره واستكشاف علاقاته ثم ترهقه بالمؤاخذة والعتاب والشجار والتعنيف حتى

لقد اتهمته مرة بأنه يعشق أخته بولين ويزني بها ولم تتورع عن أن تذيع ذلك بين أهل البلاط..

وكانت إذا فرغت من الباعة والعرافات والجواسيس حبست نفسها في غرفتها إلى ما قبيل الظهر تجرب فعل ما اشترت من المساحيق والمعاجين والأصباغ في استرجاع جمال ولى وحسن ذهب، أو تستشير الورق لتعرف من أوضاعه ما يضمره الغيب ويكنه المستقبل.

وكانت تحب القصص والكلاب وتؤوي العدد الكبير منها حتى اذا دخل زوجها مخدعها تعثرت قدماه في هذه الحيوانات وفي مأكلها ومشربها وألفاها تقفز تحت ألحفته وفوق فراشه ووسادته فلا يلبث حتى يهجر المخدع مغيظًا محنقًا

وكل هذا وغيره كان من شأنه أن يوهن من تعلق نابليون بجوزفين وأن يميل عواطفه عنها ويستنفد صبره عليها ويشجع أعداءها على الكيد لها وحبك أطراف الدسائس من حولها. ولقد آنس رجال البلاط ونساؤه هذا الانحراف من السيد الأعلى فأيقنوا أنهم أمام بدء النهاية فصاروا يتراخون في القيام بواجباتهم نحوها، وامتد هذا التراخي إلى مظاهر اللياقة والاحترام فكانت تقف بينهم فيظلون جالسين أو تدخل عليهم فلا يقطعون حديثهم إجلالا لمقدمها، ثم أمعنوا في الاستهانة بها حتى استباحوا التهامس والمزاح في حضرتها وامتداح أعدائها أو ذم أصدقائها على مسمع

منها فكانت تجنب اجتماعاتهم جهد الإمكان والحسرة تمزق منها النفس وتقطع نياط القلب.

ويستبطئ المؤتمرون تصميم الإمبراطور فيلتف حوله إخوته وأخواته وينعون عليه حيرته وتردده ويصورون له المستقبل وما يحمله من أحداث ومفاجآت ويستحثون عزيمته ويتعجلون قراره، فإذا ما تململ أو حاول أن يصرف الحديث إلى موضوع آخر، حركوا في نفسه ذكريات الماضي البعيد وذكروه بأن هذه المرأة التي امتدت يده فانتزعها من براثن الفقر ومخالب الدائنين وأحضان باراس وغيره من العاشقين ورفعتها إلى عرش فرنسا ووضعت على مفرقها التاج، لم تصن عهده ولم تحفظ شرفه بل جعلت عرضه مضغة في الأفواه وكأسًا مدارة على الشاربين..

وتنهض تلك الذكريات الدفينة حية في قلب الإمبراطور، فيذكر أنه بينما كان يغزو إيطاليا فتنصب له أقواس النصر وتعقد على رأسه أكاليل الغار، كانت جوزفين الغادرة المستهترة تخونه في أحضان الضابط الشاب هيبوليت شارل، وأنه بينما كان يفتح مصر والأربعون قرنًا تطل عليه من أعلى الأهرام كانت قرون من نوع آخر تنبت في رأسه من جراء سلوك زوجته فتجعله في فرنسا هزؤة الهازئين وسخرية الساخرين — يذكر كل ذلك فتجيش نفسه وتتقزز عواطفه ويصمم على الطلاق، ولكن يسعفها الحظ المواتي بسلسلة عوائق تؤخر التنفيذ فيسافر الإمبراطور إلى إيطاليا ويعود منها مصابًا بالآم مبرحة في المعدة لعلها الأعراض الأولى للسرطان الذي يودي بحياته في سانت هيلانة. ونشبت مشكلة إخفاق

المفاوضات في أيرفورت ومشاكل أخرى عويصة في إسبانيا تستنفد اهتمامه ووقته، ثم تنشب الحرب بينه وبين النمسا فتصرفه عن فكرة الطلاق إلى حين، حتى إذا ما تم له النصر في موقعة فاجرام وعاد إلى باريس عاودته أحلام تخليد اسمه وإمبراطوريته فيتجدد عزمه وتصح نيته ويصارح زوجته برغبته في الطلاق

وكانت جوزفين تتوقع هذا اليوم وقد اتخذت له أهبته واستظهرت الدور الذي تمثله، فما أن سمعت تصريح زوجها حتى اعترتها أزمة عصبية فارتمت على الأرض تتلوى على بساط الغرفة وتبكي وتنتحب وتصيح ثم تخنقها العبرات ويغمى عليها وأتفقد الصواب، ولقد جاز التمثيل المتقن على نابليون فخاف وظن أن ثم خطرًا يتهدد حياتها فاستدعى المسيو ده بوسيه أحد أمنائه وظلا يعالجان إغماءها ويرطبان وجهها بالمال وينشقانها الأملاح وهي هامدة لا تفيق. ثم حملها الإمبراطور من ساقيها وحملها ده بوسيه من كتفيها وصعدا بها سلمًا ضيقًا مؤديًا إلى غرفة نومها فلما وصلا الى أحد منحنيات السلم وتأكدت أن زوجها لا يراها ولا يسمعها فتحت عينيها ونظرت إلى المسيو ده بوسيه وهمست قائلة: "إنك تضغظني بعنف وتؤلمني" ثم أغمضت عينيها وعادت إلى إغمائها..

بيد أن هذه الأزمات الصبية المصطنعة وثورات البكاء والتنحيب وما إليها إذا ألانت قلب الإمبراطور دقائق أو ساعات فهي لم تثن من عزمه ولم توهن إرادته بل جعلته يتعجل الحوادث ويوعز إلى مجلس النواب أن يتوجه إليه معبرا عن أمنية الأمة في أن يكون له وارث. ويخضع المجلس

للإيعاز ويوفد إليه هيئة من تحمل "أمنية الأمة" فيصرح لهم بأنه يحب شعبه ويعمل على تحقيق رغباته ويرى نفسه مستعدًا لتضحية عواطفه وميوله في سبيل إسعاد الشعب وتلبية مطالبه..

وسرعان ما يشرع رجال الدين وفقهاء القانون في بحث المسألة من ناحيتها الدينية والشرعية فيعمدون إلى السوابق ليستنبطوا منها حكم الله وحكم القانون فلا يلبثون حتى يعثروا على سوابق تبرر الطلاق، فقد طلق شارلمان زوجته، وكذلك فعل من بعده لويس الثاني عشر وهنري الرابع، على أن نابليون وهو واضع القوانين في فرنسا كان يعتبر نفسه فوق هذه القوانين فلا يجوز أن تسري أحكامها عليه، ويرى أن البت في علاقاته الزوجية أمر من اختصاص مجلس الأسرة الإمبراطورية ومجلس أعيان الدولة والسلطات الكنسية

واجتمع مجلس الأسرة في الخامس عشر من شهر ديسمبر سنة ١٨٠٩ تحت رياسة الإمبراطور مؤلفًا من "السيدة الوالدة" وأخويه لويس وجيروم وأختيه يولين وكارولين والملك موراه والأمير أوجين ابن جوزفين والملكة هورتانس. وفتح الباب ودخلت جوزفين تترنح من فرط الألم وتحاول أن تملك نفسها فخف الإمبراطور إلى استقبالها وأجلسها إلى جانبه وطيب خاطرها ثم ألقى بيانًا شرح فيه موقفه من زوجته والظروف التي تكرهه على الانفصال عنها وختمه بقوله: "إن حبي لفرنسا وحرصي على مستقبل أسرتي وإمبراطوريتي يمليان على واجبات لا سبيل لي إلى التنصل

منها ويحتمان فصم أعز الصلات على نفسي وتضحية أحب الناس إلى قلبي"

ولما انتهى نابليون من القاء بيانه نشرت جوزفين ورقة قرأت فيها ردًا على كلام زوجها ولكنها لم تذهب في تلاوتها طويلا حتى غلبها التأثر فبكت وخنقتها عبراتها فأعطت ابنها الورقة ليتم القراءة وقد جاء فيها:

"بعد استئذان زوجي العزيز العظيم، أصرح بأني – وقد فقدت كل أمل في أن أرزق غلامًا تتحقق به مرامي سياسية ومصالح وطني – يسرني أن أقدم لجلالته ولبلادي أعظم دليل من أدلة الحب والإخلاص التي يستطيع البشر تقديمها

"إنني مغمورة بنعم زوجي ومدينة له بكل شيء. فمذ امتدت يده الكريمة وتوجتني ورفعتني إلى العرش لم أصادف منه حتى اليوم إلا علامات الود والمحاسنة وأمارات العطف والمجاملة. فاعترافًا بهذه الأفضال وعرفانًا لتلك النعم أوافق على فسخ زواجي به، هذا الزواج الذي بات قيامه واستمراره عقبة في سبيل خير فرنسا إذ هو يحرمها حكم ذرية رجل عظيم ميمون أتاحته العناية الربانية ليدرأ عنها الآثار السيئة المختلفة من ثورة هائلة وليثبت فيها بعد هذه الثورة قوائم الدين والعرش والنظام الاجتماعي

"غير أن فسح هذا الزوج لن يغير شيئًا من عواطف قلبي، ولسوف يجد الإمبراطور في شخصي أخلص صديقة له. وإني وأنا أعلم أن هذا الأجواء الذي قضت به السياسة ومصالح الملك قد شق على نفسه وآلمها

أشعر أن كلا منا فخور بالتضحية الكبرى التي يقدم عليها ويبتغي بها وجه الوطن طائعًا مختارًا"

انتهى الفصل الأول من الرواية التي مثلها الإمبراطور وذووه وآن يرفع الستار عن الفصل الثاني في مسرح مجلس الأعيان. فتقدم أحد الأعضاء باقتراح يطلب فيه إلى المجلس إبرام قرار الإمبراطور وإعلان فسخ زواجه، فتناقش المجلس طويلا في مسألة الاختصاص وحاول بعض المتمسكين بأصول الدين أن يطعنوا ببطلان الطلاق ولكن اليد الحديدية التي كانت تسير أوربا كلها لم تكن لتقصر عن تسيير هذه الشرذمة من المتشرعين والثرثارين ولا لتعجز عن أن تنتزع منها القرار المطلوب، فبعد مناقشات بيزانطية ومجادلات صورية صدر قرار المجلس بأغلبية ستة وسبعين صوتًا ضد خمسة أصوات موافقًا على إعلان الطلاق وإنهاء العلاقة الزوجية القائمة بين الإمبراطور وزوجته. وأراد الأمير أوجين أن ينقذ كرامة أمه في هذا الموقف فصعد إلى المنبر وألقى خطابًا منمقًا قال في نهايته: "إن الدموع التي أذلها جلالة الإمبراطور والآلام النفسية التي قاساها ستظل دليلا قائمًا على مبلغ تقديره لوالدتي وتعلقه بها كما أنها سوف تظل مفخرة لها طول حياتها"

أما الفصل الثالث من الرواية فكان أخطرها شأنًا وأكثرها تعقيدًا، ذلك أن نابليون قد تزوج من جوزفين أول الأمر زواجًا مدنيًا لم تتدخل الكنيسة فيه، فلما جاء البابا من روما ليتوج الإمبراطور أفضت اليه بأمرها وصارحته بحقيقة نوع زواجها ورجت منه أن يصفي على هذا الزواج صبغته

الدينية. وإذ اقتنع الحبر الأقدس بوجاهة مطلب جوزفين أمر فأقيمت حفلة دينية كللها فيها تكليلا دينيًا صحيحًا فصارت علاقتها بزوجها علاقة شرعية لا تفصم ولا تفسخ إلا بموافقة الكنيسة الكاثوليكية..

ولكن البابا بيوس السابع الرئيس الأعلى للكثلكة معتقل في سافون بأمر نابليون وقد أصدر قرارًا بابويًا بحرمه وباعتباره خارجًا عن رعاية الكنيسة المقدسة فمن العبث أن يرجو منه الإمبراطور عدلا أو رحمة فما باله اذا طلب منه مجاملة لا تقرها أحكام الدين؟ إذن لا سبيل إلى استرضاء البابا ولا إلى الحصول على موافقته فلا مندوحة عن التوجه إلى الأكليروس الفرنسي حيث يجد نابليون قسًا أخف إلى طاعته وأسرع إلى تحقيق رغبته.

وانعقد مؤتمر من الكرادلة والأساقفة ظلوا يعالجون المسألة من شتى وجوهها فلم يجدوا من أحكام الدين ما يبرر الطلاق أو يسوغه، فحاولوا أن يتلمسوا في هوامش الدين ما يرضي السيد العنيد فلم يوفقوا. وأخيرًا أنفقت أذهانهم عن حيلة وجدوا فيها الخلاص فقرروا أن الإمبراطورة إذ سعت سعيها عمد البابا ليعقد عقد زواجها الشرعي قد أوقفت زوجها موقفًا لم يكن مخيرًا فيه أي أن التكليل قد تم على كره منه، وبما أن الإكراه الأدبي غير جائز فكل ما يترتب عليه باطل وعلى ذلك فهذا الزواج باطل.

ولكن كيف ترضى كرامة نابليون أن يقال أنه يخضع لإكراه أدبي أمام إرادة امرأة أو قسيس، وهو الذي يخضع أوربا كلها بكافة صنوف الإكراه! إذن لابد من الاحتيال بحيلة أخرى تنقذ الموقف، فيظل الكرادلة

والأساقفة يتشاورون إلى أن يمل الإمبراطور الانتظار وينفد منه الصبر فيوعز إليهم بالحل الذي استعصى عليهم فتقرر الهيئة الموقرة في سذاجة مضحكة: إن الزواج باطل شكلا لأنه لم يستوف الشروط والإجراءات التي تحتمها الكنيسة ثم يصدر الحكم بالطلاق مبنيًا على هذا السبب العجيب

هجرت جوزفين قصر التويلري إلى قصر المالميزون تسرح همومها وأحزانها في رياضه اليانعة وغاباته الواسعة وقد استلت رهطًا من الحاشية والأصدقاء والخدم لا يقل عددًا من الرهط الذي كان يحيط بها قبل طلاقها. وقد أراد الإمبراطور أن يخفف من وقع المصاب عليها فاستبقى لها لقب "الإمبراطورة" وما يستتبعه هذا اللقب من امتيازات. وبسط يده كل البسط في تقرير مخصصاتها إذ يربط لها مليونين من الفرنكات تتقاضاها كل سنة من خزانة الدولة ومليونين من خزانته الخاصة ومنحها قصر الإليزيه وقصر نافار وقصر المالميزون ملكًا لها ولم يغفل شيئًا حتى ديونها وكانت تربى على المليونين فدفعها للدائنين.

أما صلات نابليون بجوزفين بعد الطلاق فقد كثرت فيها الأقاويل وتعددت الظنون، بل لقد وجد فيها الروائيون موردًا فياضًا يستقي منه خيالهم الخصب أغرب القصص وأعجب الأساطير، إذا كان أكبر مؤرخي نابليون وهو فردريك ماسون يتحمس ويشهد الله والناس على أن الرجل ما كان يختلي بها أو يجالسها إلا على مرأى من الحاشية، فإن غيره من المؤرخين الذين لا يقلون عنه قدرًا يتسمون لهذا التأكيد ويتساءلون في مكر وسخرية: ألم يكن يزورها غير الزيارات الرسمية التي يتحدث عنها

المسيو ماسون؟ والذي نستطيع أن نؤكده وسط هذه المتناقضات هو أن الإمبراطورة ماري لويز زوجة نابليون الثانية قد ارتابت في الأمر وذهبت بها الغيرة والشكوك إلى حد جعلها تطلب منه أن يبعد جوزفين عن المالميزون لقربه من باريس وأنه ألح عليها بنفسه وبواسطة أوجين وأورتانس حتى ارتحلت إلى قصر نافار في الريف البعيد

ولعمري لم يكن نابليون مخطئًا إذ كان يحسب حظه من حظ جوزفين ويتفاءل بها ويعتبرها نجمة المشرق في الحياة، فلقد تزوج بها وهو بعد ضابط في المدفعية صغير فما زال يرقى سلم المجد درجة درجة ويسجل في ميادين القتال نصرًا باهرًا فوق نصر باهر حتى اقتعد العرش ولبس تاج شارلمان، فما هو أن هجرها حتى قلب له الدهر ظهر المجن فتتابعت الكوارث وتوالت الشدائد فمن حملة الروسيا المشئومة إلى معركة ليبزج ومن التنازل عن العرش إلى المنفى في جزيرة ألبا إلى واترلو ثم إلى سانت هيلانة فالقبر بعد استشهاد طويل وعذاب مؤلم مرير

ولقد حفظ نابليون لجوزفين في أعماقه ذكرى طيبة لم يضعف منها بعد المزار ولا كر السنين، ولا عجب فقد تغلغل حب هذه المرأة في نفسه حتى تغلب فيها على كل عاطفة وعلى كل اعتبار وحتى جعله يصفح عن زلاتها وإسرافها وسوء سلوكها وعن تمزيقها عرضه في غير ما حياء ولا مبالاة. فهل عرفت له هذه المستهترة حبه وهل قدرت ذلك العطف الذي طالما حباها به وهل رقت لمصابه أو حفظت له بعض العهد وهو طريد في أوروبا وسجين جزيرة ألبا؟ لا والله فما إن دخل ملوك الحلفاء باريس حتى

عادت الى قصر المالميزون تستقبل فيه أعداء زوجها وتقيم لهم المآدب والمراقص والحفلات وتغدق على الإمبراطور إسكندر قيصر الروسيا بسماتها وتغريه ببقية جمالها وتتحبب إليه وتتجمل له وتحاول أن تجد فيه عونًا قويًا لها عند تقرير مآلها والبت في أمرها. بيد أن القيصر كان في شغل عنها بابنتها أورتانس، فبينما كانت المسكينة تظن أنها المقصودة بزيارته وتودده، كان ينصب الشباك ليتصيد قلب أورتانس الجميلة الشهية الغصة الشباب

ولقد أرادت جوزفين ذات يوم أن تبدو لصديقها الجديد في أجمل زينتها وأحسن حالاتها، فأقامت مرقصًا دعته إليه ولبست ثوبًا خفيفًا أبدعته أيدي أمهر مستحدثي الأزياء، تجلى فيه حسن قوامها ولطف اعتدالها، وظلت طوال السهرة تراقصه وتترامى عليه ثم خرجت به إلى خلوة في حديقة القصر فأصابها برد ألزمها الفراش واشتدت بها الحمى وتوالت مضاعفاتها فقضت نحبها ضحية شهوتين لم تعرف غيرهما في الحياة: شهوة الزينة، وشهوة فتنة الرجال.

نابليون ينتحر

في ليلة التاسع والعشرين من شهر مارس سنة ١٨١٤ كان الإمبراطور نابليون الأول معسكرًا مع فلول جيشه في قرية تبعد عن باريس بستين مرحلة، وقد قضى ليلته مكبًا على خرائط بسطها أمامه وجعل يغرس في بعض نواحيها دبابيس ذات رءوس مختلفة الألوان ترمز إلى مواقع جيشه ومواقع جيوش أوربا المتحالفة عليه الزاحفة نحو باريس بعد أن هزمته في معركة "دارسي" وانفتحت أمامها الطرق إلى عاصمة الإمبراطورية الفرنساوية

أمضى نابليون ليلته يرسم الخطة تلو الخطة ويقارن بين هذه وتلك ويجهد فكره المتعب ليعرف أي خططه الأصوب: أيهرع بفلول جيشه إلى باريس عسى أن يسبق جيوش الحلفاء إليها فيرتب فيها وسائل المقاومة؟ أم يذهب إلى شرق فرنسا فيضم إليه القوى المرابطة بإقليم اللورين ويطوق الحلفاء من الخلف ويضربهم الضربة القاضية؟

ولكن الإمبراطور كان مترددًا، وكأن توقد ذهنه ونفاذ بصيرته ورهافة رأيه وسرعة إدراكه للأشياء والحكم عليها وصحة تقديره للمواقف واختيار أوفقها – كأن كل هذه المواهب التي لم تجتمع في جندي قبله ولا بعده بقدر ما اجتمعت فيه، قد خانته في تلك الليلة فبقي مترددًا حيران لا يطمئن إلى خطة ولا يستقر عند رأي..

ولعمري كيف لا يضطرب هذا الرجل وقد أمضى اثنين وستين يومًا في معركة دائمة ونشاط متواصل لا يذوق النوم إلا لمامًا ولا يمنح جسمه إلا الضروري من الراحة، تعتوره حمى العمل فيرهق قواه في خدمة عبقريته، ويذيب مواهبه في تحقيق مطامعه، ويرى السهل الميسور فيما يراه الجبابرة حلمًا بعيد المنال، ثم ينثني على نفسه فيحملها مالا تطيقه نفوس البشر، ويلهب عقله ونشاطه في تدبير مشروعات تتقاعس أمام تصورها أقدر العقول وأمضى الهمم، ويتنقل ببقايا جيش منكسر منهوك من مكان إلى مكان في خفة وسرعة تدهشان العدو حتى ليحسبهما من الخوارق والمعجزات؛ فبينما يتعقبه هذا العدو عند حدود بورجونيا، إذا هو يدفع جيوشه إلى بيكارديا ثم هو يسوقها في الغد من شاطئ نهر الراين إلى شاطئ نهر الأوب ليصبح بها عند المارن، وهو في خلال هذه الاثنين والستين يومًا يحارب حرب المستميت بشراذم من الرجال هي البقية الباقية من جيشه العظيم ضد ثلثمائة ألف جردتها أوربا المتحالفة لتقضي بها عليه!؟

عند بزوغ الشمس كان نابليون فوق جواده وأركان حربه يجهلون ما اعتزم من خطة للسير فساروا وراءه حتى بلغ قرية دولانكور حيث أمر الجيش بالاستراحة ريثما تمد فرقة الأشغال العسكرية قنطرة عبر نهير الأوب. وهناك في وسط سهل فسيح جلس الإمبراطور ينتظر البريد الذي ما لبث أن وافاه فإذا هو يحمل إليه رسائل من أخيه جوزيف ومن الجنرال كلارك وزير الحربية وكان قد عهد إليهما الدفاع عن باريس فانقطعت عنه أخبارهما منذ ثلاثة أيام.

علم الإمبراطور من الرسائل أن بلدة "مو" وقعت في يد العدو وأن القائدين مارمون ومورتييه ينجليان عن باريس. وكأن الأنباء السيئة كانت بمثابة صيحة من عاصمته تستدعيه إليها فزال تردده واضطرابه، وقرر أن يهرع إليها بلا إبطاء فأوفد أحد ياورانه ليبشر أهل باريس بقدومه معتزمًا أن يقطع المسافة في أربع وعشرين ساعة

وصدر الأمر للجيش بالمسير فحمل الجنود المتعبون سلاحهم وأمتعتهم وساروا وراءه مستسلمين لهذه الإرادة العاتية، مدفوعين بقوة هذه الشخصية الأمارة الساحرة، ساروا يجوبون السهل والوعر حتى قطعوا سبع عشرة مرحلة كاملة. فلما انتصف الليل وأعياهم السير وعجزت أرجلهم عن حمل أبدانهم ارتموا على الأرض شاخصين نحو سيدهم وكأنهم يسألونه المعذرة. أما الإمبراطور فانقاد لفكرته واستمر في طريقه إلى العاصمة يحيط به فريق من أركان الحرب وضباط الياوران. وإذا بلغوا أول قرية توقف قليلًا ريثما يكتب الأمر العام بأن تلحقه سائر جيوش الإمبراطورية لتنضم اليه في أصبوحة اليوم الثاني من شهر أبريل بالقرب من باريس. ثم استأنف الرحلة في عربة أخذت تنهب الأرض وتطوي المراحل وهو غير مبال بأصحابه الذين يركضون وراءه وقد تراخت أطرافهم وانطبقت أجفانهم وهم يتساءلون: أما لهذا العذاب من آخر؟

وصل نابليون إلى فونتنبلو بضواحي باريس، وكان الليل قد بدأ يرخي سدوله، أخذ الضباط يتهيأون للمبيت، وأخذ الإمبراطور يفض الرسائل التي وافته هناك فعلم أن أخاه جوزيف والإمبراطورة وابنه الصغير

ملك روما قد رحلوا عن العاصمة والتجأوا إلى ضاحية رامبوييه وأن جيوش الروسيا وبروسيا قد احتلت بعض الأرباض المحيطة بباريس. وكأن هذه الأنباء قد استفزت حميته فهب من مقعده وأصدر الأمر بتغيير جياد العربة استعدادًا لاستئناف السير مؤملا أن تنجح حامية باريس في صد العدو أو في الثبات على المقاومة حتى يصل إليها في الوقت المناسب فينقذ الموقف..

وجلس في العربة شاخصًا نحو الأفق شزرًا كأنه يتحدى القدر أو يود لو تنعدم المسافات تحت أرجل الخيل، وإذا كوكبة من الفرسان مقبلة فأمر السائق بالوقوف ونزل ليتعرف القادمين ثم صاح: "قفوا" وعرف الفرسان هذا الصوت الذي طالما ألفوه، فترجل قائدهم الجنرال بليار وتقدم نحو الإمبراطور فتلقاه بوابل من أسئلة لم ينتظر الجواب على واحد منها: "لماذا أتيتم. وأين جيوش العدو الآن؟ ومن القائد الذي يدافع عن باريس؟.. وأين الإمبراطورة؟ وابني؟ وأخي جوزيف، والجنرال كلارك؟. وماذا فعلت حامية المدينة؟.. وجنودي.. ومدافعي"

وكان بليار يحمل إلى سيده أسوأ الأنباء، فلم يجرؤ على مصارحته بحقيقة الحال، فجعل يرتجل المقدمات ويلف حول الأسئلة ولا يجيب عنها، والإمبراطور يستحثه على الكلام، ثم أراد الله به خيرًا فساق إليه في تلك اللحظة الدوق كولانكور كبير الأمناء في رهط من أركان الحرب فانصرف إليهم نابليون يسألهم في لهفة وقلق عما آلت إليه الحالة في باريس، فأفضى إليه كولانكور بأنه غادر المدينة أمس وكانت الحالة فيها أسوأ ما يمكن أن

تكون فلقد انسحبت الحامية ولم يبق إلا بعض وحدات فرق الحرس الوطني. وقد طوق العدو العاصمة من أكثر من ناحية، وأغلب الظن أنه احتلها في المساء. وأضاف الدوق الى ذلك أن الحالة المعنوية في الجيش لا تدعو إلى الارتياح، وأن القواد لا يرون فائدة من استمرار القتال بل يشيرون بالتسليم..

استمع نابليون إلى هذه الأنباء في شيء يشبه الذهول وأطرق برأسه مليًا ثم قال: "إذن فقد تعين الذهاب إلى باريس في الحال. إن المكان الذي أغيب عنه لا يمكن إلا أن تسوء الأحوال فيه" فاعترض كولانكور بأن الإمبراطور يعرض نفسه بهذه المجازفة لأن يقع أسيرًا في أيدي القوات الروسية والبروسية. ولم يعر نابليون هذا الاعتراض أي التفات، وصاح: "ليكن من الأمر ما يمكن فلا بد من الذهاب إلى باريس. سأدخل المدينة وسآمر بدق النواقيس في جميع الكنائس وبإضاءة الأنوار في جميع المنازل. وسأدعو السكان إلى حمل السلاح وإلى المقاومة حتى النهاية. ماذا! مدينة فيها ثمانمائة ألف ساكن تسلم نفسها بلا حرب ولا مقاومة. إن هذا لعجيب!"

وتناول الإمبراطور خريطة لمدينة باريس وضواحيها وعكف على دراستها، وبعد أن قاس بعض الأبعاد ورسم بإصبعه خطوطًا في الهواء، نظر إلى رجاله متهللا وقال: "لا موجب لليأس يا سادة ففي الإمكان تدارك ما فات، ولكن يجب أن نكون بباريس آخر النهار.. إليّ بعربتي واتبعوني يا سادة"

ألا ليت شعري من ظن هذا الجبار الذي لبث عشرين عامًا يأتي بالمعجزات أن الحظ سيظل مواتيه، وأن الزمن من سيدأب خاضعًا لأوامره ونواهيه، وأن ما عليه إلا أن يشير الى عاصي القدر فيخضع ويطيع!. وإلا فعلام كان يعتمد، وماذا كان في يده من عوامل النصر بل من دواعي الثقة بالمستقبل القريب أو البعيد؟ ولكن رجل "مارنجو" وبطل "استرليتز" ما كان يعرف معنى لكلمة "المستحيل"، لذلك ركب عربته وهو يبتسم لأعوانه ابتسامة الواثق من نفسه وأمر السائق بالمسير

بيد أن التقارير كانت تخبئ لهذا المتفائل ما ليس في الحسبان إذ ما سارت به العربة قليلا حتى أقبلت عليه شرذمة من الخيالة ترجل قائدها وتقدم نحوه وحياه، فسأله الإمبراطور عن سبب قدومه فأخبره أن باريس قد سلمت نفسها للعدو وأن الحكومة قد أمضت في الصباح اتفاقية التسليم..

عندئذ صرخ الأمل وانهار، وتهدمت في لحظة كل الخطط والتدابير، وأيقن نابليون أن العناية قد تخلت عنه وأن الخصومة لم تكن بينه وبين أوربا، وإنما كانت بينه وبين الله، فأحنى رأسه وقد علا وجهه الاصفرار ونزل من عربته ونظر فيمن حوله كالمشدوه وقال بصوت خائر متصدع: "لقد خاب الأمل!". وشبك يديه خلف ظهره وسار متثاقلا في مشيته بضع خطوات حتى وجد حجرًا عاليًا فجلس عليه وستر جبينه بكفه، وكان رجاله يظنون أنه يفكر، ولكنه إذ يرفع يده عن وجهه نظروا فرأوا الدموع تترقرق

في عينيه فأحنوا الرءوس نحو الأرض خشوعًا وأطرقوا إكبارًا لتلك الدمعة المتساقطة من عين لم تعرف البكاء..

ولكن أنى لليأس أن يعرف طريقه إلى هذه النفس الكبيرة، وأنى للوهن أن يتطرق إلى تلك الهمة القعساء؟ لقد كان يشعر في هذه اللحظة أن الأرض تهوي من تحت قدميه وأن الأسباب تقطعت به وأن أبواب الأمل أوصدت في وجهه، فلم يبق أمامه إلا الاستسلام لحكم القدر والخضوع لقضاء الله، ولكنه في الوقت نفسه كان لا يصدق أن نجمه قد أفل ولا أن طاقة المقادير تستطيع أن تعرقل عمله أو أن تناصبه العداء. ونهض الإمبراطور من جلسته وقال لمن معه: "سننظر في كل ذلك يا سادة، والآن دلوني على مكان آوي إليه"

كان نابليون يرى أن الحرب بينه وبين أوربا المتحالفة عليه لم تنته بعد فأخذ يعد العدة ويمهد لإعادة تنظيم الجيش ويفحص بنظراته السريعة وبديهته المرهفة حالة عدائه. ولقد تراءى له أن جيوش العدو قد رابطت في ثلاث جهات متنائية وأن وقوفها مبعثرة على هذا الشكل قد استهدفت لهجماته ويسرت له سبيل الفوز عليها، لذلك ما حل ركابه بقصر فونتنبلو حتى أخذ يزور مواقع فرق الجيوش الفرنسية مبتدئًا بجيش الماريشال مارمون الذي كان بعد أن غادر باريس قد رابط بمدينة آيسون. ولقد تجددت الآمال في نفسه بعد ما رآه من حماسة الجنود ونشاط الضباط وبعد ما شاهده من تضخم الجيش بفضل إقبال الأهالي على التطوع والانضواء تحت الأعلام. وازداد أملا بل يقينًا لما وصلت إليه فرقة الحرس القديم

وفرقة الحرس الجديد وفرقتا القائدين فريان وهنريون. وإذا اكتمل لديه هذا الجيش عرضه في ساحة فونتبلو وخطبهم بكلمة تناسب المقام ختمها بقوله: "وغدًا إلى باريس!" فقابلها الجيش هاتفًا: "ليحيا الإمبراطور!.. إلى باريس"

بيد أن نابليون كان يرى والحسرة تنهش فؤاده أن كبار قواد الجيش لا يشاطرون الجنود هذه الروح الطيبة ولا يشاركونهم في التفاؤل بالمستقبل السعيد، بل لقد كان يرى روح التذمر تدب في أولئك القواد وبوادر التمرد والعصيان تتجلى في حركاتهم وأقوالهم، لذلك كان يعرض عنهم ولا يشاورهم في الأمر، ولكنهم لما سمعوه يضرب لهم الغد موعدًا للتلاقي عند مداخل باريس وأيقنوا أنه ماض في طريق المقاومة واستئناف القتال لا يثنيه عنهما شيء، اجتمعوا تلك الليلة في إحدى الغرف المجاورة لمخدعه بالقصر وعقدوا مؤتمرًا يبحثون فيه الحالة ويحددون موقفهم من الإمبراطور وظلوا يتساءلون: "ماذا يريد هذا الرجل العنيد؟ والى أين يسوق فرنسا؟ وعلام يعتمد؟ وإلى أية غاية يريد أن يصل؟ وماذا هي وسائله لبلوغ غايته؟" واندفع الماريشال ناي فقال: "لو أن هناك أملا يرجى من مقاومة الحلفاء لقاومناهم. أما وليس ثم بريق من الأمل. فإنا قد سئمنا المعارك وسئمنا الطاعة العمياء والسير وراء هذا الرجل في ظلام خططه وأساليبه.. إن ما يريده منا نابليون لكثير وفوق ما تطيقه النفوس. إنه لا يطلب منا الطاعة ولكنه يفرض علينا العبودية والاستسلام، وهذا ما لا نرضاه. إنه يشعر أنه لا محالة ساقط في الهوة المفتوحة أمامه فهو يريد في سقوطه أن يحتضن كل شيء ليضيع معه كل شيء. لقد استوفى الإمبراطور حظه فعليه أن يستقبل وحده مصيره إلى النهاية"

ألا ليت شعري ما أقل الوفاء في الناس! من هم أولئك القواد الذين اجتمعوا ليأتمروا بنابليون؟ هم لوفيفر زوج الغسالة التي غرفت فيما بعد باسم "السيدة التي لا تتحرج" " Madam Sans –Gêne " والتي كانت أضحوكة رجال البلاط الإمبراطوري ونسائه، لوفيفر الذي رفعه نابليون من الحضيض إلى رتبة الماريشال وناي الذي لم يكن شيئًا مذكورًا فجعله نابليون قائدًا فماريشالا فأميرًا، وكان يلقبه بلقب "بطل الأبطال"، وبرتييه ومونسي وغيرهم وغيرهم ممن خلقهم نابليون خلقًا وسواهم عظماء بين مواطنيهم ورفع مقامهم بين الناس. وكأني بأولئك الرجال قد أنستهم أثوابهم الموشاة بالذهب والمحلاة بالأوسمة والنياشين، تلك الثياب الخشنة التي كانوا يلبسونها وهم جنود أو ضباط صغار قبل أن يأتي نابليون فيرفعهم إلى ذروة المجد، وكأني بهم قد نسوا أنه لولا هذا العبقري الذي جلسوا ليصارحوه بالعصيان لما ارتفع لواحد منهم اسم ولا نبه له ذكر ولعاشوا وماتوا نكرات..

ولم يكتف الماريشال ناي بخطبته الملتهبة بل جذب زملاءه وراءه ودخل على الإمبراطور في مكتبه وجابهه في غير تلعثم ولا حياء قائلا: "يا مولاي إن الحكمة تقضي ألا تتقدم في مشروعك خطوة إلى الأمام، إن حالتك حالة مريض لا يرجى له شفاء، فيجب أن تكتب وصيتك وأن تتنازل اليوم عن العرش لابنك" ولقد استمع نابليون إلى هذه القحة في صمت يشبه الوجوم ثم رفع بصره إلى ناي فانبعث من عينيه ذلك البريق الذي كانت العيون لا تستطيع أن تحدق فيه، ولكن الماريشال لم ير بدًا من إتمام فكرته فاستطرد قائلا: "إن مصلحتك يا مولاي ومصلحة فرنسا

تحتمان ذلك..." وعندئذ ضرب نابليون مكتبه بقبضة يده ضربة هائلة وصاح: "كفى"، وكأن هذه الصيحة ذكرت الماريشال ذلك الفرق الشايع الذي يفصل ما بين ضعته وسمو مكانة الإمبراطور، ولكن المأساة عادت فتكررت في اليوم التالي إذ اجتمع المراشلة في حجرة المائدة ودخل عليهم الإمبراطور عابس الوجه مقطب الجبين تحيط بعينيه هالة من السواد هي من أثر التعب والإجهاد والسهر الطويل، فأمرهم بالجلوس وأخذ يلتهم الطعام وهو مشرد الفكر بدون أن يقول كلمة. أما المراشلة المؤتمرون فلبثوا ساكتين كأن طلعة نابليون قد ألجمت أفواههم، ولو أنهم كانوا مازالوا مصرين على العصيان. ولقد أدرك الإمبراطور ما في قرارة نفوسهم وفهم أن أولئك الرجال الذين أفاض عليهم الأسماء والألقاب والنياشين والرتب والمجد والمال قد أصبحوا يضنون بشيء من هذا الذي أفاض عليهم أن يضحوه في سبيل إنقاذ سيدهم ووطنهم، فلما مر ذلك في ذهن نابليون وأيقن أن رجاله باتوا يحسبونه النجم الآفل ويتأهبون لاستقبال الشمس المشرقة في شخص الملك لويس الثامن عشر، أيقن لأول مرة في حياته أن الخاتمة قد دنت وأنه قد غلب على أمره ولم يبق أمامه سوى التسليم..

انتهى نابليون من طعامه ونهض إلى غرفة الاستقبال ودعا المراشلة فوقفوا حوله مطأطئ الرءوس كأن أدمغتهم لا تقوى على أن تنهض بعبء الخيانة التي تختمر فيها، وصار الإمبراطور يذهب ويجئ في وسطهم ويداه مشتبكتان وراء ظهره، وهو يحاول أن يكظم ثورة الغيظ المتأججة في نفسه ثم تفرس في وجوههم مليًا وتساقطت من فمه هذه الكلمات الرهيبة: "إني مستعد للتضحية العظمى وإني متنازل عن عرش فرنسا". وتناول دوق

كولانكور كبير الأمناء من سيده وثيقة التنازل، وهذا نصها: "لما كانت الدول المتحالفة قد أعلنت أن الإمبراطور نابليون هو العقبة الوحيدة في سبيل إعادة السلام والأمن إلى أوربا، فإن الإمبراطور نابليون – محافظة على اليمين التي أقسمها – يعلن أنه مستعد للتنازل عن عرش فرنسا ولمغادرة وطنه ولتضحية حياته في سبيل مصلحة هذا الوطن، على أن يكون مفهومًا أنه لا سبيل إلى التفريق بين مصلحة فرنسا وحقوق ابنه وحقوق الإمبراطورة في القوامة على العرش للمحافظة على الإمبراطورية وقوانينها "صدر عن قصر فونتنبلو في ٤ أبريل سنة ١٨١٤"

بيد أن هذه الوثيقة التي انتزعها من نابليون خدام مجده وصنائع عظمته، وصلت إلى أيدي الملوك المتحالفين في الوقت الذي كان فيه الجنرال مارمون قد سلم نفسه وجيشه للعدو، لذلك كان طبيعيًا أن لا يكتفي الحلفاء بهذا القدر من التضحية، وأن يطلبوا المزيد، ولقد طلبوا ألا يقتصر التنازل على شخص الإمبراطور، وأوجبوا أن يتنازل عن حقوق الابن في عرش أبيه..

وأعاد المراسلة الكرة على نابليون وأوضح له الماريشال ناي أن الوقت لا يتسع للمساومة، وأن الحالة تقضي بالاستسلام، فقابل الإمبراطور أقوالهم بفتور له أأدب صور الاحتقار، واستمع إليهم فيصمت هو أبلغ أنواع المقت والاستصغار. ثم عاودته أحلامه وأمانيه، فحاول مرة أخرى أن يلهب في نفوسهم تلك الشعلة التي أوصلتهم تحت قيادته إلى ذروة المجد والعظمة، وأخذ يشرح لهم خطته وهي تتلخص في أن يذهب مع

الفرق التي بقيت موالية له من جيشه إلى إيطاليا حيث يعبئ الجيوش ويعود إلى فرنسا لينقذ الوطن من براثن العدو، وكان يتكلم في لهجة الواثق من نفسه المطمئن إلى خطته، وكلما آنس منهم تشككًا أو ارتيابًا قال لهم: "إني أعرف من أمور الحرب وأصول قيادة الرجال ما لا تعرفون. وإذا كنا قد أتينا معًا حتى اليوم بالمعجزات في ساحات القتال فكيف تستعظمون عليَّ مثل هذا المشروع على ما هو عليه من سهولة في التنفيذ؟

ولكن القضاء كان قد حم، وأبت قدرة الله إلا أن تتجلى في إذلال هذا الجبار المتمرد على سنن الكون ومشيئة القدر، فلم يستمع إليه رجاله وكانوا قد بيتوا رأيهم وحزموا أمرهم فأعرضوا عنه بالسمع والبصر. وهنا رأى نابليون أن الحظ يعبس له وأن كل شئ يهوي من تحت قدميه، فاستولى عليه يأس شديد وتناول القلم وكتب وثيقة التنازل الشاملة حقوقه وحقوق ابنه في عرش فرنسا، ودفعها إليهم وهو يقول: "ما دمتم تريدون الراحة في الذلة، والسعادة في المسكنة، فإليكم ما تشاءون"

حدث ذلك في اليوم السادس من شهر أبريل، وكان مجلس الشيوخ قد أعلن في صباح اليوم البارح تنصيب لويس الثامن عشر ملكًا على فرنسا، فبدأ قصر فونتنبلو يصفر ممن كان يموج بهم أمس إذ سرعان ما أعرض القوم عن المجد المتهدم ليستعرضوا العهد الناهض وسرعان ما هجروا نابليون الذي لم يصبح شيئًا، ليستقبلوا الملك الجديد الذي أصبح كل شيء

ولقد كان نابليون ينظر إلى كل ذلك وفي نفسه حسرة يغالبها فتغلبه، حتى لقد أفضى إلى دوق كولانكور – وهو أحد القليلين الذين ظلوا موالين له – فقال: "إني ليخجلني أن أرى أولئك الرجال الذين رفعتهم إلى الذروة العالية، ينزلون أنفسهم بأيديهم إلى هذا الحضيض السافل. وما الذي يقوله ملوك أوربا الآن عندما تتراءى لهم هذه الخسة في نفوس رجال هم أعلام دولتي وقوائم عرشي ودعائم سلطتي؟. مهما يكن من الأمر يا كولانكور ومهما تنكر لي قومي وناسي، فإن كل ما يشين فرنسا يشينني لأني أشعر أني قد أفنيت نفسي في شخصية فرنسا، وأفنيت فرنسا في شخصيتي حتى بت أنا وهي شيئًا واحدًا لا سبيل إلى تجزئته"

ومضت أيام كان نابليون خلالها لا يفعل شيئًا وهو الذي لم يألف الراحة والسكون فكان يقطع الوقت وهو يطل من نافذة القصر على الحديقة شاخصًا بعينيه نحو الأفق البعيد كمن يتعقب ببصره الحظ وقد أفلت من يده وولى الأدبار، وكان وجهه قد شحب وظهرت الغضون على أساريره واستولى الهم على نفسه حتى طغى فيها على كل شيء فاستسلم للمقادير ولبث ينتظر أن تتم آية الله فيه..

وفي الحادي عشر من أبريل أبرم ملوك الحلفاء مع حكومة فرنسا الملكية اتفاقًا ينص على منح الإمبراطور السابق جزيرة "البا" الصغيرة ملكًا له، يقيم بها على أن يتبعه إليها جيش صغير مؤلف من أربعمائة جندي يختارهم من بين فرقة الحرس الإمبراطوري. ولما أبلغ هذا الاتفاق إلى نابليون لم يأبه له ولم يعلق عليه برأي، حتى لقد خيل إلى محدثيه أنه قطع كل صلة

تربطه بهذا العالم وبما يجري فيه، وإنه بات يرتقب شيئًا أو حدثًا مجهولا لا يعرفه هو ولا يعرفه أحد سواه.

وفي اللية الواقعة بين ١٢ و ١٣ أبريل آوى الخادم كونستان إلى غرفته الكائنة فوق مخدع الإمبراطور بعد أن عاون سيده على خلع ثيابه، وبعد أن غادره وهو يتأهب النوم قبيل نصف الليل. وما كاد كونستان يستقر في فراشه وأغمض عينيه حتى أحس قدمين تسرعان نحو غرفته وإذا زميله بيلار – وكان عليه الدور في هذه الليلة لخدمة الإمبراطور – يدفع الباب بقوة ويدخل وعلامات الذعر بادية على وجهه، وقد جحظت عيناه وانقلبت سحنته وجعل يقول في عبارات مضطربة متقطعة: اسمع يا كونستان.. انصت جيدًا.. ألا تسمع شيئًا؟.. لست أدري ماذا فعل الإمبراطور بنفسه. لقد رأيته يذيب مسحوقًا في قدح ماء ويشربه ثم سمعته بعد ذلك يتأوه ويشهق، ولم يدع كونستان زميله يتم كلامه بل جذبه وجرى به الى مخدع سيدهما حيث وجداه مستلقيًا على السرير وقد احتضن الوسادة وغطى وجهه وهو يتقلب تقلبات عنيفة ويبعث من صدره زفيرًا ينم على ألم عظيم.

وكان الدكتور إيفان طبيب الإمبراطور الخاص مقيمًا تلك الليلة بالقصر، فأسرع إليه كونستان وأيقظه كما أيقظ الدوق ده كولانكور كبير الأمناء، فلما أبصر نابليون طبيبه ابتدره قائلا: "أظن أن الجرعة كافية يا إيفان" فنظر الطبيب إلى أرض الغرفة فرأى كيسًا صغيرًا من الورق المشمع وقدحًا فارغًا فأدرك أن في الأمر شيئًا، ولم يكن يدري أن الإمبراطور

نابليون كان يحمل دائمًا في معاركه الحربية كيسًا صغيرًا يحتوي على مسحوق سام، وأنه كثيرًا ما كان يضع يده على جيب سترته ويقول: "إذا كتب عليّ أن أقع أسيرًا في يد العدو فلست أخشى شيئًا لأن مصيري في هذا الجيب".. ولقد ذعر دوق كولانكور إذ رأى شحوب وجه سيده، وانقباض أساريره، والعرق البارد المتصبب من رأسه، فركع على إحدى ركبتيه، وتناول يد الإمبراطور وسأله ما به فقال نابليون: "لم أعد أستطيع البقاء يا صديقي وسأموت الآن فأوصيك بابني وبزوجتي وأرجو أن تدافع عن ذكراي"

وأقبل الطبيب بقدح من الشاي الساخن، وطلب من الإمبراطور أن يشربه فأبى، فاستعاذ بكبير الأمناء وألحا عليه وكانا كلما ازدادا إلحاحًا ازداد تأبيًا وأشاح عنهما بوجهه قائلا: "دعا هذا فلست أريد الحياة" ثم جحظت عيناه وخرج الزبد من شدقيه وبدأت البرودة تدب من أطرافه إلى جسمه فارتمى على الفراش ساجي الطرف يكاد لا يعي. وانتهز الطبيب الفرصة وأدنى القدح من شفتي المريض المحتضر وصب الشاي فيهما صبًا، ثم انقضت هنيهة انتفضت على أثرها أطراف الإمبراطور واعتراه قئ شديد سقط بعده على الوسادة لا يقوى على النطق بكلمة..

وجهز الطبيب عقارًا آخر وقدمه لنابليون ليشربه فأشار بيده رافضًا، فهمس إيفان في أذن كولانكور: "إذا لم يشرب هذا فلا حيلة لي فيه". وعندئذ تقدم كبير الأمناء وظل يتوسل إلى سيده وتناول الكأس من يد الطبيب وقربها من شفتي سيده قائلا: "يا مولاي أستحلفك بابنك

وبالإمبراطورة وبفرنسا التي لا تزال ترجو الخلاص على يديك، أستحلفك أن تشرب فإن حياتك ليست ملكًا لك وحدك. أرجو أن تساعدنا على إنقاذك. ابنك يريد ذلك وزوجتك وجنودك الذين يحبونك ويعبدونك يضرعون إليك أن تشرب"، وكأنه كان لهذه الكلمات سحر خاص فأفاق نابليون من غيبوبته ونظر إلى ما حوله نظرة بلهاء وتمتم بين شفتيه: "فرنسا.. ابني.. زوجتي.." وتناول الكأس وشربها على جرعات متواليات فكانت نفسه تجيش وتعتريه نوبات قئ إلى أن لانت أطرافه المتصلبة وانفرجت أسارير وجهه فاستلقى على السرير مرة أخرى وأخذته سنة من النوم.

وسهر الطبيب والدوق إلى جانب المريض حتى دقت الساعة الرابعة من الصباح. وهنا اعترت نابليون انتفاضات عصبية استيقظ بعدها بعينين غائرتين ووجه ينم اصفراره على ما قاساه الجسم من الألم المبرح، فأدار نظره فيما حوله وقال بصوت خائر متهدج: "كل شئ يخونني ويتخلى عني حتى الموت!" وحاول كولانكور أن يرفه عنه بكلمات ويسري عنه بعض الهم، فقاطعه قائلا:

"ليس ضياع عرشي هو الذي يؤلمني، بل الذي يجعلني أبغض الحياة إنما هو ما رأيته من نذالة الناس وحطة نفوسهم ونكرانهم للجميل. إنني إزاء ما لقيته من جبن رجالي ووقاحتهم قد تقززت نفسي ولم أجد سبيلا إلى الراحة سوى الموت. إن الذي قاسيته في هذه الأيام شيء فظيع، شيء لا يمكن أن يدركه الناس ولا أن يفهموه، أواه يا كولانكور لو كنت تدري!"

ونهض الإمبراطور من سريره مثاقلا، وأزاح أستار النافذة وكان سواد الليل ينقشع فلبث ينظر من النافذة هنيهة ثم عاد واعتمد رأسه بين يديه وقال: "مضت علي أوقات يا كولانكور كنت أحس فيها أن صوابي فارقني وأني جننت.. نعم كنت أحس في رأسي حرارة مستعرة تكاد تلهبه فكنت أمسك رأسي بيدي هكذا كأني أحبس فيه عقلي حتى لا يطير. أعوذ بالله من الجنون.. أنه لأحط ما يصاب به إنسان.. فما بالك برجل مثلي؟ إني لأفضل الموت على الجنون ألف مرة"

ولم تمض بعد تلك الليلة أيام حتى كانت العزلة التي يعيش فيها الإمبراطور قد تمت، فإن إخوته وأخواته وابنه وزوجته لم يعودوا إليه. وكبار قواد الجيش هجروه من غير توديع ولا استئذان، حتى طبيبه إيفان وخادمه كونستان ومملوكه رستم فقد اختفوا فجأة هم الآخرون. وهكذا بقي نابليون وحيدًا لا يأتنس إلا بمحادثة صديقه الوفي كولانكور خلال ساعات قصيرة من النهار..

بيد أنه إذا كان كبار رجال الدولة والجيش قد هرولوا ليعرضوا خدماتهم على الملك الجديد؛ فقد بقي بنابليون رجال حرسه، وهؤلاء لبثوا على وفائهم ولم يفارقوه لحظة في أيام المحنة والبلاء، ولعل من أحسن ما يروى عن وفاء أولئك الشجعان المخلصين أنه بينما كان الأمير يتنزه ذات صباح، أقبل عليه جندي من جنود الحرس وحياه ووقف صامتًا فابتدره نابليون سائلا: "ماذا تريد؟" قال: "جئت أرفع مظلمة إلى جلالتك يا مولاي. لقد أمضيت في الخدمة العاملة اثنتين وعشرين سنة أحرزت خلالها

أنواطًا وأوسمة في كثير من المعارك، ومع ذلك لم يدرجوا اسمي في قائمة المسافرين مع الإمبراطور، وهذا إنكار لحقي لا أستطيع السكوت عنه، فإذا أصروا على نسياني فإني سأرتكب منكرًا.. نعم سأخلي لنفسي مكانًا بين الأربعمائة المختارين بأن أقتل واحدًا منهم لأحل محله"

وارتسمت على شفتي الإمبراطور ابتسامة تنم على الدهشة لهذه الجرأة، أو الارتياح لهذا التفاني في الإخلاص، فقال: "ألك رغبة في الرحيل معي؟" قال: "ليست المسألة مسألة حق. ذلك حقي أتمسك به وشرفي أدافع عنه" فنظر إليه نابليون طويلا وقال: "هل فكرت في الأمر مليًا؟ وهل تعلم أنك برحيلك معي ستغادر أهلك ووطنك وتضحي بترقيتك" فأجاب الجندي بلا تردد ولا تفكير: "أما الترقي فليبارك الله للراغبين فيه، وأما أهلي ووطني ففي جلالتك كل العوض وأنت بمثابة كل شيء لي. ولست أستطيع أن أفارق مولاي بعد أن رافقته عشرين عامًا منذ حملة مصر ألى اليوم"؛ فابتسم الإمبراطور وداعب أذن الجندي بأصابعه وقال: "هذا حسن منك وسآخذك معي"، فكاد وجه الجندي يطفح بشرًا وقال: "الحمد لله يا مولاي فقد وفرت علي ارتكاب جناية " وحيا سيده وانصرف..

وتحدد لرحيل الإمبراطور إلى جزيرة البا يوم ٣٠ ابريل سنة ١٨١٤ وحضر مندوبو ملوك الحلفاء المكلفون بالإشراف على ترحيل نابليون وبمصاحبته إلى الحدود ووقفوا ينتظرون خروجه من القصر. وكانت المعدات قد تمت وتأهب العاهل لمغادرة القصر في أصبوحة اليوم المعين

وقد اختار لمرافقته ثلاثة من قواده الأمناء، وهم برتران ودرووه وكامبرون. أما باقي ضباط فرق الحرس الذين قضي عليهم بالافتراق عن سيدهم فقد أبوا أن يغادروا القصر قبل أن يطل عليهم ليودعوه. وسعى الجنرال بيتي قائدهم لدى الإمبراطور ففاز منه بإجابة رغبتهم..

نزل الإمبراطور قبيل الظهر الى الشرفة الكبرى المطلة على ساحة القصر حيث اصطف رجال فرقة الحرس القديم وبحارة الحرس الجديد ووقف يصافح بيده بضع عشرات من الضباط الذين جاءوا ليحيوه التحية الأخيرة. ونزل السلم بسرعة ووقف عند الدرجة الأخيرة هنيهة وأصدر الأمر بجعل الحرس على شكل نصف دائرة. ثم سار ووقف في وسطهم تحت العلم الذي كان قد أهداه لحرسه وقد كتب على أحد وجهيه بحروف مذهبة: "من الإمبراطور نابليون إلى الفرقة الأولى من المشاة رماة القنابل" وكتب على الوجه الآخر أسماء المعارك التي اشتركت فيها تلك الفرقة..

وكانت الشمس ترسل أشعتها على هذا المشهد الرائع الجليل فتزيد من روعته وجلاله وقد تجمعت عظمة ذكريات الماضي إلى عظمة هذا الوداع فكان المنظر يبعث إلى النفوس مزيجًا من الحزن والإكبار. وأشار الإمبراطور بيده إشارة فهموا منها أنه يريد الكلام فصمت الجميع في خشوع وسرت فيهم قشعريرة لا توصف وارتفع صوت الإمبراطور قائلا: "أيها الضباط وصف الضباط والجنود. إني أودعكم وأستودعكم الله. لقد ظللت مسرورًا بكم وراضيًا عنكم عشرين سنة حيث كنت أراكم حولي في طرق المجد وميادين الشرف.." واستطرد نابليون في خطابه بجأش ثابت لا

يبدو في صوته ولا في حركاته أثر انفعال نفسه، فلما انتهى من الكلام لم تبق عين إلا انهمرت منها الدموع وصاح الجنرال بيتي: "يحيا الإمبراطور!" فدوى صوت الجنود مرددًا: "يحيا الإمبراطور!"

وعندئذ بدت على وجه نابليون علامات التأثر، فاستأنف الكلام وقال: "ليس في إمكاني أن أعانقكم جميعًا، لذلك سأكتفي بأن أعانق قائدكم.. تقدم يا جنرال بيتي لأعانقك بصفتك ممثلا لجنودي الشجعان الأعزاء" فأقبل عليه الجنرال فعانقه طويلا ثم أشار الى حامل العلم أن يتقدم وتناول طرف العلم وقبله ثلاثًا وقال: "أيها العلم العزيز أرجو ان يكون لهذه القبل ترجيع في نفوس جميع الأبطال الذين أغادرهم اليوم.. وداعًا يا أبنائي الأعزاء"

وركب نابليون عربته بينما كان الجميع يحاولون أن يقبلوا ما تصل اليه أيديهم منه، ودموعهم تنهمر من مآقيهم وهم يصيحون مولولين: "إلى اللقاء يا إمبراطورنا العظيم.. وداعًا يا قائدنا المحبوب".. وتحركت العربة وغادرت أبواب الحديقة، ولم تكن إلا دقائق حتى اختفت وراء أشجار الغابة وغابت من الأنظار

من المنفى إلى العرش

سيرة نابليون الأول سلسلة مغامرات حافلة بالعجائب والمدهشات، ما نقلب صفحة من صفحاتها إلا ونقف معجبين بصاحب هذه الشخصية الفذة والعبقرية العديمة المثال. على أننا – مع تعدد وقائع تلك السيرة وتنوع حوادثها – لا نجد فيها مغامرة اوجب للدهشة وأدعى إلى الإعجاب من حادث مغادرة نابليون منفاه بجزيرة البا وعودته إلى عرش فرنسا في ظروف وأحوال تجعل هذا الحادث لفرط غرابته أدخل في باب الخرافات الضخمة والأساطير الفخمة منه في باب الحوادث الواقعية والتاريخ الصحيح

* * *

قضت معاهدة فونتنبلو أن يمنح الإمبراطور نابليون بعد تنازله عن العرش جزيرة البا ملكًا له يقيم بها ولا يغادرها على أن تكون خاضعة لسيادته سياسيًا وإداريًا، وقررت له مليونين من الفرنكات نفقة سنوية تصرفها إليه الحكومة الفرنسية، وحددت له قوة عسكرية لحراسته مؤلفة من أربعمائة ضابط وجندي يختارهم من بين رجال حرسه الإمبراطوري، ووهبت له قوة بحرية مؤلفة من نقالة حربية ذات ستة عشر مدفعًا وثلاث فلائك حربية أخرى للدفاع عن الجزيزة ضد هجمات القراصنة

ولقد حل نابليون بمنفاه في اليوم الرابع من شهر مايو سنة ١٨١٤، ومذ وطئت قدمه أرض البا استقبله أهلها بمظاهر العطف والترحيب، فما لبث حتى اطمأن إليهم واطمأنوا إليه ونصب نفسه إمبراطورا عليهم فكان يستهل مراسيمه بهذه العبارة: "نحن نابليون إمبراطور جزيرة البا رسمنا بما هو آت"

وقد تألف البلاط الإمبراطوري الجديد على نمط مصغر من البلاط القديم، وأصبح لكل من كبار رفاق المنفى اختصاص معين وعمل معلوم، وسرعان ما بدأ نابليون يأدب المآدب ويقيم السهرات يدعو إليها أعيان الجزيرة ويستقبلهم ويدنيهم منه ويقربهم إليه وفقًا لمصطلح مقرر ونظام مرسوم..

بيد أن شواغل هذه الإمبراطورية المسرحية ومظاهر المرح التي كانت تتجلى في أقوال نابليون وفي أعماله، لم تكن في الحقيقة إلا ستارًا يخفي فكرة هائلة تختمر في رأسه، فكرة بدت له فكان أول الأمر يتحسسها ويداعبها، فلما بسمت له احتضنها ورعاها وجعلها شغل عقله ونفسه، حتى إذا تهيأت له ظروف العمل وتجمعت لديه وسائل التنفيذ، فاجأ أوربا والعالم بهروبه من منفاه، واستعاد عرشه في أيام قلائل وبجرأة لا تزال حتى اليوم محل إعجاب الناس وموضوع دهشة المؤرخين، حتى ليذهب البعض إلى القول بأن انتصاره في تلك المغامرة لهو أعظم انتصار أحرزه في حياته الحافلة بالانتصارات، وحتى قال شاتوبريان: "لم نقرأ في التاريخ ولا في الأساطير أن رجلا أغار على مملكة وغزاها بمفرده غير نابليون"

كان نابليون يعلم أنه محاط بالجواسيس، وأن عدويه الألدين ميترنيخ مستشار عرش النمسا، وكاسلريه وزير إنجلترا، قد بثا حوله العيون والمخبرين يرصدون حركاته ويدنون كلماته ويوافون حكومتيهما بكل ما يبدو منه أو يصدر عنه، لذلك جعل همه في أن يدخل في روع أوربا أنه يئس من كل شيء ورضي من الحظ بهذه الخاتمة، حتى يصرف عن نفسه تلك الرقابة الساهرة، ويوهمها أن ليس في خلده ما يوجب الاهتمام والمراقبة. ولقد بدأ يكاتب صهره إمبراطور النمسا ملحًا عليه في أن يرسل إليه ابنه وزوجته ماري لويز ليقيما معه في منفاه، فكانت رسائلة في هذا الشأن تنم على غربته في الإخلاد إلى الدعة والراحة وعلى استسلامه لما آل الأمر إليه. وكان يعتمد الجهر أمام زائرية بتصريحات تبعث إلى نفوسهم الاعتقاد بأنه هجر مطامعه وأحلامه، ونبذ كل أمل في استرداد عرشه، وبأنه راض نفسه على الحقيقة الواقعة، وهي أنه سيقضي الأيام الباقية من حياته في هذا المنفى القصي..

أما الأيام فكان يمضيها في حركة دائمة ونشاط متواصل فيزور أنحاء الجزيرة متعهدًا أمورها مدققًا في التافه والكبير من هذه الأمور، مهتمًا بتشييد القلاع والحصون لحماية ملكه الصغير من غارات لصوص البحر، متفقدًا الحالة الاقتصادية والشؤون الاجتماعية، فاحصًا وسائل الإنتاج باحثًا عن أبواب التوفير وتدبير المال. فلما أحاط علمًا بطبيعة الأرض وبأحوال السكان، بدأ في تحقيق مشروعات الإصلاح الكبرى التي تحتاج إلى أموال كثيرة وسنوات طويلة، فعدل الضرائب الجمركية والعقارية، ومد القناطر على الترع، وأنشأ الطرق والجسور عني بغرس الأشجار وتربية

الحيوان. وأقام مجلسًا للإدارة العامة بمثابة مجلس وزراء، وقسم الاختصاصات على المديرين وجعل هؤلاء مسئولين أمامه عن شؤون الدولة.

ولم يفته أن ينمي قواه الحربية، فضم حامية الجزيرة إلى جيشه الصغير وفتح بابه للضباط الذين انتهت مدة خدمتهم في الجيش الفرنسي وللجنود المسرحين من خدمة هذا الجيش، وبذلك تكاملت لديه قوة عسكرية مؤلفة من ألف ومائة جندي بضباطهم وكامل سلاحهم

قصارى القول أن نابليون نجح نجاحًا كبيرًا في إقناع أوربا القلقة بل وفي اقناع المقربين إليه بأنه مل الجهاد والعناد وسئم حياة المغامرة والنضال وارتاح إلى ما ارتضته له الأقدار، ولكنه كان في الوقت نفسه على اتصال دائم بأصدقاء له في القارة يوافونه بالأخبار ويقفونه على مجرى الأمور واتجاه الأحوال، فلم يغب عنه أن وزيره السابق ناليران يأتمر مع كاسلريه الإنجليزي لنفسه إلى جزيرة سحيقة في المحيط الهندي، وأن البرنس ميترنيخ يدبر مؤامرة مع بعض الملكيين الفرنسيين لاغتيال حياته، وأن السياسة الأوربية اتفقت على أن تدفع بزوجته ماري لويز إلى أحضان نبيل من ضباط النمسا اسمه الكونت نايبرج ليصبح عاشقًا لها فيصرفها عن الاهتمام بمصير زوجها ومصير عرش ابنها. كذلك لم يغب عنه ما آلت إليه الأمور بعده في فرنسا، فقد كانت مصادر الأخبار من ناحيتها متفقة على أن الآمال التي عقدها الشعب على عودة الملكية قد خابت، وأن الجيش الذي أعزه نابليون قد بات يرجو رجعته، وأن الأمة الفرنسية التي أصبحت

ترى نفسها دولة ثانوية في أوربا بعد أن كانت حتى الأمس القريب سيدة العالم، قد باتت تحن إلى الرجل الذي طالما قادها في سبيل العز والمجادة حتى أوصلها إلى ذروة المجد والسيادة .

أما من ناحية السياسة الأوربية فقد اتفقت مصادر الأخبار أيضًا على أنه قد حدث بها ما يحدث عادة بين حلفاء ضرورة انتصروا على عدو مشترك وجلسوا ليقتسموا تركته؛ فلقد دب الخلاف بين أصدقاء الأمس واصطدمت شراهة إنجلترا بمطامع النمسا وبات الساسة الأوربيون كأنهم يرقصون فوق بركان

تجمعت كل هذه المعلومات عند نابليون فأيقن أن ساعة العمل قد أذنت وأن الفرصة المواتية قد تهيأت ففاتح صديقه الجنرال دورووه في الأمر وكان يعرف فيه التبصر والأناة ويسميه "الصاحب الحكيم"

ولو أن صاعقة وقعت بين قدمي دورووه لما أزعجته كما أزعجته كلمات نابليون وهو يقول له في طمأنينة وسكون: "سنكون في فرنسا بعد غد أيها الصديق". ماذا؟.. أيغادر الإمبراطور منفاه؟ وكيف يدخل فرنسا؟ ومن أي طريق؟ وصك التنازل؟ والمعاهدة؟ وبأي قوة يقاوم جيوش لويس الثامن عشر ودول أوربا؟

مرت كل هذه الأسئلة بذهن "الحكيم" كما تمر ومضات البرق أمام البصر، ثم هدأت العاصفة الحادة التي قامت برأسه وجلس إلى سيده

يفضي إليه بوساوسه وبإشفاقه من خيبة المشروع، مفصلا الصعوبات التي تحول دون تحقيقه ناصحًا بالتريث وحسن التدبير.

فلما لم تجد كلماته سبيلا إلى إقناع الإمبراطور أطرق طويلا ثم قال: "يشهد الله يا مولاي أني فعلت ما يجب أن أفعل لأثنيك عن عزمك الخطير، وما دمت لا تستمع إليّ فلم يبق لي سوى الطاعة والتنفيذ، وأسأل الله أن يكلل عملنا بالنجاح والتوفيق"

وفي اليوم السادس من شهر فبراير سنة ١٨١٥ كان نابليون قد أعد عدة الرحيل واتخذ لكل طارئ أهبته، ووقفت السفن في الميناء تنتظر الأمر بالإقلاع. وكان خبر اعتزام الإمبراطور السفر إلى جهة غير معينة قد شاع بين الأهالي في اللحظة الأخيرة فأقبلوا على إفريز الميناء واصطفوا ليودعوا الضيف العظيم، ولما انتصف الليل وسطع القمر في السماء نشرت السفن قلوعها وتحركت تحمل أكبر مغامر عرفه التاريخ في طريقه إلى أكبر مغامرة دونها المؤرخون..

* * *

لم يكن نابليون يعتمد في نجاح مشروعه على الألف والمائة جندي الذين يتألف منهم جيشه، لأن هذا العدد لا يثبت ساعة أمام جيوش الملك لويس الثامن عشر، ولقد قال في ذلك: "لست في حاجة إلى جيش أحارب به وإنما أنا في حاجة إلى حرس يدفع عني فضول الجماهير". لا ولم يكن نجاح مشروعه نتيجة مؤامرة محكمة بين أعوانه وقواد جيوش الملك

كما ذهب إلى ذلك بعض المؤرخين، فلم يكن الجيش وحده هو الذي تخلى عن الملك وإنما تخلت عنه الأمة نفسها، وليس معقولا أن يتآمر فرد مع أمة، فإذا أردنا أن نعرف سر نجاح تلك المغامرة الفذة، والعوامل التي اعتمد عليها الإمبراطور في هذا النجاح فلنسمعه وهو يتحدث بها إلى صاحبه الكونت لاسكاز فيوردها هذا في كتابه "ذكريات سانت هيلانة" إذ يقول:

"الواقع أن مشروعي لم تكن له سابقة في التاريخ أحتذيها أو تشجعني عليه، ولكنني اعتمدت على الرأي العام، وكنت أعلم أنه غير راض عن لويس الثامن عشر، واعتمدت على اعتزاز الجيش بي وعلى أسفه لفراقي واستمراره على الولاء لشخصي. وكنت على يقين من أنه لا يلبث أن يراني حتى تحضره ذكريات الماضي المجيد فيسير خلفي. ولعل أهم شيء وضعته في مقدمة حسابي هو ذلك الذهول الذي يستولي على الناس وعلى أولي الأمر حيال المفاجآت الكبيرة فيشل تفكيرهم ويؤدي بهم إلى الاضطراب والارتباك فأصل إلى غرضي قبل أن يفيقوا من ذهولهم أو قبل أن يكونوا قد صمموا على شيء أو شرعوا في عمل شيء.. إن إحباط مشروعي كان يحتاج إلى رجل سريع الفهم سريع التدبير سريع التنفيذ، رجل يقابل الجرأة بالجرأة ويقاوم السرعة بالسرعة ويعالج المجازفة بالمجازفة، ولم يكن لويس الثامن عشر ذلك الرجل ولم يكن فيمن حوله رجل يصلح لذلك الموقف"

إذن فقد كان جل اعتماد نابليون في نجاح مشروعه الجرئ قائمًا على تلك الاعتبارات السياسية والنفسية لا على القوة المادية، لذلك أعد منشورًا موجهًا إلى الشعب وضعه بأسلوبه الخطابي الفخم الذي طالما خبر أثره في نفوس رجاله. قال فيه أن الحلفاء لم يهزموه، ولو حسنت نية بعض الرجال لوجد في فرنسا من القوى الحيوية ما يسحق به أعداءه، ولكن خيانة الماريشال مارمون والجنرال أوجيرو هو تسليمها المخزي هما اللذان أديا إلى الكارثة، وإنه لم يتنازل عن العرش عجزًا ولا يأسًا وإنما فعل ذلك حقنًا للدماء وضنًا ببلاده أن تنشب فيها الحرب الأهلية". وقال: "أما وقد رأيت الأعداء يفرضون أسرة البوربون على فرنسا فرضًا، وينصبون لويس الثامن عشر ملكًا عليها يستمد سلطانه منهم لا منها، أما وقد رأيت آل بوربون صانع العدو يجيعون الأمة لإشباع نبلائهم وأشرافهم ويقيمون على أنقاض حقوق الشعب حقوقًا لذوي الإقطاعات ويدوسون مبادئ الثورة الكبرى ويقدمون أصحاب الألقاب من العاطلين على خدام الوطن الذين كتبوا بدمائهم مجد فرنسا في ميادين الجهاد، أما وقد رأيتهم يجعلون الغرم والتضحية فرضًا على الشعب والغنم والراحة حقًّا للنبلاء والمهاجرين، أما وقد سمعت بآلامكم وعرفت آمالكم وأيقنت أنكم إنما تريدون الحكومة التي تستمد كيانها من كيانكم وقوتها من قوتكم، فقد اجتزت البحر لأستعيد حقوقي وأعيد إليكم حقوقكم، ولنعيد جميعًا إلى الوطن مجده الذي أذبله آل بوربون"

وأعد منشورًا ثانيًا وجهه إلى رجال الجيش وختمه بقوله: "أيها الضباط والجنود، تعالوا إليّ وانضموا تحت لوائي، فإن تاريخي هو تاريخكم،

ومجدي هو مجدكم، وما أنا إلا أحدكم، لي ما لكم وعلي ما عليكم، تعالوا أيها الضباط والجنود فإن النصر سيسير بنا سريع الخطى وستطير أعلامنا خفاقة من برج إلى برج ومن مدينة إلى مدينة حتى نبلغ باريس"

* * *

في مساء أول مارس نزل نابليون وجنوده من السفن إلى البر، وأرسل القائد كامبرون على رأس أربعين رجلا إلى مدينة "كان" ليقطع الطريق بينها وبين المدن الأخرى وليعطل البريد وسائر وسائل اتصال السلطات وأوصاه قائلا: "إني أعهد اليك يا كامبرون بطليعة جيشي في أهم معركة سيذكرها تاريخ حياتي، ولكني أريدها معركة سامية بحيث أصل إلى عرشي بدون أن أطلق مقذوفًا ناريًا أو أزهق روحًا أو أريق نقطة دم"

واتخذ الإمبراطور خطًا لسيره الطريق الموصل من "كان" إلى باريس مارًا بجرينوبل وليون وديجون مفضلا إياه على طريق آخر أقصر وأسهل لعلمه بتعلق أهل مقاطعتي البروفانس والدوفينيه بمبادئ الثورة وبشخصه ولمعرفته بالصعوبات التي تعترض تواصل السلطات الإدارية والحربية في تلك الجهات الجبلية ذات المسالك الوعرة. وعسكر الإمبراطور بالقرب من مدينة "كان" وانتشر النبأ بين الأهالي فهرعوا إليه، بعضهم بدافع من الفضول والبعض بدافع من الولاء. وخرج إليهم نابليون في رهط من حرسه فما لمحوا قبعته وسترته حتى عرفوه فأقبلوا عليه وقد فعلت فيهم طلعته فعل

السحر فصاروا يهتفون له ويتمسحون به حتى خشي رجاله من تزاحمهم عليه فأخذوا يدفعونهم عنه وهو يقول: "ترفقوا بالشعب ولا تؤذوا أحدًا"

ولقد استبشر نابليون بهذه البداية الطيبة فواصل زحفه حتى بلغ قرية "جراس" وأرسل أمامه القائد كامبرون ليستطلع الأحوال فذهب إلى عمدة البلدة طالبًا منه أن يمد الجيش بالمؤن فسأله العمدة: "باسم من تتكلم؟" قال: "باسم جلالة الإمبراطور نابليون" فأجاب العمدة ليبرئ ذمته وليخلص نفسه من المسئولية: "اسمع ما سأقوله يا جنرال واحفظه حتى لا تنساه أبدًا. نحن هنا لا نعرف إلا الملك ولا ندين بالطاعة لسواه" فانتهزه كامبرون صائحًا: "لست هنا يا حضرة العمدة لأجادلك في السياسة وإنما جئت أطلب مؤنًا للجيش فافعل ما آمرك به"، وآنس العمدة أنه قام من واجب الولاء للملك بما فيه الكفاية وأنه لم يبق أمامه سوى التنفيذ فقال: "يشهد الله وأرجو أن تشهد أيضًا يا جنرال أني إنما أخضع للقوة القاهرة" ثم مال إلى أذن كامبرون وأسر إليه: "أرجو أن تبلغ الإمبراطور أني في خدمته وأني أدعو له بالتوفيق"

بمثل هذه الذبذبة وبمثل هذا النفاق كان عمال الملك لويس الثامن عشر يخدمونه في الأقاليم، فكانوا يغضون النظر عن منشورات نابليون وهي توزع في كل مكان ويتعامون عن الرسل ينتشرون في البلاط ليبثوا له الدعوة وليهيئوا الناس لاستقباله والترحيب به، ويتباطئون في إخطار السلطات القريبة منهم بزحف الإمبراطور عليهم حتى يفوت الوقت وتضيع فائدة الأخبار وتصبح تلك السلطات أمام الخطر الداهم بل أمام الأمر

الواقع، لذلك لا نعجب إذا رأينا نابليون يحل بكل مدينة أهلا وينزل بكل قرية سهلا وتطير أعلامه –كما قال في منشوره – من برج إلى برج ومن مدينة إلى مدينة حتى يبلغ باريس

ولقد تضاربت الأنباء واختلفت الروايات في الأقاليم، فبينما كان يشاع في مرسيليا أن عصابة من القرصان تزحف على المدن للسلب والنهب، كان يشاع في المقاطعات المجاورة أن فرقة من حرس الإمبراطور قد غادرت جزيرة البا عائدة إلى وطنها. وفي وسط هذا التضارب والاختلاف في الأنباء والروايات حارت السلطات فيما تعمل وانتهت بها الحيرة إلى القعود عن أي عمل. وظلت الحال على ذلك ثلاثة أيام وصلت بعدها الأخبار صحيحة إلى مدير مقاطعة "فار" فأرسل يبلغها إلى الماريشال ماسينا قائد حامية الجنوب الذي أسرع بدوره فأوفد رسولا إلى باريس يبلغ الأمر إلى الملك والحكومة، وجهز في الحال تجريدة لتتعقب نابليون على أمل أن تدركه عند بلده "سيسترون" ثم اتصل بالجنرال لوفردو مدير إقليم الألب الجنوبي وأمره بضم حامية بلدة "دين" إلى التجريدة المسيرة نحو سيسترون لتتعاونا على قطع الطريق أمام الإمبراطور ولتحولا دون وصوله إلى جرينوبل.

بيد أن هذه الإجراءات لم تفد القائمين بها شيئًا، فإن تجريدة الماريشال ماسينا لا تستطيع اللحاق بنابليون الذي كان متقدمًا عليها بمسيرة يومين، ولقد فهم الضباط والجنود من التزام الماريشال ماسينا منزله ومن قعوده عن قيادتهم أنه يتحاشى أن يقف وجهًا لوجه أمام سيده وولي

نعمته السابق، فلم يريدوا أن يكونوا أقل وفاء منه للإمبراطور. وسرت هذه الروح منهم إلى حامية مدينة "دين" فأعلن الجميع التمرد والعصيان واصطفوا في المعسكر وخلعوا من قبعاتهم الريشة البيضاء رمز الملكية وهتفوا صائحين: "يحيا الإمبراطور" فرأى أولو الأمر أن يستسلموا للواقع وتركوا نابليون يواصل زحفه في أمن وسلام..

وكانت المنشورات تسبق الإمبراطور إلى المدائن والقرى فتفعل فعلها السحري في نفوس السكان، فكانوا يهرعون إلى الطريق العام ويستقبلون القادم العظيم فرحين مهللين، ويقدمون له باقات الزهر وللجيش المؤن وبراميل النبيذ ثم يودعونه هاتفين بحياته داعين له أخلص الدعوات، بل كان كثير منهم يتسلحون بما تصل إليه أيديهم من أدوات القتال ويتطوعون للانضواء تحت العلم الإمبراطوري، فيضخمون هذا الجيش الصغير ويضربون المثل لغيرهم من السكان فيقبلون هم أيضًا متطوعين..

* * *

لم تكن وسائل التخاطب الكهربائية معروفة في سنة ١٨١٥ فكانوا يعمدون في المخاطبات المستعجلة إلى التلغراف الهوائي، أي إلى إشارات مصطلح عليها تتلقاها المحطة وتنقلها إلى ما بعدها وهكذا، على أن هذا التلغراف الهوائي لم يكن ممتدًا من مدينة باريس إلى أبعد من مدينة ليون، لذلك لم تصل رسالة الماريشال ماسينا إلى باريس إلا ظهر يوم ٥

مارس، فلما رفعت إلى الملك أمر بتبليغها إلى وزير الحربية ليدبر ما يجب عمله. ولقد صح ما توقعه نابليون وغمرت الدهشة عقول الوزراء فلبثوا حتى المساء بين مصدق ومكذب لا يقررون شيئًا ولا ينتهون إلى رأي، فلما توارت الأنباء في السهرة مؤيدة رسالة الماريشال ماسينا زادت الحيرة وعم الارتباك، إلى أن عنت لوزير الحربية فكرة ارتاح إليها الملك ووافق عليها مجلس الوزراء. ذلك أن موراه ملك نابولي وصهر نابليون كان يقوم وقتئذ بحركات ضد فرنسا وقد جردت الحكومة الفرنسية جيشًا من ثلاثين ألف مقاتل ليعسكر على الحدود الإيطالية دفعًا للطوارئ ووقفًا لموراه عند حده. وكان هذا الجيش لايزال سائرًا في طريقه، فاقترح وزير الحربية أن يعدل مؤقتًا عن توجيه هذه الحملة إلى الحدود وأن تعرج على مدينة ليون لانتظار نابيلون بها. وبذلك يرى الإمبراطور نفسه أمام جيش كبير لا قبل له به فيضطر إلى التسليم أو ينقلب على عقبيه..

وتداول الوزراء الرأي فيمن يتولى قيادة الحملة واستقر رأيهم على اختيار الماريشال ناي لما يعرفونه من العداء الذي استحكم بينه وبين نابليون قبيل تنازله عن العرش، وقرروا أيضًا أن يعهدوا إلى الكونت دارتوا شقيق الملك في الإشراف العام على التدابير العسكرية الموجهة ضد الإمبراطور، ثم انصرفوا بعد أن رسموا الخطة الكفيلة بدرء الخطر وهي تتلخص في أن يفاجئ الماريشال ناي نابليون عند مدينة ليون فيصده عنها ويتعقبه شطر الجنوب، ومتى ارتد نابيلون إلى الخلف فاجأته تجريدة الماريشال ماسينا عند بلدة سيسترون فيلفي نفسه بين نارين لا سبيل له إلى الخلاص منهما فتكون النهاية التي لا مندوحة عنها. وكأن الملك لم يكتف

بكل ذلك فأمر بإصدار منشور وقعه وزير الحربية وأعلن فيه أن بونابرت خارج على القوانين فهي لا تحميه وعلى ذلك فدمه مهدر ولمن يقتله جائزة قدرها خمسون جنيهًا، واطمأن لويس الثامن عشر إلى هذه التدابير وأيقن أن النجاح حليفها وبات راضي الخاطر هادئ البال، وفي الصباح استقبل سفراء الدول وطمأنهم على مصائر الحال وأكد لهم أن نابليون لا محالة واقع في الشرك وأن أوربا ستستريح منه إلى الأبد. أما نابليون فكان جادًا في طريقه إلى العاصمة لا يتباطأ ولا يتنوم بل كان يرسل الطلائع فتحتل القرى فإذا أقبل استقبله الأهالي بعاصفة من التصفيق والهتاف وزودوه بالمؤن وودعوه بمظاهر العطف والولاء حتى اقترب من مدينة جرنوبل..

وكان الجنرال مارشان قائد حامية جرنوبل قد استعد للمقاومة فصف جنوده عند مدخل المدينة بقيادة الكولونيل ديليسيار، بينما انصرف هو إلى ترتيب وسائل الدفاع في الداخل وأقبل رسول من قبل الإمبراطور يدعو الحامية إلى التسليم فانتهزه ديليسار صائحًا: "قل لسيدك أني سأقوم بواجبي حتى النهاية" فلما استبطأ نابليون رسوله أوفد ضابطًا تقدم حتى اقترب من الجنود وقال: "أيها الجنود، هذا هو إمبراطوركم قادم إليكم فأول رصاصة تطلقونها ستصيبه فتكونون مسئولين عن هذه الخيانة أمام وطنكم وأمام التاريخ" وفي هذه اللحظة وصل نابليون في مقدمة رهط من رجال حرسه، وظل يتقدم بقدم ثابتة وجأش رابط وثغر باسم وقد أمر رجاله بحمل البنادق تحت الذراع اليسرى إيذانا بالمسالمة. فلما صار على مرمى رصاصة من الجنود وقف.

وفتح صدر سترته بيديه وأهاب بهم: "يا جنودي الأعزاء ويا شركائي في بناء مجد الوطن! من أراد منكم ان يقتل نابليون فليفعل" عندئذ سرت في الرجال قشعريرة لا توصف فارتعشت أيديهم وأرجلهم وخفقت قلوبهم وتبادلوا النظرات ثم البسمات وآنس الكلونيل ديليسار أن أمرًا عجيبًا سيقع فأراد تداركه وصاح: "أطلقوا النار" وهنا وضع نابليون يده اليمنى على أزرار سترته وجعل يده اليسرى وراء ظهره يرقب ما سوف يكون. وأعاد ديليسار النداء مكررًا: "أطلقوا النار" وإذا الجنود يلقون سلاحهم إلى الأرض وإذا هم يصيحون من أعماق صدورهم: "يحيا الإمبراطور!" ثم يخرجون من الصفوف فيلتقون بنابليون: هؤلاء يقبلون يديه وأولئك يربتون على كتفه والبعض يعانقه والبعض يتمسح به والجميع يرددون: "إمبراطورنا المحبوب.. إمبراطورنا العزيز.. نحن رجالك فقدنا إلى حيث تشاء"

وإذا بصر ديليسار ما كان الجنرال مارشان قد أعدها تحت قيادة الكولونيل لابيدواييز لحماية مدينة جرينوبل من الداخل فأفضى إلى زميله بما حدث فأحاله هذا إلى القائد ليستطلع رأيه ولبث في مكانه ينتظر

كان لابيدواييز من ضباط نابليون الممتازين، ولطالما خصه الإمبراطور بعطفه وأفاض عليه من نعمه حتى أوصله وهو بعد في مقتبل الشباب إلى رتبة كولونيل، وإذا كان قد رضي بخدمة الجيش في عهد عودة الملكية، فلأنه كأكثر زملائه لم يرض أن يخوض غمار السياسة الحزبية فآثر البقاء في وظيفته مخفيًا ميوله منتظرًا ما ستؤول إليه الأحوال، فلما قضت الظروف أن يخرج لقتال سيده وولي نعمته امتثل كارهًا وخرج تتنازعه عاطفة

الواجب نحو ملكه وعاطفة الحب لإمبراطوره، فكان شديد الحيرة بين العاطفتين مترددًا غير مستقر على شيء، بيد أن ما نقله إليه زميله ديليسار من ميل الجيش إلى نابليون، وما ترامى إليه من تعلق السكان به، وما آنسه من عطف رجاله وإخوانه على إمبراطورهم السابق، كل ذلك أثر في نفسه أبلغ الأثر حتى لم يعد يستطيع مغالبة ناحية نابليون، فلما دخل نابليون المدينة والتقى بصاحبه القديم، أشار إليه بيده من بعد إشارة مودة أذكرته بكل ذلك الماضي الطويل، فخفق منه القلب وزاغ البصر وأخرج من جيبه النسر – وهو شارة نابليون – وعلقة في طرف سيفه ورفع السيف وصاح في جنوده: "أيها الرجال هذا إمبراطوركم فحيوه" ثم هتف بصوت عال: "يحيا الإمبراطور" فردد الرجال هتافه صائحين: "يحيا الإمبراطور"، وانطلق حتى وقف بين يدي نابليون وقال: "يا مولاي ما دام الجيش قد عصانا في قتالك فنحن لا نعصى الجيش"، فعانقه الإمبراطور وربت على كتفه ثم داعب أذنه بإصبعه وقال: "إني واثق بك ومستبقيك على رأس فرقتك، فهيا أمامي إلى ليون"

سقط في يد الجنرال مارشال عندما ألفى الدائرة تدور عليه والجيش متمرد والأهالي ينضمون بالمئات مسلحين إلى جيش الإمبراطور، فقرر إخلاء المدينة وسحب الحامية. ولكن هذه الحامية كانت داخل القلعة ولا سبيل إلى الاتصال بها، وقد سار إليها نابليون قاصدًا الاستيلاء عليها. عندئذ يئس مارشان من كل شيء فهرول إلى بيته مسلمًا لله الأمر منتظرًا ما تجري به الأقدار

ووصل نابليون إلى باب القلعة وأمر ضابطها بفتحه فخاطبه الضابط من الداخل قائلا إنه لا يتلقى أمرًا إلا من قائده، وعندئذ تجمع الأهالي على الباب الكبير وحطموه ثم جاءوا به إلى الأمير قائلين: "يا مولاي، ماداموا لا يريدون تسليم مفتاح الباب فنحن نجيئك بالباب نفسه"، وخرجت الحامية من القلعة ووقفت تنتظر الأوامر من ضباطها، ولكن الإمبراطور بادر فأعلمهم أنه عزل الجنرال مارشان من القيادة وأحل محله الكلونيل لابيدواييز. ثم تقدم الكلونيل وتناول على الحامية وصاح: "أيها الجنود لقد أصبحنا لا ندين بالولاء لغير الإمبراطور، فاهتفوا معي ليحيا الإمبراطور" فرمى الجنود الريشة البيضاء من قبعاتهم وصاحوا هم الآخرون: "يحيا الإمبراطور"

وصل الكونت دارتوا إلى ليون آملا أن تكون حامية جرينوبل قد نجحت في صد نابليون، أو على الاقل عاقت تقدمه إلى الأمام حتى تصل إليه النجدة المنتظرة من الماريشال ناي. ولكن جرينوبل، كما رأينا، كانت قد فتحت أبوابها للإمبراطور مستسلمة له، فلم يصبح في مكنته أن يدافع عن ليون بالقوات الضئيلة المرابطة فيها، ولقد ألفى الكونت دارتوا نفسه في أحرج المواقف إذ أن الجيش المؤلف من الثلاثين ألفًا الذي صدرت إليه الأوامر بالعدول عن التوجه إلى الحدود الإيطالية وبالتعريج على ليون لم يكن قد وصل بعد، وحامية المدينة التي قيل له إنها مؤلفة من ستة آلاف جندي لم تكن في الحقيقة إلا ألفًا وخمسائة رجلا معظمهم يدينون لنابليون بالولاء حتى أنهم رفضوا أن يستعرضهم الكونت عسكريًا

وتوالت الحوادث بسرعة بعثت اليأس إلى نفس الأمير وقطعت رجاءه في كل مقاومة، ثم جاء الجنرال ماكدونالد يؤكد أن الحالة المعنوية في الجيش سيئة وأنه لا يتحمل مسئولية أقرب فرصة لإعلان التمرد والعصيان، وبعد هذا ورد أشار الجنرال على الأمير بأن ينجلي عن المدينة تحاشيًا للفضيحة وسترًا للظواهر إلى أن يصل الماريشال ناي

أما الماريشال فكان قد وصل إلى مدينة بيزانسون مطمئنا واثقًا، ولكنه لم يلبث حتى بدأ يشعر بوادر خيبة الأمل، ثم انقطع رجاؤه تمامًا عندما علم انجلاء الكونت دارتوا عن ليون فكتب إلى الملك يشرح له تفاصيل الحالة ويطلب منه إمداده بالمدافع والرجال، وبينما هو ينتظر جواب الملك أو وصول الثلاثين ألفًا، جاءته الأنباء بأن مدينة ليون استسلمت لنابليون بلا قتال وأن قسمًا كبيرًا من جيش الملك هجر المعسكرات وانضم إلى الإمبراطور، وراجت في الوقت نفسه إشاعة قوية بأن الملك غادر باريس هاربًا من أعضاء البيت المالك ورجال البلاط..

عندئذ أيقن الماريشال أنه يدافع عن قضية خاسرة هجرها أصحابها يأسًا منها، إلا أنه حاول أن يمضي في القيام بواجبه حتى النهاية وأن يحقق وعده للملك بأن "يقدم إليه نابليون في قفص" فكتب إلى وزير الحربية يحثه على إرسال النجدة، ولكن الفاتح كان ينهب الأرض ويتوغل في المدائن والقرى كما تتوغل النار في الهشيم، فاستولى على ليون ثم شالون ثم ديجون وكل ذلك في غير جهاد ولا قتال، إذ ما هو إلا أن يهل على بلد

حتى يخرج إليه أهله مرحبين مهللين فخفقت قولة القائل: "إن فرنسا كانت ترتمي في أحضانه كما ترتمي الحسناء المدلهة في أحضان عاشقها"

ولقد وازن الماريشال بين الأشياء موازنة صحيحة فألفى أن المقاومة جهد ضائع، وأن جيشه لا ينتظر غير الساعة التي يهرع فيها إلى الإمبراطور ليحارب تحت لوائه، وأن الملك قد هجر عاصمته مؤثرًا راحة المنفى على متاعب الجهاد، وأن كل شيء يبشر بنجاح نابليون ويؤذن بانتصاره، وأن المقاومة في هذه الحالة إنما هي الحرب الأهلية من أجل قضية خاسرة خانها أصحابها وتألبت عليها القوى من كل ناحية. وتذكر الماريشال ما عاناه الجيش من إهمال الملك وعدم اهتمامه بأمره وما قاسته الأرستقراطية العسكرية من صلف النبلاء والأشراف في العهد الجديد، ومرت بذهنه تلك الليالي التي كانت زوجته تعود فيها من القصر باكية لفرط ما صادفته من احتقار سيدات البلاط. ثم عرض الرجل لتاريخ حياته وذكر أنه إذا كان اليوم ماريشالا وأميرًا فإنما هو كذلك بفضل نابليون، وبفضل الجهود التي بذلها في خدمة نابليون، وانتهى به تفكيره وتردده إلى أن قال في نفسه: "إن الخيانة – إن كان ثمة خيانة – إنما هي أن أشهر السيف في وجه الإمبراطور الذي وضع السيف في يدي لأكون له نصيرًا إذا جد الجد ودعا داعي الفداء"

وكان إذا لم يكن منه بد وتلا الماريشال على الجيش منشور الإمبراطور وأضاف إليه قوله: "إن قضية آل بوربون قد قضى عليها القضاء الأخير، وأن الأسرة الشرعية التي اختارتها فرنسا وارتضتها عائدة

إلى عرشها، فليس لأحد أن يدعي حقًا في تاج بلادنا غير جلالة الإمبراطور ما عدا الضابط الكونت دي جريفيل فإنه شق لنفسه طريقًا بين الصفوف ووقف بجواده أمام الماريشال وأخرج سيفه من جرابه وكسره على مقدمة سرجه وهتف قائلا: "يحيا الملك" واختفى..

ولحق الماريشال ناي بالإمبراطور في بلدة أوكسير فكان عتاب وكان تفاهم وعناق وعادت المياه إلى مجاريها وتناسى الرجلان ما وقع بينهما منذ ثمانية شهور..

وبعد، فلقد نمل القارئ إذا نحن تتبعنا نابليون في زحفه من ليون إلى باريس، لذلك نجتزئ بأن نقول إن الإمبراطور لم يلق مقاومة في مدينة من المدن الواقعة في طريقه، وأن القوى التي جردتها عليه الحكومة لم تكن تلتقي به إلا لتنضوي تحت لوائه حتى أصبح أمر هذه التجريدات موضوعًا لسخرية الناس وفكاهتهم. ومن ألطف ما يروى في هذا المقام أن الظرفاء علق يومًا على السور المحيط بالنصب المقام في ميدان فاندوم خطابًا هذا نصه: "من الإمبراطور نابليون إلى الملك لويس الثامن عشر. أما بعد فاني أرجو أيها الأخ الكريم أن تكف عن إمدادي بجنودك فإن لديّ منهم الآن ما هو فوق الكفاية"

وكان نابليون كلما دخل مدينة ظهر فيها بمظهر الحاكم الشرعي، فكان يستعرض الجيوش ويستقبل الهيئات النيابية ورجال القضاء والأكليروس وأساتذة المدارس، ويعزل بعض العمد ويعين غيرهم وينعم

بالأوسمة والنياشين على كبار الموظفين ويتقبل شكايات الأهالي ويعطف على رغباتهم ويعد بتحقيق مطالبهم ويتفقد أحوال رعيته في أكثر ما يكون من الطمأنينة والهدوء، لا شأن معتقل دولي هارب من منفاه تطارده الدنيا وتسير الجيوش للقبض عليه.

أما باريس فقد بلغ من تحمس حاميتها لنابليون حدًا لم يدع للملكيين أي أمل في الجيش حتى إن الدوق دي ريجيو جمع ضباط إحدى الفرق يومًا وأبلغهم وعد الملك بترقيتهم ورفع مرتباتهم إذا هم أخلصوا في الدفاع عنه، فأجابوه: "نحن آسفون ولكن أوامر جلالة الإمبراطور قد وصلتنا اليوم ونحن لا نعرف سيدًا سواه" وحدث أن استدعت الحكومة فرقتين من الجيش من مدينتي ميتز ونانسي لتعزيز حامية العاصمة، وقد أحس أولو الأمر أن العدوى النابليونية سرت إليهما فأوفدوا أحد القواد من ذوي المكانة في نفوس الضباط ليتعرف حقيقة الحال فذهب إلى ناديهم وأهاب بهم: "أيها السادة، أرجو أن تكونوا عند ثقتي بكم وأن تعدوني بالطاعة والإخلاص" فردوا عليه قائلين: "لا شك في أننا نطيعك ونخلص لك إذا تقدمتنا الآن لتنضم معنا إلى الإمبراطور"

ولقد ساءت الأحوال في الجيش حتى كتب الماريشال أودينوه إلى الملك: "كنت أظن حتى أمس أن لدينا من الجنود من نعتمد على ولائه، أما اليوم فيحملني إخلاصي لجلالتكم على أن أصرح بأنه لا يوجد الآن جندي واحد يشهر السلاح في وجه نابليون"

عندئذ انعقد مجلس الوزراء للتشاور في الأمر، وتعددت الاقتراحات ثم استقر الرأي على أن يغادر الملك باريس إلى مدينة قريبة من الحدود الشمالية لينتظر فيها تطور الحوادث، حتى إذا لم يبق أمل استطاع أن يلتمس له ملجأ في بلجيكا أو إنجلترا. وفي ليلة العشرين من شهر مارس ركب لويس الثامن عشر عربته فسارت يتبعها رتل من العربات تحمل أعضاء البيت المالك وبعض رجال وسيدات البلاط متجهين شطر الحدود، وأصبحت باريس في اليوم التالي بلا ملك ولا حكومة.

وكان نابليون قد وصل إلى ضاحية فونتنبلو، وهناك وافته الأخبار بارتحال الملك والحكومة والبلاط، فقرر أن يبيت الليلة في قصر التويلري وغادر فونتنبلو إلى باريس وهو يخوض بعربته أمواجًا متدافعة من الجماهير التي تجمعت لاستقباله وتحيته، فلما بلغ القصر ألفى ساحة تموج بالمراشلة والقواد وأعيان الدولة وكبار الموظفين، فما أن نزل من العربة حتى تلقفوه فحملوه على أكتافهم وأوصلوه إلى حجرة مكتبه. وانقضى هزيع من الليل والجماهير تحيط بالسراي حاملة المصابيح والمشاعل وهي تهتف من أعماق القلوب: "يحيا الإمبراطور"

ومن العرش إلى المنفى

أراد الله أن يمحق نابليون فجعل السماء تمطر في الليلة الواقعة بين ١٧ و ١٨ يونيو سنة ١٨١٥، ولو لم تمطر السماء تلك الليلة لانتصر نابليون في معركة واترلو ولتغير مصير أوربا ومجرى التاريخ، وهكذا يرتب الله كبرى الحادثات على أتفه الأسباب

وإذا أردت ان تعرف أسباب هزيمة نابليون في سهل واترلو فلا تبحث عنها في تفوق عدوه، ولا في حسن تدبير خصمه، ولا في خطأ ارتكبه، ولا في قصور اعتراه، فلست واجدًا تلك الأسباب في شيء من هذا ولا في هذا كله، إنما هو قضاء الله حم فتتابعت الطوارئ وتوالت الأحداث وانتقل الحظ من عسكر إلى عسكر، وألفى الإمبراطور نفسه لا أمام جيوش تحاربه، بل أمام الله الذي لا حيلة في قضائه ولا دافع لقوته..

كان نابليون قد ثقل على كاهل العالم حتى ناء العالم تحت وطأته، فلما تحشرج صدر الأرض واكتسى وجهها بالدماء وغص بطنها بالأشلاء، استمع الله لشكوى الملوك والشعوب والجيوش، وقضى أن يضع حدًا لعهد من التاريخ عم بلاؤه وثقلت موازينه، فرفع يده في وجه الجبار العاتي وقال: كفى! فأتت موقعة واترلو، وكان الانهيار وكانت النهاية. ومازالت الدنيا حتى اليوم تستقرئ خاتمة نابليون فلا ترى فيها أثرًا من عمل الإنسان ولا

من قوة البشر، وإنما ترى فيها آية من آيات الله في رجل أخذته العزة بالإثم، فأراد أن يتحدى القضاء والقدر..

شهد الثقات الحربيون أن خطة معركة واترلو كما وضعها نابليون كانت بالغة من الإتقان والمهارة حدًا يضمن لها النجاح ويضمن لصاحبها الانتصار، وأن الجيش الفرنسي كان أوفر عددًا وأتم عدة من جيوش الحلفاء، وشهدوا أن النصر ظل حليف الإمبراطور حتى ما قبيل الغروب، وأن الدوق ولنجتن الإنجليزي لم يكن في اللحظات الأخيرة يقاتل قتال الأمل في النصر، وإنما كان مستميتًا يؤثر الموت على الفرار، ولكن عندما بدأت بوادر انهزام العدو تتجلى في وضوح تبدلت الحال فجأة غير الحال: فإذا جزء كبير من الجيش المنتصر يهوي في حفرة عميقة تبتلعه، وإذا القائد الفرنسي جروشي يضل الطريق فلا يصل في الموعد المضروب، وإذا القائد بلوخر الألماني يصل إلى الميدان على غير موعد، وإذا سهل واترلو يشهد غير مصدق هزيمة المردة وفرار العمالقة، وإذا وانجتن يصيح مفاخرًا: لقد انتصرنا، فيكذبه كل شئ قائلا: لا.. بل الله انتصر

* * *

نشأ بونابرت ضابطًا بالمدفعية وكان المدفع أهم سلاح يعول عليه في الحرب، ولقد أمطرت السماء مرارًا في الليلة السابقة للمعركة حتى غمر الماء السهل، وكان الجيش الفرنسي يحتل الناحية المنخفضة، بينما كان الحلفاء معسكرين فوق هضبة سان جان المرتفعة، فتجمعت مياه المطر

حول الخطوط الفرنسية وأحدثت في الأرض فجوات وبركًا جعلت حركات قطع المدفعية متعذرة أو مستعجلة. لذلك لم يجد نانليون بدًا من انتظار حرارة الشمس لتجف الأرض، فانتظر خمس ساعات، وكان هذا الانتظار أكبر سبب في هزيمته، فلو أنه بدأ المعركة في الصباح الباكر طبقًا للخطة المرسومة، لفرغ من الإنجليز بعيد الظهر أي قبل وصول جيش الجنرال بلوخر الألماني بثلاث ساعات، ولوفر على جيشه المتعب المنهوك المثخن بالجراح مشقة الاصطدام آخر النهار بثلاثين ألف رجل نزلوا الميدان موفوري القوة والنشاط، ولقد اعترف القائد موفلنج البروسي بان بلوخر لو تأخر ساعة واحدة لألفى المعركة منتهية والجيش الإنجليزي فلولا متناثرة في الأرض تطلب النجاة..

بدأت المعركة حامية والساعة الحادية عشرة فكانت وطأة نابليون على ولنجتن شديدة بقدر ما كانت ثبات هذا عظيمًا، ولقد حلت بالجيش الفرنسي في بداية المعركة بعض خسائر نجمت عن خطأ في نقل أوامر الإمبراطور أو في فهمها، بيد أن الإمبراطور لم يأبه لها لأنه كان لا يأبه في الحروب للأرقام، فإذا كان عدد القتلى هنا مائة أو بضع مئات، وعددهم هناك الفًا أو بضعة آلاف، فليس لذلك عنده وزن ولا حساب ما دامت هذه الأرقام تعطي نتيجة واحدة وهي الانتصار. وظل القتال ساعات لم يتبين خلالها تفوق فريق على فريق، ولكن الكفة أخذت بعيد الظهر تميل ناحية الفرنسيين كما أخذت بوادر الضعف والوهن تتجلى في صفوف الإنجليز. وبدأ القلق يساور ولنجتن على مصير المعركة وصار يحس أن

النصر يتسرب من بين أصابعه وأنه أصبح في حالة لا ينقذه منها إلا انتهاء القتال بحلول الظلام

والواقع أن الخسائر التي حلت به كانت فادحة مروعة، فهناك شرذمة من الرجال هم البقية الباقية من أورطة، وهناك بضع عشرات كانوا منذ ساعة لواء كاملا، وهذه الفرقة عدمت ضباطها العظام فصار يقودها ملازم، وذلك الفيلق انفرط عقده واختل نظامه، وها هي ذي فرقة من الرماة البروسيين تغادر الميدان فرارًا، وها هي تلك أورطة من المشاة الهولانديين تحذو حذوها، ثم ها هو الجنرال بكتن يسقط قتيلا ويعقبه القواد بونسنباي وجوردن ومارش وهاملتن وماتر، ثم ها هو ذا الفيلق الأسكتلندي يباد، واللواءان الخامس والسادس يفنيان، وقد انجلى الجنرال هيل عن نقطة مونسانجان وأشرفت حامية هوجومون على التسليم، ولم تبق لولنجتن نقطة ارتكاز سوى هضبة سانجان وقد علق عليها كل آماله وحشد فيها كل قواه. وبينما كان يصيح في عسكره من ناحية: "أيها الفتية الشجعان، كيف تفكرون في الفرار وتنسون إنجلترا أمكم العجوز؟" كان البرنس دورانج يهيب بجنوده البلجيكيين من ناحية أخرى: "يا بني برانسويك وناساو، إن التقهقر في هذه الساعة جريمة نكراء". وبينما كان ولنتجن يجيب الجنرال هيل وهو يطلب منه المدد: "ليس عندي ما أمدك به فاثبت في مكانك حتى تموت" كان كلنتن يسأله: "هل من أوامر جديدة؟" فيصيح في وجهه: "الثبات حتى آخر رجل" ويقول لأركان حربه وقد نصحوا له بالابتعاد عن مكانه المعرض لقنابل العدو: "وماذا تريدون ان

أفعل اذا أنا لم أقتل؟" ثم يسأله هيل: "ما هي التعليمات التي يوصي بها سيدي الودق إذا هو قتل؟" فيجيب عابسًا: "أن تموتوا مثلي"

تلك كانت حالة الحلفاء حتى الساعة الرابعة من المساء، فلما انتصفت الخامسة بدأت الخطوط الإنجليزية الأمامية تنجلي عن هضبة سانجا تحت مطر من قنابل الفرنسيين تاركة تلك الهضبة تحت حماية المدفعية وحدها. وكان نابليون يراقب حركة الجيش بمنظاره المقرب، فلما أبصر انسحاب الإنجليز رأى الوقت مناسبًا ليضربهم الضربة القاضية، فوقف في ركاب سرجه وسرح منظاره في أرجاء الميدان ثم أرسل أمره إلى الماريشال ناي بأن يحمل بفرسانه للاستيلاء على أمنع مراكز الإنجليز وهو هضبة سانجان

وإذ تلقى الماريشال ناي الأمر أشهر سيفه وصاح في الفرسان — وكانوا ثلاثة آلاف وخمسمائة —: "إلى الأمام أيها الرجال وليحيا الإمبراطور!" فمرقوا من وسط الجيش كما يمرق السهر من القوس واندفعوا إلى الميدان في وسط غمامة كثيفة من الدخان وتحت وابل من قذائف العدو، ثم انقشعت الغمامة فبدوا عند الطرف الآخر من السهل كتلة لامعة متحركة هائلة تخفق فوقها الأعلام وينبعث منها ضجيج مخيف، وكأن الخيل أدركت جلالة الطالب وخطر المطلوب، فجعلت تنهب الأرض كما تنهب الشهب الفضاء، وانقضت على الهضبة كالعاصفة الهوجاء حتى إذا ما اقتربت من خطوط النار ألفت قضاء الله حائلا بينها بين ما تريد، تقاعست الخيل فجأة وانتصبت رافعة أرجلها الأمامية في الهواء، وصاح

الجنود صيحة الذعر والهلع ولوحوا بأيديهن للذين وراءهم وينبهونهم إلى شيء لم يفهموه ويشيرون اليهم ليستزوقفوهم عن الاندفاع. ذلك بأنهم فوجئوا بأن أبصروا بينهم وبين الإنجليز حفرة مستطيلة أو خندقًا حفرته الطبيعة ممتدًا بين جانبي السهل عميقًا واسعًا فاغرًا فاه كالهاوية، فكانت لحظة فزع وإضراب لم تتسع للتفاهم ولا للحذر، فلقد كانت الخيل تعدو مطلقة الأعنة والفرسان فوق ظهورها يستقبلون الموت من الأمام ولا يتوقعونه تحت أرجلهم فدفعت المؤخرة المقدمة وتزاحمت الصفوف وتدافعت، فسقط الصف الأول في الهاوية وسقط فوقه الصف الثاني فالثالث فالرابع حتى امتلأ الخندق وفاض ثم عبرت الصفوف الخلفية الحفرة فوق تلك الأكداس والأكوام من الأجساد، فكانت مأساة بشعة تحطمت فيها الرؤوس وتهشمت الجماجم وطحنت العظام وتمزقت الجسوم واختلطت أجسام الرجال بأجسام الجياد وقتل ألف وخمسمائة فارس وثلاثة آلاف جواد.

وتأبى المصائب إلا أن تأتي تباعًا، فإن نابليون كان قد وضع الماريشال جروشي عشية المعركة على رأس أربعة وثلاثين ألف مقاتل ليتعقب بهم الجنرال بلوخر الألماني، وأوصاه أن يوافيه قبيل غروب اليوم التالي عند سهل واترلو. ولكن جروشي ضل الطريق وأفلت منه بلوخر فظل يبحث عنه حتى فات اليوم ولم يصل في الموعد المضروب. ولقد اشتد قلق الإمبراطور حتى كان لفرط حنقه يمد يده نحو الشمس وهي مائلة إلى المغيب ويقول: "من لي بقدرة يوشع فأؤخر مسيرها ساعتين؟". وبينما هو يرقف الأفق قلقًا مغيظًا وولنجتن ينظر إلى ساعته وهو أشد قلقًا وغيظًا،

إذا خط من الحراب لامع يبدو من بعيد ويقترب وإذا الثلاثون ألفًا الذين يقودهم بلوخر ينزلون إلى الميدان مستجمين كاملي العدة موفوري القوة للكفاح.. كانت حالة الجيشين المتحاربين قبل وصول البروسيين كحالة متبارزين أصاف كل منهما من الآخر مقتلا وأخذ يتلمس فيه مكان ضعف ليجهز منه عليه، فلما جاء بلوخر رجحت كفة الإنجليز وزلزلت أقدام الفرنسيين وزاغت منهم الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وحدق نابليون بعينيه في جوف الفضاء فأبصر يد القدر تخط حكم هزيمته في لوح السماء..

تبدى شبح الهزيمة أمام الإمبراطور هائلا مروعًا شنيعًا وتبدى أمامه ما بعد الهزيمة من ضياع ملك وانهيار مجد وانتهاء عهد، فكأنما أبى إلا أن يحتضن كل شيء معه إلى الهاوية، فنظر إلى ما حوله ولما لم يجد غير فرقة الحرس الإمبراطوري صاح فيهم: "وأنتم أيضًا إلى الأمام" وتقدمت فرقة الحرس يحيط بها الهلاك من كل صوب وينصب عليها الموت من كل ناحية، تقدمت وهي عالمة أنها مقدمة على الانتحار، فقاتلت قتال اليائس المستميت. وكان صراع عنيف بين الشجاعة والكثرة. صراع هانت فيه الحياة ورخصت الأعمار حتى لم يتمالك ولنجتن عن اكبار هذا الاستشهاد فكان يصيح: "إن هذا لعظيم"، ولكن سرعان ما تفوقت الكثرة على البطولة وسرعان ما تخطفت قنابل العدو وسيوفه هذه الأرواح الجبارة وكبحت جماح تلك البسالة الرائعة. فلما أرخى الليل سدوله كانت المعركة قد انتهت وكانت فلول الجيش العظيم الذي دوخ أوربا عشرين عامًا تجري هائمة تطلب النجاة في الأودية والسهول..

عاد نابليون إلى باريس غداة الهزيمة وقد استقر رأيه على أن يتقدم توًا، وقبل أن ينفض عن نفسه غبار المعركة إلى مجلس النواب ببيان عن الحالة يتحدث فيه عن الأخطار المحيقة بفرنسا والوسائل التي تستطيع بها دفعها، ويؤكد أن مصلحته الشخصية لا يمكن أن تكون عقبة في سبيل سعادة شعبه ووطنه ولا سببًا في استنزاف موارد القوة فيهما. وكان قد أحصى ما بقي لفرنسا من الجيوش والذخائر ومعدات القتال فألفى فيها الكفاية لصد إغارة العدو والقضاء عليه، فرسم خطة المقاومة واستئناف الجهاد وبات ينتظر تأييد ممثلي الأمة لخطته ليعود فيضع نفسه على رأس الجيش..

ولكن الوزير فوشيه الذي آنس من مجرى الحوادث أن شمس الإمبراطور آذنت بالمغيب، كان يتهيأ لاستقبال العهد الجديد ويمهد لنفسه وسائل الاندماج فيه ويسلف الحسنى إلى آل بوربون العوارف لتزكو عند لويس الثامن عشر متى حكم. لذلك جعل منذ الساعة الأولى يوهم ممثلي الأمة وزعماء الأحزاب أن لا سبيل إلى إنقاذ الوطن إلا إذا تنازل نابليون عن العرش، وأن لا محل للخوف من عودة أسرة البوربون إلى فرنسا لأن التفاهم قائم بينه وبين ميترنيخ وزير النمسا على تنصيب ابن نابليون إمبراطورا باسم "نابليون الثاني" تحت قوامة أمه ماري لويز. ولقد أحدثت هذه الدسيسة أثرها فأوفد مجلس النواب وفدًا يرجو من نابليون باسم ممثلي الأمة النزول عن العرش ويقنعه بأن سلامة الدولة متوقفة على هذه التضحية. فلما شعر الإمبراطور بنيتهم المبيتة واقتنع بأن استمساكه بتاجه سيؤدي إلى نشوب حرب أهلية أعلن تنازله وصرح بأنه، وقد أصبح فردًا

عاديًا من أفراد الشعب، يضع شخصه في خدمة بلاده ويرشح نفسه لقيادة جيوش جلالة الإمبراطور نابليون الثاني لصد العدو الزاحف إلى فرنسا.

وتألفت حكومة مؤقتة كان فوشيه منها بمثابة اليد العاملة والرأس المدبر، جعلت غرضها الأول التخلص من شخص نابليون بتمهيد السبيل أمامه للخروج من فرنسا والالتجاء إلى امريكا فتوجهت إليه طالبة أن يسهل عليها مهمة المفاوضات ووضع قواعد الصلح بأن يرتحل عن باريس حتى لا يكون بقاؤه فيها عقبة في طريق المحادثات. ولم يكد نبأ تنازل الإمبراطور عن العرش يسري بين الناس حتى أخذت الجماهير تتدفق على القصر معلنة ولاءها فكانت مظاهرات حاشدة هاتفة صاخبة جعلت الرجل يقول في ألم وحسرة: "لو أن لدى الزعماء والمسئولين مثل هذا الإلهام الصادق الذي يسير العامة لعرفت فرنسا كيف تحافظ على شرفها ووجودها"

وحمل فوشيه الحكومة المؤقتة على رفض الاقتراح الذي عرضه نابليون إذ رشح نفسه لقيادة الجيش ضد العدو بصفته قائدًا من قواد الدولة، ففكر الإمبراطور إزاء ذلك في أن يعود فيضع نفسه على رأس الجيش الذي كان باقيًا على ولائه له ويسقط الحكومة ويحل محل مجلس الأعيان والنواب ويستأنف القتال، ولكن شبح الحرب الأهلية ووجود العدو على أبواب العاصمة وجو الدسائس المحيط به، كل ذلك أثر في نفسه وأثناه عن عزمه فصحت نيته على أن ينهي حياته العامة بعيدًا عن بلاده وارتحل إلى قصر المالميزون ليمهد وسائل سفره إلى القارة الأمريكية..

وإذا كان فوشيه قد تظاهر بالموافقة على فكرة رحيل الإمبراطور إلى أمريكا وحمل الحكومة المؤقتة على تأييدها والشروع في تنفيذها، فإنه كان في الوقت نفسه يتآمر مع لورد كاسلريه وزير إنجلترا والبرنس ميترنيخ مستشار عرش النمسا للإيقاع بنابليون، ويصور لهما الفرار من جزيرة البا حادثًا قابلا للتكرار ويؤكد أن الخلاص النهائي من هذا الرجل لا يكون إلا بالقضاء على حياته أو باعتقاله في مكان سحيق منعزل عن العالم.. وأصدرت الحكومة المؤقتة بإملاء فوشيه قرارًا هذا نصه:

"المادة الأولى – على وزير البحرية أن يعد سفينتين مسلحتين من السفن الراسية بميناء روشفور لتنقلا نابليون بونابرت إلى الولايات المتحدة الأمريكية على أن تعود تلك السفينتان إلى مقرهما عقب الانتهاء من مهمتهما مباشرة"

"المادة الثانية – يوضع تحت تصرف نابليون بونابرت حرس بقيادة الجنرال بيكر يلازمه للمحافظة على شخصه حتى يغادر ميناء روشفور"

"المادة الثالثة – لا يسمح للسفينتين بمغادرة الميناء قبل أن تتسلما جوازات السفر الرسمية باسم نابليون بونابرت والذين قد يرافقونه في سفره"

ولا شك أن القارئ قد أدرك من ثنايا هذا القرار بوادر الغدر وبداية الاتجاه الذي كان فوشيه يوجه إليه مجرى الأمور، وتبين أن الغرض منه لم يكن مجرد المحافظة على شخص الإمبراطور، وإنما كان المراد مراقبته وعدم تمكنه من الفرار، وأن تحتيم بقاء السفينتين في الميناء حتى تتسلم

جوازات السفر إنما كان استبقاء لنابليون في روشفور حتى تتم معدات القبض عليه. ولعل مؤامرة فوشيه تنكشف للقارئ بوضوح في المكاتبات الآتية التي لا تذر شكًا في أن القبض على نابليون كان أمرًا مبيتًا بين الحلفاء لا نتيجة ترتبت على سلوكه كما زعم الإنجليز

كتاب من فوشيه إلى وزير الحربية

"لقد تطورت الحوادث حتى باتت تقضي بأن يرحل نابليون بونابرت غدًا إلى روشفور تمهيدًا لتنفيذ رغبته في السفر إلى أمريكا؛ فأرجو أن تبلغوه ذلك عند تبليغ قرار الحكومة المؤقتة إليه. فإذا أبى الرحيل تعين على سعادتكم في هذه الحالة أن تضعوه تحت مراقبة يقظة شديدة حتى لا يستطيع الفرار من قصر المالميزون؛ لذلك يحسن أن تجعلوا تحت إمرة الجنرال بيكر كل القواد البوليسية والحربية التي يحتاج إليها لحراسة الطريق المؤدية إلى ذلك القصر من جميع الجهات. ويحسن أن تبقى هذه التعليمات سرية جهد الإمكان وأن تكلفوا الجنرال بيكر بتفهيم نابليون بونابرت أن قرار الحكومة هذا إنما وضع لأغراض تقتضيها المصالح العليا للدولة بقدر ما تقتضيها مصلحته الشخصية، وأن معاونته للحكومة في تنفيذه أمر لا بد منه وقد يفيده كثيرًا عند البت في مصيره ومستقبله"

كتاب من فوشيه الى وزير الحربية

"أرسل إلى سعادتكم مع كتابي هذا صورة من الكتاب الذي وجهته الآن إلى زميلي وزير البحرية خاصًا بنابليون بونابرت وستدركون

سعادتكم من الاطلاع عليه وجوب إصدار الأوامر الدقيقة إلى الجنرال بيكر بأن يلازم شخص نابليون وبأن لا يفترق عنه لحظة طوال مدة إقامته بالميناء"

كتاب من فوشيه الى وزير البحرية

"أتشرف بأن أذكر سعادتكم بالتعليمات التي عهدت بها الحكومة اليوم إليكم، وبأن ألفت نظركم إلى وجوب تنفيذ قرار الحكومة تنفيذًا حرفيًا مطابقًا للروح التي أملته والتي تقضي بأن يظل نابليون بونابرت مقيمًا بالميناء حتى تصل إليه جوازات السفر. وإنه لمما يهم الحكومة إلى أقصى حد أن لا يبرح الإمبراطور السابق ميناء روشفور حتى يبت في مصيره ومصير أسرته بتًا نهائيًا. ويستحسن أن يعلم نابليون بونابرت أن الحكومة ستعمل جادة على أن تنهي المفاوضات الدائرة بشأنه إلى نتيجة مرضية له، وأن شرف فرنسا مرتبط ارتباطًا وثيقًا بهذه النتيجة ولكن في انتظار ما تسفر عنه تلك المفاوضات يجب المحافظة على شخصه محافظة تامة حتى لا يغادر المكان المقرر لإقامته المؤقتة.."

إذًا هناك مفاوضات دائرة حول مصير الإمبراطور ومصير أسرته، ويجب أن يظل نابليون مقيمًا بروشفور حتى تتم تلك المفاوضات، وإذًا فالمراد من ترحيله عن باريس إبعاده عن الجيش الموالي له وحصره في بلدة تسهل مراقبته فيها، وإذًا فالحكومة المؤقتة غير جادة إذ تقرر وضع سفينتين

تحت أمره لتقلاه إلى أمريكا، وإنما هي تدفع به الى الشرك المنصوب في الميناء، وبالأحرى تدفع به إلى قبضة الإنجليز

غادر نابليون قصر المالميزون إلى روشفور، وأمضى الليل في دار المحافظة وقد أحاط الأهالي بها وقضوا السهرة يتظاهرون له ويهتفون بحياته. وفي الصباح عاد بعض زعماء الجيش فاتصلوا به مؤكدين ولاء الجنود له وتمسك الشعب بشخصه. واقترحوا عليه مرة أخرى أن يقود الجيش فيكتسح الحكومة المؤقتة والمجالس النيابية ويستأنف الحرب لطرد الحلفاء من فرنسا. ولكن الإمبراطور كان مقتنعًا بأن في تضحيته تسهيلا لمفاوضات الصلح، وبأن في الحرب الأهلية مع وجود العدو في البلاد خطرًا كبيرًا على مصالح الوطن، واستنزافًا لموارد القوة فيه. لذلك أعرض عن المقترحات والنصائح التي توجه بها إليه القواد والزعماء وأصر على إنهاء حياته بعيدًا عن عالم "الخيانة والجبن والنذالة"

وكان الأسطول الإنجليزي يحاصر ميناء روشفور ويراقب مدخله ومخارجه فأوفد الإمبراطور رسولا إلى القبطان ميتلاند قائد البارجة بليروفون يسأله عن جوازات السفر، فأجاب بأنها لم تصله بعد وبأنه من الآن إلى أن تصل لا يسمح للإمبراطور بمغادرة الميناء حتى ولا فوق ظهر سفينة محايدة إلا إذا كان يقصد الذهاب إلى إنجلترا فإن الأسطول البريطاني في هذه الحالة يرحب به ويضمن لجلالته أحسن أنواع المعاملة

وبدأت الريب والشكوك تساور نابليون، وداخله القلق من هذا البطء المدهش في إرسال الجوازات ومن تدخل الأسطول الإنجليزي في أمور هي من أخص خصائص السياسة الفرنسية، فجعل يشاور رفاقه في الأمر ويفحص معهم فكرة الالتجاء إلى إنجلترا. وفي الغد أوفد اثنين من رجاله إلى القبطان ميتلاند ليستكملا معه بحث الموضوع فأفضى إليهما القبطان بأن لديه من التعليمات ما يسمح له بأن يؤكد أن جلالة الإمبراطور سيلقى في إنجلترا كل مظاهر الإجلال والرعاية الواجبة لمقامه السامي، وأفاض في إن إنجلترا أول بلد في العالم يكفل ويقدر حرية اللاجئين السياسين، وأن الحكومة البريطانية في مثل هذه الظروف، وأن الشعب الإنجليزي المشرب بروح العدالة والمبادئ الحرة لا يسمح لحكومته أن تسلك مسلكًا آخر حيال عدو ألقى سلاحه وارتمى في أحضانه، وأنه لمن الإهانة أكبر الإهانة لإنجلترا حكومة وشعبًا أن يساور جلالة الإمبراطور أي شك في ذلك..

وعاد نابليون فعقد مجلسًا من أصحابه وقد أزف وقت البت في الأمر ووجب الوقوف عند رأي. فاستعرضوا المسألة من شتى نواحيها وعلى مختلف وجوهها وتبين لهم أن التفكير في الفرار من الميناء على سفينة محايدة أو غير محايدة عبث مطلق. إذًا فلم يبق إلا العودة الى باريس ومعنى ذلك الحرب الأهلية، أو قبول اقتراح القبطان ميتلاند والالتجاء إلى إنجلترا. وبعد الموازنة بين هذين الحلين انتهى الرأي إلى الاخذ بالأخير منهما، وقرر الإمبراطور ان يقبل الضيافة الإنجليزية المعروضة عليه وتناول القلم وكتب إلى الأمير الوصي على عرش بريطانيا العظمى الكتاب الآتي:

"يا صاحب السمو الملكي. أما وقد ألفيت نفسي أمام الخلافات الداخلية التي تقسم بلادي، وأمام عداوة الدول الأوربية العظمى المتألبة عليّ، فقد قررت إنهاء حياتي السياسية واعتزال كل ما يتصل بالحياة العامة؛ لذلك رأيت أن ألتجئ إلى إنجلترا لأعيش في وسط الشعب الإنجليزي الكريم واضعًا نفسي تحت حماية قوانينه الحرة، تلك الحماية التي أنشدها من سموكم الملكي بصفتكم أقوى أعدائي وأقدمهم خصومة وأكرمهم نفسًا"
نابليون

وفي صباح اليوم التالي صعد الإمبراطور إلى ظهر السفينة بليروفون، وقال لقبطانها وهو يضع قدمه على السلم: "إني أركب سفينتك لأضع نفسي تحت حماية القوانين الإنجليزية عالمًا أن الشعب البريطاني سيقدر هذه الثقة التي يضعها عدو قديم"

أقلعت السفينة بليروفون من روشفور قاصدة ميناء بليموث، وكان التفاؤل يسود ركابها، وقد ارتاح نابليون إلى الحل الذي وصل إليه فبات يرتب حياته الجديدة ويفكر في مستقبله القريب، ولكن لشد ما كانت دهشته عندما وصلت السفينة إلى بيلموث واستفاضت بين الركاب إشاعة بأن هناك سفينة أخرى كبيرة قد أعدت لنقل الإمبراطور وحاشيته إلى جهة غير معلومة. لم يشأ نابليون أول الأمر أن يصدق ما يقال واعتبره إرجافًا لا أصل له وظل واثقًا من تأكيدات القبطان ميتلاند حتى كان صبح اليوم التالي فقضى اليقين على الشك وصعد إلى ظهر السفينة مستر بانبري الوزير الإنجليزي ومعه الأميرال لوردكيث، وطلبا الاختلاء بالإمبراطور ثم

أبلغاه قرارًا من الحكومة البريطانية يقضي بالقبض عليه وبترحيله منفيًا إلى جزيرة القديسة هيلانة وأطلعاه على التبليغ الرسمي الصادر إلى لورد كيث في هذا الشأن، وهذا نصه:

"حضرة صاحب السعادة لورد كيث. بما أنه من المستحسن أن يعلم الجنرال بونابرت من الآن نيات الحكومة البريطانية نحوه، فنرجو من سعادتكم معرفة ما يأتي:

١– بما أنه ليس مما يتفق مع واجباتنا نحو بلادنا وحلفائنا أن يستبقي الجنرال بونابرت في يديه وسائل العودة إلى تعكير صفو السلام في أوربا، فقد أصبح من المتعين الذي لا مندوحة عنه الحد من حريته الشخصية بالقدر الكافي لتحقيق هذا الغرض

٢– قد اختيرت جزيرة القديسة هيلانة مقامًا له نظرًا لطيب مناخها، ولأن موقعها يسمح بمعاملته معاملة لا تسمح بمثلها إقامته في أية جهة أخرى، وذلك مراعاة للاحتياطات الواجبة اتخاذها للمحافظة على شخصه.

٣– يسمح للجنرال بونابرت أن يختار من بين الأشخاص الذين رافقوه إلى إنجلترا ثلاثة ضباط يصرح لهم ولطبيبه الخاص بمصاحبته إلى سانت هيلانة على أن يكون مفهومًا لديهم أنه لن يصرح لأحد منهم بمغادرتها إلا بإذن خاص من الحكومة البريطانية.

٤- على الأميرال سير جورج كوكبرن المعين حاكمًا لمستعمرة الرجاء الصالح وما جاورها من البحار أن يتولى ترحيل الجنرال بونابرت وحاشيته إلى جزيرة القديسة هيلانة وفقًا للتعليمات التي تصدر إليه من الجهات المختصة

٥- بما أن الأميرال سير جورج كوكبرن سيسافر قريبًا إلى مقر منصبه فيحسن بالجنرال بونابرت أن يبادر إلى تعيين الأشخاص الذين يختارهم لمرافقته إلى مقامه الجديد"

عندئذ أدرك نابليون أنه وقع في الفخ، وتبينت أمامه حقيقة المؤامرة التي دبرت لاصطياده فتناول القلم ورد على التبليغ البريطاني بهذا الاحتجاج:

"إني أحتج أمام الله والناس على الظم الصارخ الواقع بي وعلى امتهان حقوقي المقدسة، فلقد عمدت الحكومة البريطانية إلى وسائل ينكرها العرف والشرف للاستيلاء على شخصي والحد من حريتي مع كوني لست سجينًا ولا أسير حرب. إنما أنا ضيف إنجلترا وفدت إليها بمحض إرادتي وعملا بنصيحة أسدتها إلي بلسان أحد قباطينها، وأبلغتني معها حسن استعدادها لإكرام وفادتي وقبولي مع حاشيتي ضيوفًا لديها. ولقد وثقت بهذا الوعد وجئت لأضع شخصي تحت حماية القوانين الإنجليزية السمحة، واعتبرت نفسي في أرض إنجليزية بمجرد ركوبي السفينة بيلروفون، فإذا كانت الحكومة البريطانية قد أوعزت إلى قبطانها أن يبلغني ما أبلغنيه

وهي تضمر الإيقاع بي، فهي قد انحرفت عن مبادئ الشرف وأهانت الراية الإنجليزية أشد إهانة. وإذا تنفذ هذا الظلم وأصبح أمرًا واقعًا فمن العبث أن يتحدث الإنجليز بعد اليوم عن شرفهم وسماحة قوانينهم وعن تقديسهم لمبادئ العدل والحرية، لأن الكرامة البريطانية والشرف البريطاني قد اندثروا في هذا الغدر وتلاشيا فيه. وإنني أضع مسألتي أمام التاريخ واثقًا أنه سيحكم بأني وأنا عدو إنجلترا من عشرين سنة قد ألجأتني مصائبي إليها طالبًا حمايتها ومعتمدًا على شرفها وكرمها، فكان جوابها على هذه الثقة أنها تظاهرت بمد يد الضيافة إلي فلما مددت إليها يد القبول والشكر قضت على شخصي وحريتي ومستقبلي" **نابليون**

ولكن هذا الاحتجاج ذهب صرخة في بحر؛ ففي اليوم السابع من شهر أغسطس أقلعت السفينة نورثمبرلند تقل إلى منفاه الرجل الذي أراد ان يجلس على عرش العالم فأبى الله أن يموت فوق صخرة القديسة هيلانة.

النسر في القفص

في ساعة من الساعات التي تطيش فيها الحكومات كما يطيش الأفراد، طغى الحقد في قلب الحكومة البريطانية على كل عاطفة كريمة، وتغلبت شهوة الانتقام على كل مبدأ قويم، ففتحت ذراعيها متظاهرة بالترحيب بنابليون ضيفًا عليها، فلما أحسن الظن بشرفها وقبل ضيافتها، أطبقت عليه هاتين الذراعين فهصرتاه، ثم طوحتا به إلى المنفى السحيق ليقاسي عذاب الموت البطئ. فكأنها لم ترد أن تتخلص من عدوها العظيم بقتله جهارًا، فأرسلته إلى جزيرة سانت هيلانة ليتولى جوها المميت قتله. كأنها تقهقرت أمام جريمة بشعة لترتكب جريمة أبشع، فكان إثمها أكبر ووزرها أعظم، وكان حكم التاريخ عادلا في قسوته، وما أعدل التاريخ إذا حكم!

هنالك في سانت هيلانة، تلك الجزيرة النسائية السحيقة، بل الصخرة الجرداء الجاثمة في وسط المحيط، قضى الإمبراطور نابليون السنوات الست الأخيرة من حياته يقاسي غصصًا لم تقاس مثلها نفوس الشهداء والرسل، وآلامًا لا تدرك مدى تباريحها عقول البشر..

لم تكن أوربا لتصدق بعد حادث الفرار من جزيرة البا أن المارد قد استكان في منفاه وأذعن للقضاء المحتوم، بل كانت تتوجس منه كل يوم ريبة وتتوقع في كل ساعة مفاجأة وكان شبحه يقض مضاجع الملوك إذا ناموا

ويوقف اللقمة في حلوقهم إذا أكلوا ويعكر صفو الأيام وهناء السلطان. ولقد وصف شاتوبريان هذه الحالة أحسن وصف إذ قال: "إن انفاس هذا السجين المحتضر لا تزال تهز العالم وتزعجه. وإن ذكره ليبعث الاصفرار إلى وجوه الساسة والملوك. ولو نجح نابليون وأفلت من يدي سجانيه إلى أمريكا لكفى ذلك لإلقاء الرعب في قلب الدنيا. إذ لو وقف على شاطئ الأطلنطي بأمريكا وحول نظره صوب أوربا لتجمعت أوربا بأسرها وعسكرت بجيوشها على الشاطئ المقابل مضطربة واجفة"

لذلك لم يكتف أعداؤه بإبعاده عن العالم، ولا بسجنه في جزيرة على هامش الدنيا فضيقوا عليه الخناق وفرضوا عليه رقابة عنيفة يقظة، غليظة ساهرة، تعد كلماته وتحصي حركاته ولا تسمح له بالتنقل أو التنفس إلا في حيز محدود

أما الجزيرة فصخرة عاتية في قديم العصور تفجر بركان بحري فأخرجها من جوف المحيط إلى سطحه فجاءت جرداء سوداء قاحلة تغم الناظرين. وأما جوها فمتقلب متحول لا يستقر على حال: تشتد حرارته في النهار حتى تبلغ حد القيظ ثم تبرد في الليل حتى تصل إلى حد الزمهرير. وإذا كان الجو شديد الخطر على سكان الجزيرة عامة، فقد كان أشد خطرًا على صحة الإمبراطور إذ استشرى فيه السرطان الذي ورثه عن أبيه فصار إذا أجهد نفسه أو غضب يحس آلاما مبرحة بالمعدة مصحوبة بنوبات عصبية وبقئ شديد..

ولقد أسكنوا نابليون أول الأمر في "كشك" مؤلف من حجرة واحدة قائم بحديقة بيت لأسرة إنجليزية، ولكنهم عادوا فضنوا عليه بالتمتع بالحديقة فنقلوه إلى بقعة من الجزيرة غير صحية اسمها لونجوود، وتخيروا فيها لسكنه منزلا حقيرًا أكلت الرطوبة بياض جدرانه واتخذت الجرذان جحورها في زواياه وأركانه، فكانت إذا جن الليل تخرج لترتع فوق الأسرة وتأكل الكتب والأوراق حتى إذا تناول الإمبراطور قبعته في الصباح قفز منها فأر أو فأران. وحسبك أن تعلم أن هذا المنزل كان مراحًا للخنازير قبل أن يصبح مسكنًا لأعظم ملك عرفته العروش وأكبر رجل عرفه التاريخ..

وإذا كان المسكن سيئًا فلم يكن المأكل والمشرب أحسن حالا، فلقد كان نابليون في أغلب الأحيان يعاف الطعام الذي يقدم إليه لرداءة نوعه. ويؤكد الكونت لاسكاز أن الطاهي كثيرًا ما امتنع عن طهي بعض اللحوم لأنهم كانوا يرسلونها إليه عفنة غير صالحة للأكل.

ولقد ضيقوا عليه الرقابة في كل شيء حتى في نزهاته، فكان إذا ركب جواده للرياضة تبعه الجواسيس وانبث المخربون في طريقه وتبودلت الإشارات مع دار الحاكم العام لإنبائها بالأمكنة التي يجول فيها. وكان إذا زاره ضيف آت من أوربا فتشوا هذا الزائر قبل دخوله عليه واستوثقوا منه أنه لن يتحدث إليه في شؤون أسرته ولا في شأن من شؤون السياسة الدولية. ولقد أثر فيه هذا التضييق حتى حرم نفسه أحب أنواع الرياضة إليه وامتنع عن استقبال الزائرين وصار يقتل الوقت بالمطالعة أو يصرفه في إملاء مذكراته على رجاله. وكان جلده على الإملاء عظيمًا حتى ليؤكد

الكونت لاسكاز أنه كان يظل يملي طيلة أربع عشرة ساعة وكلما تعب كاتب استبدل به غيره حتى يستنفد جهد أربعة أو خمسة منهم

وذهب الصغار بالحكومة الإنجليزية إلى أن أمرت موظفيها بالجزيرة بألا يخاطبوا نابليون بلقب "الإمبراطور" أو "صاحب الجلالة" فكانوا يسمونه "الجنرال بونابرت" متناسين أن هذا الذي ينكرون عليه صفته إنما هو إمبراطور شرعي باختيار شعبه، ومتوج بيد البابا نفسه، ومعترف به في كل المعاهدات التي أبرمها مع الدول، ومصاهر لأقدم بيت ملك في أوربا، وأن هذا الإمبراطور كان إذا اجتمع حوله الملوك يظل لابسًا قبعته بينما يقفون مكشوفي الرءوس، وأنه نصب تسعة من رجاله ملوكًا نثرهم على الممالك والعروش، وأنه لم يجد لعبة يقدمها إلى ابنه يوم مولده سوى تاج روما وصولجان أوغسطوس.

وأرادت إنجلترا أن تمعن في النكاية بأسيرها العظيم فعينت لجزيرة سانت هيلانة حاكمًا رجلا وضيع النفس خبيث الطبع شرس الخلق اسمه سير هدسون لاو، جعل مهمته الإجهاز على الإمبراطور المريض، فلم يدع فرصة للتنكيل به إلا اغتنمها أو وسيلة لمضايقته وتنغيصه إلا عمد إليها. ولقد وفق الإنجليز حقًا في اختيار هذا الرجل البشع لتلك المهمة البشعة. بيد أنه اذا كان قد حقق أغراضهم الخفية وعجل موت نابليون، فهو قد خدم نابليون في الوقت ذاته خدمة كبيرة إذ اثار بقسوته وغلظته ضمير العالم كله فأحاط السجين بعطف الإنسانية جمعاء، فلما قضى نابليون نحبه

كان موته استشهادًا من نوع جليل قال فيه المؤرخ أوكتاف أوبري: "إنه لم يسق له مثيل غير استشهاد السيد المسيح"

ولقد اشمأزت نفس نابليون من الحاكم الجديد مذ رآه أول مرة وأيقن أنه الجلاد المرسل للقضاء على حياته، فكان يتجنبه ويتحاشى مقابلته ولا يتمالك إذا اجتمع به من الثورة عليه، ثم ما لبثت العلاقات بينهما حتى توترت فانقلبت إلى مجافاة ومخاشنة ثم إلى تحد ومقاطعة، ولقد تشاحنا يومًا فانتهره الإمبراطور قائلا: "أنت رجل خبيث قاس خلقت لتكون سجانًا. وإذا صحَّ أنك قائد فما قدت في حياتك سوى عصابات من اللصوص. إنني أعرف كل القواد الإنجليز الذين اشتهروا في ميادين القتال ولست منهم. ومهما عظم أمرك فلست أكثر من سفاح أو قاطع طريق"

وكان هدسون لاو يثأر لنفسه فيمعن في الإساءة الى نابليون في غير ما حرج ولا ورع، حتى لقد صارحه يومًا بأن حكومته تستنكر ما تنفقه عليه في المأكل والمشرب وأن لا بد من الاقتصاد فيهما. فنظر إليه الإمبراطور نظرة مقت واحتقار وأجاب: "قل للذين أوفدوك إليّ بهذا إنهم لو تركوا لي مالي الذي صادروه لوفرت عليهم ما ينفقونه علينا، وقل لهم أيضًا أن نفسي لا تعاف الخبز الجاف الذي يأكله حراسي، ولكنها تأبى عليّ أن أناقشك في مثل هذه الصغائر"

وأشار عليه أحد رفاقه يومًا أن يشكو الحاكم العام إلى حكومته ليقفها على سوء سلوكه معه فأبى قائلا: "مثلي لا يشكو ولا يتظلم. لقد خلقت لآمر فأطاع، فإذا لم أستطع فلأسكت".. ثم أطرق هنيهة وقال: "إن التاريخ لن يهمل قضية رجل مثلي" ولكن المعاصرين لم ينتظروا حكم التاريخ فلقد تصاعدت صيحات العطف والاحتجاج المتمدين لملكها الشائن حيال السجين العظيم. ولما مات نابليون وأنهى هدسون لاو مهمته وعاد إلى لوندرة، صادفه ابن الكونت لاسكاز يومًا في الطريق العام فصفعه على مرأى من الناس، فصفق المارة استحسانًا وموافقة حتى اضطر الرجل إلى مغادرة لوندرة ليستر خزيه في إحدى قرى الريف..

ولقد أتيحت لنابليون فرص عدة للهروب من منفاه ولكنه كان يرى في الهروب جبنًا لا يقدم عليه إلا ضعفاء القلوب والنفوس، لذلك آثر أن يتجرع كأس الاستشهاد حتى الثمالة، صابرًا، يتململ ولا يشكو، ويتألم ولا تعرف عينه البكاء

كانت مكاتباته النادرة لا تصدر عنه ولا تصل إليه إلا بعد أن تمر على الحكومة الإنجليزية ثم على حاكم الجزيرة هدسون لاو. وكانت تصل إليه في بعض الأحيان وعن هذا الطريق رسائل من أمه أو أخته بولين أو من بعض أهله، ولكنها رسائل فاترة يذهب بكاتبيها الحذر وخوف الرقابة إلى حد الاكتفاء بذكر ما يفيد أنهم أحياء يرجون له الخير وطول البقاء. فإذا تضمنت الرسالة عبارة تلمح إلى شئ سياسي أو أمر عائلي أو كانت هذه العبارة غامضة أو تحتمل معنيين، امتدت اليها يد الرقيب فحذفتها أو إلى

الرسالة كلها فمزقتها. لذلك كان الإمبراطور يتناول تلك الرسائل فيفضها في غير اهتمام بل كثيرًا ما كان يعدمها وهي في غلافها علمًا منه أنها لا تحتوي شيئًا يهمه أو يعزيه أو يواسيه

كان يتحرق شوقًا إلى أخبار ابنه وزوجته، ولكن أوربا أقامت بينه وبينهما الأسوار والرقباء والبرور والبحور حجابًا لا تخترقه الرسل ولا ينفذ منه البصر، فماذا يعنيه من الرسائل ما دامت لا تحدثه عن ابنه وزوجته وماذا يهمه من شؤون الناس مادام أقرب الناس الى قلبه أبعدهم عن سمعه وبصره؟

حدث أن أوفدت حكومات أوربا مندوبين إلى سانت هيلانة يستطلعون حالة الأسير فيها ويستوثقون من أن قضبان القفص قوية متينة لا يستطيع النسر الإفلات منها. وكان من أولئك المندوبين البارون ستورمر ممثل إمبراطور النمسا، فظن نابليون أنه يحمل اليه رسالة من صهره أو كلمة من ابنه، ولكن هذا الأمل قد خاب، إذ لم يكن البارون يحمل سوى الأمر بتشديد الرقابة على السجين.

وكانت مدام مرشان وصيفة ماري لويز، وأم مارشان خادم نابليون الخاص المقيم معه بالجزيرة، قد علمت بسفر ستورمر فشذبت خصلة من لمة الطفل ملك روما وجعلتها في ورقة مطوية كتبت عليها بعنوانها ابنها في سانت هيلانة: "هذ خصلة من شعر رأسي أبعث بها إليك للذكرى" ثم توسلت إلى شاب من رفاق البارون ليوصلها إلى ابنها في المنفى، وتسلم

الخادم مارشان الرسالة فأدرك أن هذا الشعر الأشقر الخفيف الناعم إنما هو شعر ابن سيده فسلمه إليه. وهكذا علم الإمبراطور أن ابنه ما زال حيًا.

ولكن جواسيس هدسون لاو ما لبثوا أن تنسموا الخبر حتى رفعوه إليه فاستدعى الشاب وانتهره ثم أعاده إلى أوربا على أول سفينة غادرت الجزيرة، واعتبر البرنس ميترنيخ صديقه يتورمر مسئولا عن الحادث فألغى مهمته واستدعاه إلى فيينا. ولقد تحدث نابليون في ذلك إلى بعض زائريه فقال: "إنه لمن التوحش والبهيمية أن يحال دون اتصالي بشخص يستطيع أن يحدثني عن ابني وزوجتي"

كان الطفل شغل أبيه لا يصرفه عن التفكير فيه هم من هموم الدنيا ماثلة أمام عينيه في آمال الحياة. وكانت صوره وتماثيله التي أحضرها معه من أوربا ماثلة أمام عينيه في كل وقت، وقد صفها على رف المدفأة في غرفته ينظر إليها كل لحظة ويقول لمحدثيه في ابتسامة تنم على ما في نفسه من كمد وحسرة: "هذا ابني وهذا كل ما تركوه لي منه"

وكانت حياة هذا الطفل عزاء الأب في نكبته وسلوته في وحشته حتى لقد تجمعت فيه آماله وأمانيه. فبات يتقبل النفي والسجن والألم المرير بنفس راضية مستسلمة ظانًا أن استشهاده فوق تلك الصخرة الصماء سيكسب ابنه عطف العالم، وأن نهايته التعسة المحزنة قد ترد إلى هذا الابن العزيز تاجه المفقود. لا بل لقد كانت نفسه تطيب كلما برحت بها الآلام وتوالت عليها الأحداث، موقنًا أن العالم الذي يشهد مصرعه البطئ لا بد

سيذكر أن لهذا الشهيد العظيم ابنًا وأن لهذا الابن شعبًا وعرشًا يجب أن يردا إليه..

ويظهر حقيقة أن الآلام تصهر النفس وتطهرها، فإن الآلام التي قاساها نابليون في منفاه قد أنست العالم كل المصائب التي صبها عليه في حروبه وفتوحاته، ولم تبق في ذاكرة الناس شيئًا من آثار القائد الفاتك والإمبراطور المتعدد المطامع؛ فتجلى نابليون في منفاه مثلا أوحد للعظيم المظلوم والشهيد المعذب، لذلك كان إشفاق الدنيا يتصاعد إليه من سائر أرجائها مصحوبا بالعطف والإعجاب والإكبار

ظل نابليون في محنته مالكًا عواطفه ولسانه، وإذا كان قد فقد كل شيء فهو لم يفقد تلك العظمة التي تجعله يضع نفسه فوق الملمات والكوارث. وكان يقول: "أود أن يعلم ابني أنه ابن رجل لم يضعضع لريب الدهر ولم يتضاءل أمام ضربات الأيام، رجل لم تنسه مصائبه في أحرج المواقف ذلك المركز الرفيع الذي شغله في العالم"

بيد أن من العواطف ما لا يغالب وما تضعف أمامه أقوى القلوب، ومن هذه العواطف القهارة الغلابة عاطفة حب البنين. ولقد كان نابليون يذوب شوقًا إلى ابنه وقلقًا عليه ولكنه يغالب هذا الضعف في نفسه حتى لا يتجلى في قول له أو عمل؛ لذلك كان يتجنب التحدث عن ابنه ما استطاع هذا التجنب، فاذا اضطرته إليه بعض المواقف صرف الحديث عن الحاضر المؤلم إلى المستقبل السعيد الذي يرجوه لوحيده، ثم لا

يلبث أن يكف عن الاسترسال فيقول: "ومع ذلك فلنتكلم في شئ آخر" ثم يسكن ولا يتكلم في أي شيء..

ويصل الطبيب الكورسيكي أنتوماركي – وكان على اتصال بأسرة الإمبراطور – فيسأله نابليون عن كل أفراد العائلة ما عدا ابنه فلا يذكره حتى لا يفيض قلبه على لسانه، ثم ينسى كبرياءه ويعاوده الضعف البشري فيطلب إلى أحد جلسائه أن يقرأ عليه شيئًا من شعر راسين، فإذا وصل القارئ من رواية أندروماك الى قول الشاعر: "ولقد جعلت أطوف بالديار لعلي أسمع صوت ابني السجين فهو البقية الباقية لي من نعم الحياة..." تأوه الإمبراطور وقال: "إن أندروماك رواية الآباء التعساء" ثم نهض واقفًا ويقول: "أرجو ان تتركوني يا سادة فاني أشعر بانقباض عظيم" وهكذا يخلو بصور ابنه فيظل شاخًصا إليها ساعات تطير نفسه خلالها شعاعًا ثم يغمض عينيه ويسترسل في شيء يشبه النوم وما هو بنوم

لقد كانت بنية نابليون من حديد، ولكن الحديد يصدأ ويتأكل، ولقد أثر جو الجزيرة القاتل في بنيته فأفقر دمه وأمرض كبده وأنمى السرطان في معدته، وكان للعزلة والهم والقعود عن الحركة أسوأ الأثر في هذه الطبيعة النشطة الميالة إلى التنقل والعمل، فلم تأت سنة ١٨٢١ حتى بدأ شبح الموت يتراءى أمام عيني السجين ويدب في كيانه، فكان يشعر به ويكاد يلمسه مغتبطًا به عالمًا أن فيه الخلاص من عذاب طال، وأنه قد تكون فيه بداية السعادة لابنه المحبوب، فكان يقول: "عما قريب تغرب شمسي فلا يعكر ذكر اسمي صفو الملوك ولا يصد نفوسهم عن الطعام. إن

إنجلترا تريد موتي ولن أدعها تنتظر طويلا فليوفر أعدائي على مشقة تسميمي فسأموت بغير السم"

وتشتد به تباريح الألم فتلفظ معدته كل الأطعمة وكل الأدوية وينحل جسمه ويذوب شحمه وتنحط قواه، ولكن يظل رأسه حافظًا لكل مواهبه فلا يختل اتزان عقله ولا تضعف ذاكرته ويبدأ يكتب وصيته فيقول: "أريد أن ترقد بقاياي على ضفاف السين في وسط تلك الأمة الفرنسية التي أحببتها"

ويا ليت شعري هل كان يجهل أن زوجته ماري لويز تخونه في أحضان الكونت نايبرج وتلد في الخنا ونيمين من هذه العشيق، أم كان يعلم ذلك ويتغاضى عنه ليترضاها حرصًا على مستقبل ابنه واستبقاء لعطفها عليه، أم سمت به آلامه ومصائبه فرفعته فوق مستوى البشر حتى بات لا يتألم مما يتألم منه الإنسان العادي اذا أصيب في عرضه وهو القائل: "إن مهمتي في الحياة لا تدع لي الوقت لأفرح بما يفرح به سائر الناس ولا لأتألم مما يتألم منه سائر الناس"؟ لا أدري. ولكني أقرأ في وصيته: "أموت وأطيب الأثر، وأرجو ان تسهر على ابني لتقيه شر المكائد المنصوبة حوله"

وبينما يتلوى على فراش المرض، والسقم يهد كيانه، لا تغيب عنه صورة ابنه فكأنه يراه ورجال البلاط النمسوي يحاولون أن يمحوا في نفسه كل أثر من فرنسيته فيكتب: "وأوصي ابني أن لا ينسى أبدًا أنه أمير فرنسي، وأن لا يتورط في أي عمل يسئ إلى فرنسا، وأن يحتفظ بالشعار

الذي اتخذته لنفسي طيلة حياتي وهو: "كل شئ في سبيل فرنسا" ثم يضيف: "أترك لابني نياشيني وأسلحتي وسروجي ومهاميزي وكتبي وملابسي والأسرة التي كنت أنام عليها في ميادين القتال وبيانها مفصل في القائمة الملحقة بهذه الوصية، وأريد أن يحتفظ بهذا التراث وأن يعتز به ليذكره بأبيه الذي لن يفتأ العالم يحدثه عنه"..

أما المال فلا يوصي له بشئ منه بل يوزعه على رجاله وخدامه وعلى الأبطال الذين ضحوا في خدمته بكل شيء، ويرى أن أثمن تركة يخلفها لابنه هي اسمه فهو يغنيه عن المال، وحسبه هذا الاسم هاديًا في الحياة وموصلا إلى المجد والعظمة. وكأنما يريد أن يحيط الطفل بذكريات العظائم التي سطرها في حياته فيكتب: "أريد أن يعمل منفذو وصيتي على جمع الصور واللوحات الزيتية والكتب والميداليات والنقوش التي تحدث ابني عني لتزيل من ذهنه اثر الترهات التي نشرها أعدائي بغية النيل مني، وأريد أن تطبع مذكراتي عن غزوتي مصر وإيطاليا وغيرهما لتقدم إليه عندما تسمح له سنه بمطالعتها واستيعاب ما فيها"

ويبدو له شبح ميترنيخ مطوقًا الطفل بذراعيه خشية أن يصل إليه تاريخ أبيه فيحتاط للمستقبل ويدون في وصيته: "عندما يبلغ ابني سن الرشد أرجو من والدتي وإخوتي وأخواتي أن يكاتبوه ويتصلوا به وأن يحكموا وسائل هذا الاتصال، ولن يستطيع البيت المالك في النمسا أن يحول دون ذلك بحق لأن ابني عندئذ يكون ولي أمر نفسه"

ويعاوده القلق على فرنسية الطفل ويساوره الإشفاق من أن تنسيه السياسة الأوربية اسمه الحقيقي باستمرارها على تسميته "فرانتز" الألماني فيكتب: "يجب على ابني متى بلغ سن الرشد أن يستعيد لنفسه اسم "نابليون" وأن يحمل هذا الاسم بالكرامة الواجبة له. وإذا قدر لابني أن يعتلي عرشي فإني أريد من منفذي وصيتي أن يطلعوه على كل ما أنا مدين به لضباطي وجنودي وخدامي من الفضل وجليل الخدمات"

وهكذا ترى كلمة "ابني" لا تفارق لسانه وعقله فترد في كل وقت وفي كل مناسبة حتى ليخيل إلينا أنه جعل العالم دائرة مركزها هذا الابن العزيز..

ولقد ثقلت المصائب على كاهل هذا العملاق حتى أقعدته عن الحركة ولكنها لم توهن من نشاط ذهنه ولم تؤثر في صفاء عقله، لا بل ولم تخفف من جبروته ورغبته في التحكم في الأزمنة والأمكنة والناس. وها هو ذا على حافة القبر سجين مغلول الإرادة لا يملك لنفسه ولا لغيره ضرًا أو نفعًا ، ولكنه برغم كل شئ يعتقد ـن الزمان الذي عصاه يومًا سيعود فيخضع ويجئ جاثيًا يسأله المغفرة. وبما أن حياته لن تمتد حتى يملي على الدهر أوامره ونواهيه فهو يدونها ويكل إلى ابنه تنفيذها لأن ابنه هو امتداده في الحياة، فيكتب: "يجمل بابني ألا يفكر في الانتقام لموتي، ولكن عليه أن يستفيد من ميتتي وألا يدع شيئًا من آثاري يغيب عن ذاكرته. وعليه أن يبقى كما بقيت أنا فرنسيًا من قمة الرأس إلى إخمص القدم. كذلك أوصيه إذا حكم أن يحكم في ظلال السلام وألا يحاول استئناف

الجهود التي قمت بها لأن في استئنافها معنى يفيد أنها لم تثمر وهي في الحقيقة والواقع قد أثمرت كثيرًا. لقد أكرهتني ظروفي على كبح جماح أوربا بالسلاح، أما اليوم فقد تغيرت الظروف وأصبح الواجب تحكيم العقل في العلاقات الدولية. لقد جئت عقب ثورة هائلة فطهرت فرنسا من آثارها السيئة وحافظت على مبادئها الطيبة فجلوتها وأظهرتها للعالم في مجدها الحقيقي الرائع. ولقد غرست في فرنسا بذور مبادئ جديدة لن تستطيع أوربا الرجوع عنها، فأوصي ابني أن يعمل من بعدي على تنمية تلك البذور حتى تزهر وتينع وأن يتعهد بالرعاية الصالحة جميع عوامل الرخاء التي تحتويها أرض فرنسا وإنه إن فعل لواصل حتمًا إلى أن يكون ملكًا عظيمًا"

ويخيل إليه أن اعتلاء ابنه العرش أمر لا محالة واقع فيريد أن يزوده بوصايا تنفعه وتنير أمامه سبيل التفاف الأمة حوله فيقول: "يجب أن يعمل ابني على جمع شتات الأمة الفرنسية حوله، وذلك بأن يعفو عن الذين خانوا قضيته وبأن يقدر الكفايات ويكافئ الخدمات وبألا يعتمد في حكمه على طبقة دون أخرى، بل يجب أن يعتمد على كتلة الشعب ملتفة حوله. ومهما يكن من الأمر فلا أريد أن يكون ابني مدينًا بعرشه للأجنبي وأحب أن يصعد إليه بإرادة فرنسا وحدها"

وهو عظيم العناية بالتاريخ وقد استفاد منه أحسن العظات وخير العبر فلا يفوته أن ينصح لابنه أن يستقرئ الماضي ليهتدي بخطوات السلف فيكتب: "ليقرأ ابني التاريخ وليطل التفكير والتأمل في وقائعه فليست في العالم فلسفة جديرة بهذا الاسم إلا تلك التي نستخلصها من

صفحاته. ألا فليتدبر سير القواد العظام وليستذكر حياة عظماء الملوك فذلك هو السبيل لتعلم فن الحرب وفن الحكم"

وبعدما يتم كتابة وصيته والقوائم والبيانات الملحقة بها يرى أنه لم يبق لديه ما يفعله في الحياة أو ما يستحق أن يعيش من أجله، فيقول لرفاقه: "الآن وقد نظمت كل شيء لم يبق أمامي سوى أن أموت" وتساوره فكرة الخلاص من الآلام بالانتحار، ولكنه يعرض عنها بأنفة لأن الانتحار جبن يغضب الله ويشين صاحبه ثم يتساءل: "لماذا يغضب الله من رجل يتعجل لقاءه ويريد أن يوافيه قبل الموعد المضروب؟"

ويخشى أن يكون قد فاته شيء لم يحتط له في وصيته فيعيد تلاوتها وينقح بعض موادها بالحذف أو بالإضافة، ويظل كذلك حتى تحين ساعة الاحتضار التي ينصرف الإنسان فيها عن كل شيء في الدنيا ليستقبل الهول الأكبر، فتراه زائد الاهتمام بابنه وبترتيب مستقبله وتنظيم شئونه، حتى إذا دخل في طور الغيبوبة وعجز عن مسك القلم، حاول أن يملي بقية إرادته على رفافه وخدامه، فإذا ما اعتقل لسانه واحتبس الكلام في فمه، حول وجهه نحو تماثيل ابنه وصوره ولبث شاخصًا إليها حتى يستولي عليه السبات..

وفي أصبوحة اليوم الخامس من شهر مايو سنة ١٨٢١ صحا نابليون من غيبوبته صحوة الموت فأجال الطرف فيما حوله وتمتم قائلا: "إني متألم وأحس أن الخاتمة دنت، وذلك خير لي فلا بد من هذه النهاية"

واختلى بطبيبه الدكتور أنتوماركي، وقال له: "أريد بعد موتي أن تشق صدري وتخرج منه قلبي لتقدمه تذكارًا مني إلى زوجتي ماري لويز التي أحببتها كثيرًا، وأريد أن تذهب إلى روما لتحدث والدتي وأهلي عما شاهدته بنفسك فيما يتعلق بحالتي ومرضي ووفاتي، ولتقل لهم أن نابليون العظيم قضى نحبه في أسوأ الحالات يعوزه كل شيء ولا معزي له سوى مجده وأنه يخلف لملوك أوربا عار الشدة التي لقيها منهم في أيامه الأخيرة"

وفي أصيل نفس اليوم غربت شمس الإمبراطور نابليون وهدأت تلك الحركة الجبارة التي أقامت العالم وأقعدته مدى عشرين عامًا في غير ما هوادة ولا رحمة

لم يصل نبأ وفاة نابليون إلى إنجلترا إلا في الأيام الأولى من شهر يوليو فحمله البريد توًا إلى بلاط النمسا. وهكذا أيقن العالم أن الموت نهاية كل حي حتى ولو كان نابليون..

أما البرنس ميترنيخ فلم تخمد جذوة حقده على عدوه حتى بعد الموت فكتب إلى لوندرة ملحًا في ألا تنشر وصية الإمبراطور المتوفى وفي ألا تتسرب أي وثيقة خاصة به. ويفسر المركيز مارامان سفير فرنسا في فيينا هذا الاحتياط بقوله في رسالة منه إلى ملكه: "يظهر أن البرنس ميترنيخ يخشى نشر وثائق تثير اهتمام العالم مرة أخرى بمصير الأمير الصغير سجين البلاط النمساوي وتقف الناس على الوسائل التي حيل بها بين والد وولده وزوج وزوجته"

وأما ماري لويز "المحبوبة العزيزة" فقد استقبلت النبأ في غير اهتمام ولا مبالاة، ولعمري بماذا تبالي وهي العاشقة الهائمة بصديقها نايبرج وتحب تقلب ابنها الثاني منه في أحشائها ولا تنتظر إلا الفرصة التي تخلص فيها من رباطها الزوجي لتتزوج علنًا بالرفيق المحبوب؟ وها هي رسالة منها إلى صديقتها مدام كورنفيل تغنينا عن الإسهاب في الحديث عن علاقاتها بزوجها قبل موته وبعده: "أجمعت الأنباء الصحيحة على أن الإمبراطور نابليون قد مات فلم يبق سبيل إلى الشك في ذلك. وإني أعترف بأن هذا النبأ أحزنني. وبرغم كوني لم أشعر نحوه يومًا من الأيام بعاطفة قوية من أي نوع فإني لا أستطيع أن أنسى أنه أبو ابني وأنه – على عكس ما يتوهمه الناس – طالما أحسن معاملتي وأحاطني بصنوف من الرعاية والمجاملة، وذلك أقصى ما تطمع فيه امرأة من زواج سياسي كزواجي. نعم لقد أحزنني موته وأنه إن يكن من دواعي الاغتباط أن يكون قد أنهى حياته التعسة نهاية كفرت عن ماضيه، فإني كنت أتمنى له حياة أطول وأسعد على شرط أن يظل بعيدًا عني" ثم تغلبها رعونتها ويعاودها نزقها فتنتقل فجأة من هذ الموضوع الخطير إلى التحدث إلى صديقتها في نفس الكتاب عن الجو وعن اعتزامها الرحيل إلى الجبل "حيث الجو أرفق بصحتي وحيث أستطيع التنزه على ظهور الخيل وأتمتع برؤية ما لم أره بعد من دوقيتي الصغيرة". وبعد مضي شهرين وضعت ماري لويز ابنها الثاني من عشيقها نايبرج. ولما أرسلوا إليها قلب زوجها تنفيذًا لوصيته أبت قبوله معتذرة بأن أعصابها تتأثر من هذا المنظر، والله يعلم أنها لم ترد أن تجمع بين قلبين في وقت واحد..

وبقدر ما قطعت ماري لويز صلاتها الروحية بزوجها وبقدر ما نفضت يديها من الانشغال بمصيره ونهايته، نراها شديدة الاهتمام بتركته ومخلفاته، فلقد أوصى نابليون ببضعة ملايين من ثروته الخاصة لبعض رجاله الأوفياء فتدخلت الإمبراطورة في الأمر واعترضت تنفيذ الوصية فلم تنفذ..

وأما والدة نابليون فلم تتمسك من نصوص الوصية إلا بالنص الخاص بدفن ابنها في باريس على ضفاف نهر السين فكتبت إلى لورد لندنبري الوزير الإنجليزي الكتاب العنيف الآتي نصه:

"إنني أطالب ببقايا ابني وما أظن أن الحقد – حتى في أشد الأمم وحشية وبربرية – يمتد إلى ما بعد الموت، ويتعقب الميت إلى أعماق القبر. لقد أنجبت نابليون ووهبته لفرنسا وللعالم، فأتوسل إليكم باسم الله وبحق الأمومة أن تردوه إلي وألا تضنوا علي به ميتًا"

ولقد بقي هذا الكتاب بلا جواب حتى كانت سنة ١٨٤٠ فسمحت أوربا بعودة بقايا الإمبراطور العظيم إلى فرنسا ظانة أن الزمن قد فعل فعله وأن الفرنسيين نسوا ذكرى بطلهم الكبير، وأن وفاة ابن النسر قضت على كل أمل لدى البونابرتيين في تسنم العرش وإعادة النظام الإمبراطوري..

ولكن ظهر لأوربا فيما بعد أنها أخطأت الحساب، فلقد ألهبت دعوة بقايا نابليون نفس الشعب الفرنسي وأحيت ميت الأمل في قلوب آل بونابرت فلم تمض على هذا الحادث اثنتا عشرة سنة حتى كان البرنس لويس بونابرت يعتلي عرش فرنسا باسم الإمبراطور نابليون الثالث..

جريمة الماريشال ناي

كنت أقرأ وصف معركة واترلو في كتاب "البؤساء" لفيكتور هوجو، وقد وقف نظري وتفكيري عند هذه الصفحة من قلم الكاتب العظيم:

"وكان الماريشال ناي مهتاج النفس مذهولا يبحث عن الموت مستهدفًا لجميع القذائف في هذا القتال العنيف. وقد قتل تحته خمسة جياد فاعتلى صهوة السادس والعرق يتصبب من جبينه والزبد يغطي فمه والشرر يتطاير من عينيه. وقد تفككت أزرار كسوته وتقطعت شارة الكتف بضربة سيف وكسا الدم والدخان والطين رأسه ووجهه ومعصميه، وأمسك سيفه المكسور ونادى: تعالوا وانظروا كيف يموت مراشلة فرنسا في ميادين القتال. ثم اشتد به الهول وزاغ منه البصر وكبر عليه أن يرى شبح الهزيمة مقبلا فانقض بجواده يخترق الصفوف. وصاح إذ أبصر قنبلة تقتل من كان حوله من الرجال: "ألا تصيبني واحدة مثل هذه؟ كم أتمنى لو تحولت إلى صدري الآن جميع قذائف الإنجليز". كلا أيها المسكين؟ إنك لن تموت برصاص العدو لأن القدر يدخرك لتموت برصاص الفرنسيين!"

وقف نظري وتفكيري عند هذه الصفحة وجعلت أستعرض سيرة الماريشال ناي هذا القائد العظيم، أعظم أنجم تلك الثريا الرائعة من القواد الفخام الذين شيدوا عظمة فرنسا في عهد نابليون والذين دوخوا الممالك

وأذلوا الملوك وبسطوا سلطان سيدهم على أوربا ولو لم تقف في وجههم عظمة الأقدار لبسطوا على العالم. وجعلت أتأمل في مصير هذا البطل، بطل الابطال كما كان يسميه الجيش، وكما كان يسميه الإمبراطور، وكيف أبقى عليه الموت في مائة معركة حربية ليموت ميتة الخونة وليسقط تحت رصاص اثنى عشر جنديًا من جنود فرنسا الذين طالما قادهم إلى المجد في ميادين الجهاد!!

وليت شعري أي قلم هذا الذي لا يؤثر أن يجف مداده على أن يخط هاتين الكلمتين: "ناي الخائن" وأي عقل هذا الذي يتصور أن ناي يخون؟!

ناي ماريشال فرنسا، ودوق أيلشنجن، وأمير الموسكوفا، وحامل الأوشحة الكبرى من نياشين فرقة الشرف والنسر الكبير والمسيح، وحامل أوسمة التاج الحديدي والقديس لويس، وعضو مجلس الأعيان، وبطل حملة الروسيا وواجرام وبينا ومارنجو واسترلينز، ناي وهذه أسماؤه وألقابه يتهم بالخيانة العظمى ويحكم عليه بالإعدام ويموت كما يموت الخونة المجرمون؟.. حقًا لتلك كبرى الكبر وعظمى العبر وحقًا إن هذا الحكم الذي أصدره مجلس الأعيان سيظل إلى جانب الحكم على الدوق دانجان أبشع وصمة في جبين المحاكمات السياسية، وصدق من قال: إن السياسة إذا دخلت من باب خرجت العدالة من النافذة..

كان ذلك في عام ١٨١٥ وقد تنازل نابليون الأول عن عرش فرنسا وارتضى جزيرة البا [٣] مقامًا وعاد الحكم الملكي إلى فرنسا وارتقى عرشها الملك لويس الثامن عشر.

ففي السادس من شهر مارس كان الماريشال ناي يقضي أجازة طويلة بمزرعة له قريبة من مدينة شاتودان وقد جاءه رسول من قبل وزير الحربية يحمل إليه أمرًا بالترحال إلى مدينة بيزانسون حيث تنتظره أوامر مستعجلة عهد إليه في تنفيذها. ولم يكن الرسول يعلم من سر المسألة أكثر مما قال كما لم يكن لدى الماريشال من الأخبار ما يعينه على معرفة شيء مما عسى أن تكونه هذه الأوامر المستعجلة.

سرعان ما حزن الماريشال أمتعته وارتحل قاصدًا بيزانسون إلا أنه عرج في طريقه إليها على باريس. وفي باريس التقى بصديق له ابتدره بسؤاله: "وما قولك يا ماريشال في الحادث الجديد؟" قال: "أي حادث".. لست أعلم شيئًا." وهنا قص عليه الصديق أن الإمبراطور نابليون، وكأنه قد مل الفراغ في جزيرة ألبا، قد غادرها زاحفًا على باريس في جيش صغير ليسترد عرشه، وأن سكان المدائن والقرى يستقبلونه بالدعاء له والهتاف باسمه ويسيرون في ركابه إلى العاصمة، وأنه قد أوشك أن يستولي على مدينة جرينوبل بعد أن استولى على ما قبلها من المدن من غير أن يلقى مقاومة.

---

[٣] " البا " جزيرة صغيرة واقعة شرقي جزيرة كورسيكا وهي من أملاك فرنسا

سمع الماريشال هذه الأخبار وكأنه قد استعرض في ذهنه وفي خلال لحظة كل ما قد تجره على فرنسا عودة نابليون إلى الحكم واستئنافه الحروب مع أوربا، فأطرق هنيهة وقال: "تلك مصيبة" ثم نظر إلى وجه محدثه وسأل: "وأية قوة لدى الحكومة تصد بها هذا الرجل؟" وانصرف مفكرًا مهمومًا..

واسقبله وزير الحربية وأنهى إليه أن جلالة الملك، تقديرًا لشخصه ولمزاياه، قد اختاره لقيادة الحملة التي جردها على نابليون وأن عليه أن يسافر في الحال ليتصل بشقيق الملك الذي وكل إليه تجهيز الحملة والإشراف على شئونها..

وطلب الماريشال مقابلة الملك فكان له ما أراد وقال له صاحب العرش: "إنه يعتمد على مكانته بين رجال الجيش وعلى شهرته بين الشعب وعلى كفاءته العسكرية في وقف زحف بونابرت وإعادته إلى حيث كان"

وكأن هذه الكلمات المرضية للكبرياء قد صادفت الوتر الحساس في نفس الماريشال فألهته عن تذكر تعلق الشعب بنابليون وعن تذكر ضعف الحكومة الملكية وقوة خصمها، فاندفع يؤكد للملك وثوقه من النصر ويطمئنه من مخاوفه ويردد: "إنه سيضع نابليون في قفص من حديد يجره به إلى باريس"

والله يعلم أن الماريشال كان مخلصًا في هذا الاندفاع وأنه، عندما كان يرجو من الملك أن يثق به ويعتمد عليه، ما كان يسر في نفسه شيئًا ولا يبيت أمرًا، فقد خدم فرنسا في أمانة ونبالة وبطولة ولم يأبه يومًا لنظام

الحكم القائم فيها فسواء لديه أكان هذا الحكم جمهوريًا أن إمبراطوريًا أم ملكيًا أم غير ذلك. كان جنديًا في جيش الملك لويس السادس عشر، ثم ضابط صف في جيش حكومة الثورة، ثم ضابطًا فقائدًا في حكومة القنصلية، ثم ماريشالا في العهد الإمبراطوري، ثم عضوا بمجلس الأعيان في عودة الملكية. ولقد خدم في ظل هذه الحكومات المختلفة النوع المتباينة المشرب بالطمأنينة التي تشعر بها النفس المخلصة التي تعلم أنها خلقت لتقوم بالواجب. وكان يرد بما رد به الوزير تاليران على الذين أخذوا عليه تقلبه في المبادئ بتقلبه في خدمة أنظمة الحكم المختلفة: "إنني لا أخدم حزبًا وإنما أخدم فرنسا"

سافر الماريشال إلى بيزانسون مطمئنًا واثقًا، ولكنه ما وصل إليها حتى بدأ يشعر ببوادر خيبة الأمل فإن الجيش الكامل العدد والعدة الذي قيل أنه سيجده تحت إمرته في بيزانسون لم يجد منه غير فلول لا مدفعية لديها ولا يمكن الاعتماد عليها، وجاء الدوق ده ماييه من ليون وأسر إلى الماريشال أن حالة جيش الكونت دارتوا لا يمكن أن تكون أسوأ مما هي عليه، فروح التمرد والعصيان سائدة في الجنود الذين باتوا يحنون إلى إمبراطورهم العظيم، ونابليون يثير الحماسة أينما سار وتلهب طلعته النفوس حيثما حل، وما هو إلا أن يلوح للجماهير بيده أو أن يخاطبهم بكلمة من الكلمات التي يعرف كيف يتخيرها حتى تنطلق الألسنة هاتفة باسمه والأكف مصفقة له والأقدام جارية في ركابه. وهو يتنقل من بلد إلى بلد في سرعة لم تبق في نفوس الملكيين على أي أمل. وأضاف الدوق إلى هذه

الأخبار المؤسفة أن الكونت دارتوا بات في حيرة واضطراب حتى انه صار لا يلوي على شئ وأنه يرغب في الالتقاء به ليشاوره في الأمر

ورحل الماريشال إلى قرية لونس لوسونيه ليتصل بجيش الكونت دارتوا وينتظر تعليمات جديدة، وكتب إلى الملك يحيطه علمًا بحالة الجيش ويطلب تعزيز قواه بالمدفعية وبفرق جديدة من الجيش. ولكن قبل أن تصل إليه هذه المعونة البطيئة كان حاكم المقاطعة قد أنبأه بأن مدينة ليون استسلمت من غير قتال وأن الكونت دارتوا الإمبراطور. ثم راجت في الوقت نفسه إشاعة فحواها أن الملك قد غادر باريس هاربًا مع أعضاء البيت ورجال البلاط..

نعم بدأ الماريشال ناي يشعر ببوادر خيبة الأمل وأيقن أنه يدافع عن قضية خاسرة، ولكنه حاول أن يقوم بالواجب جهد المستطاع فكتب إلى وزير الحربية يشرح له حرج الموقف ويستحثه لإرسال النجدات اللازمة وذكر في كتابه: "إن بونابرت قد بهر الناس بسرعة حركاته وسرعة تقدمه. أما الشعب فقد مهد له كل وسائل النجاح هذه من أن نقوم بحركة حاسمة حتى نستأصل الداء من جذوعه وذلك لا يتيسر إلا ببذل جهود صادقة نعتمد في نجاحها على ما ستبادر بإرساله إلينا من الرجال والذخائر"

ولكن نابليون كان ينهب الأرض نهبًا ويتوغل في المدائن والقرى والدساكر كما تتوغل النار في الهشيم. فلقد استولى على ليون ثم شالون ثم بوران بريس ثم أوتين ثم ديجون وكل ذلك بغير قتال. فما هو إلا أن يهل

على بلد حتى يخرج أليه أهله هاتفين "يحيا الإمبراطور" وبالجملة فإن فرنسا كانت ترتمي بين ذارعي إمبراطورها كما ترتمي الحسناء على صدر من تحب.

وكان الرسل يسبقون نابليون إلى المدن فينبثون فيها مروجين له داعين إلى الالتفاف حوله، مذكرين السكان بعظمة الرجل الذي رفع اسم فرنسا إلى السماء الأعلى حتى شخصت إليه أبصار العالم معجبة ذاهلة. وأثمرت هذه الدعاية الواسعة النشطة ثمارها وبدأ الجنود يتمردون، وأحس الماريشال أنه فقد نفوذه في الجيش، وأن كل عوامل النصر قد تسربت من بين أصابعه، وأن العاصفة تستجمع قواها لتنقض على رأسه. وجلس يتعرض الحالة فألفى نفسه وحيدًا، فلا الملك يوافيه بأوامره، ولا وزير الحربية يسعفه بالنجدة ولا الكونت دارتوا يتصل به، وها هي المدن والقرى تفتح أبوابها في وجه الإمبراطور، وها هم الأهالي قد استولوا على المدفعية التي كانت في طريقها إليه وسلموها لنابليون، ثم ها هو نفسه لا يملك من الأمر شيئًا وليس أمامه إلا جيشه الضئيل وهو لا يثق به ولا يعتمد عليه..

وبينما هو يستعرض الحالة ويرى فيها كل سوء إذا برسل من قبل نابليون قد وفدوا إليه وسلموه رسالة من الجنرال برتران رئيس أركان حرب الإمبراطور يقول له فيها: "إن المقاومة جهد ضائع فخير لك ألا تحاول المستحيل" و"إن الإمبراطور قد غادر جزيرة ألبا باتفاقه مع حكومتي النمسا وإنجلترا وإن هاتين الحكومتين رضيتا أن يعود الى عرشه بعد أن وضعتا وإياه تسوية شاملة لجميع أنواع الخلاف التي كانت تجر إلى الحروب وإلى تعكير صفو السلام، فلا مجال إذن للخوف من أن يعود الإمبراطور

فيجر فرنسا وراءه إلى حروب لا نهاية لها" وأضاف إلى ما تقدم "إن الملك مورا صهر نابليون يسير في طليعة جيش كبير يشد به أزر الجيش الإمبراطوري فمن العبث إذن أن تعمد الى مقاومة مقضي عليها بالفشل، بل إن من الإجرام أن تسوق فرنسا إلى حرب أهلية لا تسيل فيها غير دماء الفرنسيين"

وختم الجنرال برتران رسالته بأن ذكر الماريشال بتلك الأيام المجيدة التي قادهم فيها سيدهم العظيم إلى ميادين الجهاد والشرف، وبأن كل ما ينعمون به من جاه وثروة وألقاب إنما هو من فيض نعمة ذلك السيد الذي يحق له أن يعتمد عليهم في هذا اليوم، وأن الخيانة، إذا كان ثمة خيانة، إنما هي في أن يشهر السيف في وجه ذلك الذي وضع السيف في يده ليكون له نصيرًا اذا جد الجد ودعا داعي الفداء..

قرأ الماريشال هذه الرسالة وأعاد تلاوتها ثانية وثالثة، ثم أرسل نظره إلى الأفق وحمل رأسه بين يديه وجعل يفكر: كل ما جاء في الرسالة صحيح؛ فصحيح أن المقاومة جهد ضائع، وأن جيشه لا ينتظر غير الساعة التي يهرع فيها إلى الإمبراطور ليحارب تحت لوائه، وأن الملك قد هجر العاصمة مؤثرًا راحة المنفى على عنف الجهاد، وأن كل شيء يبشر بنجاح نابليون ويؤذن بانتصاره، وأن المقاومة في مثل الحال إنما هي الحرب الأهلية من أجل قضية هجرها أصحابها وتألبت عليها القوى من كل صوب وناحية؟

ماذا يفعل؟ صحيح أنه أقسم للملك لويس الثامن عشر يمين الإخلاص والطاعة، وأن الكرامة في أن يظل مخلصًا له ومطيعًا، ولكن إذا كان الملك قد غادر ملكه وخان بفراره قضية عرشه، فمن ذا الذي يطلب من ناي أن يكون أكثر تشيعًا للملكية من الملك نفسه؟ ثم علام التشيع للملكية وفيم التحمس لها إلى حد إيقاد نار الحرب الأهلية في البلاد؟ ثم ما الذي يذكره الماريشال ناي وغير الماريشال ناي من حسنات الحكم الملكي عليه وعلى زملائه المراشلة الذين شيدوا عظمة فرنسا وبسطوا سلطانها على أوربا؟ إنهم لا يذكرون غير تلك المعاملة الشاذة القريبة من الاحتقار التي كان نبلاء البلاط يقابلونهم بها. وذلك النفور الذي كانت زوجاتهم تلقينه من دوقات البلاط وأميراته. وإنهم ليذكرون تلك السهرات الملكية التي كانت نساؤهم يعدن منها باكيات لفرط ما لقينه من سخرية النبلاء والنبيلات، كأن كل تلك الحروب الفخمة، وكل تلك الانتصارات الباهرة، وكل ذلك الشرف المكتسب في ميادين القتال، كأن كل ذلك لا يكفي ليجعل العصامي نبيلا في نظر أولئك العصاميين الذين لا يعترفون إلا بالنبيل الموروث ولا يجلون إلا المجد التليد والحسب القديم.

وبعد فماذا يكون الماريشال ناي إذا لم يكن صنيعة نابليون ورجله؟ وإذا قدر عليه أن ينسى كل شيء فكيف ينسى الألقاب وعلامات الشرف التي أغدقها عليه الإمبراطور؟ وإذا نسي ذلك فكيف ينسى تلك الذكريات العظيمة، ذكريات الحروب التي خاضها مع الإمبراطور جنبًا إلى جنب، وذكريات ذلك الماضي الحافل بالعظائم وجلائل الأمور، وذكريات

تلك السنين من حياته التي أمضاها في حب نابليون وخدمته وطاعته؟ وها هو ذا نابليون قادم بل ها هو يناديه فهل يصم أذنيه فلا يسمع النداء؟

وأخرج أحد الرسل ورقة نشرها أمام الماريشال وقال: "إن الإمبراطور يريد ان تقرأ على الجيش هذا النداء". وتناول ناي الورقة وقرأ: "أيها الضباط، أيها الجنود. إن أسرة البوربون قد قضي عليها القضاء الذي لا مرد له وآن لفرنسا أن تتحرر من سلطة الذين يحكمونها فيخنقون عواطفها ويدوسون حقوقها ولا يحترمون ما يعمر فؤادها من أمان وآمال. أيها الضباط. أيها الجنود. لقد قدتكم مرارًا تحت أعلام النصر في ميادين الشرف والجهاد، وهأنذا أقودكم اليوم إلى باريس حيث تتحقق سعادة فرنسا بما أبتغيه وتبتغونه لها من العزة في ظل اليسر والسلام.. ليحيا الإمبراطور"

وقام في نفس الماريشال صراع عنيف بين ما تمليه عليه العاطفة وما يوحيه إليه الواجب، فأراد أن يبرئ ذمته باستشارة أهل الرأي من رجاله فاستدعى الجنرال ليكورب والجنرال بورمون وعرض عليهما الأمر. ولكنهما لم يقضيا إليه برأي وتركاه ينهج النهج الذي تقضي به المصلحة الوطنية وطبيعة سير الأمور

* * *

وجمع الماريشال الجيش وتلا عليه نداء الإمبرطور وعقب عليه بقوله: "أيها الضباط. أيها الجنود. نعم إن قضية آل بوربون قد قضي

عليها القضاء الأخير. وإن الأسرة الشرعية التي اختارتها فرنسا ورضيت عنها عائدة اليوم لاعتلاء عرشها، وليس لأحد أن يدعي حقًا في عرش بلادنا الجميلة غير جلالة الإمبراطور نابليون"، وما أتم الماريشال عبارته حتى صاح الجيش بأجمعه: "يحيا الإمبراطور"، ولكن ضابطًا شق لنفسه طريقًا بين الصفوف وجرى بجواده إلى أن بلغ الماريشال وتناول السيف بيديه وكسره على مقدمة سرجه وصاح بقوة: "يحيا الملك" وأدار جواده واختفى عن الأنظار. ذلك كان الكونت ده جريفيل. وقد حذا حذوه ضابط نبيل آخر هو الكونت ده لاجنتير، فكتب إلى الماريشال كتابًا قال فيه: "بما أنني لا أستطيع أن أتغاضى عما يمليه علي الواجب والشرف وبما أنني لم أتحلل من اليمين التي أقسمتها للملك يوم أنعم علي بوسام القديس لويس فإني أغادر المعسكر في الحال غير آسف على شيء، وإذا كان في سلوكي هذا ما قد يؤثر في مجرى حياتي فإني أضحي بحياتي في سبيل واجبي"

وأقبل مدير الإقليم ومعه الكلونيل دوبالن وأكدا للماريشال بقاءهما على الولاء للملك. وكان من جراء ذلك أن أمر نابليون بالقبض عليهما وعلى الجنرال بورمون والجنرال ليكورب وبمصادرة أملاكهم جميعًا

ولم يرد الماريشال أن يظهر في مظهر الخاضع لفكرة طارئة أو المسير بإرادة غير إرادته فصرح لكل الذين اتصلوا به أنه انما ينفذ خطة مرسومة من قبل، وأنه كان على اتصال بالإمبراطور. ولقد كان لهذه التصريحات فيما بعد أثرها في الحكم عليه بالإعدام

وذهب ناي إلى بلدة اوكسير حيث التقى بنابليون فلما دخل عليه بادره بقوله: "اعلم يا مولاي اني ما أقدمت على ما أقدمت عليه تعلقًا بك ولا اعتبارًا لشخصك فلقد جرت أعمالك على وطني مصائب كثيرة وخسائر فادحة، ولقد أدخلت حروبك العديدة اليتم والثكل والأحزان على جميع الأسر والبيوت؛ لذلك أريد أن تقسم لي اليوم وأن تعاهدني على أن تعمل في المستقبل على إصلاح ما فات وأن يكون كل همك في إسعاد الشعب والعمل على إنماء رفاهيته وألا تشهر السلاح إلا للدفاع عن الوطن إذا هدد سلامته خطر. وإني أجعل هذا العهد شرطًا لانضمامي إليك هذا الانضمام الذي أقدمت عليه حرصًا على ألا تشب في البلاد نار الحرب الأهلية"

وكان عناق، وكان عتاب، وعادت الأمور بين الإمبراطور والماريشال على ما كانت عليه من قبل كأن الملكية لم تعد إلى فرنسا أو كأن عودتها كانت قوسًا فتح ثم أقفل ولم يترتب عليه شيء.

* * *

وانقضت المائة يوم وانتهت معركة واترلو إلى هزيمة نابليون ونفيه، وعاد الملك لويس الثامن عشر إلى العرش ودقت ساعة الحساب، وكان الماريشال يظن أن المادة الثانية عشرة من الاتفاقية العسكرية التي عقدت بين الدول المتحاربة تحميه من انتقام الملك، إذ أن هذه المادة تنص على: "أنه لا يجوز أن يسأل إنسان أو يحاسب أو يعاقب على أي عمل أو رأي

أو إجراء وقع منه قبل تاريخ هذه الاتفاقية" ولكن ما لبث هذا الظن حتى تبدد لما أعلن الملك عزمه على "الاقتصاص من المذنبين بقوة القانون" ولما عاد فأكد ذلك في منشور أذاعه في الشعب وقال فيه: "أمامي أفراد من شعبي لعب المضللون بعقولهم وإني أعد، وأنا الذي لا أخل بوعدي، أن أعفو عنهم جميعًا. أما المضللون، أما أولئك الذين أسالوا دماء أبنائي الفرنسيين بخيانتهم لي خيانة ليست لها سابقة في التاريخ فإني سأدفع بهم إلى عدالة المجلسين لتعاقبهم على مؤامرتهم السافلة"

وأيقن الماريشال أنه المقصود بهذا المنشور فعمل حتى حصل على جواز سفر باسم مستعار وحاول أن يغادر فرنسا إلى سويسرا، ولكنه ما إن بلغ الحدود حتى علم أن الجيش النمساوي يحرسها فحول وجهه شطر بلدة سانتالبان وأقام فيها أيامًا باسم "الماجور ريزيت" ثم دعته زوجته إلى اللحاق بها حيث كانت تقيم لدى أقاربها في قصر بسوني بمنطقة أبعد من أن تتجه اليها أنظار البوليس..

وحدث أن شاهد بعض زائري القصر سيفًا تركيًا ثمينًا قد رصع مقبضه بالأحجار الكريمة فأخذوا يتساءلون عن صاحب هذا السيف وظلوا يتساءلون ويتناقلون الخبر حتى أصبح أصحاب القصر ذات يوم وإذا بالجنود يحاصرونه وقد اقتحم بعض الضباط الأبواب باحثين عن الماريشال. وكان في القصر نفق سري يصل أحد أبراجه بغابة قريبة ، ولكن الماريشال أبى أن يفر وسلم نفسه في غير مقاومة

وتألف مجلس عسكري عال لمحاكمة الماريشال من أربعة مراشلة وثلاثة قواد وأسندت الرياسة إلى الماريشال مونسي الذي أبى ان يجلس لمحاكمة ناي، وكتب إلى الملك الكتاب الآتي:

"مولاي.. أما وقد وجدت نفسي بين أمرين فإما أن أعصي أمر جلالتكم، وإما أن أعصي ضميري فأني أريد أن أنهي إلى جلالتكم بعض ما أراه في هذه المحاكمة. إن المقصلة يا مولاي لا تنبت للعرش أنصارًا ولا أصدقاء وما كان الموت ليخيف الذين أمضوا حياتهم في مواجهته بومًا بعد يوم. وإذا كان أعداء فرنسا بالأمس وحلفاؤها اليوم هم الذين ينصحون لجلالتكم بتضحية أعلى أبناء فرنسا شأنًا وأنبههم ذكرًا فإنما ينصحون بذلك ليجعلوك يا مولاي بغيضًا إلى شعبك وليزيلوا من طريقهم تلك الرءوس الكبيرة والأسماء الضخمة التي تذكر العالم بما أنزلته بأولئك الناصحين من الذلة والصغار. إنهم لا يقصدون إلى توطيد عرشك وإنما يقصدون إلى محو عارهم، فلا تصغ إليهم يا مولاي..

أما أن أجلس لأحاكم الماريشال ناي، ولأبت في مصيره؛ فذلك لن يكون. واسمح لي يا مولاي أن أسائل نفسي وأن أسائل جلالتكم أين كان الأعداء الذين يتهمونه اليوم يوم كان ناي متخذًا أوربا ميدان قتال يرفع فيه شأن فرنسا ويعلي ذكرها؟ وإذا كانت الروسيا لا تعفو عن أمير المسكوفا فهل تنسى فرنسا بطل البيريزينا؟ [4]

---

[4] إشارة إلى بطولة ناي في حملة الروسيا تلك البطولة التي استحق من أجلها لقب الإمارة

أرجو يا مولاي ألا تغضبك هذه الصراحة من جندي قديم لم يقدس في حياته غير الواجب والوطن، وإنها لصراحة كانت تستتبع خطرًا لو أني توجهت بها إلى ميلك غير حائز لما تحوزه جلالتكم من الحكمة وأصالة الرأي. على أنه مهما يكن من الأمر فإني إذا ما مت فسأستطيع أن أردد قولة أحد أسلافك العظام: "لقد خسرنا كل شئ إلا الشرف" وعندئذ أموت سعيدًا مغتبطًا"

وقد رد الملك على هذا الكتاب الذي يفيض كرامة ونبلا بسجن موقعه ثلاثة أشهر وبعزله من منصبه في الجيش، وفي العاشر من نوفمبر سنة ١٨١٥ انعقد المجلس العسكري وغصت قاعة المحكمة بعلية القوم من وطنيين واجانب شوهد بينهم بعض الأمراء البروسيين والبرنس ميترنيخ وقواد جيوش الحلفاء. ودخل الماريشال ناي فاشرأبت إليه الأعناق وعنت له الوجوه فحيا قضاته التحية العسكرية وقابلوها بمثلها. وكان يرتدي ثوب الماريشالية ورصيعة الوشاح الأكبر من نيشان فرقة الشرف. وسأله رئيس المجلس: "هل يتفضل حضرة الماريشال فيقول لنا اسمه ولقبه ومحل ولادته وسنه ووظيفته؟". فنهض ناي متثاقلا وقال: "إني ادفع بعدم اختصاص هذا المجلس بنظر قضيتي لأني عضو في مجلس الأعيان الذي هو الجهة الوحيدة المختصة بمحاكمتي، وسيشرح ذلك لكم حضرات المحامين"

وكأنما المجلس ينتظر هذا الدفع ليزيح عن نفسه ثقل ذلك الموقف الحرج فلم تكن إلا مناقشة قصيرة أعقبتها مداولة أقصر، وأعلن المجلس عدم اختصاصه، وخرج القضاة فرحين بخلاصهم من أحد أمرين أخفهما

ثقيل وأحلاهما مر: إما الحكم بإعدام بطل من أبطال فرنسا المبرزين، وإما الحكم ببراءته ذلك ما وراءه من غضب الملك والحكومة

وأحيلت القضية لتنظر أمام مجلس الأعيان، فدافع المحامون ودافع الماريشال عن نفسه بقوله إنما فعل ما فعل لينقذ فرنسا من شرور الحرب الأهلية، واعترف بأنه أخطأ خطأ لا يزري بالكرامة ولا يجوز اعتباره جريمة لا تغتفر. وترافع النائب العام فقال: "إنها لظروف قاسية تلك التي تهدم طودًا من المجد والبطولة وتعصف بماض حافل بالعظائم فلا تدعه إلا وهو أكوام من الطين القذر. وإنه لشديد على نفوسنا أن يكون الماريشال ناي الذي تدثر بالمجد والعظمة طول حياته العسكرية، هو نفس المتهم الذي نحاسبه اليوم على أخس خيانة يرتكبها الأثمة المجرمون. على أن كل ماضي الماريشال لا يمكن أن يشفع لحاضره ولا أن يلطف من قسوة حكم التاريخ عليه. تسألونني عن الدافع الذي حدا به إلى سلوك هذا المسلك المعيب، فأقول لكم إنه حاد عن طريق الشرف ليسلك طريق المنفعة"، وما نطق النائب العام بهذه الجملة حتى انتفض الماريشال من مقعده غاضبًا محنقًا ووثب على خصمه كأنه يريد أن يفتك به وصاح: "اخرس أيها الحقير" ولكن محاميه تغلب على ثورته وأجلسه وهو يزمجر كالأسد الغاضب..

وحدث أن عمد محاميه إلى دفع يبطل اختصاص مجلس الأعيان بنظر القضية فقال إن الماريشال ناي مولود بمدينة سارلوي التي فصلت عن فرنسا بمقتضى المعاهدات الأخيرة، فإن يكن فرنسيًا اليوم بقلبه فهو ليس فرنسيًا بمولده ولا بموطنه. وعندئذ هب الماريشال مرة أخرى وصاح في وجه

محاميه: "ماذا تقول يا هذا؟.. إنني ولدت فرنسيًا وأريد ان أموت فرنسيًا، فقل شيئًا غير ذلك أو فاسكت"

واختلى المجلس للمداولة وطالت هذه المداولة وتشعبت فيها الآراء ووقف الدوق ده بروجلي ودافع عن الماريشال دفاعًا مجيدًا وقال: "لا يمكن أن تكون جريمة ما لم يتوافر سبق الإصرار وليس بيننا من يقول أن الماريشال ناي قد نفذ مؤامرة مدبرة من قبل. وكل ما يمكن أن يقال في الموضوع الذي نحن بصدده أن الماريشال قد انساق في اللحظة الأخيرة أمام دافع من عواطفه وخضع لحكم الظروف المحيطة به. وهذه ولا شك سقطة ذات خطر ولكنها ليست بالجناية التي تقع تحت طائلة القانون. واعلموا أيها السادة أن من الحوادث ما يتغلب على إرادة البشر فمن الظلم أن نترك تقديره إلى حكمة البشر أو أن نحكم فيه عدالة الإنسان فاتركوا سقطة الماريشال ناي لحكم التاريخ والتاريخ أعدل الحاكمين"

ولقد كان هذا قولة الحق ولو أنصف مجلس الأعيان لأخذ بها، ولكن قل ما تسيطر الحكمة على المحاكمات السياسية، لذلك صدر حكم المجلس بإعدام الماريشال ناي فخر فرنسا وبطل أبطالها رميًا بالرصاص، وتوزعت الأصوات بالشكل الآتي:

١٣٨ صوتًا بالإعدام و٥ أصواب لم تبد رأيًا وصوت واحد بالبراءة

وأصغى الماريشال إلى الحكم الرهيب في أكثر ما يمكن من الشجاعة ورباطة الجأش والرزانة حتى إن كاتم سر المجلس وهو يقرأ الحكم أراد أن يسرد ألقاب الرجل فقاطعه هذا قائلا: "دعنا من كل هذا يا سيدي وقل ميشيل ناي" واستقبل في السجن مسجل العقود وسلمه وصيته ثم استقبل زوجته وأولاده فكانت مقابلة مؤثرة ظلت الماريشالة تبكي وتنتحب في خلالها حتى وقعت فاقدة الصواب. وأراد الرجل أن يخفف عن امرأته بعض من حزنها فأوعز إليها أن قد يكون هناك بعض الأمل في إنقاذه إذا هي قابلت الملك والتمست منه العفو عنه

ولقد كتب الماريشال إلى شقيق زوجته كتابًا مؤثرًا قال فيه: "انتهت قضيتي وقد قرأ عليَّ كاتم أسرار المجلس الحكم بإعدامي، فأرجو ألا تفاجئ والدي الشيخ بهذا النبأ المزعج الذي قد يكون له وقع سئ على أيامه الأخيرة. وقبل أن تنقضي ثمانون ساعة أكون قد لقيت الله، ولست آسف إلا على شيء واحد، وهو أنني لم أتمكن من خدمة وطني أكثر مما فعلت، ولكن الله يعلم أني صادق عندما أقول إني لم أفعل شيئًا يؤنبني عليه ضميري"

وجاءت عربة أقلت الماريشال من سجنه إلى مكان الإعدام. ونزل الماريشال واتجه مباشرة إلى الحائط وأسند اليه ظهره مواجهًا فصيلة الجند التي ستنفذ الحكم فيه. ولما طلب منه قائدها أن يجثو على ركبتيه قال: "ألا تعلم يا ولدي أن رجلا مثلي لا يجثو إلا أمام الله؟". ولما أرادوا أن يعصبوا عينيه ابتسم وقال: "إني أمضيت خمسة وعشرين عامًا من حياتي وأنا

أستقبل رصاص جيوش أوربا وقذائف مدافعها فلا تخيفني بنادقكم أيها الأطفال!؟"

وبعد هنيهة فتح الماريشال فمه ولكنه لم يتكلم، فسأله الضابط إذا كان يريد أن يقول شيئًا فقال: "إنني أحتج على الحكم الذي أصدروه ضدي، أحتج عليه أمام الناس أمام الله وأمام التاريخ، والآن قم بواجبك يا سيدي"

وسدد الجنود بنادقهم الى رأسه فصاح: "اضربوا في القلب أيها الجنود"، وسقط على الأرض جثة هامدة..

جريمة وفاء

لعمري اننا نظلم الطبيعة ونظلم الإنسانية معها عندما نزعم أننا نشاهد في القصص الخيالية والروايات التمثيلية مالا نشاهده في الحياة الدنيا من المثل العليا لفضائل الإنسان، فهذا سفر الحياة حافل بالحوادث والأسماء التي تشهد بأن النبل والمروءة والكرم والشهامة والوفاء والشجاعة والإيثار والتضحية، فضائل لم تعقم عنها الإنسانية عصرًا من العصور، وبأن هذه الفضائل كانت ولا تزال تتجلى من آن لآخر في بعض النفوس فتتشكل أشكالا رائعة تعجز أخصب المخيلات عن خلق مثلها أو الإتيان بما يقرب منها

ولعمر الحق إذا نجح واضعو القصص ومؤلفو الروايات في خلق أبطال يخرجونهم للناس مثلا عليا للفضائل الإنسانية والمعاني السامية، فإن أولئك الأبطال لا ينالون من عطفنا وإعجابنا بعض ما يناله هؤلاء الذين تخرجهم لنا الحياة بين حين وحين، ذلك لأن المؤلف إنما يصور في قصصه شخصيات وهمية يبدع في زخرفها وتنميقها ما يشاء له فنه أن يزخرف وينمق. أما الشخصية التي تنجبها الطبيعة فشخصية حقيقية تحتاجها وتضرب للناس المثل الأعلى للصفة التي تتجلى بها، ثم تقضي ويطويها الزمن، فتذهب متواضعة على عظمتها، حيية على جلالها، غير مزهرة ولا مفاخرة، بل غير طامعة في أن يذكرها الخلف أو يرعاها التاريخ، ثم يأتي المؤرخ – إذا أتيح له أن يأتي – فيعثر بها وهو ينبش في أنقاض الماضي

فيخرجها من بين تلك الأنقاض عظيمة رائعة لا أثر فيها للصنعة ولا للتعامل، أحق بتقديرنا وإجلالنا، وأولى بعطفنا وإعجابنا من كل ما صنفه المصنفون وتخيله المتخيلون.

* * *

ولدت جورجين ده شاستلكس قبيل الثورة الفرنسية الكبرى من أبوين عصاميين ينتسبان إلى أسرة فنيت أجيال عدة منها في خدمة الملك والملكية، فلما عصفت ريح الثورة بفرنسا عانت أسرة شاستلكس ما عاناه سائر النبلاء وقتئذ من عسف واضطهاد، وقاست جورجين، وهي بعد طفلة لم تتجاوز السادسة من عمرها أهوال الهجرة مع أهلها ومتاعب الاغتراب خارج وطنها، وعانت ما سبق الهجرة من فرار تحت جنح الظلام، وتسلل بين الأحراش والأدغال في الغابات، وسكنى الأقبية والمخابئ في البيوت، والتنكر في شتى الأثواب وتحت مختلف الأسماء، وتوقع الموت في كل لحظة ومكان!

فلما عادت الأسرة إلى فرنسا سنة ١٨١٠ كان الإمبراطور نابليون الأول يحكم البلاد، وقد تغيرت الأحوال وعفت آثار الملكية وألغيت امتيازات الأشراف وتهدمت الحواجز بين الطبقات، وقامت نظم غير النظم ونشأ رجال غير الرجال حتى كان العائدون من المهجر يحسبون أنفسهم غرباء في وطنهم العزيز

ولقد أحصت الأسرة ضحاياها وخسائرها في ذلك الانقلاب فإذا عشرة منها قضوا نحبهم بسكين المقصلة وعشرة غيرهم لقوا حتفهم في الحرب الأهلية، وإذا قصر شاستلكس الأثري الفخم لم يبق منه سوى خرائب وأطلال بالية، وإذا المزارع الواسعة المحيطة به قد صودرت، وإذا معالم العهد الماضي السعيد قد زالت ولم يبق منها سوى الذكرى تلهب الأفئدة وتضني القلوب، والحسرة تؤجج نيران الحقد والبغضاء في النفوس..

في تلك البيئة المترحمة على العهد الزائل، الحاقدة على النظام القائم، لم تكن الفتاة جورجين ده شاستلكس تسمع من أهلها إلا عبارات الأسف على الماضي السعيد واللعنة على الحاضر البغيض، فكل المحاسن والفضائل والرخاء والسعادة واليسر والأمن أشياء مصدرها الملك والملكية، وكل المقابح والرذائل والأزمات والعسر والمجاعة والحرب أشياء مصدرها الكورسيكي اللعين الذي اغتصب عرش الملوك ونصب نفسه إمبراطورا على شعب لا يريده ولا يصبر عليه. فلا عجب إذا شبت فتاتنا ملكية المنازع والميول تمقت الإمبراطور والإمبراطورية وتمقت ما يمت إليهما بصلة أو تربطه بهما رابطة.

* * *

بلغت جورجين العشرين ربيعًا وكانت تعيش بين ذوي قرباها هادئة وادعة تستمتع إلى شكاياتهم الدائمة وتواسي قلوبهم الدامية وتحاول أن تسري عنهم بظرفها ومرحها ذكريات موتاهم وخسائرهم وما قاسوه من

هموم ومتاعب وأحزان، وبينما هي تحيا حياتها المتشابهة الراكدة لا تفكر إلا في شؤون الأسرة ولا تعني إلا بتوفير أسباب العزاء والهناء لأبويها، إذ الأقدار تسوق إليهم قريبًا كانت تجهله فينزل بيتهم ضيفًا ليومين..

أما هذا القريب فضابط شاب شارل ده لابيدواپير اجتمعت فيه صفات ومزايا قلما تجتمع في شخص واحد، فلقد كان في الخامسة والعشرين من عمره جميل الوجه وسيم الطلعة جذابًا حسن البزة مرح المزاج غنيًا نبيلا ذا رتبة عالية في الجيش. بيد أن تلك المزايا والصفات لم تكن لتشفع عند آل شاستلكس في وصمة قبيحة فيه، فلقد كان شارل ده لابيد واپير ضابطًا في جيش الإمبراطور نابليون

نعم كان الشاب الجميل يخدم الغاصب ويحمل أوسمة الكورسيكي اللعين، وكان يؤيد النظم الحديثة الكريهة التي قامت على أنقاض الماضي المحبوب، والتي عانت بسببها أسرة شاستلكس ما عانت من المصاعب والأهوال. ولقد انتظم شارل في الجيش سنة ١٨٠٦ وما لبث أن امتاز بشجاعته وإقدامه فرقاه نابليون الى رتبة كابتن وأنعم عليه بنيشان فرقة الشرف، ثم ألحقه بمنصب الياور أوجين نائبه في إيطاليا. وبعد أن لبث بإيطاليا سنتين امتاز خلالهما بخدمات جليلة أنعم عليه الإمبراطور برتبة الكولونيل وعاد إلى فرنسا يحمل شارة هذه الرتبة العظيمة التي يحسده عليها كهول العسكريين.

على أن الشاب برغم هذه الوصمة التي لا يتسامح فيها أمثال الكونت ده شاستلكس، قد حل بين الأسرة أهلا ونزل بها سهلا وأجمع أفرادها على أنه شاب كان يكون كاملا لو لم يبتله الله بأن يكون ضابطًا بجيش نابليون..

وأقام شارل بين آل شاستلكس ضيفًا ثماني وأربعين ساعة ارتحل بعدها إلى باريس تاركًا في نفس الجميع أحسن الأثر من مناقبه ومزاياه، وأشد الأسف على الحالة التي ارتضاها لنفسه بخدمة الغاصب الملعون.. أما الآنسة جوزفين فلم تكن تعني بالسياسة عناية أبويها بها وإذا كانت تمقت عهد نابليون لأن والديها غرسا في نفسها بذور هذا المقت، فهي لم تكن ليسعها أن تتجاهل الشأن الرفيع الذي بلغته فرنسا في ظل هذا العهد، ولا أن تعمى عن تلك الإصلاحات العظيمة التي أدخلتها إدارة نابليون الحازمة الموفقة على أحوال البلاد.

ولقد كان للثماني والأربعين ساعة التي قضاها شارل لابيد وايير في بيتهم أثر في نفسها لم تتبين كنهه أول الأمر، فلما أخذت تفحصه ظهر لها أن عاطفة قوية تدفعها نحو ذلك الشاب وأن هذه العاطفة هي الحب. لا بل لقد أحست أنه هو الآخر يحبها وأن الثماني والاربعين ساعة قد فعلت في نفسيهما ما تفعله السنون الطوال وربطتهما برباط قوي لا ينفصم ولا يلين.

حارت الفتاة في أمرها فلم تدر لمن تبوح بسرها ولا من تستنصح وتستثير! فأبوها رجل مغلق القلب لا سبيل لمثل تلك العواطف الرقيقة إليه، وهي فضلا على ذلك لا تستطيع أن تفتح له فؤادها وتفضي إليه بأن كل آمالها في الحياة قد تركزت في هذا الشاب البونابرتي النبيل المتسمم بحب نابليون..

إذًا لا بد من أن تكتم أمرها وتصبر، ولكن ما أمر الصبر إذا طالت الأيام والشهور! فهذا شارل يقاتل في الروسيا وهي لا تدري ما كتب له في لوح القدر. وقد تواترت الأنباء بأن كارثة كبيرة حلت بجيش الإمبراطور، ولكنها أنباء غامضة لا تدل على شيء معين ولا تقفها على ما كان من نصيب حبيبها في الكارثة..

وينقضي عامان ويعود نابليون من حملة الروسيا بفلول الجيش تاركًا زهرة شباب فرنسا تحت الثلوج، ويعود معه الكلونيل لابيد وايير فتنتعش آمال جورجين وتلبث تنتظر الحبيب المتوقع أنه لا محالة سوف يجئ، ولا يطول الانتظار بالمحبة المدلهة فيتقدم الشاب إلى اهلها طالبًا يدها فينشب في نفس الكونت ده شاستلكس عراك بين عواطفه ومبادئه ينتهي به إلى التسليم. وبعد فلم لا يسلم والأحوال جميعًا تنبئ بقرب سقوط العملاق وخلاص فرنسا منه؟ لقد فنيت جيوشه في السهول الروسيا، وتلك أوربا كلها متألبة عليه، وذلك لويس الثامن عشر يتأهب للجلوس على العرش ويعلن أنه يعفو عن الجميع حتى ليشمل العفو رجال الحكومة العرفية والمحكمة الثورية الذين أعدموا أخاه بسكين المقصلة. فطريق الهداية معبد

أمام لابيد وايير ولن يعتبر سابق خدمته للإمبراطور أكثر من زلة في الحياة سوف يكفر عنها باخلاصه وولائه للملك يوم يعود..

ويبتدئ عام ١٨١٤ حافلا بالبشائر للملكيين، فهذا نابليون يقاتل أوربا المتحالفة عليه قتال اليائس والنصر يتسرب من بين أصابعه في معركة ليبزج ثم في معركة دارسي، وهذا نجمه يخبو ويؤذن بالأفول، فعلام الإحجام والتردد؟

وتزف جورجين إلى شارل في حفلة فخمة ويسافر العروسان إلى الريف لتمضية شهر العسل. بيد أن العسل لم يكن حلوًا كما كان الخطيبان يتمنيان؛ فالآراء السياسية مهما قيل، عقائد مصدرها العاطفة، ولا فائدة من تحكيم العقل فيها، فإذا اصطدمت تلك الآراء كان لاصطدامها أثر في الرابطة التي تربط أصحابها مهما كان نوعها وقوتها. ولقد كانت لشارل ميوله البونابرتية يحاول أن يخفيها جهد الطاقة عن زوجته. وكانت لجورجين نزعتها الملكية تحاول هي الأخرى أن تخفيها جهد الإمكان عن زوجها. ولكن هذه المحاولات المخلصة من الجانبين لم تكن لتستر حقيقة الواقع، فلقد ظل شارل خلال الأشهر الأولى لزواجه دائم الهم كثير الاكتئاب يروح ويجئ مشرد الفكر مشتت العواطف، يتغيب عن بيته فلا يعنى بأن يستأذن زوجته، ويعود فلا يعنى بأن يبين لها سبب تغيبه، وتسأله جورجين عما يشغل باله فيصرفها عنه بأدب ولين ليغرق في بحر من الهموم والتأملات..

وفي الأيام الأولى من شهر أبريل سنة ١٨١٤ يزحف الحلفاء نحو باريس ويعتزل نابليون العرش ويقيم بقصر فونتنبلو ريثما يبت أعداؤه في مصيره، فيتنكر له المراشلة والقواد والوزراء ورجال الدولة، بل ويهجره أصدقاؤه وأقرب الناس إليه، فيعز على لابيدواييр أن يبقى الإمبراطور وحيدًا فيهرع إليه ويقيم إلى جانبه في القصر يخدمه ويواسيه، حتى لا يقال إن نابليون العظيم لم يجد في محنته رجلا لبث على وفائه له بعد أن كان حتى الأمس معبود الجميع..

ويبلغ الخبر الكونت شاستلكس وذويه فتثور ثائرتهم على شارل ويرمونه بالجنون، ويرون في وفائه لسيده جريمة نكراء. وكيف لا يكون هذا الوفاء جريمة والأسرة كلها تتأهب لاستقبال الملك لويس الثامن عشر وتتمنى لو تقدم إلى جلالته صهرها الجديد!

وتكتب إليه زوجته الرسالة تلو الرسالة ملحة في أن يعود إلى الصراط المستقيم، فيرد عليها بأن الصراط المستقيم أنما هو صراط الواجب والشرف، وأن لا واجب ولا شرف إلا في الوفاء للإمبراطور. ثم يزيد الطين بلة فيرسل إلى وزير الحربية استقالته من منصبه بالجيش، ويكتب إلى أهله أنه لا يريد أن يكون بين اللئام الذين تنكروا للسيد المنكوب ليستقبلوا الشمس المشرقة ركعًا خاشعين..

ويضع الإمبراطور قائمة بأسماء الضباط ورجال الحاشية الذين اختارهم ليصحبوه إلى منفاه بجزيرة البا فيدخل عليه شارل لابيد واييр

ويجثو أمامه متوسلا إليه ان يجعل اسمه في القائمة، فينهضه الإمبراطور ويربت على يديه شكرًا وتقديرًا ويقول له: "إني لا أريد أن أحرمك التمتع بعروسك التي تحبك وإني أعلم أنها حامل فابق إلى جانبها لتعتني بها وبالطفل الذي تنتظره منها" فيزداد شارل تشبثًا وإصرارًا وتنهمر الدموع من عينيه ويقول: "ما دمت لا تريدني في خدمتك يا مولاي فلا أقل من أن تسمح لي أن أتبعك عن بعد" ويكبر الإمبراطور في صاحبه هذا الوفاء العظيم فيعانقه ويؤكد له أنه لن ينساه ثم يقتاده إلى الباب قائلا: "اهنأ بعروسك وطفلك يا ولدي واذكر أنني قادرك وقدرك، وإنك حائز لصداقتي وإعجابي"

ويرحل نابليون إلى جزيرة البا ويقتعد لويس الثامن عشر العرش ويعود شارل إلى بيته محزون النفس مهموم العقل، وبينما تحاول زوجته أن تترفق بعواطفه وتجامل إحساسه فتخفي فرحها لعودة الملكية كان هو لا يستطيع أن يستر حنقه على ذلك الملك الحقير الذي لم يأنف العودة إلى عرشه تحت لواء أعداء وطنه يحميه الإنجليز والبروسيون، والذي رضي أن يرى إسكندر قيصر الروسيا يتحكم في فرنسا ويملي إرادته على حكومتها وشعبها..

ويغلب هذا الحقد على الملك والملكية في قلب الضابط الشاب كل عاطفة فيهرع كل يوم إلى قصر المالميزون حيث تسكن الإمبراطورة جوزفين مطلقة نابليون فيفضي إليها بهواجس نفسه ويظل يتردد عليها ويجد بجانبها تسلية لكربه وعزاء لهمه، حتى تبتدى له الناحية الخبيثة من روح

تلك المرأة ويدرك أنها تخادن القيصر إسكندر وتعالج بكل الوسائل ما فعلته السنون بجمالها لعلها تعجبه فيتخذها خليلة، فتتقزز نفس شارل من هذا التبذل والغدر ويهجر قصر المالميزون إلى غير رجعة، ولكن حنينه إلى أهل الإمبراطور يدفع به إلى قصر سانلو حيث تقيم الملكة هوتانس وولداها ابنا أخي نابليون فيتولى بنفسه تربية الطفلين وتعليمهما غير متنبئ بأن أحد الطفلين يعتلي يومًا عرش فرنسا باسم الإمبراطور نابليون الثالث

وفي تلك الأثناء يحاول أشقاء جورجين وأبوها ان يحملوا صهرهم العنيد على العدول عن مسلكه ويؤكدون له أن مجرد إعلان ولائه للملك كفيل بأن يعيده إلى منصبه بالجيش ويشيرون إلى المستقبل الباهر الذي ينتظره والذي هو جدير به. ولكن شارل لا يزداد إلا تأبيًا وإصرارًا، فتعاف نفسه خيانة سيده ويكبر عليه أن يحمل شارة الملكية التي لا تشرف حاملها ولا تشرف فرنسا في شيء..

وييأس حموه من إقناعه ولا يرى في تأبيه إلا نزوة من نزوات الشباب لا تثبت أمام الأمر الواقع، فيبذل المسعى لدى الملك من تلقاء نفسه حتى يحصل لصهره في شهر سبتمبر سنة ١٨١٤ على لقب كولونيل لإحدى فرق الجيش المعسكرة بمدينة شامبيري. وهكذا يرى شارل نفسه برغم أنفه ضابطًا بجيش الملك..

بيد أن هذا المنصب لا يطيب له ولا يستهويه بل ولا يتفق وميوله البونابرتية، لذلك يعرض عنه أول الأمر فلا يزال به حموه وزوجته حتى

يحملاه على قبوله فيقبل اللقب كارهًا، ولكنه يرفض العمل ويلتمس أجازة طويلة يقضيها إلى جانب زوجته..

وتضع جورجين طفلا ينصرف إليه شارل بكليته فينسى السياسة والحزبية إلى حين ويخصص كل وقته لهذا الطفل المحبوب ويظل مغمورًا بنشوة الفرح حتى يفيق منها على صوت أمر يأتيه من وزير الحربية يفضي بأن يلتحق بفرقته بشامبيري في الثامن من شهر فبراير إذ أن بعض الطوارئ يقتضي إلغاء جميع الأجازات الممنوحة لضباط الجيش..

ويسافر شارل إلى شامبيري ويتولى قيادة الفرقة فيوافيه في اليوم التالي أمر بالسير إلى مدينة جرينوبل لصد العدو الزاحف عليها..

ومن هو هذا العدو؟ – هو نابليون!..

نعم العدو هو الإمبراطور نابليون نفسه، فلقد فر العملاق من منفاه بجزيرة البا واكتسح جنوب فرنسا، وها هو ذا يسير إلى جرينوبل في طريقه إلى باريس لاستعادة عرشه..

ألا تبًا للأقدار ما أقساها! فلقد أبت إلا أن يكون لابيدوايير أول متراس تنصبه الحكومة الملكية في وجه الإمبراطور فتوقفه بذلك موقفًا محيرًا لا سبيل إلى النكوص عنه ولا سبيل إلى الإقدام عليه..

ولكن شارل جندي، والجندي عبد النظام والطاعة، وما دام النظام والطاعة يقضيان عليه أن يسير فليسر وليكن بعد ذلك ما يكون.. قاد

لابيدوايير فرقته إلى جرينوبل وعسكر بها يومين حتى بلغها نابليون فبرز للقائه خارج المدينة، فما أن التقى النظر بالنظر وما أن شاهد شارل جنوده الأقدمين يسيرون في ركاب إمبراطورهم العظيم حتى اضطرب منه القلب وزاغ البصر، فرفع يده ليأمر عسكره بالضرب ولكن لسانه لم يطاوع اشارته فصاح: "ليحيا الإمبراطور" ثم لم يتمالك نفسه فهرع إلى سيده وعانقه وأشار إلى فرقته فصاحت هي الأخرى: "ليحيا الإمبراطور"، ودخل لابيدوايير مدينة جرينوبل فاتحًا في ركاب نابليون..

فر الملك من باريس واستعاد نابليون عرشه فكان شارل لابيدوايير من أقرب المقربين إليه، ولقد رقاه إلى رتبة القائد وعينه عضوًا بمجلس الأعيان وأنعم عليه بلقب الكونت واختاره ياورًا له، وبات الجنرال الشاب قرير العين هادئ البال لا شئ يشغله الا أن يصرف زوجته وأهلها عن نزعتهم الملكية ويضمهم إلى صف الإمبراطور فتتم نعمة الدنيا وهناء الحياة، ولكن الهناء عارية لا تدوم، فها هي الحرب على الأبواب وها هو الإمبراطور يتأهب لخوض غمار معركة ضد دول أوربا الكبرى فلا بد من امتشاق السيف والسفر إلى الميدان..

ويبلي شارل لابيدوايير في معركة واترلو أحسن البلاء حتى ليأتي من أعمال الشجاعة ونسيان الذات ما يقصر عنه الأبطال، ولكن النصر بيد الله، وقد شاء الله أن ينهزم العملاق مرة أخرى فكانت هزيمته في سهل واترلو الضربة القاضية التي استطارته من ذروة العرش إلى المنفى السحيق بجزيرة القديسة هيلانة.

وانهارت الإمبراطورية للمرة الثانية بعد مائة يوم من قيامها، وعاد لويس الثامن عشر إلى العرش فأحاط به نصحاء السوء يزينون له وجوب معاقبة "الخونة" الذين تخلوا عنه وانضموا إلى نابليون، وانطلقت الأحقاد من الصدور وغمرت الحزازات النفوس وطغت شهوة التنكيل والانتقام في نفس الملك على كل عاطفة من عواطف الكرم والترفع والتسامح؛ فأمر بإعداد قائمة بأسماء "الخونة" وأخرى بأسماء "المشبوهين" واندفعت السلطات الشرطية والقضائية تقبض وتفتش وتحقق وتسجن حتى لم تبق على أحد مهما كبر شأنه وعظم تاريخه ومجده

واذ أبصر آل شاستلكس الماريشال العظيم "ناي" يسقط جثة هامدة تحت رصاص الجنود تنفيذًا لحكم الإعدام الصادر عليه جزاء خيانته للملك وانضمامه للإمبراطور، أدركوا أن نفس هذه الخاتمة لا محالة محيقة بصهرهم وأن دوره آت لا ريب فيه فحببوا إليه الفرار من باريس..

وتردد شارل في الهرب أول الأمر، ولكن ذوي قرباه وأصدقاءه ألحوا عليه فقرر الارتحال إلى سويسرا، غير أنه أراد أن يرى زوجته وابنه قبل سفره فعاد إلى بيته متخفيًا تحت جنح الظلام، ولكن الشرطة كانوا له بالمرصاد فقبضوا عليه وأودع السجن وحكم عليه بالإعدام..

هنا تتجلى أمامنا نفسان في أروع ما يمكن أن تتجلى فيه النفوس من مظاهر العظمة والبطولة والحب والوفاء، فإن جورجين تلك الشابة المتواضعة المستسلمة الوديعة لم تكد تعلم أمر الحكم الذي قضى بإعدام

زوجها حتى آنت في نفسها شجاعة النمرة فانطلقت تثير الأرض والسماء في سبيل إنقاذه. فها هي تلك تدفع أباها وأمها وأخويها الى ساحة الملك ليطلبوا منه العفو، وترتمي على قدمي الوزير تاليان فإذا أعرض عنها لم تيأس بل تذهب إلى الإمبراطور إسكندر قيصر الروسيا المقيم بباريس وتتوسل به لتخليص زوجها، فاذا صرفها عنه معتذرًا لجأت إلى صديقته المحبوبة مدام كرودنر، ثم تبتهل إلى الوزير فوشيه وتحاول أن تستعطفه فلا يرق لها ولا يعطف، فتقصد باب دوقة أنجوليم بنت أخي الملك، ولكنها توصد بابها ولا تستقبلها. ثم لا تيأس بعد كل هذا فلا تدع كبيرًا ولا عظيمًا ولا ذا نفوذ إلا وتتوسل به إلى الملك باكية منتحبة، فإذا سدت في وجهها الطرق وتخلى عنها الأنصار والأصدقاء اعترضت سبيل الملك نفسه وارتمت على قدميه صائحة: "عفوك يا مولاي. عفوك يا مولاي" ولكن الملك يعرض عنها هو الآخر ولا يتأثر بدموعها ولا بمنظرها وهي مغمى عليها فوق درجات سلم القصر تتمتم بصوتها الخائر المتصدع: "زوجي.. زوجي". وتعود في اليوم التالي إلى القصر حاملة طفلها وتحاول أن تقتحم باب غرفة الملك فيصدها عنه الحجاب والأمناء فتبكي وتعول ثم تصيح وتولول فيخرج لويس الثامن عشر ليقف على جلية الأمر فتجثو أمامه وتبتهل: "لست أطلب الرحمة له ولا لي يا مولاي بل أطلبها لهذا الطفل البرئ" فيظل الملك جامد الإحساس أمام هذه النفس الممزقة، فتقف زائغة البصر مشتتة العقل كالنمرة الهائجة وتمزق جلد عنقها بأصابعها وتقطع شعرها بيديها وتصيح: "لقد أفنينا العمر في محبتك يا مولاي وكنا نظنك خيرًا من ذلك" ثم تقع مغشيًا عليها فيبكي الطفل ويجيل ذراعيه الصغيرتين

بين الملك وأمه فيحدث هذا المشهد أثره في نفس لويس الثامن عشر فيطرق مليًا ثم يرفع رأسه ويقول لمن حوله: "اسعفوا الأم بالعلاج وطمئنوها، فسوف أنظر في المسألة وأصدر أوامري"

وفي المساء استدعى وزير الحقانية الكونت دي شاستلكس وأفضى اليه بان الملك يعفو عن الجنرال لابيدوايير إذا رضي أن يستعطف جلالته بكتاب يعترف فيه بجريمته ويبدي ندمه عليها واستعداده للتكفير عنها بالإخلاص لذاته والولاء لعرشه..

استبشرت الأسرة خيرًا وذهبت جورجين في الصباح الباكر إلى السجن تحمل نص الكتاب ودخلت على زوجها متهللة النفس مشرقة الوجه وارتمت بين ذراعيه قائلة: "لقد نجوت يا حبيبي شارل" فظن الزوج أول وهلة أن أريحية الكرم قد دفعت الملك إلى العفو عنه بلا شرط ولا قيد فعانق امرأته وقال: "لولاك يا جورجين ولولا طفلنا ما قبلت العفو من هذا الرجل" وعندئذ مدت إليه جورجين الكتاب وقالت: "لم يبق إلا أن تضع اسمك تحت هذا الكلام وتمسي حرًا طليقًا"

تناول شارل الكتاب، وقرأه فارتجفت يده ثم تأمل فيه وأعاد قراءته وهز رأسه وقال: "مسكينة أنت يا جورجين فإن سلسلة آلامك لم تنته بعد" قالت: "وكيف ذلك؟" قال: "إن العفو متوقف على التوقيع" قالت: "نعم" فطوقها بذراعيه وانحدرت دمعتان ساخنتان من مآقيه وقال: "هل تظنين يا حبيبتي أني أنزل الى هذا الدرك الأسفل من الهوان؟".. قالت: "فكر في

العاقبة يا شارل واذكرني واذكر ابنك".. قال: "وهل غلت الحياة حتى نفتديها بالشرف، أم هان الشرف حتى لنشتري به الحياة؟ إني أفكر في شرفك وشرف ابنك يا جورجين فهل يطيب لك أن تعيشي زوجة الخائن فاقد المروءة والكرامة، وهل ترضين لطفلنا أن يشب ابنًا لرجل أنكر ماضيه ومبدأه ونسي شرفه في ساعة ضيق وشدة؟"

– شارل.. شارل العزيز.. إنك تقتلني

– جورجين يا صديقتي المحبوبة إن الحياة عزيزة، وإنها لهنيئة إذا حييتها إلى جانبك، ولكن الثمن الذي يطلبونه أغلى لدي من الحياة.. دعيني أمت ولخير لك أن تعيشي أرملة رجل شريف من أن تظلي زوجة مرتد حقير..

وفي هذه اللحظة سمع الشابان دقات الباب وصوت السجان يؤذن بانتهاء أجل المقابلة، فخرجت جورجين تجر ساقيها المتخاذلتين وتستند إلى الحائط بيدها وهي تكاد لا تبصر ولا تعي حتى إذا سمعت صوت الباب يوصد من خلفها التفتت ناحيته وصاحت: "شارل.. شارل"، ولم تستطع أن تزيد على ذلك كلمة فسقطت على الأرض وهي تشير إلى الباب بيدها ولا تفوه ببنت شفة فحملوها إلى عربتها وصحبها أحد ضباط السجن إلى البيت.

وفي اليوم التالي كانت الجماهير قد احتشدت أمام السجن وأحاطت بالعربة المعدة لنقل المحكوم عليه إلى مكان التنفيذ، وكان الجنود

يحرسون الممر الموصل من السجن إلى العربة شاكي السلاح وقد وقفت جورجين بين الجماهير تحمل طفلها..

وفتح الباب وخرج منه الجنرال لابيدواپير فما أبصرته زوجته حتى جعلت الطفل على الأرض وأسرعت إليه باكية. وكان الحراس يدفعونها عنه فتدافعهم وتتعلق بزوجها تارة وتحاول أن تتسلق سلم العربة تارة أخرى، وظلت تجاهد وتقاوم وتصيح حتى خارت قواها وفقدت توازنها فتلقاها شارل بين ذراعيه وقبلها قبلة حارة طويلة وعهد في العناية بها إلى أحد خدامه ثم هرع إلى ابنه فحمله وعانقه وأسلمه إلى الخادم قائلا: "الوداع.. الوداع" وأخذ مقعده من العربة ولوح للجماهير بيده مسلمًا وانطلقت الجياد بالعربة إلى ساحة التنفيذ..

الملكة أورتانس

هذه مائة سنة تكاد تنصرم على وفاة أورتانس دي بوهارنيه، ولا تزال ذكرى تلك الملكة الفاتنة التاعسة تشجي المؤرخين وتجتذب الباحثين، وتغري أولئك وهؤلاء بمعاودة استقصاء سيرة لعلها من أعجب سير التاريخ وأولاها بالاعتبار، إذ هي سيرة فتاة كانت أول أمرها صبية خياطة فصارت ملكة وبنت إمبراطورة وربيبة إمبراطور وأم إمبراطور، ثم ماتت منفية مشردة موجعة القلب مهلهلة العرض والشرف.. وإذا كانت الملكة أورتان لم تلعب على مسرح التاريخ دورًا يحمل المؤرخين على الاهتمام به لذاته، فإن شخصيتها اللطيفة التي امتزجت بعهد نابليون كله، وطيفها الخفيف الشفاف الذي لابس كثيرًا من الحوادث، وحياتها الداخلية التي اختلف فيها الرواة فتناولتها ألسنة الخير بقدر ما تناولتها ألسنة السوء، والمدار المدهش الذي تنقلت فيه من خصاصة العيش إلى عزة الملك، ثم إلى ما هو من الخصاصة والعزة بين بين. كل ذلك يجعل من تلك المرأة شخصًا تاريخيًا يستثير من العواطف والتقدير ما يختلف باختلاف الأمزجة ووجهات النظر؛ فيذكي في بعض القلوب ذكريات دامية طال عليها الزمان ولم تندمل. ويهيج التقزز والاشمئزاز في نفوس حنابلة الفضيلة الذين لا يرحمون الضعف البشري ولا يغتفرون زلات الإنسان. ويوحي بالرحمة والحنان إلى النفوس المعتدلة التي تميل من كل شئ إلى ناحيته الجميلة وتدع ما سوى ذلك لحكم الله الواحد الديان.

على أنه مهما اختلفت الآراء في سيرة أورتانس دي بوهارنيه، ومهما تباينت عليها الأحكام. فإن قارئ هذه السيرة لا يستطيع عندما ينتهي منها إلا أن يستغرق في تأمل عميق. وإلا أن يحس دمعة دافئة تترقرق بين جفنيه. فيطوي الكتاب ويتنهد من أعماق صدره ويقول: "ما أجدر هذه المرأة برحمة الله وعطف الناس!"

* * *

في الثالث عشر من شهر أكتوبر سنة ١٧٧٩ تزوج اليوزباشي الكونت ألكساندر دي بوهارنيه البالغ من العمر تسعة عشر عامًا بالآنسة جوزفين تاشير دي لاباجري التي تصغر عنه بثلاث سنين، ولم يكتب لهناء الزوجين الشابين أن يطول، فلقد كان الكونت ألكساندر فتى مرحًا جامح العواطف، يهوى النساء ولا يثبت على حب واحدة منهن حين كانت جوزفين غيورًا عصبية المزاج تحب زوجها ولا تطيق أن تشاركها فيه امرأة. ومن ثم نشأت المناقشات الحادة والمجادلات العنيفة، وأفهم كل من الاثنين صاحبه أنه كان غير موفق في اختياره، وأن مثل هذه العلاقة الزوجية لا يمكن أن تدوم..

ورزقت جوزفين طفلا (وهو الذي سيصير فيما بعد الأمير أوجين) حسبت أنه سيعيد إليها قلب زوجها، ولكن قلب الزوج كان أقدر على الطيران من أن تقعد به يدا طفل صغير، فسافر ألكساندر إلى إيطاليا ومكث فيها ثمانية أشهر ثم عاد ولكنه لم يكد يستقر بجانب زوجه أسابيع

حتى سمع بالحرب الاستقلالية في أمريكا، فسافر إليها ليلتحق بجيش الجنرال لافاييت، وهنالك كتبت اليه زوجته تبشره بمولد طفلة جميلة وضعتها في اليوم العاشر من شهر أغسطس سنة ١٧٨٣ وأسمتها أورتانس دي بوهارنيه

ولقد كانت جوزفين ترجو أن تسر زوجها في غربته بهذه البشرى المفرحة فلبثت تترقب الجواب وتعلل النفس بما يحتويه من علامات الحب والشرق والاغتباط، حتى إذا وافى الكتاب فضته في شوق ولهفة فإذا فيه: "لم أرد ان أعجل بالرد على كتابك، لأن الغضب كان يصور لي أن كلماتي ستحرق الورق الذي أسطرها عليه، أما الآن وقد صرت أهدأ حالا فأستطيع أن أقسم غير مرتاب ولا متردد أن الطفلة التي وضعتها ليست مني، وأن الدم الذي يجري في عروقها دم أجنبي.."

ثقل وقع الصدمة على نفس الأم، ونالت الإهانة من كرامتها، فآلت لتنجون بنفسها وبكرامتها من هذا الزوج الخشن. فلما آب من سفرته لجأت إلى أحد الأديرة وتقدمت إلى الجهات المختصة طالبة الانفصال منه. ولقد خشي الكونت بوهارنيه مغبة الفضيحة على مستقبله، فآثر الاتفاق مع زوجه بالوسائل الودية، وتراضيا على أن يسترد كل منهما حريته ليعيش بعيدًا عن الآخر، وعلى أن تبقى البنت أورتانس في حضانة أمها والطفل أوجين في حضانة أبيه..

وهنا تشب الثورة الفرنسية الكبرى ويتأجج لظاها وتخشى أوربا أن تحترق بنارها فتتحالف على فرنسا وتسير إليها الجيوش لتغزوها، فيتولى الكونت ألكسندر دي بوهارنيه قيادة جيش للدفاع عن الوطن عند الحدود الشرقية، ولكن يخونه الحظ ويتخلى عنه التوفيق فيخسر معركة حاسمة بالقرب من مدينة مايانس، فتثور ثائرة الحكومة العرفية وتستدعيه وتحاكمه وتحكم عليه بالإعدام..

ولقد كان لجوزفين أن تغتبط بهذا الحل السعيد الذي يخلصها من زوج ثقيل ويفتح أمامها أبواب مستقبل هنئ، ولكن قلبها يتغلب على عقلها فتنسى حقدها وتغفر غلطات زوجها، بل وتغفل الاحتياط الذي تمليه أهوال عهد الإرهاب، فتنشط لإنقاذ بعلها من براثن الموت. وترتمي على أقدام الحكام وتتوسل إلى ذوي النفوذ والجاه بيدها، ولكنها لا تجني من وراء كل ذلك إلا أن تتجه إليها شكوك رجال الحكومة العرفية، فيصدر قرار بالقبض عليها وإيداعها السجن انتظارًا لمحاكمتها بتهمة ممالأة أعداء الثورة والشفاعة لمجرم قضت عدالة الجمهورية بأنه خائن أثيم..

ولقد كان إعدام جوزفين ده بوهارنيه أمرًا لا ريب فيه، لولا أن تداركتها ثورة المجلس الوطني على الطاغية روبسبيير وعلى أنصاره الظالمين، فانهار عهد الإرهاب واختتمت تلك المأساة البشعة التي ظلت جاثمة على صدر فرنسا ردحًا طويلا من الزمان. وخرجت جوزفين فيمن خرج من السجن غير مصدقة أن السلامة كتبت لها وأن عنقها نجا من السكين

ويأبى المؤرخون إلا أن ينقبوا وراء جوزفين بعد إعدام زوجها فيستكشفوا لها علاقات غرامية بالقائد هوش والزعيمين الثوريين تاليان وباراس، وإلا أن يرجعوا أسباب خلاصها من الموت إلى تلك العلاقات. فيا ليت شعري ما أقسى التاريخ وما أقسى قلوب المؤرخين!

تلك امرأة هي مزيج من الضعف والجمال والرشاقة، ترى نفسها سجينة طوال ثلاثة شهور لا عمل لها فيها سوى أن تحتضر وتنتظر الموت وتتوقعه في كل آن، تجيل الطرف بين جدران سجنها الرهيب وفي ظلامه الموحش فلا ترى نهاية لتلك الجدران ولا لذلك الظلام إلا الموت، ثم تتصور نفسها وهي تصعد درجات النطع موثقة اليدين لتمد عنقها الجميل فتهوى عليه السكين فيتدحرج رأسها ويختلط في السلة برؤوس غيرها من ضحايا عهد الإرهاب، وتلازمها هذه الصورة إذا آوت إلى فراشها، وتلازمها في رؤاها وأحلامها، وتلازمها إذا صحت أو جلست للطعام، ثم تظل تلازمها كذلك مائة يوم ومائة ليلة، شنيعة بشعة، فظيعة مفزعة، لا تتوارى ولا ترحم ولا تهون.. الموت.. الموت.. لا شيء يحيط بها إلا الموت، ولا فكرة تعمر رأسها إلا الموت. تتعشى مع أناس ثم تفتقدهم عند الإفطار فيقال لها: لقد ماتوا! فتقعد شاخصة البصر ذاهلة تنتظر دورها وهي تعلم أنه آت لا ريب فيه، فإذا طرق الباب طارق أو سمعت وقع أقدام أو أحست حركة هنا أو هناك قالت: هذا الموت!

تلك هي الحال التي كانت عليها جوزفين، بل ذلك العدم الذي انبعث منه وعادت إلى الوجود وقد كتب لها عمر جديد، فكيف لا تقبل

هذه المنبعثة على الحياة بكل قواها وبكل كيانها؟ بل كيف لا تنقض على الحياة فرحة مستهترة متخطية قيود الأخلاق وتقاليد الفضائل لتأخذ من الحياة كل ما تستطيع أن تعطيه؟

ولقد أعقب العسر وفاة الزوج، فكان لا بد من التوسل إلى العيش مهما قست الوسائل، فألحقت جوزفين غلامها أوجين بحانوت نجار ليمارس حرفة النجارة وألحقت أورتانس بحانوت خائطة لتتعلم حرفة التطريز، وانطلقت هي في الحياة تمد أشراك جمالها لتصيد من يرفعها من وهدتها أو يعيد إليها عزها القديم..

وتظل جوزفين تتنقل بين أحضان العاشقين كما تتنقل الشمس في البروج، حتى تسوق إليها الأقدار معرفة قائد من قواد الجيش، كورسيكي الأصل، قصير القامة ضامر الجسم، فقير، اسمه نابليون بونابرت، تصبو اليها نفسه ويكاشفها بغرامه، فتتردد وتظل مترددة زمنًا طويلا لأن فقره لا يحقق مطامعها في الحياة، ولكنها تراجع نفسها فلا تجد بين المرشحين خيرًا منه، فتتزوج به على أنه زوج ضرورة، إن لم يف بحاجة القلب فلا أقل من أن يفي بحاجات الساعة

وتتحسن الأحوال إلى حد ما، وتستطيع الأم أن تتعهد طفليها بخير مما تعهدتهما به حتى اليوم، فتلتحق أورتانس بمعهد مدام كامبان مربية أولاد الملك لويس السادس عشر سابقًا، ويلتحق أوجين بمعهد راق أنشأه بباريس أحد المربين الأيرلنديين..

ولكن الفتاة أورتانس تظل، رغم العدم الذي تعانيه مع أهلها، أرستقراطية النزعة والميول، فلا تغفر لأمها زواجها بقائد من عامة الشعب رفعته مؤهلاته أو رفعته المصادفات إلى مصاف القواد، ولقد عادت من بيت أهلها يومًا إلى المدرسة باكية مهمومة، فلما سألها زميلاتها ما خطبها، قالت والحزن يخنق صوتها: "إن والدتي أتت حماقة سوف تندم عليها، فلقد تزوجت برجل رهيب قاسي القلب، لا أظنه بعطف عليّ ولا على أخي يوجين"

ذلك كان رأي أورتانس في زوج أمها الجديد، فياليت شعري ماذا كانت تقول لو أن أحدًا تنبأ لها بأن ذلك "الرجل الرهيب الذي لا تظنه يعطف عليها ولا على أخيها" سيصبح إمبراطور فرنسا، ويجعل منها ملكة هولاندة. ومن أخيها أميرًا. ومن معظم صويحباتها في المدرسة أميرات ودوقات وزوجات مراشلة وأعيان؟

ويعود الجنرال بونابرت من حملة إيطاليا متوجًا بأكاليل النصر، ويغزو مصر ويعود منها بطلا مدوي الذكر رفيع الشأن، فيلفى فرنسا فريسة للفوضى والاضطراب تحت حكم مجلس الإدارة المؤلف من ثلاثة من العاجزين؛ فيعصف بهذا المجلس وينشئ الحكومة القنصلية. ويرتجل من نفسه رئيسًا أعلى للدولة بلقب القنصل الأكبر، ويتخذ مقرًا لديوانه ثم لمسكنه قصر الويلري. وتنتقل جوزفين وأورتانس وأوجين الى حيث كان ملوك فرنسا العظام يقيمون!

سبحان مغير الأحوال! لقد كانت أورتانس حتى الأمس فتاة خاملة الذكر مجهولة تكاد لا تعرف الناس، ويكاد الناس لا يعرفونها، فإذا هي تصبح فجأة ملتقى الأنظار ومحط الآمال وموضع الإعجاب. يتحدث الجميع بجمالها وكياستها ورشاقتها. فتكتب مدام دارجيزون: "إنها فتاة تبهر الناظرين بشبابها الغض، وجمالها المنعش، وسحر عينيها" وتكتب مدام بانيللي: "إنها أكثر من جميلة. إنها فاتنة بعينيها ومشيتها المملوءة بالأنوثة والدلال" وتكتب دوقة ابرانتيس: "إنها طرية ناعمة كالزهرة المتفتحة، تشرح القلب وتبهج العين، وإن عيني لا تملان النظر إلى عودها اللدن وخصرها الضامر وشعرها الأشقر الذي ينسجم مع مقلتيها خير انسجام"

وبعد فهي مرحة الطبع، لطيفة الشمائل عذبة الحديث، موسيقية بالسليقة تنظم الأناشيد وتلحنها. فتتخطفها الأوساط العالية ويقرظها كبار الفنانين. وكانت قد تلقت من حكمة معلمتها مدام كامبان أن تملق العجائز وإرضاءهن خير ضامن لحسن الأحدوثة وانتشار المحامد. فكانت تقبل عليهن وتتود إليهن، وتمتدح فيهن كل ما ترى وكل ما تسمع. فأفضن عليها من جانبهن الإطراء والثناء. وذهبن يتحدثن بكمالها وجمالها ويرشحنها لقلوب أنبه الشباب ذكرًا وأرفعهم مقامًا وشأنًا.

وتبلغ أورتانس التاسعة عشرة من عمرها فيتقدم إليها الكثيرون ملقين قلوبهم عند قدميها. ولكنها تعرض عنهم غير نافرة ولا متعالية، وإنما لأنها تحب القائد الشاب دوروك وقد وهبت له قلبها فلا ترضى عنه بديلا، ولكن هل تملك ربيبة نابليون بونابرت ما تملكه أي فتاة أخرى من سائر

الناس، فتستطيع أن تتصرف في قلبها وعواطفها بما تشاء وأن تمنح يدها من تشاء؟ لا. فهنالك الاعتبارات السياسية والاعتبارات العائلية. وهنالك أيضًا وقبل كل شئ تلك المطامع التي تعتلج في نفس بونابرت والتي يُهيأ لها من الآن. وكل ذلك يقتضي من العاهل العتيد أن يتخير لأقاربه وقريباته من الزوجات والأزواج من تملي عليه أسماءهم مصلحة الدولة ومصلحة الأسرة. وأن ينصب شبكة من المصاهرات يقضي بها على الخلافات والحزازات الواقعة بين عائلته وعائلة بوهارنيه. ويستعين بها من ناحية أخرى على خدمة الأغراض السياسية التي يتوخاها، لذلك لا يكاد يستشف غرام دوروك بربيبته حتى يقصيه إلى الريف ويزوجه من ابنة أحد الأعيان الإسبانيين المقيمين بفرنسا، ويفرض على أورتانس أن تقترن بأخيه لويس بونابرت الذي تمقته وتحتقره، وتؤثر الموت على أن تقربه أو تراه..

والواقع أن لويس بونابرت كان شخصًا مدخول العقل، لا بالمجنون فيعتقل في مستشفى المجاذيب، ولا هو بالعاقل الذي ترضاه فتاة كأورتانس. وكان خبل عقله يصور له أنه مريض بأمراض كثيرة، فيعمد إلى تعاطي كل ما ينصح له به العامة من الأدوية والعقاقير، ثم لا يكتفي بها فيلجأ إلى السحرة والعرافين وأصحاب الرقى والتعاويذ ليستعين بعلمهم على التداوي من أمراضه، بل لا يتورع عن استعمال بعض وصفات خطرة أو مضحكة، كأن يلبس قميص أجرب أو سراويل مجذوم، ويحمل التمائم في عنقه، ويمضي سحابة اليوم في إطلاق البخور لطرد الشياطين والجن من جسمه..

وتحاول مدام كامبان أن تهون من وقع الصدمة على نفس تلميذتها فتكتب إليها: "لقد عقدت صفقة رابحة تهنئين بها، وستصفق لها أوربا كلها ارتياحًا وإعجابًا. إنك ستكونين الرباط القوي بين أسرتين مجيدتين ينبغي أن تكونا وأن تظلا أسرة واحدة لتحققا آمال فرنسا.. وإني أتنبأ لك من الآن بسعادة عظيمة وزوجية هنيئة. وبأنك ستحبين زوجك حبًا كبيرًا"

بيد أن الأيام لا تلبث أن تثبت كذب هذه النبوءة، حتى ليقول فريدريك ماسون، وهو أعظم مؤرخي عهد نابليون: "لم يعرف زواج ساده الاضطراب من أول أيامه ودبت فيه النفرة من بدايته مثل هذا الزواج، فقد كان لويس رجلا صلب الرأي عنيف الطبع خشن الكلام، آثرًا لا يحب غير نفسه. غضوبًا عابس الوجه صفراوي المزاج لا يرضى بشيء ولا ترتاح نفسه إلى شيء، وكان فظًا غليظ الخلق لا يتورع عن أن يخجل زوجته أمام الزائرين، ولا عن أن يجرح فيها عزة المرأة وكبرياءها، بل لقد كان لا يتحرج عن أن ينام في سريره الوثير الواسع ويفرض عليها أن تقنع بسرير ضيق نصبه لها في غرفة نومه الصغيرة لتسهر على راحته طوال الليل ولتقضي له شتى حاجاته"

وتعلن الإمبراطورة في فرنسا ويتوج بونابرت إمبراطورا باسم نابليون الأول ولا يجد بدًا من أن يرفع إخوته إلى مصاف الملوك فيمنح أخاه لويس عرش هولاندة. ولكن لويس لا يقنع بهذا الملك الضئيل فيعتذر قائلا إن جو هولاندة لا يلائم بنيته السقيمة، فينتره الإمبراطور أمام الملأ قائلا: "خير لك أن تموت ملكًا من أن تعيش أميرًا" ويذعن لويس لإرادة الأخ

الجبار ويسافر إلى مقر ملكه الجديد، وهناك يتجلى أمام الرعية أسوأ مثل للملوك وأسوأ مثل للأزواج، فيحاول نابليون أن يقوم اعوجاجه فلا يفلح، فيكتب إليه كتابًا نجتزئ منه هنا ببعض فقرات يدرك القارئ منها مبلغ ما كان هذا المخبول يفهمه من واجبات الملك ومسئوليات الزوجية، ويدرك منه في الوقت نفسه مبلغ ما كان نابليون يفهمه من تلك الواجبات والمسئوليات..

"إنك تسوس بلادك بضعف تحسبه طيبة، وأخشى أن ينتهي بك إلى أن تصبح هزأة أمام شعبك وأمام أوربا. إن طيبة الملوك يجب أن تكون مصحوبة بجلال الملك وإلا انقلبت عاهة تؤدي بهيبة صاحبها وتذهب بمقامه بين رعاياه

إن ملكًا يتجلى أمام شعبه منذ الشهور الأولى من حكمه بهذا المظهر الضعيف لهو ملك خليق بسخرية الناس، فإن كنت تبحث عن أن تكون محبوبًا من أمتك فاعلم أن الحب الذي يتوخاه الملوك يجب أن يكون حبًا ذكرًا لا تخنث فيه، وأن يكون مشبعًا بشيء من الرهبة وبكثير من الإجلال والاحترام. أما إذا قال الشعب عن ملكه: هذا رجل طيب، فمعنى ذلك أنه لا يرهبه ولا يحترمه ومن ثم فملكه ضائع وعهده ذهب هباء

"وبعد فما هذا الاكتتاب الذي فتحته تحت رعايتك في أرجاء مملكتك؟ إن الملوك يا هذا يأمرون ولا يلتمسون، فما لك تتوسل وتستجدي حين أن في يدك مصدر كل السلطات ومبعث جميع القوى

وحين أن لديك من الوسائل ما يغنيك عن مد اليد أو الالتجاء إلى جيوب الغير؟ ولكن تلك دقائق لا تدركها ولا تحسها. فما حيلتي فيك؟

"ولقد بلغني أنك أعدت إلى بلادك نظام الطبقات واعترفت بطبقة النبلاء، فهل فقدت صوابك فنسيت أن هذه أمور لا تعمل إلا برأيي؟ إن أوربا لا تستطيع أن تتصور أنك تتجاهل واجباتك نحوي حتى لتهمل استشارتي ولا تنتظر أوامري في مثل تلك الشؤون

"ولقد يكون لك أن ترتكب من الحماقات في بلادك بقدر ما تشاء ولكني لا أريد أن ترتكب حماقة في بلادي، وإلا فما هذه النياشين التي تبعثرها على الناس هنا بغير حساب؟ لقد أغدقت نياشينك على من لا يستحقونها، فلم يسعني تلقاء ذلك إلا أن أحرم حملها، وقررت ألا أحملها أنا نفسي، وحبذا لو فهمت أنك لست بعد شيئًا مذكورا حتى يتشرف الناس بحمل صورتك فوق صدورهم. وفضلا عن ذلك فقد أنشأت تلك النياشين بغير إذن مني، وهذا تهاون منك في حقي لا أغفره لك، وسوف أحاسبك عليه

"ثم ما تلك المشاجرات الدائمة بينك وبين الملكة؟ ألا تستطيع أن تدير بيتك بتلك الطيبة الأبوية المخنثة التي تدير بها حكومتك، وأن تدير حكومتك بتلك الشدة القاسية التي تدير بها بيتك؟ إنك تسوس امرأتك الشابة كما لو كنت تقود جيشًا، وهكذا لا تعرف متى ينبغي الحزم ولا متى يحسن اللين. إن امرأتك خير النساء قاطبة وأطهرهن ذيلا وأنبلهن خلقًا،

ومع ذلك لست تعدم الوسيلة لإيذائها وإتعاسها، فأي رجل أنت؟ دعها ترقص كما تشاء، فسنها سن اللهو والرقص والمرح. إن لي امرأة بلغت من العمر خمسة وأربعين عامًا، ومع ذلك أكتب إليها من ميادين القتال فأحضها على أن تختلف إلى المراقص، وألا تحرم نفسها شيئًا، فما بالك بفتاة لا تزال بعد في العشرين، نفسها ملأى بحب الحياة وزينتها، وأنت تقسرها على أن تعيش لتعتني بك كما لو كانت مرضعًا لا عمل لها إلا أن تغسل رضيعها وتطعمه؟ واجهد نفسك قليلا في أن تسعد زوجك وامنحها كل ثقتك تلقى منها كل العطف والحب الأكيد، ولكن يظهر لسوء الحظ أن امرأتك أنبل واعف من أن تعاملك بما تستحق، ومن أن تقابل قسوتك بجفوة من نوعها. أما لو كانت أورتانس من ذلك الصنف من النساء الذي أعرفه لعرفت كيف تقودك بخطام، ولاستطاعت أن تلعب بك متى تشاء، وأن تجعلك تجثو عند قدميها وهي تعبث بشرفك وأنت أعمى لا تدري شيئًا، ولكن أورتانس امرأة أبية النفس كريمة العواطف، تثيرها شكوك أبله مثلك ويحزنها سوء رأيك فيها"

ولكن لويس بونابرت لا يصغي إلى هذه النصائح الثمينة، فتزداد الحياة الزوجية في القصر سوءًا على سوء بل تنقلب جحيمًا لا يطاق، وتذهب الغلظة والفظاظة بالملك إلى أن يأمر فتسد بالبناء الأبواب الموصلة من غرفة إلى غرف الملكة. وكان إذا جلست أورتانس إلى البيانو لتعزف قطعة موسيقية يعمل أصابعه على الآلة بعنف فتخرج أصواتًا مزعجة تفسد ألحان زوجته. وإذا عمدت إلى الرسم بالزيت أو بالألوان تحنقه هذه التسلية الرفيعة ويمر بكفه أو بظهر يده على الألوان فيفسدها، وإذا حاولت

التطريز يغيظه أن تتلهى عنه بشيء لا يفيد فيتناول مقراضًا ويقص ما تكون أمضت وقتًا في رسمه وتطريزه. ولو وقف الأمر عند هذا لهان، ولكنه كان يبث الجواسيس حولها يوافونه بكل ما تقوله وتفعل. ويتعمد مضايقتها حتى فيما يتعلق بأقرب الناس إليها وفي أكثر الأشياء مساسًا بشخصها. فإذا رضيت عن وصيفة أو خادمة بادر إلى طردها. وإذا طاب لها حديث أحد أعيان الدولة أو أبدت عطفها عليه حرم عليه دخوله القصر. وكان يمقت حماته الإمبراطورة جوزفين ولا يتورع أن يتناول شخصها وسيرتها بالسوء أمام ابنتها وأمام الناس حتى أن الابنة لم تطق الصبر مرة على سوء قوله في أمها فنهضت من مجلسه باكية وصارت تتحاشى الاجتماع به إلا بالقدر الذي تقتضيه الرسميات والأصول

وطبيعي أن يحدث كل ذلك أثره في قلب الملكة الشابة فتنتزع منه آخر عاطفة حب لزوجها وتنصرف إلى مواساة نفسها وتلطيف حياتها بوسائل أخرى. وهنا يبتدئ ميلها إلى البذخ واقتناء أغلى الثياب والجواهر والمركبات والجياد، فتتراكم عليها الديون وتعرف الارتباك المالي. وتصانع وزراء الدولة لتتولى الخزانة العامة وفاء ديونها، فتثور ثائرة الملك ويضاعف قسوته عليها وغلظته في معاملتها فتفر منه إلى فرنسا، فلا يسعى لمصالحتها بل يكتب إلى أخيه الإمبراطور:

"مولاي.. أتوسل إلى جلالتكم أن تتفضلوا بالموافقة على مشروع انفصالي عن الملكة زوجتي. وأقترح لتسوية حالتها بعد هذا الانفصال أن أنزل لها عن الساري التي تسكنها الآن بباريس. وأن أجري عليها مرتبًا

قدره خمسمائة ألف فرنك من مخصصاتي. وإني لأرجو من عدل جلالتكم أن تدعوني أحتفظ بابني البكر على أن يظل الطفل الثاني في حضانة أمه. ولما كان التصرف في مثل هذه الشؤون كلها من اختصاص مجلس الأسرة فإني أؤمل أن تصدر جلالتكم الأمر بعقده في أقرب فرصة مستطاعة"

وينعقد مجلس الأسرة برياسة الإمبراطور فيقرر تحت تأثيره أن لا وجه للانفصال الذي يلتمسه الملك، وهكذا يقضي نكد الدنيا على أورتانس أن تظل زوجة لرجل لا تحبه ولا يحبها، فترفض العودة إلى هولاندة، وتصر على البقاء في فرنسا لتعتني بصحبتها وبطفلها.

ولقد اتهموها بعلاقة غرامية لها بالإمبراطور نابليون زوج أمها وأخي زوجها، وذهب البعض إلى أن ابنها البكر ثمرة تلك العلاقة. والواقع الذي لا مرية فيه أن نابليون كان يحبها ويدللها ويفرط في مظاهر هذا الحب والتدليل حتى أوسع المجال لألسنة السوء فانطلقت ترميها بالخنا وتقول أن الإمبراطور لما شبع ألقى فضلته إلى أخيه. ولعمري كيف يتورع الناس عن تصديق ذلك وهم يسمعون الإمبراطورة جوزفين تؤكد في ثورة غضبها على زوجها أنه عاشق لأخته بولين؟

* * *

وتميل شمس الإمبراطورية إلى المغيب، ويعود نابليون من حملة الروسيا بفلول جيشه العظيم منهوكًا مضعضعًا، فلا تمهله أوربا ريثما يستجم ويجدد قواه، بل تتحالف عليه وتضربه في موقعة ليبزج وتتعقبه حتى

تجتاز الحدود الفرنسية وتحاصر باريس، فينزل عن العرش كارهًا ويغادر أسرته تحت رحمة ملوك الأعداء، وهنا تتجلى شجاعة الملكة أورتانس فتأبى أن ترحل عن العاصمة في تلك الظروف العصيبة. وتنصح للسلطات بالمقاومة، وتستحث الهمم وتحاول تنظيم الصفوف، وتقول لقائد الحرس الوطني: "يجب على الحرس أن يدافع عن العاصمة حتى آخر نقطة من دمه، فقوى البلاد موفورة ووسائل الدفاع ميسورة. وإنما تنقصنا العزيمة ويعوزنا الحزم الصحيح".. ولكنها لا تجد من يؤيدها ولا من يصغي إليها فتيأس وتعتزم الرحيل إلى مسقط رأس أمها بجزائر المارتنيك وترسل وصيفتها الآنسة دي كوشليه لتبيع حليها وجواهرها ومقتنياتها..

وتلتقي الآنسة دي كوشليه صدفة بصديق قديم اسمه الكونت بيسلرود هو في الوقت نفسه صديق حميم للإمبراطور إسكندر قيصر الروسيا، فيؤكد لها عطف القيصر على الملكة، ويوعز إليها أن تنصح لسيدتها بالبقاء ويقول: "مم تخاف وهي موضع احترامنا جميعًا وما عليها إلا أن تأمر فيتم لها ما تريد؟ ألا فلتبق بباريس ولتثق بعواطف القيصر نحوها ونحو أمها وولديها؛ فلسوف تكون محل رعايته ولسوف تنال منه حق البت في مصيرها بما تشاء"

ويرسل إليها القيصر رسولا يحمل رسالة منه يقول فيها: "لقد كنا دائمًا يا سيدتي على خير ما يكون الأصدقاء، فأملي خيرًا ولا تجزعي فسنكون منصفين لأوليائنا الذين لم يسيئوا إلينا، وسأقيم لك الدليل على أني صديقك الوفي"

بيد أن أورتانس قد سئمت وملت كل شيء، وأصبحت نفسها لا تصبو إلا إلى الراحة والهدوء، فتكتب إلى وصيفتها وصديقتها الآنسة دي كوشليه: "إن الجميع يسألونني ماذا أريد ليفعلوه، وجوابي على ذلك أني لا أريد شيئًا، لقد تألمت كثيرًا وسط السكينة والراحة اللتين أوثرهما على فخامة الملك وأبهة العرش والتاج. بيد أني أرجو ألا يطلب ملوك الحلفاء أولادي رهينة أو ضمانًا لشروط سياسية. فلست آنس في نفسي الشجاعة على البعد عنهم، بل اني لأرغب عن الحياة إذا حيل بينهم وبيني، لقد ربيتهم وأحسنت تربيتهم، فهم سيجدون السعادة في أي حالة من الحالات التي تقدر علينا ما داموا يشعرون أنهم في كنفي ورعايتي، وسأعلمهم كيف يسمون بأنفسهم فوق المصائب حتى لا يجزعوا إذا أدبر الحظ وقلب الزمان لنا ظهر المجن، كما سألقنهم أن السعادة الحق إنما هي في القناعة والرضا، والقناعة والرضا في اعتقادي خير من التيجان والعروش"

ولكن القيصر يلح عليها في البقاء، فتذعن لرغبته وتبقى لتشهد بعينيها مأساة سقوط الإمبراطورية وجلوس لويس الثامن عشر على العرش تحت حماية الأعداء، وانضواء كبراء العهد الإمبراطوري تحت لواء هذا الملك، وزوال العروش المتفرعة من عرش فرنسا الأعظم، فتفقد لقبها الملكي وتقنع بالقب "دوقة سانلو" الذي يتفضل عليها به الملك الجديد فتقبله مستسلمة صاغرة..

ثم تتوالى عليها الكوارث فتموت أمها جوزفين إثر مرض قصير، وينتزع زوجها ابنها الأكبر من أحضانها فتلجأ إلى القضاء ولكن القضاء

يخذلها، فتحاول أن تستعين بنفوذ صديقها قيصر الروسيا الذي بهره جمالها حتى لم يعد له مأرب من الإقامة بباريس سوى التمتع بهذا الجمال، ولكنها لا تأنس في عاشقها العضد الذي كانت ترتجيه، فتهجر العاصمة لتسرح أحزانها في بعض المدن الشهيرة بحماماتها ومياهها المعدنية..

وتمضي شهور وتفاجأ فرنسا في سنة ١٨١٥ بمغامرة نابليون الكبرى إذ يفلت العملاق من منفاه بجزيرة البا ويعود إلى باريس ويعتلي عرشه وسط عاصفة من حماس الشعب وإقباله، فتهرع أورتانس إليه فيعزيها ويواسيها ويعيد إليها لقبها وابنها ويحيطها من عطفه وبره بما يلطف أحزانها ويخفف ما قاست من الآلام

وتدرك أورتانس أن لا دوام للإمبراطورية إلا إذا ساد السلام أوربا، فتتوسل إلى نابليون أن يكف عن الحرب ليدع فرنسا تتنفس وتستجم وتستريح، وتستغل علاقتها بالقيصر فتكتب إليه متوسلة: "يطيب لي أن أعتقد أنك لن تكون إلا صديقًا لنا، وأن تفكيري لا يطاوعني فأصدق أن المصائب قد تجيئنا من ناحيتك، نحن الذين مازلنا نذكر كرمك ورقة أساليبك شاكرين" فيجيبها القيصر في صراحة وحزم : "لا سلام ولا هدنة ولا صلح مع ذلك الرجل أو يتنحى عن العرش، ولكم منا بعد ذلك ما تشاءون"

ويشفع القيصر القول بالعمل ويعقد مع بروسيا والنمسا وإنجلترا الاتفاق الذي عرف باسم المحالفة المقدسة، وتنهال أوربا كلها على نابليون

الذي يصمد لها في سهل واترلو ويكاد يضربها الضربة القاضية لولا أن خانه الحظ في الساعات الأخيرة فتألبت عليه قوى الطبيعة مؤيدة قوى الأعداء..

وتنهار الإمبراطورية للمرة الثانية وتأسر إنجلترا ضيفها العظيم وترسله إلى جزيرة القديسة هيلانة، وتعود الملوكية إلى فرنسا، ويأبى لويس الثامن عشر على أورتانس البقاء في وطنها فلا تدري هذه المرة ماذا تفعل ولا أين تقيم. ثم لا ترى بدًا من الرحيل فتهيم على وجهها في أنحاء أوربا ملتمسة ضيافة لا تجدها في أي مكان، إلى أن ترضى حكومة سويسرا بإيوائها، فتشتري مسكنًا خلويًا على ضفاف بحيرة كونستانس وتكرس حياتها لتربية ابنها الذي تؤمل أن يعتلي يومًا عرش عمه العظيم..

لم يكن في جو السياسة الاوربية إذ ذاك ما يشجع أورتانس على هذا الأمل، ولم يكن في صفات ابنها لويس نابليون بونابرت ما يؤهله للاستيلاء على العرش، ولكنها ظلت تلقنه سيرة عمه وتلوح أمام عينيه بشبحه الجليل، وتغذيه بالمبادئ المكيافيلية وتغرس في نفسه الشابة: "أن جميع الوسائل صالحة وشريفة ومشروعة ما دامت تؤدي إلى العرش، وما دام الغرض منها استرداد حق ضائع أو مغصوب" وترشده إلى الوسائل العميلة فتقول: "إن الحكم فن كسائر الفنون، وأقرب الطرق إليه محبة الشعب، فتودد إلى شعبك بالكلام. واجعل كلامك براقًا خلابًا لترى فيه كل نفس ما تحب أن ترى من الصور والأشكال. وستنتهي بعد المران إلى

أن تجد الصيغ المتعددة الألوان التي تعجب الجميع وتملق في كل واحد إحساسًا خاصًا أو تغريه بأمل خاص"

ولقد استظهر الأمير الشاب هذه الوصايا الثمينة حتى إذا حان وقت تطبيقها تطبيقًا عمليًا لم يتورع أن يقسم يمين الولاء للجمهورية وهو يعتلي كرسي رياستها ليعود فيضرب بتلك اليمين عرض الأفق يوم ينصب نفسه إمبراطورا على فرنسا باسم نابليون الثالث

ولكن أورتانس لا تعيش حتى تكتحل عيناها برؤية ابنها على العرش، فلقد أصيبت بالسرطان الذي لم تحتمله بنيتها السقيمة طويلا فذوى غصنها الرطب، وتوفيت بعد احتضار مؤلم في الخامس من شهر أكتوبر سنة ١٨٣٧، وكأنها وقد يئست من تقويم رأي الناس فيها لم ترد أن تغادر الدنيا قبل أن تقوم بمحاولة أخيرة لعلها تنفع البعض أو تلطف من حكم التاريخ فكتبت في وصيتها:

"إني أغفر للملوك الذين عاشرتهم كل ما طاب لهم أن يذيعوه عني من الإفك والترهات، وأغفر لسفراء الدول تقاريرهم الطائشة عن سلوكي الشخصي وحياتي الخاصة، وأغفر لذلك البعض من الفرنسيين الذين طالما أحسنت إليهم ما قابلوا به صنيعي من ترديد وتأييد افتراءات أعدائي وخصومي، ثم أغفر للجميع تسليمهم بكل تلك المفتريات في غير ما فحص ولا تدقيق، وأرحل عن هذه الدنيا راجية أن أعيش في ذاكرة مواطني الذين أحببتهم وأردت لهم كل الخير"

فضيحة البرلمان الفرنساوي

في قضية شركة بناما

لعل قضية شركة بناما أو "فضيحة بناما" كما يطيب للفرنسيين أن يسموها أكبر حادثة عرفها التاريخ من حوادث الرشوة واستغلال النفوذ، وإذا كانت هذه الفضيحة قد جل أمرها وذاع خبرها فلأن الملايين من الذهب قد تدفقت فيها من أيدي اصحاب المال إلى جيوب نواب الشعب الفرنساوي، ولأن شرف غير واحد من وزراء الدولة قد غرق في لجتها، ولأنها قضت على سمعة كثير من الزعماء البرلمانيين وكادت تقضي على سمعة الأنظمة النيابية نفسها..

* * *

بعد أن نجح فردينان ده ليسبس في حفر قناة السويس خطر له أن يحفر قناة في برزخ بناما تصل المحيط الأطلنطي بالمحيط الهادي، وتوفر على السفن المسافرة من شرق أميركا إلى غربها شقة المسير بمحاذاة شواطئ أميركا الوسطى، والبرازيل، والأرجنتين، لتعود فتصعد نحو جمهوريات شيلي، وبيرو، وخط الاستواء، وفنزويلا، وأمريكا الوسطى حتى تصل إلى ميناء سان فرانسيسكو.

ولقد وضع ده ليسبس في سنة ١٨٧٦ مذكرة وافية بهذه الفكرة وبوسائل تحقيقها واقترح أن تصل القناة ما بين خليج ليمون ومرفأ بناما، وقدر أن يكون طولها أربعة وسبعين ألف متر بحيث لا تقام عليها قناطر ولا أهوسة، ولكي يتحاشى أثر الزلازل في هذه المنطقة الخطرة قدر أن يكون عمق الخندق المحفور تسعين مترًا

وما لبث المهندسون الذين اطلعوا على هذا التصميم الهائل حتى أعلنوا استحالة تحقيقه وأكدوا أن ألوف الملايين التي ستنفق عليه ذاهبة هباء. ولكن شهرة ده ليسبس وإيمان الناس بعبقريته وسابقة نجاحه في فتح برزخ السويس، كل ذلك جعل الناس لا يأبهون لتحذير الخبراء والفنيين ولا يعبأون باعتراضات أهل الذكر والمهندسين. ولم ير القوم في تلك الاعتراضات غير شنشنة كالتي عرفوها من المهندسين الإنجليز يوم هبوا في وجه ده ليسبس يحاولون إقناعه باستحالة وصل مياه البحر الأبيض بمياه البحر الأحمر، وظل فردينان ده ليسبس يجاهد ويقوم ويستأنف الحملات التي كان يقوم بها لإقناع العالم بمشروع قناة السويس وترويج فكرته حتى تم له ما أراد، وتألفت "شركة بناما" الفرنساوية ولم تهمل وسيلة من وسائل الدعاية والإعلان والترغيب، فتدفقت عليها الأموال من كل صوب وأقبل المساهمون يشترون أسهمها، ولم يمض زمن طويل حتى تجمع لديها رأس مال آنست فيه الكفاية لتحقيق مشروعها..

بدأت الشركة تعمل ولكنها ما لبثت حتى تجلت لها صعوبة العمل في هذه المنطقة الصخرية ورأت الآلاف من العمال الأوربيين يموتون تحت

وهج الشمس في تلك الأصقاع الاستوائية. وراجعت حسابها فألفت عمليات كوين الشركة والنشر والإعلان وجمع الأموال وشراء الآلات واستئجار العمال ودفع التعويضات والتأمينات ونفقات الإجراءات التمهيدية للحفر وشق الجبال – ألفت هذه العمليات قد استغرقت معظم رأس المال وأيقنت لأول مرة أنها حيال مشروع لا بد للوصول به إلى نهايته من أموال هي فوق ما قدرت بكثير..

شعرت الشركة بالعسر المالي وهي بعد في مستهل العمل فكان لا مناص لها من الاستدانة، وفكر مديروها في الأمر مليًا واهتدوا في النهاية إلى وجوب إصدار سندات يانصيب ذات أرباح سنوية " Obligation á lots ولكن هذه السندات لا تكون قانونية إلا إذا وافق عليها البرلمان الفرنسي فما الوسيلة إلى موافقة هذا البرلمان.. هنا يبتدئ امتزاج السياسة بالمال وتبدو سيطرة المال على السياسة في أجلى مظاهرها وأقبح أشكالها..

شركة على حافة هاوية الإفلاس تحاول إقناع الناس باستطاعتها تحقيق مشروع مستحيل وقد ابتلعت ملايين وملايين من أموال المكتتبين ولا تزال تطلب المزيد، وتمعن في إغراء الشعب للإقبال عليها ومؤازرتها، وقد قامت الأدلة وتضافرت الآراء، على أنها يئست من النجاح وأنها لا تبغي من التحدي والاستمرار غير ستر الفضيحة وإنقاذ ما يمكن إنقاذه من كرامة القائمين بإدارتها. شركة كهذه تلك حالها تلجأ إلى نواب الأمة لتستصدر منهم قرارًا بالموافقة على إصدار سندات نصيب جديدة يبيعها الناس وهي

تعلم أن لا طائل يرجى من وراء هذه السندات وأن الأموال التي تدفع ثمنًا لها تستثمر في عمل منتج ولن يرد لحامليها من قيمتها شيء. ومع ذلك بل رغم ذلك لا تعدم بعض الزعماء السياسيين يحبذون مشروعها ويدافعون عنها ويضمون إليهم عددًا كبيرًا من النواب ويؤيدونهم ويدحضون ما يدور حول الشركة من "الإشاعات والمفتريات" ثم يصدر قرار المجلس بالموافقة فتخرج الشركة من النضال فائزة تنثر على الناس أوراقًا ملونة مبصومة وتقبض مقابلها أكوامًا من الذهب والفضة، وبعد ذلك يقال إن الديموقراطية أفضل الأنظمة لحكم الشعوب!!

استمرت الشركة تعمل أو تتظاهر بأنها تعمل ثم سارت حالها من سيء إلى أسوأ، فأفلست ولحقت الملايين الجديدة بأخواتها السابقة. وحاول ده ليسبس أن يؤلف شركة جديدة فأخفق، وأعلن المديرون عجزهم عن القيام بما تعهدوا به، وأعلن الشركة عجزها عن رد ما سلبت من أموال الناس. فعينت الحكومة مصفين عملوا على تصفية الشركة لبضعة شهور ثم قرروا أنه لم يبق للمساهمين من ثمن الأسهم التي يحملونها شيء..

عندئذ هاجت الخواطر وهب بعض المساهمين يقاضون الشركة ويتهمون مديرها بالنصب والتبديد والاحتيال لاستلاب المال فشرعت السلطات تحقق في هذه التهم وانفتح باب القضية على مصراعيه، وكان ذلك في شهر يونيو من عام ١٨٩١

ولقد ألفت الحكومة الفرنساوية نفسها في موقف دقيق، فإما أن تسدل الستار على فضيحة بشعة قد تعصف بها وبالجمهورية نفسها، وإما أن تسوق إلى المحاكمة ثم إلى السجن شيخًا كفرديناند ده ليسبس ينوء تحت أعباء المجد والسنين وهو في الوقت نفسه عضو بمجمع العلماء يحمل الوشاح الأكبر من نيشان فرقة الشرف وقد حقق أكبر مشروع هندسي صنعته يد الإنسان إلى ذلك الحين. وكانت الحكومة تعلم من أوثق المصادر أن شركة بناما لم تعمد في الحصول على موافقة البرلمان عند إصدار سندات النصيب إلى الطريق المشروع بل عمدت إلى الرشوة فاشترت أصوات عدد كبير من النواب والشيوخ والوزراء وزعماء الأحزاب وأصحاب الصحف. فهل من مصلحة الدولة أن تذاع هذه الفضائح على مرأى ومسمع من الشعب ومن أوربا بل ومن العالم بأسره؟!

حاولت الحكومة ستر الفضيحة أو تلطيف مظهرها جهد الاستطاعة، ولكن ما الذي تستطيعه الحكومة، وها هي الأحزاب قد تناولت المسألة واتخذت منها سلاحًا يحارب به بعضها البعض، وها هم الزعماء قد بدأوا ينشرون التفاصيل ويذكرون الأسماء ويحتمون على الحكومة أن تثير المسألة بحذافيرها لتحدد المسئوليات وتعين المسئولين؟

ظلت الحكومة تتباطأ وتسوف، وظل الذين يهمهم الأمر يلهبونها بمر النقد وقارص اللوم حتى لم يسعها في النهاية إلا أن تذعن فعهدت بأوراق القضية إلى النائب العام وكلفته إجراء التحقيق، وأمضى النائب العام صيف سنة ١٨٩٢ في مراجعة ملفات القضية ومذاكرة محتوياتها

وانتهى منها إلى تقرير إحالة مديري الشركة إلى المحاكمة وهم: فردينان ده ليسبس، وابنه شارل ده ليسبس، وكوتو، وماريوس فونتان

ولقد أملت الحكومة أن تقف المسألة عند هذا الحد، ولكن الصحف أخذت على عاتقها أن تخرجها من نطاق القضاء إلى دائرة السياسة، فاتهمت علنًا عددًا من النواب والشيوخ بأنهم استغلوا نفوذهم النيابي، وأتجروا بتوكيل الأمة وباعوا أصواتهم وذممهم لشركة بناما بمال وفير..

وكأنما أرادت الأقدار أن تزيد الحادث تعقيدًا فوقعت حادثتان قلبتا وضع المسألة إلى شكل روائي كان له أسوأ وقع في النفوس، ذلك أن أحد الماليين المتهمين بالسعي بالرشوة بين مديري الشركة والوزراء وأعضاء البرلمان وأصحاب الصحف، وهو البارون ده ريناخ، كان عمًا للمسيو جوزيف ريناخ مدير صحيفة "لايبورليك فرانسيز"، وكان خصوم هذا الصحفي ذا الكلمة النافذة والقول المسموع يحاولون أن ينالوا من سمعته من طريق التشهير بعمه. فانهالوا على العم قذفًا وتجريحًا واتهامًا حتى ساقوه أمام المحققين، وكأنما أحس الرجل ثقل الأدلة المتراكمة عليه فانتحر وجاء انتحاره دليلا جديدًا قويًا على صحة التهم المنسوبة إلى الوزراء وأعضاء البرلمان.

أما الحادثة الثانية فكانت أن ماليًا آخر أمريكيًا ينتسب إلى أصل ألماني اسمه كورنليوس هرتس عاش في فرنسا زمنًا طويلا أحكم خلاله

صلات الود والصداقة بينه وبين كبار رجال الدولة وفي طليعتهم المسيو كليمنسو حتى أنعمت عليه حكومة الجمهورية بوسام فرقة الشرف، حدث أن هذا المالي، بادر إذ أحس نشوب الفضيحة، إلى مغادرة فرنسا والرحيل إلى إنجلترا جاعلا بحر المانش حائلا بينه وبين خصومه ومتهميه. ومن هناك أخذ يراسل الصحف الفرنسية فكان تارة يدافع عن نفسه وأخرى يلوح بالتهم إلى بعض الوزراء ورجال البرلمان ويلمح إلى وقائع وحوادث لا تدع مجالا للشك في أسماء من يعنيهم من أصحاب المقامات.

ومن ذلك الحين صارت فضيحة بناما تشغل ميدانين: ميدان القضاء، وميدان السياسة. ومن المعلوم أن كل ما يمس السياسة لا بد من أن يكون له أثره في القضاء. وقد أنذر المديرون المتهمون زملاءهم في جريمة الرشوة أنهم، إذا عجز رجال السياسة عن وضع حد لهذه المسألة وإذا ألجأتهم الحال إلى الوقوف في ساحة العدالة وأعوزهم الدفاع عن أنفسهم — سيعترفون بأنهم أمطروا الوزراء والصحافة ورجال البرلمان هذا الوابل من المال لأنهم كانوا في حاجة إلى استصدار قرار الموافقة على إصدار سندات النصيب وما كان في استطاعتهم استصدار هذا القرار إلا بدفع ثمنه، وأنهم لم يلجأوا إلى هذه الوسيلة المنكرة إلا بعد لأي آنسوه من عناد البرلمانيين وإصرارهم على قبض الثمن، وأنه ما كان لمديري مشروع خطير كمشروع قناة بناما أن يقيدوا أنفسهم ببعض اعتبارات لا تقف أمام الضرورة الملحة، ضرورة إنقاذ المشروع وإنقاذ رءوس أموال طائلة كان الأمل كبيرًا في استثمارها على خير الوجوه، وأنهم عندئذ يدعون القضاء مسألة الفصل في أي الشريكين في تهمة الرشوة أخف ذنبًا. هذا الذي يعطي لمثل ذلك

الغرض العظيم أو ذاك الذي يأخذ لمجرد الرغبة في الإثراء وإشباع شهوات الحياة.

وخرجت المسألة فعلا من دائرة القضاء والصحافة والأندية إلى دائرة البرلمان إذ وقف النائب الملكي ديلاهي على منبر مجلس النواب يتهم مائة من أعضائه بأنهم باعوا أصواتهم وذممهم ومصلحة المساهمين لكورنيليوس هيرتس والبارون ده ريناخ، ويعين المبالغ التي استولى عليها كل منهم ويجهر بأن الوزير بايهو استولى وحده على مبلغ أربعمائة ألف فرنك (ستة عشر ألف جنيها) وأن أحد أعضاء اللجنة التي كلفت فحص مشروع القانون استولى على مائتي ألف فرنك (ثمانية آلاف جنيها) لأن اللجنة انقسمت فريقين أحدهما يقبل المشروع والآخر يرفضه، فكان صوت العضو المتهم المسيو سانس لوروا هو الصوت الذي رجح فريق القبول..

ولقد استمع المجلس إلى هذه الفضائح في هرج ومرج إذ كان كل حزب يدافع عن نفسه ويرمي الآخرين بالتهم، ووقف جروج كليمانسو في حدة النمر بدرء التهم المصوبة إليه، وانبرى الوزير ريبو يحاول أن يواجه العاصفة التي تكاد تقتلعه. وقد جمع الملكيون وأنصار الجنرال بوانجيه وخصوم الجمهورية والقائلون بتعديل الدستور جموعهم وظنوا الفرصة سانحة للقضاء على النظام الجمهوري، فشنوا الغارة على أعدائهم هوجاء حامية لا رحمة فيها ولا هوادة ولا مراعاة لأي اعتبار..

واقترحت الحكومة إقفال باب المناقشة على أن يعين المجلس لجنة تتولى التحقيق من جديد بشرط ألا تكون لها أية سلطة قضائية تفصل بها في الموضوع، وارتاح المجلس إلى هذا الحل وتألفت اللجنة فدأبت على العمل وواصلت البحث والتنقيب حتى اهتدت إلى المصرف المالي الذي كان البارون ده ريناخ يودع فيه أمواله؛ فقرر مدير هذا المصرف أن في حيازته تحويلات مالية "شيكات" بإمضاء المرحوم البارون وإن كثيرًا من النواب والشيوخ قبضوا قيمتها. وقدم للجنة هذه التحويلات فإذا بين إمضاءات الموقعين على قبض القيمة إمضاءات المسيو البير جريفي، وليون رينوه، من زعماء مجلس الشيوخ والمسيو أمانويل أرين، وجول روش، من زعماء مجلس النواب، وإمضاء رئيس الوزراء السابق روفييه وإمضاء الوزير بايهو

تلقاء هذه الأدلة الحاسمة لم يسع المجلس بناء على طلب الحكومة إلا أن يقرر رفع الحصانة البرلمانية عن جميع المتهمين تمهيدًا لتقديمهم إلى المحاكمة، وفي العاشر من شهر يناير سنة **١٨٩٣** مثل الجميع أمام القضاء وترافع النائب العام فقال: "إن مديري شركة بناما قد أضاعوا على الشعب بمعاونة نواب الشعب مليارًا وأربعمائة مليونا من الفرنكات (ستة وخمسن مليونًا من الجنيهات تقريبًا) في أكبر وأضخم مشروع نصب واحتيال عرفه التاريخ"، وحكمت المحكمة على كل من المديرين بالسجن ستة أشهر وبغرامات مختلفة. أما رجال البرلمان والوزراء فقد أنكروا ما عزى إليهم من التهم وصدر الحكم ببراءتهم جميعًا ما عدا الوزير بايهو الذي آثر الاعتراف فتخطاه تسامح القضاء..

وهكذا أبت الأقدار على العبقري العظيم فردينان ده ليسبس إلا أن يختم حياته بهذه الخاتمة السوداء، فلم يشفع له أمام القضاء ذلك الأثر الخالد الذي وصل الشرق بالغرب، ولم تشفع له ألقابه العلمية ولا أوسمة الشرف التي تغطي صدره، ولقد عاش بعد سجنه أشهرًا ثم مات مهمومًا محزونًا..

نهاية الإمبراطورة أوجيني

كان الإمبراطور نابليون الثالث يقود جيوشه ضد البروسيين بميدان الألزاس واللورين في حرب سنة ١٨٧٠، ومنذ الأيام الأولى ومن شهر سبتمبر أخذت الأنباء السيئة عن حالة الجيش تتوالى بسرعة إلى أن اختتمت بنبأ الهزيمة الكبرى في معركة سيدان ووقوع الإمبراطور أسيرًا في يد الأعداء

وكان الرأي العام، في انفعاله تحت تأثير الكارثة التي نزلت بالوطن، يعزو أسباب الهزيمة إلى سوء قادة الإمبراطور من ناحية، وإلى سوء سياسة الإمبراطورة أوجيني القائمة مقامه على العرش من ناحية أخرى، لذلك هاجت الخواطر وثارت ثائرة أهل باريس وخرجت الجماهير في مظاهرات ضخمة تنادي بسقوط "الإمبراطور الجبان وزوجته الإسبانية"، وكانت الإمبراطورة أوجيني تسمع كل ذلك وتراه ولكنها ظلت رابطة الجأش هادئة لم تفقد صوابها أمام الإعصار المفاجئ لعلها تخفف من حدته أو تتلافاه..

ففي الرابع من شهر سبتمبر وقد فرغت من أعمال جلسة مجلس الوزراء التي انعقدت برياستها في قصر التويلري، أخذت تستقبل وفدًا من أعضاء مجلس النواب وقد جاءوا يوقفونها على ما وصلت إليه ويدعونها إلى النزول عن العرش تهدئة للثورة الموشكة على الشبوب وحقنًا للدماء..

ولقد استمعت الإمبراطورة إلى شتى المقترحات التي قدمت إليها ثم قالت: "إني لا أستطيع أن أبرح هذا المكان طائعة رغم ما يحف به اليوم من المخاطر والأهوال، ولست أتعلق بالعرش حبًا فيه ولا احتفاظًا به لزوجي، وإنما أرى واجبي في أن أظل هنا لأؤدي المهمة السامية التي نيطت بي، ولأصون الأمانة التي ائتمنني عليها الإمبراطور، حتى لا يقال أني فررت من الواجب أمام الخطر الذي يهدد شخصي. ولكن إذا كنتم ترون أن في قيامي على شؤون العرش أو إن في بقاء الحكم الإمبراطوري ما لا يتفق الآن ومقتضيات الظروف الطائة أو ما قد يعرقل تحسن الأحوال، فما عليكم إلا أن تصدروا قرارًا بعزلنا، وعندئذ أتحرر من العبء الثقيل الملقى على كاهلي وأستطيع أن أنسحب بشرف وكرامة"

ولقد ألقت الإمبراطورة هذا التصريح الرزين الحازم في أكثر ما يتسنى من الهدوء لامرأة قاست من تباريح الألم في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة أقصى ما تستطيع أن تقاسيه ملكة وأم وزوجة، فلقد انتهى إليها نبأ الكارثة مساء اليوم البارح فاعترتها نوبة حزن ويأس، لم تلبث أن تغلبت عليها واستعادت صوابها وشجاعتها وأمضت الليل ساهرة تفض البرقيات الواردة إليها من زوجها فما تفرغ من خبر سيء إلا لتستقبل خبرًا أسوأ، وتقرأ تقارير وزير الداخلية فإذا هي طافحة بأخبار المظاهرات وبوادر الثورة ورغبة الشعب في القبض عليها وجعلها رهينة لديه حتى يعتزل زوجها العرش ويعلن رسيمًا نبأ هذا الاعتزال.

وإذ بدأ الفجر يرسل أشعته البيضاء على الوجود نهضت من مكتبها وأسندت جبينها الجميل الملتهب إلى زجاج النافذة وأطلقت من صدرها زفرة حارة تنم عن ألم شديد ورفعت عينيها الواسعتين إلى السماء وقال: "لتكن مشيئتك يا الله" ثم عمدت إلى مصلاها فصلت صلاة قصيرة ذهبت بعدها تتفقد جرحى الحرب الذين كانت قد أعدت لإيوائهم وتمريضهم معظم أبهاء القصر وغرفه بعد أن ضاقت بهم المستشفيات. ثم لم يقعدها هذا الجهد الجسماني الضخم ولا تلك الهموم النفسية المضنية عن أن تنشط بعد ذلك إلى أعمال الدولة فعادت إلى مكتبها تستدعي وزيرها ومستشاريها وأولي الرأي من حاشيتها لتحدثهم عما هو واقع وما ينبغي أن يكون، موجهة كل قواها إلى بث الشجاعة في الجميع وحمل الحكومة على أخذ الأمور بما تقضيه من الحزم في ساعات الخطر، معلنة أنها تتقبل كل تضحية مادامت في سبيل الوطن مؤكدة أنها تؤثر مصلحة فرنسا على مصلحة البيت المالك وإن لم يكن ثم فارق بين المصلحتين

وكان اليوم صائفًا فما بزغت الشمس حتى اكتظت شوارع باريس بالجموع الزاخرة تزحف كلها نحو ميدان الكونكورد أمام القصر الإمبراطوري، وما إن صارت الشمس رأد الضحى حتى كان هذا الميدان يموج بمن فيه من المتظاهرين الصاخبين الهائجين. ولقد استطاع بعض خلصاء الإمبراطورة أن يتسللوا إلى القصر ليعرضوا خدماتهم على سيدتهم في هذا الوقت العصيب، واكتمل منهم لديها أربعون من رجال ونساء جعلوا يتشاورون في الأمر وقد انقسموا إلى رأيين: أحدهما ينصح بالمقاومة ومعالجة الحالة بما تتطلبه من الوسائل الشديدة، والثاني يذهب إلى وجوب

الاستسلام للواقع وإنقاذ الإمبراطورة بمعاونتها على الهروب من وجه الثائرين..

وكانت الساعات تمضي سراعًا، وقد آن الأوان لاتخاذ قرار نهائي، وجاء الجنرال مليني حاكم القصر وأفضى إلى الإمبراطورة بأن الوقت قد أزف ولم يعد للتريث مجال، فالثائرون يحطمون الأسوار الخارجية ويحيطون بالسراي من كل صوب، وقد احتلوا مجلس النواب واضطروا ممثلي الأمة إلى عقد جلستهم في منزل رئيسهم. وهذا هو الجنرال تروشوه حاكم باريس العسكري قد انضم إلى الثوار وأعلن قبوله تأليف حكومة مؤقتة، والجيش متردد منقسم تجنح أكثريته إلى الثورة وتؤيدها، وحامية القصر ضعيفة لا يجوز التعويل على قوتها بل ولا على ولائها..

وإذا كان قدر على قصر آل مدسيس، الذي سمي فيما بعد بقصر التويلري، أن يشهد انهيار عدة عروش وسقوط عدة ملوك، فهو لم يشهد قبل ذلك اليوم سقوطًا سبقه نزع مثل هذا النزع الطويل، أو أحاطت به آلام كهذه الآلام الثقال؛ فلقد كانت الإمبراطورة واجمة مشردة العقل زائغة البصر لا تلوى على شيء، وقد أحاط بها أصدقاؤها مشتتين الفكر عاجزين عن أي شئ لا يدرون ما يجب أن يعمل وما يجب أن يترك، حائرين بين إصرارها على البقاء وإصرارها في الوقت نفسه على عدم المقاومة، وها هي ذي الجماهير قد اقتحمت الأسوار واقتربت من مداخل القصر، وها هي تلك زمجرة الشعب الهائج تسمع من النوافذ وتدنو رويدًا رويدًا من الآذان فما العمل؟

واستأذن البرنس ميترنيخ سفير النمسا والشفالييه نيجرا سفير إيطاليا في الدخول على الإمبراطورة وأفضيا إليها بأن الوقت حرج والساعة رهيبة والخطر يحف بها من كل ناحية، وأن لا مناص من الابتعاد حالا حتى تنجو بنفسها وإلا تعسر إنقاذها وذهبت فريسة سائغة للثائرين. وكأنما كانت الإمبراطورة تؤثر أن تعرض حياتها للخطر بالتروي ومناقشة مشروع الفرار بتفاصيله، ولأنها، وقد سمعت سفير النمسا يؤكد أن الجماهير ستقتحم القصر بعد دقائق، وأن الثائرين لن يتهيبوها إمبراطورة ولن يترفقوا بها امرأة، وآنست فيمن حولها اليأس والجنوح إلى التسليم أدركت مدى الخطر الذي يتهددها ويتهدد أصدقاءها معها وأذعت وقالت والدموع تتساقط من عينيها: "إذن فليكن ما تريدون"

وفي هذه اللحظة أقبل مدير الأمن العام وأنهى إليها أن الحالة لم تعد تحتمل التسويف وأن النجاة في المبادرة إلى الرحيل، فمدت يديها تودع أصحابها وهي تقول: "سأذكر ما حييت هذا العطف الذي ألقاه منكم الآن، وأسأل الله أن يهيئ لي لقاءكم في أوقات أسعد من هذه الأوقات"

وأسبل الشفالييه نيجرا على كتفيها معطفًا وناولها قبعتها وهو يدفعها في رفق إلى ناحية الباب ويردد: "هيا يا مولاتي فليس في الوقت متسع للكلام"، وجذبها البرنس ميترنيخ من ساعدها وقال: "ألا تسمعين صياح الثوار في الأروقة يا مولاتي فبالله ألا أسرعت وإلا فاتت الفرصة وتعذرت النجاة" وخرجت الإمبراطورة وراءه تجر ساقيها وتتزود من المكان ومن فيه بنظرة أخيرة ودموعها المنهملة تحدث عما في نفسها من ألم مرير.

وإذ صارت في الردهة الكبرى حولت بصرها نحو مستشفى الجرحى وقالت: "وهؤلاء، لمن أتركهم بعدي؟ إني أوصيكم بهم خيرًا وأرجو ان تنقلوا إليهم مني أطيب التمنيات.. وداعًا أيها الأصدقاء"

وسار بها السفيران يجتازان الأبهاء والردهات ويتبعهما بعض الحاضرين مشيعين، فلما بلغوا باب المدخل السري الموصل إلى الخارج ألفوه موصدًا بالمفتاح لا حيلة فيه، فوقفت الإمبراطورة شاخصة إلى صاحبيها وقالت: "تلك إرادة الله فلا بد من البقاء" وهمت بالعودة كأنها تستحلي الموت أو تؤثره على مغادرة ذلك القصر الذي أمضت فيه خمسة عشر عامًا من حياتها كانت كلها أعوام سعادة وهناء. ولكن المسيو شارل تيلان أمين السراي ظهر في هذه اللحظة وكان يحمل مفتاحًا خاصًا يصلح لجميع الأبواب ففتح الباب وخرجت منه الإمبراطورة بين صاحبيها يجتازون الممر الطويل المؤدي إلى متحف اللوفر، وظلوا يتسللون من بهو إلى غرفة ومن غرفة إلى ردهة حتى بلغوا الباب الكبير فوقفت الإمبراطورة وقالت للسفيرين أن مركزهما الرسمي لا يسمح لهما بأن يشتركا في هذه المغامرة، ورجت منهما أن يكتفيا بما فعلاه من أجلها، وشكرت لهما حسن معاونتهما وجميل عطفهما وبادلتهما التحية وكلمات الوداع، فتناول الرجلان يدها وقبلاها وانحنيا في احترام وتمنيا لها حظًا سعيدًا وسفرًا موفقًا، ثم اعتمدت على ذراع وصيفتها مدام لوبريتون وخرجت معها إلى الطريق العام..

وأبصر البرنس ميترنيخ حوذيًا واقفًا بعربته عند نهاية الشارع فأهاب به وكانت عربته مقفلة فهمت الإمبراطورة ووصيفتها بالركوب، ولكن الشارع كان يموج بالسابلة وقد اقترب غلام من العربة وعرف وجه أوجيني فصاح: "هذه هي الإمبراطورة" فابتدره البرنس بلطمة خفيفة على وجهه، وشد أذنه بإصبعه، وقال له: "ماذا تفعل أيها المنكود؟.. أتهتف للبروسيين" قال: "لا، وإنما أقول أن هي هي الإمبراطورة" فضحك البرنس وأدخل في روعه أنها زوجته وأنها مريضة في طريقها إلى نزهتها اليومية في الخلاء. وكان الشفالييه نيجرا قد اغتنم هذا الحوار ودفع بالإمبراطورة وصاحبتها إلى العربة وألهب الحوذي جواده بالسوط فانطلقت العربة تجري قاصدة منزل مسيو بيسون أحد مستشاري الدولة الذين ظلوا أوفياء للعرش حتى اللحظة الأخيرة، وكانت الإمبراطورة ترجو أن تجد لديه مأوى تستقر فيه إلى أن تهيئ لنفيها وسائل الرحيل إلى إنجلترا.

ونزلت المرأتان ودفعتا أجر الحوذي وصعدتا إلى الطبقة التي يسكنها المسيو بيسون، ولكن شاء سوء الحظ أن يكون هذا المسيو بيسون غائبًا من منزله مع أسرته وخادميه. وشعرت الإمبراطورة بشيء من اليأس وكان التعب قد أنهك قواها فجلست في إحدى درجات السلم لتستريح، ومضى نصف ساعة وهما على هذه الحال فلما لم يأت أحد نهضت أوجيني وقالت: "هيا بنا نحن لا نستطيع البقاء هنا أكثر من ذلك". وعادت السيدتان إلى الشارع وسارتا فيه على غير هدى وقد أسبلتا على وجهيهما نقابين كثيفين يحجبانهما عن الأنظار. وكان المارة يتفرسون فيهما ويتوانى بعضهم ليستجلي أمرهما وهما تذرعان الشارع ذهابًا وجيئة، ولم يدر بخلد

أحد منهم أن إحداهما الإمبراطورة أوجيني التي تقف على جمالها العيون وتعنو لطلعتها الوجوه.

وأقبلت عربة فاستوقفتاها وركبتا، ولكن إلى أين؟ خطر للإمبراطورة أول الأمر أن تأمر الحوذي بالذهاب إلى قصر التويلري لتتم فيها آية الله وليكون من الأمر ما يكون، ولكن مدام لوبرتون حذرتها عاقبة هذه المجازفة ونصحت لها باللجوء إلى مستر واشبورن سفير الولايات المتحدة لتحتمي بالعلم الأمريكي فلا تمتد إليها يد بسوء. وفكرت الإمبراطورة في هذا الاقتراح مليًا ولكن شق على نفسها أن تحرج مركز السفير بأن تجعله بين أمرين: إما أن يرفض إيواءها وهو ما لا يفعله رجل نبيل، وإما أن يؤويها فيخل بأصول السفارة وهو ما لا ترضاه لموظف مسئول. لذلك أعرضت عن نصيحة صاحبتها وظلت تجوب الشوارع بالعربة معرضة نفسها في ذهولها إلى أشد الأخطار، حتى هداها التفكير إلى الالتجاء إلى صديق قديم فهمت في أذن صاحبتها قائلة: "لم يبق إلا أن نذهب إلى بيت الدكتور إيفانس"

وكان الدكتور إيفانس طبيب أسنان أمريكيًا مشهورًا يقيم بباريس منذ نصف قرن، وقد عالج أوجيني لما كانت فتاة تحمل اسم الآنسة دي مونتيجو، وتتردد في سياحاتها على العاصمة الفرنسية، ثم استمرت علاقاتها به بعد أن صارت إمبراطورة على فرنسا فاتخذته طبيبًا لها ولزوجها الإمبراطور فتوثقت هذه العلاقات. وكان للدكتور إيفانس زميل يعاونه في عيادته وهو الدكتور كرين وكثيرًا ما كان يندبه إلى القصر بدلاً منه أو

يصطحبه إليه، ومن هنا نشأت بينه هو الآخر وبين الأسرة المالكة صلة صداقة متينة تتحدى أحداث الزمان. ولم يكن يخطر ببال هذين الطبيبين الصديقين أن سيجئ يوم تلجأ فيه إليهما الإمبراطورة واضعة سلامتها وحياتها بين يديهما طالبة منهما النجدة والمعونة في أحرج الساعات. ولقد دون الدكتور إيفانس في مذكراته التي نشرت بعد وفاته ذكريات ذلك اليوم الرهيب والأيام التي تلته وأتيح له فيها أن يكون أكبر عون للإمبراطورة الطريدة على الفرار من فرنسا في ظروف هي أشبه بالروايات الخيالية منها بالحقائق الواقعية. وإنا لنغترف من هذه المذكرات ما يعيننا على تتبع خطوات السيدتين الفارتين حتى تغادرا فرنسا وتصلا إلى بلاد الإنجليز..

كان اليوم أحدًا وقد خرج الدكتور إيفانس مع زميله كرين للنزهة في عربة يقودها بنفسه، فلما أبصر ازدحام الشوارع بالمظاهرات وعافت أذناه سماع الهاتف بسقوط الإمبراطور وزوجته آثر أن يولي وجهه شطر غابات بولونيا ليكون وصاحبه بعيدين عن الزحام والضوضاء، وفيما هما في طريقهما إلى الغابات عن إيفانس أن يعرج على بيته ليصدر إلى طاهية وخادمة بعض تعليمات خاصة بمأدبة يقيمها لنفر من أصدقائه مساء ذلك اليوم. ولشد ما كان تململه وضجره عندما أفضى إليه الخادم بأن في حجرة الاستقبال سيدتين تنتظرانه منذ ساعة وتأبيان إعلان اسميهما والغرض من زيارتهما. ولقد فكر أول الأمر في أن يعتذر عن مقابلتهما ولكن أدبه أبى عليه ذلك، فوجه خطواته إلى غرفة الاستقبال، وهناك كاد الذهول يستولي عليه إذ أبصر نفسه وجها لوجه أمام الإمبراطورة أوجيني

– ماذا أرى؟ جلالتك هنا.. وفي هذا اليوم المخيف؟

ومدت الإمبراطورة إلى الطبيب يديها المرتعشتين مصافحة، وقالت والعبرات تحبس الكلام في فمها: "نعم أنا، وقد جئت أسلم نفسي إليك، وأرجو أن تعاونني على الخروج من هذا البلد، فإن الثوار منتصرون في كل مكان، وهم يتعقبونني باحثين عني، وإذا ظفروا بي فلن يبقوا عليّ. لقد فعلت الوشايات السافلة والإشاعات الكاذبة فعلها في نفس الشعب الهائج، وها هو ذا الشعب يحملني مسئولية كارثة لا يد لي فيها ويريد أن أكفر عنها بحياتي، فهل أعتمد على صداقتك يا سيدي الطبيب؟"

ارتمت الإمبراطورة على مقعد وثير منهوكة القوى مضعضعة العزيمة، وكأنها اطمأنت إلى وجودها بين شخصين يحبانها ويعطفان عليها ويقدران مدى آلامها فلم تحاول أن تكبت عواطفها وأرسلت الدموع تنهمر من عينيها والزفرات تتصعد من صدرها وهي تردد من وقت لآخر قولها: "ماذا فعلت لأستحق كل هذا يا الله؟!" وأقبل الدكتور إيفانس يطيب نفسها ويهدئ خاطرها ويهون عليها ويعدها بأن يجعل كل قواه في خدمتها، ثم استولت عليها سنة من النوم فأطبقت أجفانها فترة طويلة ولما أفاقت من سباتها قدموا إليها طعامًا خفيفًا فأكلت منه بعض الشيء، كأنما استعادت قواها ونشاطها ومواهبها فجلست تدبر مع صديقها أمر الفرار.

وكان من رأي الإمبراطورة أن تستأجر في الحال عربة تقلها إلى بلدة بواسي حيث تستقل منها القطار المسافر إلى ميناء الهافر فتركب السفينة

التي تقلع منها صباح الغد إلى ميناء سوثمبتن. أما الطبيب فأشار بالتريث حتى الغد لانتظار ما ستتكشف عنه الحال في باريس وقال: "إن جلالتك لا تزال القائمة مقام الإمبراطور على العرش وولية الأمر الشرعية في البلاد، والثورة لم تتجاوز بعد حدود العاصمة ولم يؤيدها الجيش علنًا ولم تنضم إليها الأقاليم بعد، فلننتظر إذن ما يجد من الأمر اليوم أمل في سلوك الجيش وموقف الأقاليم ما يوحي إلى جلالتك بالبقاء. ومهما يكن من الأمر فإن جلالتك هنا في مأوى أمين لا تحوم حوله الظنون، فإذا ظهر لنا أن الحكومة المؤقتة تحاول الاستيلاء على شخصك لتتخذ من اعتقالك ومن أسر الإمبراطور دعامة تدعم بها كيانها وتعلن سقوط الإمبراطورية ففرصة الفرار لن تفوت، وما نستطيعه اليوم سنستطيعه غدًا، وستصل جلالتك إلى الشواطئ الإنجليزية سالمة بإذن الله"

واستقر الرأي بعد أخذ ورد على أن ترحل الإمبراطورة عن باريس عند الفجر في عربة تقلها إلى مدينة دوفيل، حيث كانت مدام إيفانس تصطاف تلك الأيام، ومن هنالك يستقل الجميع إحدى البواخر المسافرة إلى إنجلترا. وشاءت المصادفات المواتية أن يكون لدى الطبيب كرين جواز سفر باسمه من السفارة البريطانية، وقد ذكر فيه أنه يصحب إلى لوندرة سيدة إنجليزية مريضة مع أخيه وممرضتها، فاتفقوا على أن تكون الإمبراطورة هي السيدة المريضة والدكتور إيفانس أخوها ومدام لوبريتون ممرضتها

وما لاحت الأضواء الأولى من الفجر حتى كانت العربة مهيأة للسير، فركبت الإمبراطورة وركب أصحابها معها، ولم تكن تحمل معها

حقائب ولا أمتعة، فقد غادرت قصر التويلري على عجل حتى أنها لم تتزود بشيء من المال ولا من الجواهر ولا من الثياب. وسارت العربة متجهة شطر ضاحية سان جرمان، وكان الجو صحوًا والشوارع لا تزال خالية من السابلة إلا بعض باعة اللبن والخضر يقودون عرباتهم الصغيرة قادمين من الضواحي إلى الأسواق، فلما بلغت المركبة باب مايوه اعترضها ضابط المخفر وسأل: "من أنتم وإلى أين؟" فأسرع إيفانس ونشر جريدة كانت معه وستر بها وجه الإمبراطورة وهو يتظاهر بقراءتها، وقال في عدم تكلف ولا مبالاة: "نحن أسرة أمريكية نقصد إلى الضواحي القريبة لنمضي فيها هذا اليوم البهيج" واقتنع الضابط بهذا التعليل وأشار إلى الحوذي فانطلق، واجتاز المسافرون قرى سان جرمان وبواسي وتريبل وفو ومولان من غير أن يتوقفوا في واحدة منها، فلما بلغوا بلدة مانت كان الوقت ظهرًا وقد أحسوا جوعًا شديدًا، فترجل الطبيبان ودخلا خانًا قائمًا عند مدخل البلدة واستطعما صاحبه فقدم إليهما خبزًا وبيضًا ولحمًا مقددًا وشيئًا من النبيذ؛ فأكلا وشربا بعد أن احتجزا جزءًا من الطعام جعلاه في غلاف وحملاه إلى الإمبراطورة وصاحبتها واستأنف الركب المسير..

وقبيل المساء بقليل بلغ المسافرون مدينة دوفيل، ونزلت الأميرة في الفندق الذي كانت زوجة إيفانس نازلة فيه، وانصرف الطبيبان إلى البحث عن سفينة مسافرة أو يخت يستأجرانه. وأتاح الحظ المسعف للدكتور إيفانس لقاء صديق قديم هو السير جون بارجوين، وكان يملك يختًا صغيرًا راسيًا في الميناء، فكاشفه بالأمر ورضي السير جون أن يجعل سفينته في خدمة الإمبراطورة، واتفق الجميع على الإقلاع صباح اليوم التالي. وبعد

رحلة شاقة في بحر لجي عنيف قاست فيه السفينة الصغيرة أهوالا كانت تقذف بها إلى القاع، وصلت الإمبراطورة إلى مرفأ رايد ووضعت قدميها على تلك الأرض الإنجليزية المضياف التي آوت من قبلها ملكين طريدين من ملوك فرنسا: لويس الثامن عشر، وشارل العاشر

* * *

يا رحمة الله على الإمبراطورة أوجيني! فلقد طالما دللتها الحياة طفلة وصبية، إذ أفاضت عليها نعمة الحسب ونعمة الجمال، ثم تجاوزت في تدليلها أقصى ما تحلم به فتاة من لداتها وأترابها فرفعتها إلى قمة المجد وذروة العرش، ثم قلبت لها ظهر المجن دفعة واحدة فأطارتها من علياء عزها إلى حيث تعاني آلام الغربة والضيق، وما هو أشد من آلاف الغربة والضيق..

أمضيت شروط الصلح بين فرنسا وبروسيا، وأطلق سراح الإمبراطور نابليون الثالث من أسره فلم يجد هو الآخر ملجأ يؤويه سوى إنجلترا. وإن لمن سخرية الأيام حقًا أن نرى الحكومة البريطانية ترحب بنابليون الثالث وتستقدمه ضيفًا عليها وهي التي لم تتورع قبل ذلك بسنوات عن أن تخون تقاليد الشرف والضيافة وتقبض على عمه نابليون الأول، وترسله إلى جزيرة القديسة هيلانة أسيرًا يقاسي آلام النفي والموت البطئ، ولكنها السياسة، وكل ما تلده السياسة عجيب وغريب!

ويلتقي الزوجان التعسان بعد فراق طويل فيكاد الواحد منهما لا يعرف الآخر، فلقد أنهك المرض قوى الإمبراطور وأسقم بنيته. وذهب الغم بنضرة وجهه حتى غير ملامحه وبات شيخًا لا أثر فيه من الفتوة والنشاط، أما الإمبراطورة الحسناء التي كانت حتى الأمس القريب ملتقى أنظار العيون المعجبين وموضوع تفنن الرسامين، فقد فعلت بجمالها هموم الأشهر الأخيرة ما لا تفعله السنون الطويلة، وها هي تلك وهي بعد في منتصف العقد الخامس من حياتها، وقد ذوي جمالها واشتعل رأسها بالشيب وأغارت على بشرتها الغضون وتهدل قوامها وترهلت أردافها حتى لم يبق سوى عينيها الواسعتين تذكران الناس بجمالها القديم..

وتمضي الأيام كئيبة متشابهة حتى يأتي عام **١٨٧٣** فتشتد على الإمبراطور وطأة الداء، ويصاب بحصاة في المثانة تسدها فيتسمم بسمه ويموت، وتقعد الإمبراطورة تندب حظها وعرشها وزوجها، ثم لا ترحمها الأقدار فتنكبها في ابنها إذ يقتله متوحشو قبيلة الزولو في رحلة إلى مجاهل إفريقيا، وبذلك تفقد المسكينة آخر أمل لها في الحياة، وهو أن ترى هذا الابن يومًا من الأيام متربعًا على عرش أبيه.

ويقضى على الإمبراطورة التاعسة أن تعيش بعد كل هذا، وأن تعمر طويلا لتشهد موت كل أهلها وكل أصدقائها وكل أعدائها حتى صديقتها الملكة فيكتوريا التي طالما واستها وأحسنت إليها، ثم لا تقوى على الاستقرار في مكان فتهيم على وجهها سائحة في أرجاء الدنيا تسرح همومها وأحزانها في مختلف البلاد، فترحل إلى إفريقيا لتصلي على قبر ابنها

وتزور جزيرة سيلان بآسيا، وترتد إلى مصر سنة ١٩٠٤ فتنزل في أحد فنادق القاهرة ضيفة مجهولة بعد أن وفدت إليها سنة ١٨٦٩ إمبراطورة عظيمة تسير في طليعة ملوك أوربا وأمرائها من ضيوف الخديو إسماعيل يوم افتتاح قناة السويس، ويا ليت شعري ما الإحساس الذي استولى عليها وهي تجوب أنحاء القاهرة، فتمر بقصر الجزيرة وقد شيده إسماعيل العظيم لتقيم فيه بضعة أيام، أو بدار الأوبرا الملكية وقد أقامها لها أيضًا لتشهد فيها حفلة تمثيل؟!

وتنشب الحرب الكبرى سنة ١٩١٤ فتستأذن لحكومة الفرنسية في العودة إلى وطنها ومقر ملكها القديم لتؤدي فيه ما تستطيع أن تؤديه من الخدمات فيؤذن لها، وهنالك تستأجر بيتًا مقابلا لقصر التويلري وتقيم فيه لتكتحل عيناها المريضتان برؤية ذلك القصر المنيف الذي أمضت فيه خير سني حياتها وكل أيام عزها ومجدها. ثم يقدر لها أن تعيش حتى تفوز فرنسا بالنصر على ألمانيا وتسترد منها إقليمي الألزاس واللورين الذين أضاعتهما حرب زوجها سنة ١٨٧٠ فتسر وتبتهج وتصيح: "شكرًا للحياة فقد جاملتني بعد طول الإساءة، وأرضتني بعد طول الإيلام. والآن وقد شهدت انتصار بلادي فمرحبًا بالموت وأهلا به في أي وقت يجئ"

أما حالتها الصحية والعقلية فيحدثنا عنها الأستاذ هنري روبير نقيب محامي فرنسا السابق إذ يقول: "كنت مدعوًا للعشاء عند البرنس موراه وزوجته في ليلة من ليالي صيف سنة ١٩١٤ وقد وعدنا مضيفانا بمفاجأة سارة لم يريدا أن يقولا لنا ما هي. فلما كانت الساعة الثامنة أقبل

كبير الخدم وأسر في أذن الأمير كلمات نهض على أثرها وتبعته الأميرة زوجته. ولم تمض برهة حتى فتح الباب على مصراعيه ورأينا الأميرين ينحنيان انحناء احترام يذكرنا بآداب وتقاليد العهد الملكي القديم، ودخلت عجوز فانية تتوكأ على عصاها وتتحسس بها الأرض كأنها عمياء تخشى أن تصطدم بشيء، وانتصب المدعوون جميعًا وقوفًا وتهامس بعضهم قائلين: "جلالة الإمبراطورة" ثم انحنوا طويلا وظلوا في انحنائهم إلى أن قالت العجوز بصوت خافت متقطع يكاد لا يسمع: "أسعد الله مساءكم أيتها السيدات وأيها السادة"، ثم قادها الأمير إلى كرسي واسع وثير في وسط الحجرة والتف المدعوون حولها وجعلت الأميرة تقدمنا إليها بأسمائنا الواحد بعد الآخر فتمد إلينا يدها فنلثمها..

"تلك هي الإمبراطورة أوجيني وقد تنزلت الى زيارة أولئك الباقين من أسرة زوجها، لم أكن قد رأيتها من قبل رأي العين وإن كنت أعرف صورها والرسوم الزيتية التي صنعها لها كبار الرسامين، ولكن أين هذه الشمطاء المتهدمة من تلك الصبية الغضة البضة التي كانت تفيض جمالا وأنوثة وبشرًا؟ لم يبق أثر كبير ولا صغير من ذلك الجمال الفاتن، حتى بريق عينيها سطت عليه السنون فأطفأته، ولم تغادر من هاتين العينين سوى حفرتين غائرتين في وسط كل منهما حدقة تتحرك وتكاد لا تبصر.. أما قواها العقلية فقد ظلت كاملة لم تؤثر فيها الأيام، ولقد أخذت تحدث كلا منا فيما يناسبه ويتعلق بمهنته أو حيثيته فتتكلم مع العالم في شأن العلوم، ومع الأديب في آخر مؤلفاته، ومع الطبيب في تقدم الطب، فلما جاءه

دوري أدهشتني إذ ذكرتني تفاصيل قضايا مهمة كنت قد ترافعت فيها من سنوات"

واستطابت الإمبراطورة سكنى باريس فاشترت البيت الذي استأجرته أمام قصر التويلري، وإن الإنسان ليتساءل أي العواطف كان يطغى على نفسها وهي تتردد كل يوم على حديقة ذلك القصر وقد صارت متنزهًا عامًا فتتذكر أيام صباها وكل ما وعته تلك الأيام من ماض حافل بالعظائم من كل نوع؟

ولقد جلست مساء يوم على أحد مقاعد الحديقة لتستنشق نسمات الأصيل فأخذتها سنة من النوم، ولم تصح إلا على صوت أحد حراس البستان وهو يهز كتفها ويقول: "هيا يا شيخة فقد آذنت ساعة إقفال الأبواب" فنهضت العجوز متثاقلة تتكئ على عصاها وتربت على ظهر الخفير وتقول: "شكرًا يا ولدي ها أنا ذاهبة"، وأواه لو علم الحارس أن تلك التي يطردها كانت صاحبة القصر والبستان

ولقد ظلت الإمبراطورة أوجيني حتى أواخر أيامها مولعة بالأسفار، وقد أرادت أن تزور إسبانيا موطنها الأصلي ومسقط رأسها فسافرت إليها، وهناك مرضت بعينيها وأجريت لها عملية جراحية لم تقو على تحمل صدمتها فمرضت وتوفيت فجر اليوم الحادي عشر من شهر يوليو سنة ١٩٢٠ بالغة من العمر ستة وتسعين عامًا نعمت في بدايتها بما لم تنعم ببعضه امرأة، وشقيت في نهايتها بما لم يشق بمثله إنسان

فضيحة الاتجار بالنياشين

في سنة ١٨٤٨ كان النائب جول جريفي يقترح على زملائه أعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية إلغاء منصب رياسة الجمهورية قائلا في أكثر ما يكون من الاقتناع وراحة الضمير: "إن هذا المنصب لا يفيد غير شاغله ولا يرضى أن يشغله غير طماع شره يريد أن يرضي نهمه بالمال وغروره بالجاه. وإن سياسيًا ذا كرامة لا يقبل أن يتبوأ وظيفة يكون فيها مستهلكًا غير منتج وعالة على الدولة والممول المسكين"

ولكن عقلية الرجل السياسي تتكيف وفقًا للظروف حتى لا يرى جناحًا عليه أن يعتنق اليوم رأيًا يحاربه بالأمس، ولا أن يناهض في الغد فكرة يؤيدها اليوم، فما أن استقال الماريشال مكماهون سنة ١٨٧٩ حتى برز المسيو جول جريفي يرشح نفسه ليخلفه في رياسة الجمهورية، وأبت الأقدار إلا أن تشرك الناس معها في سخريتها فانتخب الرجل للرياسة بأغلبية تكاد تكون إجماعًا

ويظهر أن المسيو جول جريفي استطاب الإقامة في قصر الإليزيه واقتنع بأن رياسة الجمهورية منصب نافع ومفيد، فلما انقضت السنوات السبع المقدرة لمدة الرياسة، عاد فرشح نفسه لها مرة ثانية فانتخب سبع سنوات أخرى..

والحق أن مسيو جول جريفي – بغض النظر عن رأيه القديم في منصب الرياسة وتشبثه الجديد به – كان محترمًا وجديرًا بالاحترام، ولقد كان معاصروه يرون فيه الرئيس المعتدل الحازم الطاهر اليد العف الضمير، ويوقنون أنهم اهتدوا إلى الرجل الصالح الذي ينبغي أن يظل في وظيفته السامية حتى يختاره الله إلى جواره..

وكان الرئيس يشاطر معاصريه هذا الرأي في شخصه ورياسته ويبيت مطمئن النفس هادئ البال يرفل في حلل المنصب وينعم بخبراته وينظر إلى سماء الرياسة فلا يبصر بها سحبًا تنذر بصيب ولا بطل، فيحسب أن الحظ سيظل حليفه وأن الزمان يبقى مواتيه..

بيد انه كان للرئيس صهر يساكنه في قصر الإليزيه وهو المسيو دانيال ويلسن زوج ابنته. وقد كان هذا الصهر أحد نواب الأمة ووكيلا سابقًا لوزارة المالية، ورجلا من رجال الأعمال وأصحاب المشروعات، وصحفيًا يملك عدة صحف تتفاوت في الأهمية وسعة الانتشار، ولكنه كان في الوقت عينه من ذلك الصنف من السياسيين الذين يرون في المناصب الحكومية والنيابة الشعبية فرصًا للاستغلال لا يجوز تفويتها، وسبلا للغنائم لا يحسن تجنبها، وكان يعرف أن الفرصة ذات ذؤابة من الأمام في حين أنها صلعاء من الخلف فإذا لم يقتنصها الإنسان وهي مقبلة أفلتت منه إلى غير رجعة، لذلك كان طوال مدة رياسة حميه، وطوال مدة وكالته للمالية وعضويته بمجلس النواب، يقف في الطريق ليتصيد الفرص متى سنحت، فينمي رأس ماله ويضخم ثروته التي كانت تناديه كل يوم: هل من مزيد؟

وإذا كان من الميسور ستر الفضائح في عهد الحكومات الملكية المطلقة إذ ليس فيها غير ملك واحد، وهذا الملك يستطيع أن يسدل رداءه الواسع على كل شيء فيغطيه، فإن هذا اليسر ينقلب عسرًا في عهد الحكومات الجمهورية، لأن فيها ملكًا ذا ألف رأس وألف لسان وهو البرلمان، ومن الصعب أن يتفق ألف رأس على رأي واحد وأن يتفق ألف لسان على كتمان شيء..

ولقد شاع في أروقة مجلس النواب أن "حضرة الصهر" أو "صهر الدولة" كما كان يسميه ظرفاء باريس، قد اختار لنفسه نوعًا من التجارة مضمون الربح والرواج وهو السعي لدى حميه ولدى الحكومة للإنعام على الأفراد بالنياشين مقابل رشوة يتقاضاها من المنعم عليهم عن كل نيشان، وأنه فتح في قصر الإليزيه مكتبًا لهذا الغرض يتردد عليه فيه السماسرة والوسطاء من رجال ونساء..

وتخطت تلك الإشاعة أروقة البرلمان إلى الأوساط الصحفية فأشارت إليها إحدى الصحف أول الأمر تلميحًا، ثم عادت فتناولتها ببعض التصريح. ولم يمض طويل زمن حتى كانت الإشاعة قد انطلقت من عقالها وغشيت المحافل والمنتديات، فلم يبق للناس سمر غير "تجارة حضرة الصهر" ولم يبق للجمهور دعاية غير سؤال كل حامل نيشان بكم اشتراه..

ولكن من ذا الذي يجسر على الجهر باتهام "صهر الدولة"، وصهر الدولة قوي لا يهاجم، وإذا هوجم فهو منيع لا يغلب؟

نعم كان المسيو دانيال ويلسن قويًا بمركزه وجاهه النيابي، منيعًا بمصاهرته لرئيس الجمهورية، وكان صاحب الكلمة في كثير من الأمور أو في معظمها، حتى لقد كان لا يرى حرجًا في أن يكتب إلى وزير الحربية فيقول: "إنه لمما يهم الرئيس ويهمني أن يرقى الجنرال تيبودان إلى رتبة الفريق، فأرجو أن تعد الوزارة اقتراحًا بهذه الترقية"..

ولقد حاول بعض أصدقاء الرئيس جريفي أن يفتحوا عينيه ليبصر عمق الهوة التي يقذف به فيها زوج ابنته بتصرفاته وعملياته المعيبة، وليتدارك الفضيحة قبل أن تندلع ألسنتها، ولكنه ظل يتعامى عن الواقع الملموس ويأبى أن يراقب صهره، فيرى أن في سراي الرياسة مكتبًا حقيقيًا منظمًا للاتجار بالنياشين تباع فيه طبقات نيشان فرقة الشرف لمن يدفع الثمن.

واستمرت الأمور سائرة على هذا المنوال سنين وسنين حتى كان عام ١٨٨٧ فتوارت الإشاعات واستفاضت الأخبار وتناولها الصحفيون بأقلامهم، والشعراء بمقطوعاتهم، وناظمو الأغنية والأناشيد بأغنياتهم وأناشيدهم، وقد وضع أحدهم أنشودة مضحكة ظريفة عنوانها: "يا ويل من له صهر" سرعان ما تلقفتها الأيدي واستظهرتها ذا كرات الجماهير فكانت تغنى في الشوارع والمساهر وأمام قصر الرياسة وتحت نوافذ مجلس الشيوخ والنواب.

وإذا كانت طبيعة الجمهور الفرنسي طبيعة ضحوكًا مرحة تتناول كل شيء في أوله بالدعابة والمزاح والمجون، فإنها لا تلبث إذا طال بها الأمر أن تستشيط غضبًا وينقلب غضبها ثورة لا تبقي على أي اعتبار. ولقد تبين أولو الرأي والزعماء البرلمانيون أن الأمر جد خطير، وأن تلك الأغاني والدعابات إنما هي مقدمات لانقلاب لا تعرف مغبته، وأرادوا أن يتداركوا الحالة قبل أن يستشري خطرها، فتوجهوا إلى الرئيس جريفي ناصحين له بالاستقالة، ولكنه أبى، فأعادوا الكرة ملحين فلم يزدد إلا إصرارًا وتأبيًا، فلم يجدوا وسيلة آخر الأمر إلا أن يسلكوا إلى الحل طريقه الرسمي الطبيعي بأن يخرجوا المسألة من دائرة المقاهي والمنتديات إلى دائرة البرلمان والقضاء..

وكانت بعض عرائض قد رفعت إلى مجلس النواب تتضمن اتهام دانيال ويلسن بالاتجار بالنياشين، فانتهزتها الأحزاب فرصة لقضاء مختلف لباناتها، وتناولها حزب الشمال المتطرف ليضرب بها الوزارة المعتدلة القائمة بالأمر، وتناولها الملوكيون ليطعنوا بها الحكم الجمهوري في شخص رئيس الجمهورية وارتقى جورج كليمنصو المنبر وأعمل لسانه في الوزارة، وظل يلهبها بمر النقد وجارح القول حتى انتزع من المجلس قرارًا بعدم الثقة بها فاستقالت، ثم اتجه الى النواب يستثير حميتهم بالتهويل في خطر الحالة وحرج الموقف حتى استصدر منهم قرارًا بتشكيل لجنة برلمانية لتحقيق "فضائح قصر الإليزيه" وتشكلت اللجنة فعلا ولم تلبث أيامًا حتى رفعت تقريرها إلى المجلس طالبة رفع الحصانة البرلمانية عن ويلسن فكان لها ما أرادت..

استقالت الوزارة لكي لا تواجه التيار الجارف، ولكن رئيس الجمهورية ظل متشبثًا بكرسيه متعلقًا بأستار القصر لا يريد أن يبارحه بل لا يريد أن يصدق شيئًا مما تهرف به ألسنة السوء "التي تحاول أن تنال من النظام الجمهوري بالنيل منه ومن زوج ابنته"

وتلقاء هذه الاستماتة العجيبة من رجل كان يعتبر رئيس الجمهورية شينقورا (Sinécure) لا فائدة منه، لم يجد مجلس النواب وسيلة لإكراهه على الاستقالة إلا الحيلولة دون تشكيل وزارة تخلف الوزارة المستقيلة. ورفضت الأحزاب تأييد أي مرشح للحكم ما لم يعتزل رئيس الجمهورية منصبه، وانتهى الأمر إلى أن أصبح تأليف الوزارة شيئًا مستحيلا ولبثت البلاد بلا حكومة عدة أيام..

وكان المسيو جريفي يعتمد على الزمن في حل مشكلته ظنًا منه أن الأيام قد تتيح له خلاصًا من موقفه العسير، أو أن الخلاف الناشب بين أعضاء البرلمان على من يخلفه في الرئاسة قد ينتهي بهم إلى استبقائه. ولكن الحوادث خيبت ظنه إذ ما لبثت الأحزاب أن اتفقت على اختيار المسيو سادي كارنو رئيسًا للجمهورية، فلم يسع جول جريفي إلا أن يستقيل..

انتهت المأساة من ناحيتها السياسية عند هذا الحل ولكن بقيت منها الناحية القضائية وهي الناحية المهمة التي ستكشف لنا عن بعض عجائب الحكم في بلد كل شئ فيه عجيب! ففي السادس من شهر أكتوبر سنة ١٨٨٧ استدعت النيابة العامة الجنرال كافريل الذي كان يشغل

منصب الوكيل رئيس هيئة أركان الحرب للتحقيق معه في تهمة تقاضيه رشوة مقابل الحصول على نيشان فرقة الشرف لأحد رجال الأعمال، وقد دلت التحريات الأولى على وجاهة التهمة فأوقف عن أعمال وظيفته وأودع رهن التحقيق..

وفي اليوم التالي استدعت النيابة العامة الجنرال داندلو عضو مجلس الشيوخ للتحقيق معه أيضًا في مثل تلك التهمة، ولكن الرجل كان قد اتخذ للطوارئ حذره ففر من فرنسا إلى ما وراء الحدود، ثم قبضت السلطات على بعض سيدات متهمات بالسمسرة في صفقات بيعت فيها نياشين، وأهمهن امرأة تدعى مدام راتازي، وأخرى تدعى مدام ليموزان..

ولكن الرأي العام كان شديد الانتباه واليقظة، لا يرتاح إلى هذه الإجراءات الناقصة، فكان يعلن بكافة ما يملك من وسائل الإعلان أن وراء هؤلاء الممثلين الثانويين بطلا هو صاحب الدور الأكبر وهو دانيال ويلسن صهر رئيس الجمهورية، وأن هذا البطل لا يزال حرًا طليقًا يدبر وسائل تخليص أعوانه من يد القانون..

وهب خصوم الحكم الجمهوري – وقد رأوا في هذه الفضيحة ميدانًا يصولون فيه ويجولون – يرمون الجمهورية بأشنع التهم ويلصقون بها أخزى الموبقات. وصار كتابهم يغمسون الأقلام في مداد من ماء النار ويكيلون المعايب والمقابح هيلا وهيلمانًا ويريشون السهام مسمومة إلى صدور الجمهوريين، ونشطت الأحزاب في أنديتها وانفكت الأحقاد من

عقالها وانطلقت الحزازات والأغراض من مكامنها تنادي بالويل والثبور وعظائم الأمور، حتى اضطرت السلطات إلى القيام بإجراء شكلي عله يهدئ الخواطر الثائرة، فعمدت إلى تفتيش بيت دانيال ويلسن، ولكن هذا الإجراء جاء متأخرًا، فلقد استطاع "صهر الدولة" بفضل تناوم الحكومة أو تعاميها أن ينقل معه من قصر الإليزيه إلى بيته الجديد اثنين وعشرين ألف ملفا كانت تحتوي على وثائق تثبت عملياته المزرية وتجارته الشائنة، وأن يطهر تلك الملفات من هذه الوثائق الخطرة حتى إذا أفاقت السلطات من غيبوبتها وذهبت تفتش بيته لم تجد فيه شيئًا يثبت تهمة أو ينهض دليلا على جريمة، فلم تر وجهًا للقبض عليه ولا لتوجيه أي سؤال إليه..

وانعقدت محكمة الجنح للنظر في قضية الجنرال كافاريل والجنرال داندلو وتوابعهما من الوسطاء، واستعرضت سلسلة عجيبة الحلقات من شهود الإثبات، فتلك سيدة تدعى مدام كورثاي تشهد أنها استغلت نفوذ الجنرال كافاريل لدى "بعض الجهات" للحصول على نيشان لأحد تجار الأحذية، وهذا شخص اسمه بايل يدير نزلا للعائلات ويملك زريبة نموذجية لتربية البقر قد زين صدره بوسام فرقة الشرف من درجة فارس. وذلك شاب اسمه فيكا قد اخترع مسحوقًا لإبادة الحشرات وكوفئ على اختراعه بمثل ذلك الوسام، وهكذا يمر أمام المحكمة سبعة أو ثمانية أشخاص من هذا النوع وقد حصلوا على نياشينهم بفض مساعي مدام رتازي أو مدام ليموزان لدى أحد القائدين وبفضل نفوذ القائدين لدى "إحدى الجهات"..

ويبدو شبح "صهر الدولة" وراء هؤلاء الوسطاء، ولكن اسمه يظل مكتومًا إلى أن يفاجئ الرئيس مدام ليموزان بسؤالها عن مآل المبالغ التي قبضتها من زبائنها، فتقول إن هذه المبالغ لم يكن فيها سوى أجر المناول وأنها ناولتها لأشخاص آخرين، ويسألها من هم أولئك الأشخاص الآخرون فتتردد وتتلعثم، ثم تقول في سذاجة مضحكة: "لست أعرفهم..."

ويتقدم ديفور أحد الشهود فيقرر أن كل صفقاته تمت مع مدام ليموزان التي تتمتع بحق دخول قصر الإليزيه وقتما تشاء ثم يبرز كتابًا منها إليه تقول فيه: "عندي نياشين بخمسين ألف فرنك وأخرى بأربعين ألفا لمن يريد أن ينتظر ريثما انتهى من الطلبات المستعجلة، وليس من الضروري أن يكون المرشح لفرقة الشرف قد أتى عملا يؤهله للإنعام عليه بأوسمتها، بل يكفي أنه لم يعمل شيئًا يعوق هذا الإنعام"

ويسألها الرئيس رأيها في هذا الكلام فتجيب في صراحة وقحة:"وهل من ذنبي أن علامات الشرف تباع وتشترى في هذا البلد؟ والله يا سيدي الرئيس لو أنك جئتني قبل هذه القضية لفزت أنت أيضًا بنيشان"

ثم يقف محاميها الأستاذ هابير ويلقي تصريحًا يقع وقع القنبلة في وسط المحكمة فيقول: "إن موكلتي تقرر أن البوليس كان قد ضبط بمنزلها كتابين بخط المسيو دانيال ويلسن وأن هذين الكتابين بعد أن ظلا عدة أيام تحت يد مدير إقليم السين قد طرأ عليهما تغيير، وبالحري قد استبدل بهما

غيرهما وأن الورق الذي كانا مكتوبين عليه يحمل في أعلاه اسم مجلس النواب"، وتنزعج المحكمة كما ينزعج الجمهور من هذا التصريح وتستدعي في الحال التاجر المتعهد بتوريد الأدوات الكتابية إلى البرلمان فيفحص الورق ويقرر أن الكتابين المعروضين أمام المحكمة يحملان تاريخ مايو ويونيو سنة ١٨٨٤ في حين أن الورق الذي كتبا عليه لم يخرج من مصنعه إلى السوق إلا في سبتمبر سنة ١٨٨٥ ولم يكن لذلك غير معنى واحد وهو أن مدير إقليم السين أخفى الكتابين الأصليين لأنهما يتضمنان ما يثبت بعض التهم على دانيال ويلسن وأحل محلهما كتابين مفتعلين يحملان نفس التاريخ وقد طهرا من كل ما يمس صهر الدولة

ويذهل الجمهور من هذه المفاجأة فتتصاعد في الجلسة عبارات الدهشة وأصوات الاستنكار ويصيح أحد النظارة قائلا: "الله الله! مدير السين يزور ليجامل رئيس الجمهورية. إذن فكل شيء في هذه القضية تزوير في تزوير" وترفع الجلسة وسط ضوضاء عالية وجلبة شاملة فتواجه مدام ليموزان الجمهور وتصيح: "كيف يجيئون بي إلى هنا ويتركون المجرم الحقيقي ويلسن؟"

ولا تجد الحكومة بدًا من توسيع دائرة القضية فيصدر وزير الحقانية أمرًا إلى النائب العام بالتحقيق مع كل من تقوم حوله شبهة أيًا كان مركزه أو مقامه في الهيئة الاجتماعية. ويعتزل مدير السين ومدير ادارة الأمن العام منصبيهما ويقدمان للمحاكمة، ولكن يجئ قاضي الإحالة ويفاجئ الناس

بقرار يقضي بأن لا وجه لإقامة الدعوى فيثور الرأي العام وتهيج أحزاب المعارضة وتنعي الصحافة إلى الأمة نزاهة الحكم ونزاهة القضاء..

ثم لا تجد الحكومة بدًا من توسيع دائرة القضية فيصدر وزير الحقانية أمرًا إلى النائب العام بالتحقيق مع كل من تقوم حوله شبهة أيًا كان مركزه أو مقامه في الهيئة الاجتماعية، ويعتزل مدير السين ومدير إدارة الأمن العام منصبيهما ويقدمان للمحاكمة، ولكن يجئ قاضي الإحالة ويفاجئ الناس بقرار يقضي بأن لا وجه لإقامة الدعوى؛ فيثور الرأي العام وتهيج أحزاب المعارضة وتنعي الصحافة إلى الأمة نزاهة الحكم ونزاهة القضاء..

ثم يترافع المحامون عن مدام رتازي فيصرح واحد منهم في غير ما مواربة ولا احتياط بأن المسيو دانيال ويلسن هو المسئول الأول عن كل تلك الفضائح والمستفيد الأكبر منها: "إذ هو الذي زين لهذه المسكينة الانغماس في حمأة السمسرة في تجارة النياشين، فكانت له بمثابة اليد التي تقبض الثمن بعد أن تساوم فيه" ويقدم دليلا جديدًا على ضعة نفس "صهر الدولة" وحقارة أطماعه فيبرز للمحكمة مكاتبات منه إلى بعض عملائه فيتضح أنه كان يبصم غلاف هذه المكاتبات بخاتم قصر الرياسة ليقتصد ثمن طوابع البريد، وهنا يصيح جمهور النظارة أيضًا: "الله الله!"

وكأن العدالة، وقد تباطأت كل هذا التباطؤ في تناول تصرفات "صهر الدولة" بما تستحقه من العناية، أرادت أن تعوض نفسها عما فات

أو أن تهدئ ثائرة الرأي العام، فعمد قاضي التحقيق إلى الإجراءات السريعة الحازمة بحيث لم يحب يوم ١٦ فبراير سنة ١٨٨٨ حتى المسيو دانيال ويلسن صهر رئيس الجمهورية ووكيل وزارة المالية السابق وعضو مجلس النواب، جالسًا في قفص الاتهام محكمة الجنح وإلى جانبيه اثنان من وسطائه: دوبراي، وريبودو..

ويتضح من التحقيق أن كلا من هذه الوسيطين كان إذا تعارف بشخص من ذوي الوجاهة واليسار فاجأه قائلا: "ما هذا؟ كيف لا تحمل نيشانًا وأنت أحق من غيرك بشريط أحمر يزين عروة سترتك؟ ثم يصحبه إلى القصر حيث يقابل "صهر الدولة" الذي لا يلبث أن يقتنع بجدارة المرشح وأهليته لعضوية فرقة الشرف، ولكنه يتعفف إلى حين عن طلب الثمن مكتفيًا بأن يلفت نظر "الزبون" الجديد إلى أن صحفه في حاجة إلى بعض المساعدة. أما المساومة في قيمة هذه المساعدة، وبالحرى في ثمن الوسام فمتروكة إلى ريبودو أو دوبراي الذي يبدأ بأن يطلب مائتي ألف فرنكا ثم ينزل إلى مائة وخمسين ألفا "نظرًا لصعوبات الوقت الحاضر" ولا ينسى أن يفضي إلى المشتري بأن هذا المبلغ لا يعتبر ثمنًا للنيشان لأن النياشين لا تباع، وإنما هو مساهمة لمساعدة صحف المسيو ويلسن.

وبما أن كشوف المرشحين لفرقة الشرف قد غصت بكثرة الأسماء فسيجتهد صهر رئيس الجمهورية في لفت نظر رئيس الحكومة بصفة خاصة إلى هذا الترشيح الجديد.

ويجئ شاهد من أصحاب الأعمال اسمه كريسبان، ويقرر أنه دفع ليبودو مائة وخمسين ألف فرنكا بعد أن حصل منه على وعد بأن يظهر اسمه في أول قائمة من قوائم المنعم عليهم بنياشين فرقة الشرف، ثم ظهرت الجريدة الرسمية ولم يجد اسمه بين أولئك السعداء فذهب إليه يسأله عن السبب فأجابه ريبودو في أكثر ما يمكن من القحة والسماجة: "لقد اضطررنا في آخر لحظة أن نحل غيرك في مكانك لأنه دفع ثلثمائة ألف فرنكا"

ويكشف التحقيق عن شخص آخر اسمه بيلوك انتهز فرصة عسر مالي كان حضرة الصهر يعانيه فقدم خمسين ألف فرنكا ونال بها وسامًا وفاز بنشر صورته في صدر إحدى صحف ويلسن مذيلة بترجمة مطولة لحياته وببيان مسهب عن مؤهلاته وجداراته والخدمات الكبرى التي أداها للبلاد

أما المدعو لوجران فكان أسعد الجميع حظًا إذ عرض ثلثمائة فرنكا بمثابة اشتراك في الجريدة، ولكن صهر الدولة ابتسم وداعب لحيته الطويلة بأصابعه الرقيقة وقال: "أرجو أن تضيف صفرًا لتنتهي مسألتك" وأضيف الصفر وانتهت المسألة..

بيد أن أنظار الجمهور لم تكن لتقف لترى مبلغ أثر تلك الصدمات الهائلة على نفسه، ولكن بطل الرواية كان يبدو هادئًا رزينًا رابط الجأش ثابت الجنان وإن تكن هموم الثلاثة أشهر الأخيرة قد أحنت هامته وقوست

ظهره وصبغت شعره ولحيته بشيء من البياض، وكان يتلقى الأسئلة فيجيب عليها في لهجة متزنة وبصوت رصين لا تصحبه حركات ولا إشارات سوى حركة أصابعه وهي تداعب لحيته المرسلة، فإذا ما سأله رئيس المحكمة رأيه في العمليات المعزوة إليه، نهض متثاقلا وألقى في أكثر ما يمكن من التؤدة والوقار هذا التصريح المدهش:

"لقد كنت دائمًا أرى أن نياشين فرقة الشرف يجب أن تمنح لذوي الجدارة والاستحقاق، لا لمن يتوسلون إليها بذوى النفوذ والجاه، ولكني كنت ألاحظ أن هذه القاعدة الفاضلة لم تكن متعبة أكثر الأحيان، فكنت أحاول أن اعوض جهد الإمكان ما فوتته السياسة والأغراض على ذوي الأثر الحقيقي في إنهاض بلادي العزيزة، أي على طبقة كبار الصناع والتجار ورجال الأعمال، ولا تنسوا أن فرنسا تعد الآن المعدات للمعرض الدولي الكبير الذي سيقام بباريس في السنة القادمة، وإنه لا يجوز أن يفد علينا صناع العالم وتجاره فيجدوا زملاءهم الفرنسيين محرومين من علامات على رجال لهم أبلغ الأثر في حياتنا القومية، ومن ذلك ترون أنني حاولت أن أكشف ظلمًا وأرفع حيفًا لا أن أخدم مصالحي الشخصية"

وتهبط تلك الأقوال ثقيلة على سمع القضاة والجمهور فيبتسم البعض ويتأفف الآخرون، ولكن أحد النظارة لا يتمالك نفسه فيقف ويصيح: "كنت أحسب هذا الرجل سافلا فقط، فإذا هو سافل وصفيق" ويحتد رئيس المحكمة ويأمر الحراس بطرد هذا المحنق المغيظ، ولكن الرجل

يشير إليه بيده مهدئًا ويقول: "خل عنهم يا حضرة الرئيس فسأخرج بمحض رغبتي لأن نفسي لا تحتمل رؤية هذه الشناعات"

وتتخلل المأساة فصول مضحكة تسري عن الجمهور بعض الكآبة والغم وترسل الابتسامة إلى شفاه القضاة، فيتقدم شاهد اسمه بول فيلير كان قد اخترع آلة حاسبة Comptométre وعرضها على دوبراي الذي رأى فيها اختراعًا عظيمًا يستحق تقدير الحكومة فأوعز إليه أن يدفع خمسة عشر ألف فرنكا لينال بها نيشانًا، وظل يساومه حتى نزل بها إلى ثلاثة آلاف. وهنا تخنق الشاهد العبرات فيقول في لهجة تنم على الأسى الشديد: "لقد ساوموني، ولكني لم أطلب نيشانًا ولم أدفع نقودًا، ولم ينعم علي بشيء، بل كانت نتيجة هذه الصفقة أني خسرت اختراعي إذ قدمت آلتي الحاسبة إلى قصر الإليزيه، ويظهر أنها أعجبت رئيس الجمهورية فاحتفظ بها لنفسه ولم يعدها إلي حتى اليوم"

ولا ينتهي الجمهور من الضحك من هذا المخترع المسكين إلا ليقهقه عندما يقرر الشاهد بيلوك: "إننا لم نتجر بالنياشين لأن النياشين على ما أعلم لا تباع، وانما هي تمنح مقابل مبلغ معين من المال"

ويزداد موقف ويلسن حرجًا عندما يبرز أحد الشهود للمحكمة كتابًا أرسله اليه المدعو بونجرس من سماسرة صهر الدولة، وقد جاء فيه: "إن مركزك في عالم الصناعة والأعمال يؤهلك يا سيدي للانخراط في سلك فرقة الشرف، نعم إن نياشين هذه الفرقة لا تباع ولكنها لا تمنح إلا بعد

توصيات يقوم بها رجل من ذوي النفوذ فيقدمك إلى الحكومة لافتًا نظرها إلى ما أديته للأمة من خدمات، ولا أخالك تجهل أن مثل هذا المسعى يكلف صاحبه جهدًا يستحق عليه مكافأة، ولا فرق في اعتقادي بين هذه المكافأة والأتعاب التي تدفعها لمحاميك حتى ولو خسر قضيتك، أو لطبيبك حتى ولو لم يوفق إلى شفائك. على أننا لا نستحل أتعابنا إلا بعد نجاح مسعانا، وأظن أن سوابقنا في النجاح تحملك على الثقة بنا وتجعلك لا تتردد في دفع المبلغ الزهيد الذي نطلبه والذي لا يتناسب في الحقيقة ومركز وسيطنا العظيم..."

ويتلو النائب العام على المحكمة نماذج من توصيات كتبها السمسار بونجرس إلى المسيو دانيال ويلسن فإذا هو يوصي في واحدة منها بعطار مجهول فيقول:

"إني أقدم إليكم اسم أعظم صانع للروائح العطرية بل أعظم كيميائي في هذه البلاد، وإن فرنسا لتفخر بأمثاله ،وترى من العدل والواجب أن ينعم عليه بنيشان فرقة الشرف من درجة فارس"

وفي توصية أخرى: "لست أعرف في العالم صانع قبعات أجدر بأن يكون فارسًا في فرقة الشرف من المسيو آمور الذي أقدمه لكم بهذا الكتاب، وإن صناعة القبعات التي ظلت محرومة حتى اليوم من تقدير الدولة لممثليها الاأكفاء تناديكم بأن تجعلوا للمسيو آمور حظًا من رعايتكم ومن عطف الحكومة الجمهورية"

وفي كتاب من دوبراي إلى أحد ملتمسي الإنعام: "إن على الحكومة أعباء يجب أن نتعاون على تخفيفها، ونفقات يجب أن نساهم بقسط فيها، على أن هذه المساهمة وذلك التعاون لن يذهبا سدى، بل سوف يتوجان بالإنعام عليك بالنيشان الذي تشتهيه، وإذا كان ألفان من الملتمسين قد سبقوك وقيدت أسماؤهم في السجل، ففي استطاعتنا أن ننقل اسمك إلى مقدمة الكشف بحيث تصبح الثاني أو الثالث فيه ولا تطلع شمس العام الجديد حتى تراك من فرسان فرقة الشرف"

وترافع النائب العام فانهال على دانيال ويلسن بلسانه، وأصلاه وابلا من فصاحته المقنعة فمزق أديم ماضيه وحاضره، وأظهره للقضاء رجلا خرب الذمة قذر اليدين لا يعف من السحت مهما خبث مصدره، ولا يربأ بألقاب الشرف أن يهبط بها من علياء الغرض الذي جعلت من أجله ليلوثها بالوحل والطين، ثم يزين بها صدور رواد المنافع وهواة المظاهر، ولا يتقي الله في شرف نظام حكومي أكرمه ورفع من شأنه وآواه، فعرض هذا النظام لأبشع التهم وأسفل الظنون، بل لم يتق الله في سمعة حميه الشيخ الذي تدهور من مركزه السامي وراح ضحية حسن الظن بهذا الصهر التعس". ثم قال: "أي قيمة بقيت لأوسمة الشرف بعد أن صيرها هذا المنكود سلعة دنسة تدر الربح عليه وعلى وسطائه الذين تخيرهم من أحط الأوساط وأحقر البيئات، وأباح لهم حرمة قصر الدولة يزاولون فيه وإياه تجارة لم يكن ينقصها إلا فرض ضريبة عليها لتكون من التجارات المعترف بها في هذه البلاد! ومن من أبناء هذا الجيل يستطيع أن يعتز بوسام يحمله وقد قر في الأذهان أن هذه الأوسمة بضاعة كغيرها تباع وتشترى؟ ومن من

أبنائنا ينظر إلى رسومنا ويرى على صدورنا نيشانًا ولا يسأل نفسه: هلا اشتراه أبي يوم كانت النياشين تباع في سوق الدلالة بين جدران قصر الإليزيه؟.. أيها القضاة إن شرف الدولة وسمة الحكم الجمهوري وكرامة الديمقراطية والآلاف المؤلفة من الأبرياء الذين يحملون الأوسمة والنياشين عن استحقاق وجدارة، إن كل أولئك يبتهلون إليكم أن لا تأخذكم رحمة بهذا الرجل الذي لم يبق على اعتبار من الاعتبارات السامية حتى صيره كلأ مباحًا برتاده كل ذي مال وكل طماع أثيم.."

ولقد استقبل ويلسن هذا السيل الجارف ساكنًا لا تظهر عليه علامات من علامات الانفعال إلا انقباض فكيه انقباضًا عصبيًا لا يلحظه غير القريبين منه. فلما انتهى النائب العام من مرافعته كان قد أحاط المتهم بشبكة من أدلة الاتهام، هيهات اأن يفلت منها، وأيقن الجمهور أن صهر الدولة قد غرق حتى قمة الرأس في التهم المنسوبة إليه. والحق ان موقف الدفاع عنه لم يكن بالموقف الهين، ولكن الأستاذ لانتيه – أكبر محام جنائي في فرنسا في ذلك الزمن – ألقى مرافعة لا يزال المحامون يستظهرونها حتى اليوم لسمو بلاغتها وسحر عبارتها، فاستطاع أن يزيل كثيرًا من الأثر السيء الذي خلفته مرافعة النيابة في أذهان القضاة والجمهور. ولقد تناول البيئة السياسية الفرنسية فصور الفوضى الأخلاقية السائدة عليها وتداعي التقاليد الصالحة منها واختلال موازين الحكم وانتشار المحسوبية والوساطة فيها، ثم وضع موكله في تلك البيئة الفاسدة المفسدة وأبرزه رجلا ضعيفًا أصابته العدوى فتخلق بأخلاق العصر وسار سيرة أهله ثم قال: "ويلكم أن تحملوا موكلي نصيبه من هذا الوزر العام أن يحمل وحده أوزار عصره بأسره

فظلم لا ترضاه ضمائركم الطاهرة" وسلط المحامي عينيه الواسعتين على القضاة وقال: "من منكم أيها السادة يستطيع أن يضع يده فوق ضميره، ويؤكد أن النياشين في فرنسا لا تمنح إلا لذوي الجدارة والاستحقاق؟ من منكم يستطيع أن يؤكد في الوقت الذي يحرم منها العالم المتواضع في مكتبه، أنها لا تغدق في سعة وسخاء على كبار الناخبين وأرباب الصحف والمشمولين برعاية ذوي النفوذ من أعضاء البرلمان؟"

وتناول لانتيه الضجة التي أثارتها الأحقاد والشهوات حول ويلسن وصهره الكبير وناشد المحكمة أن لا يكون لهذه الضجة أثر في تكوين عقيدتهم وقال : "إن ذلك التطاحن الحزبي الممقوت يجب أن ينتهي أو يرتد عند باب هذا الحرم المقدس كما تنتهي الموجة أو ترتد عند الشاطئ الصخري المنيع. إن الصحافة تهددكم ولا تتورع أن تكتب بالخط العريض قائلة: "ليحذر القضاة"، ولكنه تهديد وقح أجوف لن يجد سبيله إلى شجاعتكم ولا أثره إلى ضمائركم. ولعمري إذا جاز لكم أن تفكروا في الظروف المحيطة بهذه القضية لوجب أن تفكروا في ذلك الشيخ الجليل الذي طالما مثل فرنسا خير تمثيل وطالما كرمه ملوك أوربا خير تكريم. فكروا في هذا الشيخ الذي طردته من قصر الرياسة هذه القضية وما لابسها من ثورة النفوس وانطلاق الحزازات من الصدور، فكروا فيه فهو ينتظر براءته وبراءة ابنته وبراءة حفيديه من الكلمة التي ستنطقون بها الآن"

وأصدرت المحكمة حكمها في الثاني من شهر مارس سنة ١٨٨٨ فإذا هو يقضي بسجن ويلسن لمدة سنتين مع حرمانه من حقوقه السياسية

لمدة خمس سنين، وبالسجن لمدد مختلفة على باقي المتهمين، بيد أن صهر الدولة لم يكن ليرتاح إلى هذه النتيجة فاستأنف الحكم راجيًا أن يكون أسعد حظًا أمام القضاء العالي الذي لا تطرح المسألة أمامه إلا من ناحيتها القانونية، ولشد ما كانت دهشة الرأي العالمي، بل لشد ما كان سخطه عندما أصدر هذا القضاء العالي حكمه ببراءة دانيال ويلسن قائلا: "إن التهم المعزوة إليه لا تقع تحت طائلة القانون"..

ولقد هاجت الصحافة وهاج الرأي العام وأخذا هذا الحكم بأقسى النقد وأمر التشنيع وعادت الأغاني والأناشيد تتناول صهر الدولة ومحاباة القضاء بمقطوعات فكهة تنشد في المقاهي والمساهر والطرقات. ولم يخفف عن الناس وقع تلك البراءة إلا علمهم أن الرجل قد ضاع في فضيحته إلى غير رجعة وأن حياته السياسية قد انتهت وأنه سيظل مغمورًا في الظلام الموحش حتى يموت، ولكن دانيال ويلسون كان كان أصفق من أن يداري فضيحته بالانزواء عن العالم ولو إلى حين، فظل متربعًا فوق مقعده في مجلس النواب، حتى اذا انتهت مدة نيابته كان الناخبون قد تناسوا كل شئ فأعادوا انتخابه نائبًا عن الأمة بأكثرية تقرب من الإجماع، ومن يدري؟! فبالفعل أولئك الناخبون لم يريدوا أن يفرطوا في هذا النائب المنيع الذي قصرت عنه يد العدالة والقانون؟!

الفهرس

بيان.. ٥
صراع بين شعب وملكه ٧
المركيزة ده برانفيليييه ٣٤
الملك لويس الثالث عشر ٥١
الكاردينال ريشيليو ٧٣
فضيحة السحر والسموم......................... ٩٧
مأساة عقد الملكة ١١٧
الرجل ذو القناع الحديدي ١٤١
الحياة في سجن الباستيل ١٥٩
الفتى الكورسيكي ١٧٥
مؤامرة لقتل بونابرت ١٩٤
مقتل دوق أنجان.................................. ٢١١
دولة تتآمر على عفاف امرأة ٢٣١
طلاق الإمبراطورة جوزفين ٢٤٩
نابليون ينتحر..................................... ٢٦٦
من المنفى إلى العرش............................ ٢٨٦
ومن العرش إلى المنفى........................... ٣٠٨
النسر في القفص ٣٢٦

جريمة الماريشال ناي ٣٤٤
جريمة وفاء.................................. ٣٦٣
الملكة أورتانس............................... ٣٨٠
فضيحة البرلمان الفرنساوي..................... ٤٠٠
نهاية الإمبراطورة أوجيني...................... ٤١٠
فضيحة الاتجار بالنياشين ٤٢٧